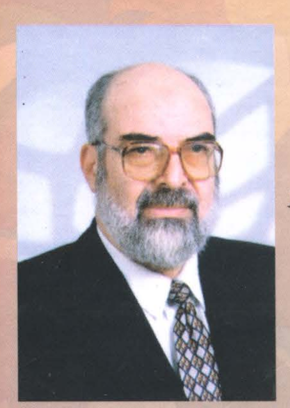


الخلافة الإسلامية
حقيقتها وأصولها الاعتقادية
وحتمية عودتها
تأليف الدكتور / فاروق أحمد الدسوقى
الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية
للدراسات الإسلامية





المؤلف

دكتور فاروق أحمد حسن الدسوقى

مواليد الإسكندرية ١٩٣٨

ماچيستير في الفلسفة الإسلامية من جامعة الإسكندرية بتقدير ممتاز

مع التوصية بالطبع و تبادل الرسائل.

دكتوراه فى العلوم الإسلامية من كلية دار العلوم قسم الفلسفة

الإسلامية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.

أستاذ العقيدة بجامعتى الملك سعود و أم القرى سابقاً.

الكتاب

أستخلف الله تعالى الإنسان فى الأرض ليبتليه بما استخلفه فيه فيصبح بالخلافة الإبتلائية فريقين : خلفاء الرحمن عز وجل وخلفاء الشيطان لعنه الله . و الصراع لايخمد بين الفريقين منذ الجيل الأول إلى نهاية الدنيا ، و الفريق الأول يعمر الأرض بالإيمان و بالخير و بالبر و الإحسان و الآخر يملأ الأرض بالفساد ظلماً و ظلاماً وشرا و فاحشة. فخلافة الله هى صبغة الحضارة الإسلامية و مقوم الحياة الإجتماعية و أساس السعادة النفسية و السلام الإجتماعى و العالمى . و عكس ذلك تماماً خلافة الشيطان التى ظهر فريقها وعلا فى الأرض بالإفساد و صار له من الكيد ما تزول منه الجبال . بيد أن إنتصار خلفاء الرحمن أمر حتمي بإذن الله تعالى الذى سيبطل كيدهم و يدمرهم بتدبيرهم و قريباً تعلن عودة الخلافة الإسلامية كما نبأ بذلك خليفة الله تعالى الأول بين بنى البشر المصطفى محمد النبى الخاتم صلى الله عليه و سلم.

عودة الخلافة الراشدة
(١)

الخلافة الإسلامية

أصولها الاعتقادية، وحقيقتها، وعودتها الحتمية

دكتــــور
فاروق أحمد الدسوقى
حائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م

رقم الإيداع ١٣٦٧٣ / ٩٧

الترقيم الدولى I.S.B.N

977 - 19 - 4758 - 3

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى كل من يتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد،

فقد إعتاد المصنِّفُون فى علم التوحيد علي قصر مواضيع هذا العلم علي ما يخص جناب الألوهية من غير التطرق إلى مواضيع تخص الإنسان، بالرغم من أن مبادئ التوحيد تستوجب الإعتقاد في التفسير القرآني للإنسانية، بحيث يكون مخالفاً لمبادئ التوحيد مَنْ يعتقد بخلاف هذا التفسير، ليس هذا فحَسْب، بل قدْ يقع هذا المخالف في الشرك الأكبر الصريح، وذلك لأن التوحيد هو معرفة الله عز وجل والعلم به، بحسب ما أعلمنا سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله المثلى.

وحيث أنَّ الذي يعرف ويعلم هو الذات الإنسانية ، فإنه يكون من جوهر التوحيد الإسلامي معرفة التفسيرِ القرآني لهذه الذات، إذ يؤدى فساد عقيدة المرء في الإنسانية إلى فَساد عقيدته فى الألوهية بالضرورة. كما أن فساد عقيدته في الألوهية يُؤَدّى بالضرورة إلى فَساد تفسير الإنسانية بل وفَساد في تفسير المخلوقات بعامة. وكما يلزم التوحيد الإسلامى بأن تكون عقيدة الموحد فى الألوهية نابعة من الكتاب والسنة، فإنه يلزم أن تكون عقيدة الموحد في الإنسانية نابعة منهما أيضاً.

إن مفهوم الألوهية ومفهوم الإنسانية متناسقان ومترابطان ومتوافقان فى عقيدة التوحيد الإسلامية بحيث يؤدى الإنحراف في أحدهما إلى انحراف فى نفس اللحظة في المفهوم الآخر بالضرورة.

والدليل على هذا أنَّ كُفر إبليس ليس بسبب فساد عقيدته فى الألوهية إبتداء، وإنما كان بسبب فساد عقيدته فى الإنسانية الذى لزم عنه فساد عقيدته فى الألوهية، لأنه عندما أبى أن يكون مع الساجدين لآدم عليه السلام كان هذا رفضا منه لحقيقة الإنسانية المكرمة وهذا إنحراف وفساد وكفر بحقيقة الإنسانية كما أرادها الله تعالى أدى به إلى الكفر بالله عزل وجل قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا أبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ «البقرة» أبى واستكبر أن يسجد للإنسان أولا رافضا لحقيقته المكرمة عليه فكان من الكافرين بالله عز وجل ثانيا، وهذا هو ما نود التأكيد عليه.

فإذا إعتقد أحد من بنى آدم اعتقاداً فاسداً في الإنسانية أدى به هذا على الفور إلى فساد فى عقيدته في الألوهية.

ألا ترى أن الذين قالوا عن الذين عبدوهم من دون الله ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ لم ينكروا الألوهية أو الربوبية أو أى خاصية أو صفة أو نعمة لله عز وجل، لكنهم لما استصغروا ذواتهم الآدمية من أن تكون أهلا للاتصال بخالقها عز وجل مباشرة وبدون وسيط أو شفيع فسدت عقيدتهم في الإنسانية، فأدى هذا في نفس اللحظة إلى فساد عقيدتهم فى الألوهية إذ جوزوا على الله تعالى شفعاء بدون إذنه سبحانه.

إن حقيقة الإنسانية بخاصة وحقائق المخلوقين بعامة هى من الحقائق الرئيسية للتوحيد الإسلامى واستخلاف الإنسان فى الأرض هي الحقيقة الإعتقادية القرآنية الجامعة لهذا كله، والمعبرة عن الذات الإنسانية الموحدة فى علاقتها بخالقها عز وجل من ناحية وعلاقتها بالمخلوقات فى الأرض من ناحية أخرى.

إنها الحقيقة المعبرة عن الذات الإنسانية مُوَحِدَة ومشركة في تغيرها بين أحسن تقويم وأسفل سافلين من ناحية وفى تغيرها الحضارى بين التقدم العلمى والتخلف في هذا الميدان من ناحية أخرى. إن هذ االكتاب يتناول حقيقة استخلاف الله عز وجل الإنسان في الأرض، وهى حقيقة ربانية من فعل الله تعالى ومن قدره ومشيئته ويتناول في نفس الوقت حقيقة خلافة الإنسان الله تعالى فى الأرض باعتبارها حقيقة إنسانية ، أى باعتبارها الجانب الإنسانى من التوحيد الإسلامى.

وتعتبر هذه الحقيقة في جانبها الإنسانى من أخطر حقائق التوحيد لأنها الأساس الاعتقادى الأول للحضارة الإسلامية والأنظمة الاجتماعية: السياسية والخلقية والاجتماعية والأقتصادية والقضائية ، ومن ثم إذا حدث في هذه الحقيقة انحراف فكرى أو جهلها المسلمون أو نسوها أو تناسوها فإنهم يفقدون أساس البناء الإجتماعى الإسلامى وأساس الحضارة الإسلامية.ولقد ترك شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله تعالى سطوراً أو صفحاتٍ في بعض كتبه ينكر فيها جواز القول بأن المؤمن خليفة الله في الأرض،بل وذهب إلي الحد الذي رمى فيه من يقول بهذا بالشرك. ونصوصه فى هذا الموضوع غامضة ومضطربة كما سيقرأها القارئ فى ثنايا الكتاب، وهذا يدل على عدم وضوح الفكرة فى رأسه، وحيث أن الاعتقاد بأن الإنسان خليفة الله فى الأرض هو أساس الحضارة والبناء الاجتماعى الإسلاميين ،فإن نفى هذا المعتقد هو نفى لهذا الأساس، وقد وجدت إنكار القول بأن الله تعالى خلق الإنسان ليكون خليفة له فى الأرض متداولا بين الطلبة وبخاصة طلبة الدراسات العليا في جامعة أم القرى بناء علي أقوال شيخ الإسلام رحمه الله .

وحيث أن العلاج يبدأ باصلاح الاعتقاد ولا يقاد الناس إلا من عقولهم لذا وجب بيان وجوب حياة الأمة تحت راية الخلافة ببيان أن الخلافة لله في الأرض هى الجانب الإنسانى من التوحيد الإسلامي.

والأمة آثمة حتى تستعيد خلافتها.

والله تعالى من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل

الاسكندرية في

٣٠ رجب ١٤١٨

٣٠ نوفمبر ١٩٩٧

دكتور

فاروق أحمد الدسوقى

الفصل الأول

آيات الخلافة وموضعها في السياق القرآني

١ - آيات الخلافة والمواضيم الرئيسية التى تتناولها .

٢ - السياق العام الذى وردت فيه آيات الخلافة .



١ - آيات الخلافة والمواضيع الرئيسية التى تتناولها:

أ - آيات الإستخلاف:

قال تعالى:

﴿وإذ قال ربك للملائكة: إنى جاعل فى الأرض خليفة.

قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟؛

قال: إنى أعلم ما لا تعلمون.

وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين.؟

قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون؟!

وإذا قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين.

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه .

وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين.

فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم.

قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيه خالدون﴾.[1]

---

(١) البقرة [٣٠:٣٩].

(ب) الموضوعات الرئيسية فى آيات الاستخلاف :

يمكن حصر الموضوعات الرئيسية التى تتناولهاالآيات الكريمة السابقة التى تتحدث عن الخلافة فى المسائل والقضايا الآتية :

١ - معنى الخلافة .

٢ - من هو الخليفة .

٣ - من هو المستخلَف (بفتح اللام).

٤ - ماهى العلاقة بين المستخلِف وهو الله عز وجل وبين الخليفة .

٥ - ماهو مجال الخلافة مكاناً وزماناً .

٦ - ماعلاقة الملائكة وموقفهم من الخليفة .

٧ - ما الصلة بين علم الأسماء والخلافة.

٨ - ما موقف إبليس من الخليفة .

٩ - ما الصلة بين الهدى الربانى والخلافة .

١٠- ما الصلة بين الجنة التى أسكن الله تعالى فيها آدم وزوجه وبين الخلافة .

١١- ما مناسبة قوله تعالى : (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التي أنعمتُ عليكم . . .الآية) ومابعدها من آيات خاصة بتاريخ وأحوال بنى اسرائيل ، مامناسبة هذا كله بالخلافة، إذ وردت بعدها مباشرة .

(جـ) استخلاف الإنسان فى الأرض من أهم الحقائق الرئيسية للعقيدة الإسلامية:

وقد إختلف المفسرون فى أكثر هذه المسائل ولعل الاختلاف الأكبر هو الذى دار حول معنى الخلافة ومن هو الخليفة ومن هو المستخلف .

ولكن مهما يكن من أمر هذه الاختلافات، فإنه مما لا شك فيه هو اننا عندما

نكون بإزاء هذه الآيـات الكريمة ، فإننا لا نكـون بإزاء معانى أو مسائل فـرعية من مسائـل العقيدة الإسـلامية تخص حـقيقة الإنســان فى القرآن الكـريم فقط ، لأن الآيات تتحدث عن حدث كونى عظيم ، يدل على أهميته وعظمته أن الله عز وجل هو الذى تولى إنباء الملائكة خبر الإستخلاف بنفسه ، وهذا لا يكون إلا لأمر جلل وذى شأن عظيم وخطير بين المخلوقات .

وإذا علمنا ـ بادى ذى بدء ـ أن المقصود بالخليفة هو آدم أو الإنسان ، فإن آيات الخلافة تصبح بذلـك من أهم الآيات التى تتناول حقيقة الإنسـان وغايته الوجودية وهدفـه الأقصى فـى الحيـاة ، وتلك بـلا شك من أهـم وأخطر قـضايـا العقـيدة الإسلامـيـة وذلك لأن الخلافة هى التـعبير الصحـيح والدقيق والأمثـل ـ أو هكذا يجب أن تـكون ـ عن العلاقـة بين الله عز وجل المستـخلف « بكسـر اللام » وبين الإنسان المستخلف « بفتح اللام » .

ومع إتفاق الجميع على أهمية تحديد الغايـة العليا للحياة الإنسانية فى الإسلام ، التى تعبر عنها الخلافة ، كما وردت فى هذه الآيات ، وفى سائر نصوص الوحى ، إلا أن الخلاف قـائم بين العـلماء والمفـسرين قديمـا وحديثا ، حـول دلالات هذه الآيات بعامة ، وحول مفهوم الخلافة وتحديد المستخلف بخاصة .

وهذا الخلاف ـ بـلا ريب ـ له تأثيره وخـطره المباشر عـلى موقف المسلـمين من الصراع التـاريخى مع أعدائهم ، لأن ضيـاع الغاية القصوى وعـدم وضوح الهدف الأعلى لدى المسلمين يسبب تشتيتا لجهودهم ، بل ويبث الفرقة بين صفوفهم .

لذا يعـتبر هذا المبحـث وبالذات فى هذه الآونة مـن حياة الأمة الإسلاميـة التى صارت فيها مغلوبة على أمرها من أعدائها بعد سقوط الخلافة الإسلامية بحوالى ثلاثة أربـاع القرن من الزمـان وهم لايزالون متـخبطين فى فـرقتهم ونزاعـهم ولم يتفقوا بعد على هدف واحد جامع يسعون إليه .

وحيث أن الصراع القـائم بين المسلمين وبين الأمم المعادية لـهم هو صراع دينى

حضارى فى المقام الأول ، فإن هذا يستوجب من مفكرى الإسلام وعلمائه بيان الأصول الإعتقادية للحضارة الإسلامية ، هذه الأصول التى بدون إبرازها ومعرفتها يصعب على المسلمين صد هجوم الحضارة الغربية المعاصرة التى تقوم على أصول مادية وأسس علمانية ومخططات صهيونية خبيثة وصليبية حاقدة .

إن القول بأن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هى الأصول الإيمانية للحضارة الإسلامية بالإضافة إلى شعب الإيمان الأخرى هو قول صحيح وقويم ، إلا أنه يبقى بعد هذا بيان الحلقة الوسطى التى تربط بين هذه الأصول الإيمانية الإعتقادية وبين العمل الحضارى ، لأن الحضارة لا تعدو أن تكون أفعالا إنسانية، ومن ثم يجب إبراز وبيان وإعلان الحلقة الوسطى التى تربط بين هذه الأصول الإيمانية أو مبادىء التوحيد وبين الأفعال الإنسانية كأفعال ترمى جميعا لهدف أعلى واحد وتنتظم كلها فى سلك واحد لتحقيق غاية قصوى واحدة تسعى إليها الأمة الإسلامية جميعها بكل طاقاتها وقواها وأعمالها .

ومن ثم تدخل هذه الحلقة الوسطى كمرتكز لجميع النشاطات البشرية والإنسانية للأمة الإسلامية سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو تربوية أو عسكرية أو علمية أو أدبية أو فنية .

فإذا علمنا أن هذه الحلقة الجامعة بين العقيدة والعلم سلوكا ونظما وتاريخا هى حقيقة الإستخلاف أدركنا على الفور أهمية هذه الحقيقة الإنسانية التى تولى الله عز وجل إنباء الملائكة بها بنفسه .

إن الخلافة هى التعبير القرآنى عن العلاقة بين الله عز وجل وبين الإنسان.

وهى كذلك الرابط والجامع بين الدنيا والآخرة كمرحلتين للوجود الإنسانى .

وهى - باعتبار أنها الهدف الأعلى والغاية القصوى للأمة الإسلامية - السبيل الوحيد لجمع كلمة هذه الأمة وعودتها تحت راية الخلافة الإسلامية الجامعة .

وبناء على ما لهذا الموضوع من أهمية ، وحَسْمًا لما أثيرحوله من خلافات ،

فبعون الله تعالى وتـوفيقه ، ستناول هذه الآيات تفصيلا بـإذن الله تعالى للوصول إلى إجابات واضحة حاسمة للمسائل والقضايا المذكورة آنفا .

(٢) السياق العام الذى وردت فيه آيات الخلافة :

بعد أن ذكر الله عز وجل فـى أول سورة البقرة أن القرآن الكريم هدى لـلمتقين وبيَّن خصائص المتقـين ، تكلم سبحانه عن الكافرين والمنافقـين وعلاماتهم ومصير كل منهم .

ثم دعا الناس جميعا إلى عبادة الله وحده ، مذكـرا ومفصلا نعمه العظمى على الإنسانيـة قاطبة ، إذ جعل لهم الأرض فـراشا ، والسماء بناء ، وأنزل مـن السماء الماء الذي ينبت به لهم مالا يستغنون عنه لاستمرار حياتهم من أرزاق ، وأثبت أنهم جميعاً يعلمون أنه ليس لله ند .

بعد ذلك دلَّـلَ على صدق رسوله ﷺ بمعـجزة القرآن وتحداهم أن يـأتوا بسورة من مثله ؛ وبين لهـم أن عجزهم عن فعل هذا المطلب دليـل على أن كل ماجاء به رسول الله ﷺ من قرآن وسنة حق ومن أخطر ماجاء من هذا الحق هو نذيره بالنار للكافرين وتبشيره بالجنة للمؤمنين .

ثم ذكر منهج القرآن الكريم فى ضرب الأمثـال موضحا أن الله تعالى لا يستحيي أن يضرب مثـلا ما ابتداء بأضعـف مخلوق وهو البـعوض إلى أكبر مخـلوق ابتلاء للناس « وإختباراً منه لهم ليميز أهل الإيمان والتصديق من أهل الضلال والكفر»[1] ومن ثم وضح بعد ذلك موقف المؤمنين المصدق لكل ماجاء من عند ربهم ، بما فى ذلك ضرب الأمثـال بمثل هذه الكائنـات الضعيفة ، وكـفر الكافرين وضلالـهم بها نتيجة فسقهم وإفسادهم فى الأرض .

بعد ذلك جـاء هذا السؤال الاستنكارى عـن كفر الناس بالله تعالـى وهم الذين كاناو أمواتـا ثم أحياهم ثم يميتـهم ثم يحييهـم ثم إليه يرجعون ، فأجـمل مراحل

---

(١) الطبرى ـ التفسير ـ جـ ١ ـ ص ١٧٨ .

وجودهم فى معرض المن عليهم والتذكير بنعمته العظمى على الإنسان إذ أنه تعالى أوجده بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً وذكر مراحل الناس الوجودية من خلال موتتين وحياتين ثم الرجوع إليه للحساب والجزاء .

ثم ذكر النعمة الكبرى الثانية التى منَّ الله تعالى بها على الإنسان، وتلك نعمة خصه به ، وهى أنه خلق له الأرض وما فيها جميعاً ثم سوَّى فوقه السماوات السبع.

ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[1].

فجاء ذكر نبأ إستخلاف الإنسان فى الأرض نعمة كبرى للإنسانية لاحقة لما سبقها من النعم .

ثم قال تعالى بعد ذلك (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . . .)[2] وهذه نعمة أخرى لاحقه للخلافة ومؤكده لهاخص الله تعالى بها الإنسان كما سنرى.

والصلة واضحة جلية بين كل ماسبق من آيات ابتداء من أول سورة البقرة حتى آيات الخلافة ، ويمكن إيجازها فيما يلى :

لقد حدثنا الله عز وجل عن علاقة الإنسان بغيره فى السياق العام لآيات سورة البقرة إبتداء من الآية الأولى حتى آية الخلافة من خلال :

أولا : علاقة الإنسان بالقرآن الكريم حيث ينقسم الناس حياله إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين ومن خلال ذلك موقف كل فريق من منهج القرآن الكريم فى ضرب الأمثال.

ثانيا : علاقة الإنسان بالزمان أو بالمراحل الوجودية خلال موتتين وحياتين .

---

(١) البقرة : ٢٩.

(٢) البقرة : ٣٤.

ثالثا : علاقة الإنسان بالأرض « المكان » وما فيها حيث بين أنه خلقها وما فيها للإنسان.

رابعا: علاقة الإنسان بربه من ناحية وعلاقته بالأرض ومافيها من ناحية أخرى من خلال حقيقة الخلافة .

خامسا : علاقة الإنسان بالملائكة كأولياء له فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، بدليل سجودهم له .

سادسا : علاقة الإنسان بالشيطان المتمثلة فى العداء بعد أن رفض تفضيل آدم عليه بالخلافة إذ أبى السجود له .

فالسياق العام للآيات يوضح خلق الإنسان وإيجاده خلال الحياة الدنيا كَدْحًا لملاقاة الله تعالى فى الآخرة حيث الحساب والجزاء ، لأن الحكمة من خلقة هى ابتلاؤه، ومن ثم أنزل إليه الهدى وهو الكتاب الذى ينقسم حياله الناس إلى مؤمنين من جهة وكافرين ومنافقين من جهة أخرى .

ولا شك أن السياق يمهد لحقيقة الخلافة ويقرب لها ويشير إليها عندما يذكر الله عز وجل أنه خلق الأرض وما فيها من نبات وأحياء وأنهار وبحار للإنسان .

كما أن فى بيان المراحل الوجودية للإنسان تمهيداً لحقيقة دوره وهدفه فى الحياة الدنيا وكذلك للحياة الآخرة .

أما الموتة التى بين الحياتين فلها حكمة أيضا حيث هى مرحلة إنتقال بعد الحياة الدنيا التى هى للإبتلاء، وقبل اعلان نتائج الإبتلاء بالبعث والحشر، ثم الجزاء بالجنة أو النار .

فالسياق يتعرض لحقائق إعتقادية رئيسية تخص الإنسان وعلاقته بالخالق جل وعلا ، فهو يتناول الحكمة العامة من خلق الإنسان والهدف من وجوده الذى

يجب عليه أن يسعى لتحقيقة فى الحياة الدنيا ليفوز به فى الآخرة بناء على نجاحه فى تحقيقه في الدنيا .

ونقصد بالهدف الوجودى الغاية القصوى للإنسان كنوع من الخلق ـ أو الذى يجب على المؤمنين أن يجعلوه هدفهم الأعلى وغايتهم القصوى ومبتغاهم الأسمى الذى تحدده لهم حقيقة الخلافة .

وقد ربط الطبرى ـ رحمه الله تعالى ، وتبعه فى ذلك كثير من المفسرين من بعده ـ بين نعمة الخلافة وبين النعم السابقة عليها فى السياق كما وضحنا .

وسنعلم بعد ذلك الصلة بين حقيقة الخلافة وبين نعمة علم الأسماء ونعمة إسجاد الملائكة للإنسان ، ثم إسكان آدم وزوجه الجنة ، ثم مناسبة ذكر نعمة الله تعالى على بنى إسرائيل بتفضيلهم على العالمين ، وذلك من خلال تفسير آيات الخلافة ومابعدها تفصيلا ، كما ورد عند المفسرين بمناهجهم المتباينة .

الفصل الثانى

إنبـاء الله تعالى ملائكته بإستخلاف الإنسان فى الأرض وتعجبهم من ذلك

٣ - رب العالمين يُعْلِم الملائكة بنبأ إستخلاف الإنسان فى الأرض بنفسه ومغزاه ؟

٤ - خلافة الإنسان فى الأرض قدر حتمى بمقتضى الجعل الإلهى .

٥ - تعجب الملائكة من إستخلاف المفسد أو إفساد الخليفة وسؤالهم عن ذلك ؟

٦ - علم الأسماء وعلاقته بإستخلاف الإنسان فى الأرض .



(٣) رب العالمين يعلن للملائكة نبأ إستخلاف الإنسان بنفسه ومغزى ذلك ؟

قال تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة ....﴾

(أ) (وإذ قال .....)

ذكر الطبرى فى إعراب لفظ « إذ » أنها حرف عطف ، حيث تعطف مابعدها على ماذكره الله تعالى من نعم سابقة على الإنسان ، ومن ثم يكون معنى الآية هو (اذكروا نعمتى عليكم إذ خلقتكم ولم تكونوا شيئا * وخلقت لكم مافى الأرض جميعا وسويت لكم مافى السماء) ثم عطف بقوله : ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾[١] فالمعنى « إذكروا أن هذه من نعمى وهذه التى قلت فيها للملائكة»[٢].

أما ابن الجوزى فينسب للزجاج قوله « إذ معناها الوقت ، فكأنه قال : ابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة »[٣].

ويؤيد القرطبى هذا المعنى فيقول : « إذ وإذا ظرفا توقيت فإذ للماضى وإذا للمستقبل ، فالتقدير وإبتدأ خلقكم إذ قال فكان هذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام »[٤].

بيد أن قولا ثالثا فى معنى «إذ» نجده عند الخازن فى قوله ﴿وإذ قال ربك﴾

أى واذكر يامحمد إذ قال ربك وكل ماورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله [٥].

أما صاحب البحر المحيط فيقرر أن « الذى تقتضيه العربية نصبه بقوله : قالوا

---

(١) الطبرى ـ التفسير ـ جـ ١ ـ ص ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق ـ ص ١٩٩ .

(٣) ابن الجوزى ـ زاد المسير ـ ط١ ص ٥٩ .

(٤) القرطبى ـ الجامع ـ ط١ ص ٢٦٢ .

(٥) تفسير الخازن ـ جـ ١ ص ٤٤ .

أتجعل ؟ أى وقت قول الله للملائكة ﴿إنى جاعل فى الأرض﴾ قالوا أتجعل ؟كما تقول فى الكلام إذ جئتنى أكرمتك »[1].

والذى أرجحه من هذه الأقوال ـ والله تعالى أعلم ـ هو قول شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى رحمه الله تعالى ، لأن إذ ـ كحرف عطف ـ تجعل معانى الآيات متصلة والسياق واحدا ، كما أنها تفيد اعتبار الخلافة نعمة عظمى من نعم الله تعالى على الإنسان التى خصه بها دون غيره من خلقه .

وهذا يدخل فى معنى الخلافة ويساعد فى تحديد مفهومها كما سنرى بعد .

ومع هذا فيمكن للمتأمل فيما سبق من أقوال حول « إذ » أن يدرك أنه لا تعارض ولا تضاد بين المعانى التى قيلت فى تفسيرها .

بل ثمة وجه ، أو أكثر من وجه ، للجمع بينها ، كأن نقول إن المعنى المقدر هو: واذكر يامحمد ابتداء خلقكم بقولى للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة متفضلا ومتكرماً على الناس بنعمة عظمى مضافة إلى النعم الأخرى السابق ذكرها.

لذا نجد الرازى رحمه الله يفهم من هذه الآية هذا المعنى العام فيقول « أعلم أن هذه الآية دالة على كيفية خلق آدم عليه السلام ، وعلى كيفية تعظيم الله تعالى إياه فيكون فى ذلك انعاما عاماً على جميع بنى آدم ، فيكون هذا هو النعمة الثالثة من تلك النعم العامة التى أوردها فى هذا الموضع»[2].

كما جاء فى غاية البيان فى تفسير القرآن قولا يجمع بين الأقوال السابقة مما يثبت أنه ليس بينها تعارض وهذا نصه « هذه الآيات دالة على تعظيم الله تعالى

---

(١) أبو حيان الأندلسى ـ البحر المحيط جـ١ ص ١٣٩ .

(٢) الرازى ـ التفسير جـ١ ص ١٥٩ .

لآدم وهذا التعظيم نعمة ثالثة شاملة أسبغها الله على بنى آدم لأن فيها تشريفا لأبيهم ، يقول الله : إذكر يامحمد لقومك إنى قلت للملائكة حين تعلقت مشيئتى بخلق آدم : إنى جاعل فى الأرض خليفة »[1].

(ب) ﴿..... ربك ......﴾

ناسب ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذا الموضع بالربوبية ، لأن السياق مستمر فى بيان النعم الإلهية العظمى التى أنعمها على الإنسان ، وهذه النعم والعطايا العظيمة هى من أفعاله وربوبيته لكل المخلوقات بعامة ، وللإنسان أى للخليفة بخاصة .

كما ناسب أن يكون الخطاب هنا للرسول ﷺ ، لأن مجال هذه النعمة ، وهى إستخلاف الإنسان ـ كما سنرى بعد ـ إنما تكون أجلى وأوضح تحققا وتمثلا فى حياة الرسل والأنبياء بعامة ، وفى حياة خاتمهم ﷺ بخاصة .فهو خطاب للإنسان فى شخص رسوله الخاتم ﷺ ، أو هو خطاب للرسول ﷺ موجها للإنسان الذى هو أهل للخلافة .

قال أبو حيان الأندلسى فى البحر المحيط : «وإسناد القول إلى الرب فى غاية المناسبة والبيان ، لأنه لما ذكر أنه خلق لهم مافى الأرض ، كان فى ذلك صلاح لأحوالهم ومعايشهم ؛ فناسب ذكر الرب .

وإضافة إلى رسول الله ﷺ تنبيه إلى شرفه وإختصاصه بخطابه ، وهو لاستماع مايذكر بعد ذلك من غريب إفتتاح هذا الجنس الإنسانى وإبتداء أمره ومآله . . . . وفى ذلك أيضا إشارة لطيفة إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المميز بها إذ هو فى الحقيقة أعظم خلفائه »[2].

---

(١) غاية البيان فى تفسير القرآن ـ مجلد ١ ص ٣٥.

(٢) أبو حيان الأندلسى ـ تفيسر البحر المحيط جـ١ ص ١٣٩.

« الملائكة من الالوك ، وهى الرسالة ومعنى ملأك صاحب رسالة»[1]. وهم مخلوقات نورانية خلقهم الله تعالى من نور العرش وهم لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فهم جنود الرحمن وسفرته ورسله أوكل إليهم مهاما يقومون بها حسب ما كلفهم عز وجل . بيد أن المفسرين إختلفوا حول المقصود بالملائكة فى الآية : هل هم جميع الملائكة أو هم جماعة منهم لهم شأن واختصاص بالأرض دون غيرهم ؟!.

فذكر إبن الجوزى فى هذه المسألة قولين :

الأول : أنهم جيمع الملائكة ، قاله السدى عن أشياخه .

والثانى : أنهم الذين كانوا مع إبليس حين أهبط إلى الأرض ، ذكره أبو صالح عن إبن عباس ونقل أنه كان فى الأرض قبل آدم خلق فأفسدُوا فبعث الله إبليس فى جماعة من الملائكة فاهلكوهم »[2].

والذى أرجحه أنهم جميع الملائكة لعدم وجود مايخصص جماعة منهم فى السياق.

ويتوقف المفسرون هنا وقفة سائلين عن الحكمة التى من أجلها أخبر الله تعالى بنفسه عز وجل الملائكة عن حقيقة الإستخلاف . ونورد أقوال المفسرين فيها لما لهذا الموضوع من صلة وثيقة بمفهوم الخلافة ، فقد ذكر ابن الجوزى ستة أقوال فى الإجابة على هذا السؤال :

الأول: إن الله تعالى علم فى نفس إبليس كبرا فأحب أن يطلع الملائكة عليه. . رواه الضحاك عن ابن عباس والسدى عن أشياخه .

والثانى : أنه اراد أن يبلو طاعة الملائكة ، قاله الحسن .

---

(١) ابن الجوزى ـ زاد المسير ـ جـ١ ص ٥٩ طبعة المكتب الإسلامى ـ بيروت .

(٢) نفس المرجع جـ ١ ص ٥٩ ، ص ٦٠ .

والثالث : أنه لما خلق النار ، خافت الملائكة فقالوا : ربنا لمن خلقت هذه ؟ قال : لمن عصانى ، فخافوا وجود المعصية منهم وهم لا يعلمون بوجود خلق سواهم ، فقال لهم : ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ قاله إبن زيد .

والرابع : أنه أراد إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه فأخبرهم حتى قالوا : ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ..**﴾ فأجابهم : ﴿**إنى أعلم ما لا تعلمون**﴾ .

والخامس : أنه أراد تعظيم آدم بذكره بالخلافة قبل وجوده ليكونوا معظمين له إنِ أوجده .

والسادس : أنه أراد إعلامهم بأنه يسكن الأرض وإن كان إبتداء خلقه فى السماء [(١)].

والذى أرجحه من هذه الأقوال ـ والله تعالى أعلم ـ ماجاء فى القولين الخامس والسادس وذلك للأسباب الآتية :

أولا : لأن القول الأول الذى يجعل الحكمة من إخبار الله عز وجل الملائكة عن حقيقة إستخلاف الإنسان هى إطلاع الملائكة على مافي نفس إبليس من كبر وفسق ، يجعل خلق الإنسان وجعله خليفته فى الأرض وإخبار الله عز وجل الملائكة عن ذلك بنفسه متعلقاً بأمر يخص إبليس ، وهذا غير صحيح ، إذ أن الله تعالى خلق الإنسان لأنه شاء أن يخلق كائناً مستقلاً له حكمة تخصه من خلقه ، وهى حكمة الإبتلاء فى الأرض ، ومن ثم جعله خليفته فيها ليتم تحقيق هذه الحكمة .

ومعلوم أن خلق نوع جديد من المخلوقات حدث كونى يستحق الإعلان عنه كنبأ وجودى هام ، وليست القضية المثارة عن مجرد إنباء الملائكة بهذا الحدث ، وإنما عن إنباء الله عز وجل الملائكة بنفسه عنه ، وهو قادر عن إعلامهم به بغير أن يفعل ذلك بنفسه عز وجل .

---

(١) ابن الجوزى ـ زاد المسير ـ جـ ١ ض ٦٠.

كما أن مجرد إعلام الملائكة بذلك لم يظهر الكبر فى نفس إبليس ، وإنما الذى أظهره هو أمر الله تعالى الملائكة - ومعهم إبليس - بالسجود لآدم بعد ذلك ، كما سنرى .

ثانيا : أما القول بأنه أراد أن يبلو طاعة الملائكة فهو يتعارض مع ماورد عنهم من وصف الله تعالى لهم بأنهم ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون**﴾[1] لأن الله عز وجل لم يخلقهم للإبتلاء حتى يبلو طاعتهم ، كما أن الإخبار والإعلام فى حد ذاته لا يحقق هذا المراد ، لذلك نستبعد هذا الرأى أيضا .

ثالثا : القول الثالث يجعل الحكمة من إخبار الله الملائكة بجعل خليفة فى الأرض لطمأنتهم وإسكان روعهم الذى حدث عندهم بعد خلق النار ، وهذا أيضا مستبعد لإنه قال لهم أن النار لمن عصاه عز وجل وهم لا يعصونه كما مر بنا .

رابعا : أما القول بأنه أراد إظهار عجزهم عن الإحاطة بعلمه فلا شك أنه قول ضعيف ، إذ لا يُعقل أن الملائكة المكرمين الذين يسبحون بحمد الله ويقدسون له لا يعلمون هذه البديهية الأولى من بدائه التوحيد .

فلم يبق إلا الرأى الخامس والسادس ، وفيهما المعنى المراد والتعليل الصحيح ، إذ أن الإعلان الوجودى عن خلق مخلوق جديد فى الكون ، يمكن أن يتم للملائكة أو لغيرهم بغير إخبار الله عز وجل الملائكة بنفسه ، إلا أن يكون لهذا المخلوق الجديد خصوصية ، وأن يكون إستخلافه حدث كونى عظيم ، وأن يكون للأرض أيضا شأن خاص تنفرد به عن سائر أرجاء الكون المخلوق ، بإعتبارها عالم الخلافة لهذا المخلوق .

وإرتباط خطورة هذا الحدث بالأرض كامن فى طبيعتها المختلفة عن سائر أرجاء العالم المخلوق الذى لا يُعصى الله فيه بينما تتميز الأرض بأنها الجزء الوحيد من الكون الذى يسمح الله تعالى فيه لعبيدة أن يعصوه .

---

(١) التحريم /٦.

ومن ثم تساءلت الملائكة بناء على هذه الحقيقة عن الحكمة من جعل الإنسان فى الأرض ليفسد فيها ويسفك الدماء .

إن النتيجة اللازمة من إخبار الله تعالى الملائكة بنفسه عن خلق الإنسان وجعله خليفة فى الأرض هى أن الخلافة ذات شأن وجودى أو كونى هام ، بالنسبة للإنسان من ناحية ، وبالنسبة لغيره من المخلوقات الأخرى ، وعلى رأسهم الملائكة والجن من ناحية أخرى .

ومما لا ريب فيه أن لهذه النتيجة الهامة إسهام واضح فى بيان حقيقة الاستخلاف ومعناه ويدل على هذه النتيجة ويوكدها الرازى بقوله : « أعلم أن هذه الآية دالة على كيفية خلق آدم عليه السلام وعلى كيفية تعظيم الله تعالى إياه »[١].

ومن ثم فإن حقيقة الإستخلاف تتضمن معنى التكريم والتعظيم للإنسان ، وهذا ما أكده صاحب البحر المحيط بقوله : « ويقال إن الله سبحانه خلق ماخلق ولم يقل فى شىء منها ما قال فى حديث آدم حيث قال : ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[٢] فظاهر هذا الخطاب تنبيه لشرف خلق آدم لأن خلق الجنات ومافيها والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة ، ولم يقل إنى خالق عرشا أو جنة أو ملكا ، وإنما قال ذلك تشريفاً وتخصيصا لآدم[٣] .

وهذا يعنى اننا يجب أن نفهم أن إنفراد الإنسان بالخلافة وتشرفه بها أمر يخصه وحده لا يشاركه فيه غيره .

وهذا يستتبع أن الخلافة جزء رئيسى من طبيعة الإنسان وخاصية هامة فى فطرته لا يمكن تفسير ذاته الفردية ولا طبيعته الاجتماعية بدونها .

---

(١) الرازى ـ التفسير ـ جـ١ ص ١٥٩ .

(٢) أبو حبان ـ البحر المحيط ـ جـ١ ص ١٤١ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١٤١ .

(٤) خلافة الإنسان فى الأرض قدر حتمى بمقتضى الجعل الإلهى:

تفسير قوله تعالى : ﴿.إنى جاعل فى الأرض خليفة...﴾

(أ) ﴿ .... جاعل ...﴾

ذكر أهل التفسير فى معنى « جاعل » قولين هما :

الأول : بمعنى مُصيرٌ .

لدين احسـ بمعنى خالق .

أما المعـنى الأول فقد ذكـره الطبرى وقـال « أىْ مستخـلف فى الأرض خلـيفة ومصير فيها خلقا » [1].

وذكر القرطبى المعنى الثانى [2].

وذكر أبو حيان القولين فى معنى جاعل فقال :

أحدهما : أنه بمعنى الخلق فَيَتَعَدَّى إلى واحد .

والثانى : بمعنى التصـيير فيتعدَّى إلى إثنيْـن، والثانى هو «فى الأرض» أى مصيِّرٌ فى الأرض خليفة[3].

وذكر الزمخشرى والشـوكانى مايوضح لنا قول أبى حيان بـأن جاعل إسم فاعل من جعـل المتعدى إلى مـفعولين ، دخـل على المبتـدأ أو الخبر وهما قـوله :(فى الأرض خليفة) فكانا مفعوليه ومعناه مُصيرٌ [4].

وإختار الألوسى فى روح البيان هذا المعنى أيضا للجعل وأضاف قوله :«إنما قال جاعل وما قال خالق لمعنيين :

---

(١) الطبرى ـ التفسير جـ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) القرطبى ـ الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٢٦٣ .

(٣) أبو حيان ـ البحر المحيط ـ جـ١ ص ١٣٩ .

(٤) الزمخشرى ـ الكشاف جـ١ ص ٦١ .

أحدهما : أن الجاعلية أعم من الخالقية ، فإن الجاعلية هى الخالقية وشىء آخر وهو أن يخلقه موصوفاً بصفة الخلافة ، إذ ليس لكل واحد هذا الإختصاص .

والثانى : أن للجعلية إختصاصا بعالم الأمور وهو للملكوت ، وهو من عالم الخلق [1].

وسواء كانت « جاعل » بمعنى خالق أم بمعنى مُصيرٌ فإنه مما لا شك فيه أن «الجعل » فى اللغة يفيد الجبر وينفى الاختيار .

أى أنه يلزم من هذه الكلمة أن هذا الكائن الذى جعله الله تعالى فى الأرض خليفة سيكون كذلك بمقتضى الخلقة والجبلة .

ومن ثم فمعنى الخلافة جزء من كينونة الإنسان وخلقته وفطرته لا يستطيع منه فكاكاً أو تغييرا ؛ لأنه خليفة بمقتضى الأمر الإلهى الكونى والمشيئة الإلهية النافذة ، ولا دور لارادة الإنسان ولا لإختياره فى هذا الأمر أى فى أن يكون خليفة فى الأرض أو لا يكون .

فالإنسان خليفة شاء أم أبى ، تماما كما أنه بشر شاء أم أبى ، وبهذا ترتقى حقيقة الإستخلاف إلى مستوى الطبيعة البشرية فى الإنسان ، فلا تفسر نفسه وطبيعته إلا بها ، وهذا ماسنراه بإذن الله تعالى وتوفيقه فى مباحث وأجزاء خاصة لاحقة بهذه الموضوعات .

(ب) ﴿ ... فى الأرض ... ﴾

إختلف المفسرون أيضا فى المقصود من قول تعالى : (فى الأرض) التى هى ميدان استخلاف الإنسان على قولين :

الأول : أن المقصود بها مكة المكرمة ، وقد إستند أصحاب هذا القول إلى ماروا ابن سابط مرفوعا إلى النبى ﷺ قال : « دحيت الأرض من مكة »[2]

(١) الألوسى ـ روح المعانى جـ١ ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) الطبرى ـ التفسير ـ جـ١ ص ١٩٩.

وأضاف إلى هذا الطبرى رحمه الله مايؤكد هذا المعنى بالأخبار الواردة عن الأنبياء والرسل الذين هلكت أقوامهم حيث كانوا يلجأون هم ومن نجوْا معهم من الذين آمنوا من أقوامهم إلى مكه ، يعبدون الله تعالى فيها حتى يتوفاهم الله عز وجل[1].

لذلك نجد بعض من قصر الخلافة على الأنبياء والرسل والصالحين قد قصر بالتالى مفهوم الأرض على مكة مستندا على الخبر الوارد عن ابن سابط مما جعل أبا حيان الأندلسى يقول : « وقيل أرض مكة مرفوعا إلى النبى ﷺ فإن صح ذلك لم يعدل عنه »[2].

وقد رجح ابن جرير هذا القول على القول الثانى [3].

القول الثانى : المقصود بالأرض المعمورة كلها وقال به الذين فَسَّروا الخلافة بأنها خلافة الإنسان كنوع للجن كنوع آخر ، أو بخلافة الإنسان لله تعالى .

ذكر ابن جرير الطبرى عن ابن إسحاق قوله : ﴿**فى الأرض خليفة**﴾أى ساكنا وعامرا يسكنها .

ويبدو أن أبا حيان الأندلسى لا يرى صحة الحديث الوارد عن إبن سابط ، لأنه ـ بعد قوله إن صح هذا الخبر لا يعدل عنه عاد ورجح القول الثانى وعدل عنه فقال « وقوله فى الأرض ظاهره الأرض كلها وهو قول الجمهور»[4].

كما قال الشوكانى «والأرض هنا هى هذه الغبراء ولا يختص بمكان دون مكان»[5].

---

(١) الطبرى ـ التفسير جـ١ ص ١٩٩ .

(٢) أبو حيان ـ البحر المحيط جـ١ ص ١٣٩ .

(٣) الطبرى ـ التفسير ـ جـ١ ص ١٩٩ .

(٤) أبو حيان ـ البحر المحيط ـ جـ١ ص ١٣٩ .

(٤) الرازى ـ التفسير جـ١ ص ١٦٠ .

(٥) الشوكانى جـ١ ص

ويكاد ينفرد إبن جرير الطبرى فى قصر معنى الأرض فى الآية على مكة ، وربما شاركه القليل من المفسرين وهو يعلل ذلك بأن الأرض دُحيت من مكة ومن ثم سُمِّيت أم القرى .

والأرجح عندى ـ والله تعالى أعلم ـ هو أن المقصود بالأرض فى الآية هو الأرض كلها .

أولاً: لأن هذا هو ظاهر الآية والمفهوم اللغوى منها، ولعدم وجود ما يخصص مفهوم الأرض ويقصرها على موضع دون آخر.

ثانيا : أن الخبر الوارد عن ابن سابط لا يفيد تحديد مجال الخلافة الوارد فى الآية الكريمة بمكة المكرمة ، لأنه يتحدث عن بدء خلق الأرض ، وبدء دحوها فقط، فليس فيه دليل على أن خلافة الإنسان قاصرة على مكة بل يفيد تشريف مكة ، وتعظيمها بإعتبارها أصل خلق الأرض ونواتها.

ثالثا : أن آية الخلافة تفيد اخبار الله تعالى ضمنا الملائكة بإسكان الإنسان فى الأرض وتعميرها والحياة فيها جيلا بعد جيل إلى آخر أجل الحياة الدنيا ، وقد علمنا بمقتضى الواقع الذى تعيشه البشرية الآن ، أنه مامن جزء من الأرض ، بحرا كان أم يابسا إلا وهو معلوم للإنسان ، مرسوم فى خرائط ومتفق عليه بين الأمم أنه تحت سيادة هذه الدولة أو تلك ، وبذلك يتأكد لنا أن تعمير الإنسان للأرض ليس قاصراً على موضع دون موضع ، بل هو شامل لجميع أرجائها الصالحة لحياة الإنسان .

ومن ثم يمكن القول أن المقصود بالأرض فى الآية هو كوكب الأرض كله ، وليس مجرد موضع فيها .

رابعا : أن المقصود بالخليفة ـ كما سنرى بعد ـ ليس هو آدم فقط ، وإنما هو الإنسان النوع، والإشارة إلى آدم فى الآية ، ليس باعتبار أنه الخليفة وحده ، بل باعتيار أنه ممثلا لنوعه وذريته .

فاستخلاف آدم فى الأرض ليس إذاً قاصراً عليه وعلى ابنائه المعاصرين له ، وإنما هو قدر البشرية كلها ، ومن ثم فلا وجه لقصر المقصود بالأرض على الموضع الذى عاش فيه آدم وأبناؤه الأوائل ، أو على مكة المكرمة فقط .

خامسا: ذكر الملائكة افساد الإنسان وسفكه للدماء يمنع قصر الخلافة على مكة المكرمة .

وعلى كل حال فإنه لا تعارض بين المفهومين ، حيث أن معنى الأرض نسبى ، لأنه يرتبط بالمخلوق الذى تقله هذه الأرض ، لأن أرض كل مخلوق هى ماتقله وهى مايعيش فيها وعليها . ولا شك أن آدم عليه السلام وبنيه المعاصرين له قد عاشوا فى موضع محدود من الأرض ، ولم يسكنوها كلها لقلة عددهم ، فلما كثر بنوه سكنوا كل قارات الأرض وإكتشفوا المجهول منها ، حتى لم يعد الآن فى العصر الراهن موضعا من الأرض ، يابسا كان أم بحراً إلا وهو معروف وتابع لسيادة دولة من الدول ماعدا مايسمونه بالمياة الدولية فتلك لسيادة الإنسان المستخلف فى الأرض أى للنوع ، ومن ثم يفسر لنا الواقع البشرى معنى (فى الأرض) أى كوكب الأرض إذ لا اختلاف بين القرآن الكريم والواقع أو الحقيقة الكائنة المتفق عليها بين جميع العقلاء ، وهى أن البشرية تسكن الأرض كلها الآن، فيكون المقصود بالأرض ليس موضعا فيها بل كل الأرض .

ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن المفسر يجعل المقصود من قوله تعالى :(فى الأرض) تابعا لمفهوم الخلافة ومجالها ، فابن جرير الطبرى رحمه الله تعالى يفسر الخلافة ويقصرها على الأنبياء والمرسلين ، فقصر تبعاً لهذا مفهوم الأرض على مكة المكرمة ، حيث كان يأوى إليها الأنبياء والرسل الذين أهلك الله أقوامهم المكذبين.

ولكن هذا القول يمكن الرد عليه بأن الأنبياء والرسل أقاموا خلافتهم لله تعالى فى غير مكة ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ، كما أن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام من بعده أقاموا الخلافة لله تعالى ـ حسب مفهوم الطبرى للخلافة ـ فى شتى أرجاء المعمورة .

ومن ثم لا مبرر ولا وجه لـقصر معني الأرض على مكة المكـرمة فقط وسنرى بعد ذلـك أن هناك علاقة وثـيقة بين حقـيقة الاستخـلاف وبين فريضة الجـهاد من خلال هذا التفسير للأرض فى الآية إذ يكون المسلمون بمقتضى هذا التفسير مكلفين باقامة الخلافة لله تعـالى فى كل المعمورة ، ومن ثم يظل الجهاد عـليهم والغزو فى سبيل الله تعالى فـريضة مادام فى الأرض موضعا يعيش فيـه مشركون وكافرون أى خلفاء وأولياء لغير الله ، هذا لقيام الساعة .

(جـ) الأرض بغلافها الجوى هى حدود خلافة الإنسان فى الحياة الدنيا :

ذكر أبو حيان أن « جاعل » بمـعنى مُصيرٌ تتعدى إلى مفعـولين الأول « خليفة » والثانـى « فى الأرض » وبهذا التـقدير يكون المـفعول الثانـى مقدم على المـفعول الأول، وإذا كانت جاعل بمعنى خالق، فإنها تـتعدَّى إلى « مفعول واحد هو خليفة ويكون الجار والمجرور فى الأرض » ظرف مكان ومقدم أيضا على المفعول به .

فما الفائدة من تقديم الجار والمجرور فى هذه الحالة على المفعول ؟!

إن أول مايتـبادر إلى الذهـن أن تقديم الجار والمجرور وهـما ظرف مكـان على المفعول به فيه تأكيد على أن مجال الخلافة الإنسانية قاصر على الأرض فقط ، ولا يمكن أن يخرج عن مجالها .

أى أن الأرض وحدها أى الكوكب هى ميدان ومـجال خلافة الإنسان ، وليس له أن يكون خليفة فى غيرها .

قال الألوسـى : « في الأرض » دون السماء ؛ لأن التـباغى والتظالـم كان فى الأرض».

وهذا يستلزم نتيجة مؤداها استحالة عيش الإنسان فى أي كوكب آخر .

وقد يتوهم البعض أن هذه النتيجة الـلازمة من الآية الكريمة تتعارض مع الواقع الذى عليه الإنسان الآن بغزوه للفضاء ونزوله على القمر وسيره فوق ترابه .

ولكـن الذى نؤكده بـالرغم من ذلـك، أن الإنسان بمـقتضى قـوله تعالـى «فى

الأرض» محكوم عليه بإدارة الله تعالى النافذة وقدره الجبرى أن لا يعيش إلا فى الأرض، فالجعل -كما ذكرنا من قبل- يفيد الجبر والإلزام، ومن ثم تكون حدود الإنسان المكانية أو مجال وميدان تحقيق خلافته خلال حياته الدنيا هى الأرض.

ومع هذا لا ننكر أن الإنسان خرج من جاذبية الأرض وسار فوق سطح القمر.

أما تفسير هذا فيكمن فى التأمل فى قوله تعالى: «فى الأرض» من ناحية، وفى المفهوم العلمى والجغرافى والفلكى للأرض، من ناحية أخرى.

فالأرض هى هذا الكوكب التابع للشمس ضمن مجموعة كواكب متعددة تدور جميعاً حولها، وتدور الأرض فى فلك خاص بها حول الشمس مرة كل سنة أرضية، وهو كوكب صلب يغطى أكثر من ثلاثة أرباعه الماء وبقية مساحة الكرة الأرضية يابسة تتمثل فى القارات والجزر، وليس شكل الأرض كروياً تماماً حيث أن أحد قطرى الكرة أطول من الآخر قليلاً مما يجعل شكلها قريب من شكل البيضة، ويحيط بالجسم الصلب غلاف جوى يعلوه طبقة من غاز خاص يحفظ جو الأرض من الأشعة الكونية القادمة إليها من الفضاء.

فليست الأرض هى الجرم الصخرى الصلب وما عليه من مياه فقط، حيث أن الغلاف الجوى جزء لا يتجزأ منها.

وحيث أن الإنسان يعيش داخل الغلاف الجوى وفوق الأرض أى على الجزء الصلب وعلى مياهها: لذا فإن التعبير يكون علمياً ودقيقاً إذا قلنا أن الإنسان يعيش فى الأرض وليس يعيش عليها.

وهذا هو الذى ورد فى الآية الكريمة حيث قال الله تعالى **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾** ولم يقل عز وجل إنى عاجل على الأرض خليفة.

ولكن كيف نفسر -مع هذا المفهوم، ومع كون الخلافة أمراً جبرياً- خروج الإنسان من الأرض وصعوده إلى الفضاء الخارجى بعيداً عن جاذبيتها، وهو محكوم عليه بمقتضى الجعل أن يعيش فيها دون غيرها.

إن الحقيقة العلمية الواقعة الآن والمتمثلة فيما يسمونه غزو الفضاء لا تتعارض مع هذا التحديد لمجال عيش الإنسان وخلافته.

ذلك أن الإنسان لا يمكن أن يعيش إلا فى الظروف والأحوال وبالعناصر والمواد التى خلقها الله تعالى فى الأرض وفى الغلاف الجوى من أكسوجين وماء ورطوبة وحرارة فى حدود معينة وضغط محدد وغذاء لا يمكن أن يحصل عليه إلا من الأرض وغير ذلك من عناصر الحياة الضرورية.

وعلى هذا فإن خروج الإنسان من هذه العناصر وتركه لظروف وأحوال ومناخ الأرض مهلك له على الفور، ويستحيل عليه أن يخرج من الأرض مع بقائه حيا.

والذى فعله الإنسان بسلطان العلم الذى وهبه الله تعالى إياه حين علمه الأسماء، هو أنه اقتطع جزءاً من الغلاف الجوى الأرضى -ونفذ به من الأرض أخذ فيه الأكسوجين وكيفة -أى الجزء المقتطع- بدرجة حرارة الأرض وضغطها ورطوبتها وغير ذلك من أحوال وظروف الأرض ذلك كله فيما يسمى بالبدلة الفضائية، وحتى الماء والغذاء أخذهما من الأرض، وخرج بكل ذلك أو نفذ به من جاذبية الأرض ليعيش به بعيداً عنها فى المسافة والمكان ، ولكنه فيها من حيث الظروف والأحوال والكيفيات، لبضع ساعات أو أيام أو حتى شهور بقدر ما تسمح له مؤونته التى أخذها معه من الأرض.

فإذا وضع قدمه على القمر أو عاش فى محطة فضائية فإنه يعيش بما معه من عناصر الحياة الضرورية المأخوذة من الأرض، فكأنه لم يخرج من الأرض. وهذا الواقع متوافق مع الآية الكريمة وليس متعارضاً معها، بل هو يثبت أن الحياة خارج أحوال وظروف وكيفيات وخصائص الأرض مستحيلة، حتى أن الإنسان إضطر لكى يخرج منها من حيث المكان أن يأخذ معه هذه الأحوال والكيفيات للمحافظة على بقائه.

ولعل فى قوله تعالى ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار

السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان، فبأى آلاء ربكما تذكبان، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾[1] إشارة إلى هذه المحاولة التى ستبوء بالفشل فى النهاية ولن يحقق الإنسان منها أهدافه فى السفر البعيد فى الفضاء الكونى (أقطار السماوات) كما أخبر بذلك الخالق جل وعلا بسبب شواظ النار والنحاس.

كما يمكن أن نفهم من قوله تعالى ﴿أن تنفذوا﴾ وقوله ﴿لا تنفذون إلا بسلطان﴾ والحكمة التى من أجلها لم يقل عز وجل ﴿أن تخرجوا أو تعرجوا﴾، يمكن أن نفهم فيه إشارة إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يخرج من الأرض بحال من الأحوال، وكل ما يستطيعه بسلطان العلم هو محاولة النفاذ بقطعة من جو الأرض ليعيش فيها، لأن الله عز وجل قد حكم عليه وقضى بألا يكن خليفة إلا فيها وعليها.

وهذا يضيف لنا بعداً لم يكن معلوماً لميدان خلافة الإنسان حيث أن كون الغلاف الجوى جزءاً من الأرض جاز للإنسان أن يحقق عيشاً له فيه وسيادته عليه وهذا هو الذى نراه فى عصرنا الذى أصبحت فيه الطائرات الحربية والصواريخ سبيل سيادة الدول على أجوائها كما أن طائرات السفر أصبحت وسيلة الانتقال الرئيسية للناس، ولا غنى ولا بديل عنها للسفر البعيد، والذى أصبحت الأرض كلها بفضل الله تعالى على الإنسان وبمقتضى حقيقة الاستخلاف تحت حركة الإنسان فى الزمن اليسير.

ومن ثم -وبعد هذا كله- لا مجال للقول بأن مفهوم الأرض فى آية الخلافة قاصر على موضع دون موضع بل هو يشمل سائر أرجائها، وصح بهذا كله ورجح قول جمهور المفسرين.

بل إن مفهوم الأرض فى هذه الآية وفى بعض الآيات القرآنية الأخرى يتعدى نطاق هذا الكوكب إلى نطاق أوسع وأرحب ألا هو أرض الآخرة.

كما سنرى ذلك فى فصل لاحق ان شاء الله تعالى.

---

(١) الرحمن، ٣٣-٣٦.

(د) ﴿.. خليفة...﴾

يعتبر المراد بهذه الكلمة فى الآية هو المحود الرئيسى لهذا البحث.

وقد نشأت حول تفسير هذه الكلمة، وخاصة بالنسبة لمفهومها وماصدقها، كما يقول المناطقة، مذاهب عدة، اختلفت وتباينت إلى حد كبير، حتى خرج بعض أصحاب هذه المذاهب على أصول العقيدة الإسلامية ومبادئ التوحيد، وحكم عليهم السلف وأهل السنة بالكفر، بمقتضى ما أثبتوه من تفسير باطل للخلافة.

وحيث أن حقيقة الخلافة لاتدرك حق الادراك ولاتعرف حق المعرفة الا من خلال السياق العام للآيات الواردة فيها.

ونظرًا لما لهذه الحقيقة من صلة وثيقة بالتوحيد لذا فقد آثرتُ إرجاء عرض أقوال المفسرين فيها ومذاهب المفكرين حيالها إلى مابعد الانتهاء من تفسير آيات السياق بتمامها.

إلا أنه من الانسب والأوفق أن نوجز الاقوال الرئيسية المأثورة عن السلف والمعتمدة عند مفسرى أهل السنة والجماعة فى معنى الاستخلاف، لما لهذا من أهمية فى ربط مواضيع السياق، حيث أن الموضوعات التى سبق مناقشتها فى تفسير الآيات السابقة والمواضيع التى سنناقشها بإذن الله تعالى فى تفسير الآيات اللاحقة، كلها ذات صلة وثيقة بمعنى الخلافة، حتى يمكن القول أنه من الصعب ان لم يكن من المتعذر معرفة القول الراجح بدونها.

لقد حصر السلف تفسير الخلافة فى مفهومين رئيسيين:

الأول: أن الإنسان خليفة الله تعالى فى الأرض أى نائب عنه ووكيل من قبله لاقامة شرعه ودينه .

الثانى: أن الإنسان خلف الجن فى الأرض ثم إن كل جيل من البشر يخلف الجيل الذى سبقه.

فأى المفهومين هو الراجح؟ أو أى المفهومين هو الصحيح؟ ذلك مانرجو من الله تعالى أن نتوصل إليه كنتيجة واضحة بعد إستكمال تفسير آيات السياق.

٥ - تعجب الملائكة من إستخلاف المفسد أو إفساد الخليفة وسؤالهم عن ذلك.

﴿قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال إنى أعلم مالاتعلمون..﴾

أ- ﴿قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء..﴾

قالوا: أى الملائكة وقولهم هذا سؤال إستفهامى باعثه الدهشة والتعجب والرغبة فى معرفة الحكمة من أمر لم يكن متوقعا لهم. وليس فى السؤال أدنى اعتراض على إرادة الله عز وجل كما يظن بعض «جهلة المفسرين»[١].

وذكر إبن جرير الطبرى بهذا الصدد أن الحسن إستدل على أن المعنى بالخليفة هو كل البشر بقول الملائكة (أتجعل فيها..) لأن آدم برئ من الإفساد وسفك الدماء وكذا الأنبياء ويتبعهم فى ذلك الحكام الصالحون.

ويقرر أبو حيان الأندلس مافهمه من سؤال الملائكة بقوله(كانهم تعجبوا من إستخلاف الله من يعصيه أو من عصيان من يستخلفه فى أرضه، وقيل هو إستفهام على طريق الإستعظام والاكبار للإستخلاف والعصيان)[٢].

أى أن المتبادر إلى الفهم عن سبب سؤال الملائكة هو تعجبهم عن معصية الخليفة أو من إستخلاف الله عز وجل وهو يعلم أنه سيعصى ويكون منه ذلك مما ينبئ حتما عن حكمة خافية عنهم، فسألوا عنها.

١- ابن كثير/ قصص الانبياء /ص١٣/ وانظر ايضا لابن كثير التفسير/ ط١/ ص٦٩.

٢- ابو حبان الاندلس/ البحر المحيط/ ط١/ ص١٤١.

كما أن السؤال يدل على علو مكانة الإنسان عند الله تعالى وكرامته وشرفه بين المخلوقات .

وقد علموا هذا من تسمية الله عز وجل له باسم خليفة فالخلافة متضمنة لهذا التكريم، أو هى أصل هذا التشريف، ومن ثم كان استبشاع الملائكة للأفساد وسفك الدماء منه بالذات.

فمثار العجب والدهشة حدوث هذه الافعال القبيحة من ذلك الكائن المكرم بالخلافة.

ب- ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾.

يقول أبو السعود فى تفسيرها [جملة حاليَّة مفردة للتعجب السابق ومؤكدة له، ... والمقصود عرض احقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجَّحهم عليهم مع ماهو متوقع منهم من القوة الشهوية التى رذيلتها الافراطية الفساد فى الأرض والقوة الغضبية التى رذيلتها الافراطية سفك الدماء فقالوا ماقالوا وذهلوا عما إذا سخرتهما القوة العقلية فصارا استطاعة على الخير].(١)

ولاشك أن قول الملائكة﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ فيه إشارة إلى ماكتموا فى أنفسهم من ظنهم إستحقاقهم للخلافة بما تتضمنة من تكريم وتشريف، لأن الذى يتبادر إلى الذهن نتيجة مقارنتهم أنفسهم بالإنسان الذى يفسد وهم المسبحون لله المقدسون له، هو أنهم أكرم من البشر وأفضل لانه من المعلوم أن الاكرم هو الاتقى.

ومن ثم يصح الاستنباط القائل بان الملائكة ظنوا أنهم أجدر بالخلافة من الإنسان وتعجبوا من اختيار الله تعالى له خليفة دونهم فسألوا مستفسرين عن الحكمة من ذلك.

---

(١) أبو السعود/ ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم تحقيق عبد القادر عطا نشر مكتبة الرياض الحديثة جـ ١ صـ ١٤٥.

والذى نود أن نؤكده هنا لاتصاله الوثيق بحقيقة الاستخلاف كحقيقة إنسانية تخص الإنسان وحده وتدخل فى تكوينه النفسى باعتبارها نتيجة لازمة صحيحة من سؤال الملائكة الذى يثبت استشرافهم للخلافة وظنهم فى أنفسهم أنهم أجدر بها من الإنسان هو أن الخلافة درجة وجودية عالية بين المخلوقات، ولولا هذا لما أضمر الملائكة فى أنفسهم تطلعهم لها وظنهم أنهم أفضل المخلوقات عند الله تعالى نتيجة علمهم بما سيكون من إفساد الإنسان ولعدم معصيتهم الله عز وجل.

يؤكد هذا الذى كان فى نفوسهم قول الله تعالى لهم بعد ذلك ﴿**وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون**﴾ أى ظنهم فى أنفسهم أنهم أجدر بالخلافة. وقوله تعالى لهم أيضا ﴿**أنبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين**﴾ أى صادقين فى زعمكم وظنكم أنكم أجدر بالخلافةوأحق بها من الإنسان.

وهذه الحقيقة الهامة عن الخلافة باعتبارها مكانة وجودية عالية بين المخلوقات يمكن أن توجه الباحث إلى معنى الخلافة وهل هى خلافة لله تعالى وحده فى الأرض أم هى خلافة الإنسان للجن أو خلافة كل جيل لسلفه؟.

جـ - كيفية معرفة الملائكة بما سيفعله الإنسان من الافساد وسفك الدماء؟.

وقد أثار المفسرون قضية بصدد إفساد الإنسان وسفك الدماء نوردها استكمالا للتفسير ولما لها من صلة بحقيقة الاستخلاف أيضا.

هذه المسألة تدور حول مصدر معرفة الملائكة: بخبر إفساد الإنسان فى الأرض وسفكه للدماء الذى سيكون منه.

وقد ذكر المفسرون فى الاجابة على هذا السؤال عدة أقوال أجملها أبو حيان رحمه الله بقوله:

إما بإخبار من الله، أو بمشاهدة فى اللوح، أو قالوا ذلك بطريق القياس على من سكن الأرض فأفسد قبل سكنى الانسان، واستنبطوا ذلك من لفظ خليفة، إذ الخليفة من يكون نائبا فى الحكم وذلك يكون عند التظالم][1].

١- أبو حيان الأندلسى/ البحر المحيط/ ط١/ صـ١٤٤. انظر أيضاقصص الأنبياء لابن كثير/ صـ١٣.

وكل هذه الأقوال فى الحقيقة ترد إلى قول واحد هو أن الله عز وجل هو الذى أعلمهم بذلك بصرف النظر عن الطريقة التى أعلمهم بها.

ولكن الذى يهمنا من هذه الكيفيات هو قول أبى حيان السابق (وإستنبطوا ذلك من لفظ خليفة)، ثم شرحه لهذا الاستنباط أن الخلافة هى النيابة فى الحكم، والحكم لايكون إلا عند التظالم.

ومن ثم يكون الافساد وسفك الدماء من اللوازم الضرورية والنتائج الحتمية للإستخلاف، أى أن الاستخلاف بذلك يتضمن أسسا للصراع لعلها أى هذه الأسس ترتكز جميعا على فكرة أو حقيقة السيادة فى الحياة البشرية، وما تؤدى إليه هذه الحقيقة حتما من صراع بين أطراف واحزاب، يكون من نتيجته سفك الدماء.

وحيث أن الافساد فى الآية جاء سابقاً على سفك الدماء فإن عطف سفك الدماء عليه يكون من قبيل عطف الجزء على الكل أو الخاص على العام. ولكن الإفساد لا يحمل سوى صبغة خلقية واحدة وهى الشر أو المعصية مما يؤدى فى كثير من الأحوال إلى قيام الحروب بين أهل الشر وأهل الايمان ومن ثم يصير سفك الدماء فى الحروب. وهذا دليل على أن هذين الفعلين البارزين فى حياة الإنسان هما بسبب الصراع على سيادة الأرض ومن ثم يتأكد لنا دخول معنى السيادة فى مفهوم الخلافة كعنصر جوهرى ورئيسى فى تفسيرها.

د ﴿.. قال: إنى أعلم مالاتعلمون..﴾.

القائل هو الله عز وجل ردًا على تعجب الملائكة، ورغم أن المعنى الذى تحمله الآية- وهو وصف الله عز وجل نفسه بالعلم الذى لايشاركه فيه غيره- عام ومطلق، لان علم الله سبحانه وتعالى لايتناهى، وعلم الملائكة متناهى ومحدود، فهو جل شأنه يعلم مالا يعلمه كل الخلق بما فيهم الملائكة، لان علم كل الخلق محدود وعلم الله عز وجل ليس له نهاية ولا حد، بالرغم من هذا، فإن ماورد عن

الصحابة رضوان الله عليهم من أقوال فى تفسير هذه الآية الكريمة يشير إلى أن المقصود بالعلم الالهى فى الآية علم خاص علمه الله تعالى، ولم تعلمه الملائكة، ويتصل بموضوع الحوار أى الخلافة. وبقول أدق: بالحكمة التى من أجلها خص الله تعالى آدم بالخلافة دونهم.

ومع هذا نجد من المفسرين من أطلق المقصود بالعلم فى الآية، كما أن منهم من رفض الإطلاق، وذكر أنه علم خاص.

وممن أطلقوه صاحب البحر المحيط فقال [علمه بظواهر الامور وباطنها جليها ودقيقها عاجلها وآجلها صالحها وفاسدها على اختلاف الأحوال والأزمان علما حقيقيا وأنتم لاتعلمون ذلك أو علمه بغير إكتساب ولانظر ولاتدبر ولا فكر وأنتم لاتعلمون المعلومات على هذا النسق][1].

ومع هذا يذكر أبو حيان بعد هذا النص أقوال الصحابة والتابعين فى معنى علم الله تعالى فى الآية بأن المقصود به علمه [بأنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء وصالحون.. قاله قتادة. أو علمه بملأ جهنم من الجنة والناس.. قاله إبن زيد. أو علمه بما فى نفس إبليس من البغى والمعصية.. قاله إبن عباس ومجاهد والسدى][2].

وقال الزجاج [علمه بعواقب الأمور فيبتلى من تظنون أنه مطيع فيؤدى به الابتلاء إلى المعصية ومن تظنون أنه عاص فيؤدى به الابتلاء إلى الطاعة][3].

ويؤيد إبن قيم الجوزية هذا المعنى بقوله[فالرب تعالى كان يعلم مافى قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد مالا يعلمه الملائكة، فلما أمرهم بالسجود، ظهر مافى قلوب الملائكة من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا إلى الإمتثال،

١، ٢- أبو حيان/ البحر المحيط/ جـ١/ ص١٤٤.

٣- الخازن/ التفسير/ جـ١/ ص٤٥.

وظهر مافى قلب عدوه من الكبر والغش والحسد ، فأبى وأستكبر وكان من الكافرين][1].

لكن أبا حيان يورد تفسيراً آخر للمقصود بالعلم الإلهى فى الآية بقوله [أو علمه بإستعظامكم أنفسكم بالتسبيح والتقديس، والذى يدل عليه ظاهر اللفظ أنه أخبرهم إذ تكلموا بالجملة السابقة التى هى (اتجعل فيها) بأنه يعلم مالا يعلمونه].

ومع أن قوله هذا مستنبط من السياق، ويدل عليه ظاهر اللفظ كما يقول، ويتمشى مع المعنى العام للآيات، ويخدم مفهوم الاستخلاف ويوضحه، إلا أنه عدل عنه ورجح اطلاق العلم الالهى فى الآية، بقوله [والأحسن أن يفسر هذا المبهم بما أخبر به تعالى عنه من قوله «قال الم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض» الآية][2].

أى أنه رحمه الله تعالى رجح أن تكون الآية وصفاً لله تعالى بالعلم المطلق، وليست اشارة إلى علم خاص يتصل بحقيقة الاستخلاف، وبسؤال الملائكة بسبب عدم معرفتهم له.

إلا أن ابا السعود يرفض ترجيح أبى حيان إذ يرى أنه إشارة لعلم خاص وثيق الصلة بالخلافة فيقول [«انى أعلم مالاتعلمون» ليس المراد به بيان أنه تعالى يعلم ما لا يعلمون من الأشياء كائنا ماكان، فإن ذلك مما لاشبهة لهم فيه، حتى يفتقروا إلى التنبيه عليه، لاسيما بطريق التوكيد، بل بيان أن فيه عليه الصلاة والسلام[3] معانى مستدعية للخلافة، إذ هو الذى خفى عليهم،وأبانوا من التعجب والاستبعاد. فما موصولة كانت او مَصْدَرِيَّة عبارة عن تلك المعانى، والمعنى انى أعلم مالاتعلمونه من دواعى الخلافة فيه][4]

١- ابن قيم الجوزية/ الوابل الصيِّب من الكلم الطيب صـ ١٦٤ عن التفسير القيم.

٢- البحر المحيط/ جـ١/ صـ١٤٥.

٣- يقصد آدم عليه السلام.

٤- أبو السعود/ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم- تحقيق عبدالقادر عطا نشر مكتبة الرياض الحديثة جـ١ صـ١٤٦ وسنذكره بعد ذلك بتفسير أبى السعود.

وهذا المعنى يربط الآية بالموضوع الرئيسى للآيات وهو الخلافة، كما أنه يعيد الكلام إلى وضعه الصحيح، إذا يجعله إشارة إلى آدم الذى استخلفه الله تعالى بعكس الأقوال السابقة التى حولت محور الكلام من آدم إلى إبليس، وسياق الآيات لايحتمل ذلك، علاوة على أن فى ذلك صرف الكلام عن المعنى الذى يجب إثباته له.

فيصبح المعنى هو انكم تعجبتكم من إستخلاف آدم وذريته على ماعلمتم منهم من إفساد وسفك للدماء، ولكنكم لاتعلمون ما أعلمه عن تأهيلى إياه للخلافة بمؤهلات ومقومات ليست عندكم ولاعند غيركم.

ثم قال أبو السعود رحمه الله تعالى [وقيل: معناه أنى أعلم من المصالح فى إستخلافه ماهو خفى عليكم، وأن هذا إرشاد للملائكة إلى العلم بأن أفعاله كلها حسنة وحكيمة. وإن خفى عليهم وجه الحسن والحكمة.

وأنت خبير أنه شعر بكونهم غير عالمين بذلك من قبل، ويكون تعجبهم مبنيا على ترددهم فى إشتمال هذا الفعل لحكمة ما، وذلك مما لايليق بشأنهم، فإنهم عالمون بأن ذلك متضمن لحكمة، ولكنهم مترددون فى أنها لماذا؟. هل هو راجع إلى محض حكم الله عز وجل، أو إلى فضيلة من جهة المستخلف؟ فبين سبحانه وتعالى لهم على وجه الاجمال، والابهام، أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها، ثم ابرز لهم طرقا منها ليعاينوه جهرة ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته وتنزاح شبهتهم بالكلية] (١).

أى أنه يرفض القول بان المقصود بقوله تعالى ﴿إنى أعلم ما لا تعلمون﴾ صفة العلم المطلق لله عز وجل الشامل لكل شئ فى الوجود لأن الملائكة يعلمون هذا ويؤمنون به، مما لايستلزم هذا التأكيد بقوله تعالى (إنى..) فالمقصود بالعلم هنا إذاً علم خاص، ولكن لابد أن يكون وثيق الصلة بإستخلاف الإنسان، ولما كان تعجب

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة.

الملائكة من استخلاف الله عز وجل للإنسان بسبب إفساده من جهة ، وبسبب تسبيحهم لله عز وجل من جهة أخرى، مما جعلهم يظنون أنهم أحق بهذه المكانة الوجودية المرموقة، فى الوقت الذى استبعدوا استحقاق الإنسان لها لافساده، فإن تعجبهم إذاً، لم يكن لظنهم بالله تعالى أن أفعاله ليست حسنة، أو ليست حكمة، لأن هذا مما لايليق بهم وبأحوالهم.

وإنما التردد الذى أثار تعجبهم هو أنه إذا كان لابد من حكمة من استخلافه، مع إفساده، فما هى هذه الحكمة؟!.

وذلك واضح من قوله رحمه الله [ولكنهم مترددون فى أنها ماذا ؟].

لذلك سألوا سؤالهم **﴿.. أتجعل فيها..؟ الآية﴾**.

ومن ثم ينتهى أبو السعود رحمه الله إلى أن المقصود بما أثبته الله تعالى لنفسه من العلم وخفى عن الملائكة هو سر إستحقاق هذا المخلوق الجديد للخلافة، أو المزايا والصفات التى وهبها الله تعالى إياه، فصار بها جديرا بالخلافة وأهلا لها.

وعاد أبو السعود رحمه الله تعالى مؤكداً هذا المعنى معتبرا إياه محور الحوار بين الله تعالى والملائكة إذ قال فى تفسير قول الله عز وجل **﴿ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون﴾**[1] [فيه دليل واضح على أن المراد بقوله تعالى **﴿انى اعلم مالاتعلمون﴾** ما أشير إليه هناك، كأنه قيل: ألم أقل لكم أنى أعلم فيه من دواعى الخلافة مالاتعلمونه فيه، هو هذا الذى عاينتموه][2] فما الذى عاينوه؟.

أو ماهى المؤهلات والدواعى التى استحق الإنسان بها الخلافة؟ ان هذ الامر يرتبط تماما بما بعده فى السياق وهو علم الأسماء.؟

---

(١) ٣٣/ البقرة.

(٢) تفسير أبى السعود/ جـ١/ صـ١٤٦.

٦- علم الأسماء وعلاقته بإستخلاف الانسان فى الأرض:

تفسير قوله تعالى:

أ- [وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء، إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا أنك أنت العليم الحكيم. . .][(١)].

قال صاحب البحر المحيط [لما أخبر الله تعالى الملائكة عن وجه الحكمة من خلق آدم وذريته على سبيل الاجمال، أراد أن يفصل، فبيَّن لهم من فضل آدم مالم يكن معلوما لهم، وذلك بأن علمه الاسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه فى العلم، فتأكد الجواب الاجمالى بالتفصيل، ولابد من تقدير جملة محذوفة، لانه بها يتم المعنى ويصح هذا العطف وهى [فجعل فى الأرض خليفة).

ولما كان لفظ الخليفة محذوفا فى الجملة المقدَّرة، أبرزه فى قوله تعالى (وعلم آدم) ناصا عليه ومنوِّها بذكر إسمه.

وأبعد من زعم أن (وعلم آدم) معطوفا على قوله ﴿وإذ قال ربك﴾ [(٢)].

وكما ربط أبو حيان الخلافة بعلم الأسماء ربطا لغويا، مفسرا المعنى من خلال السياق، أكد أبو السعود ذلك ووضحه بقوله: ﴿وعلم آدم الاسماء﴾ وبه يظهر أحقيته بالخلافة منهم، عليهم السلام- لما عُلِم أن جبلتهم غير مستعدة للاحاطة بتفاصيل أحواله الجسمانية خبرا.

فمعنى تعليمة تعالى إياه أن يخلق فيه إذا ذاك بموجب إستعداده علماً ضروريا تفصيليا بأسماء جميع المسميات وأحوالها وخواصها اللائقة بكل منها)][(٣)].

---

(١) ٣١/البقرة.

(٢) أبو حيان الاندلس/ البحر المحيط/ جـ١/ صـ١٤٥.

(٣) أبو السعود / التفسير/ جـ١/ صـ١٤٧.

فالسياق يدل على أن علم الاسماء هو المؤهل - أو هو على الأرجح أم المؤهلات- التى أهل الله تعالى بها آدم للخلافة، وهو الذى تميز به على الملائكة فصار جديراً بها.

يدل على هذا ويؤكده ماقبله من السياق ومابعده وهو قوله تعالى **﴿ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾**[1] ففيه تأكيد على أن ما وهبه الله تعالى لآدم من علم الأسماء كلها ليس عند الملائكة.

وقد طلب الله تعالى منهم الإنباء بها لو كانوا يعلمون، وذلك لابطال تعجبهم ولاثبات أحقية آدم بالخلافة منهم، إذ قد أهله الله تعالى لها بعلم الأسماء دونهم.

ومعنى ذلك كله أن الملائكة ظنوا أن كل مقومات الخلافة فى الأرض هى العبادة والتقديس لله عز وجل فقط، وهذا ليس صحيحا، إذا أن العبودية لله عز وجل أحد مقومات الخلافة، وليست هى كل الخلافة.

ومن ثم فإن الملائكة لم تنل الخلافة مع كونهم أدوم تسبيحا وتقديسا لله عز وجل، وأكثر طاعة له سبحانه من الإنسان، ومع ذلك خصه الله تعالى بها، ومن ثم وهبه الله عز وجل علم الاسماء ليس لتحقيق عبوديته لله تعالى، لأن الملائكة يفعلون هذا بدون هذا العلم وإنما لكى يحقق الإنسان بهذا العلم أمرا آخر.

ومن ثم تكون الخلافة عبودية لله عز وجل وأمراً آخر معها لايتم الا بعلم الأسماء، وسيأتى مجال الحديث عنه فى معنى الخلافة بإذن الله تعالى.

ب- مامعنى الأسماء كلها، وماهى المسميات؟:

بيد أن الذى يتوجب علينا الآن الاجابة عليه هو السؤال الآتى:

إذا كان علم الأسماء هو مؤهل الخلافة، أو هو أحد مؤهلات الإنسان للخلافة وأهمها، فما هى المسميات التى تحمل الأسماء؟.

---

(١) ٣١/البقرة.

قال الطبرى رحمه الله تعالى أنها [أسماء جميع المخلوقات. قاله إبن عباس وابن جبير ومجاهد وقتادة.

أو إسم ماكان ويكون إلى يوم القيامة. وعُزِىَ. إلى ابن عباس.

وهو قريب من الأول.

أو جميع اللغات.][1].

وقال الجصَّاص [أنه علَّم الاسماء كلها لآدم أعنى الأجناس بمعانيها لعموم اللفظ فى ذكر الأسماء، وقوله ﴿ثم عرضهم﴾ فيه دلالة على أنه أراد أسماء ذريته على ماروى عن الربيع ابن أنس، إلا أنه قد روى عن ابن عباس ومجاهد، أنه علمه أسماء جميع الأشياء، وظاهر اللفظ يوجب ذلك.

فإن قيل: لما قال «عرضهم» دل على أنه أسماء من يعقل لأن«هم» إنما تُطلق فيما يعقل دون مالا يعقل؟.

قيل له: لما أراد ما يعقل ومالايعقل جار تغليب مايعقل كقوله تعالى ﴿خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه﴾[2] الآية. لما دخل فى الجملة من يعقل أجرى الجميع مجرى واحداً، وهذه الآية تدل على أن أصول اللغات كلها توقيف من الله تعالى لآدم عليه السلام][3].

ويفصل الألوسى معنى الأسماء بقوله أن الله تعالى (خلق فيه- أى آدم عليه السلام- علما ضروريا تفصيليا بتلك الأسماء. وبمدلولاتها ووجه دلالتها، وقيل بأن خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة مستعداً لادراك أنواع المدركات وألهمه معرفة

---

(١) الطبرى/ التفسير/ جـ١/ صـ٢٠٠.

(٢) الآية [والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء ان الله على كل شئ قدير- ٤٥/ النور].

(٣) أحكام القرآن للجصاص/ جـ١/ صـ٣٧.

ذوات الاشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها وأصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات إستعمالاتها)[1].

وقد يكون صحيحا قول الالوسى ان علم الاسماء يتضمن ماذكره الا أننا لانوافقه على قوله أن فيه معرفة ذوات الأشياء.

لأن وصف الله تعالى موضوع العلم الذى علمه لآدم بلفظ «الاسماء» يمنع أن يكون المعلوم لآدم هو المسميات والمسميات هى ذوات الأشياء التى تحمل الأسماء.

فهو عز وجل لم يقل وعلم آدم الأشياء حتى يكون من المحتمل تعليمه ذوات الأشياء، وإنما خصص الله تعالى علم آدم، وبالتالى علم الإنسانية كله، وحصره فى الأسماء، ومعرفة اسم الشئ لا يتضمن بالضرورة معرفة ذاته. وإن كانت معرفة ذات الشئ غالبا ما تستتبع وتتضمن معرفة أسمائه وصفاته.

لذا أقول : إن الألوسى قد جانبته الدقة فى العرض عندما أدخل ذوات الأشياء فى أسمائها قال بن كثير [وعلم آدم الأسماء كلها) قال ابن عباس هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وقال مجاهد: علمه اسم الصفحة والقدر حتى الفسوة والفسية.

وقال مجاهد: علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شئ. وكذا قال سعيد ابن جبير وقتادة وغير واحد.

وقال الربيع: علمه أسماء الملائكة.

وقال عبدالرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته، والصحيح: أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها، كما أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما.

وذكر البخارى هنا ماوراه هو ومسلم من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال(يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : لو

---

(١) الالوسى/ روح المعانى/ جـ١/ صـ٢٢٤.

استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم، فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ. . وذكر تمام الحديث)[1].

ففى قول ابن كثير (والصحيح أنه علمه أسماء الذوات) نقض لقول الألوسى أنه علمه ذوات الأشياء لأن معرفة اسم الشئ معرفة لصفة من صفاته أو خاصية من خصائصه أو مجموعة من صفاته وليس معرفة لحقيقته.

ولذلك كان ابو السعود أكثر التزاما بحدود النص ومنطوقه اللغوى من الالوسى اذ قال (فمعنى تعليمه تعالى إياه: أن يخلق فيه إذ ذاك؛ بموجب استعداده علما، ضروريا تفصيليا بأسماء جميع المسميات واحوالها وخواصها اللائقة بكل منها، أو يلقى فى روعه تفصيلا أن هذا فرس وشأنه كيت وكيت، وذاك بعير وحاله ذيت وذيت، إلى غير ذلك من أحوال الموجودات، فيتلقاها عليه السلام حالما يقتضيه إستعداده)[2].

وحال الشئ أو صفته أو فائدته أو خصائصه أو مركباته ومكوناته وعناصره أو شكله أو لونه أو حجمه أو وزنه، وغير ذلك مما ينتسب للشئ، انما هى داخله تحت علم الأسماء، لأن كل واحد من هذه المقولات أو الصفات لها اسم ولايعرف الإنسان منها إلا الإسم الظاهر قال تعالى ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾[3].

فقصر الله تعالى علم الإنسان على الظاهر من كل شئ فى الحياة الدنيا هو قصر معرفته على الأسماء المطلقة على هذا الشئ، كما أن قصر معرفة الإنسان للشئ على اسم الشئ هو حصر لها فى الظاهر من الشئ دون حقيقته وذاته.

ومن ثم فالإجابة على السؤال المطروح عن علم الأسماء هى اسماء كل شئ يستخدمه الإنسان فى حياته الدنيا. إتفق على ذلك أكثر أهل الرأى والأثر معا.

---

(١) ابن كثير/ قصص الانبياء/ جـ١٤/ صـ١٤،صـ١٥.

(٢) ابو السعود/ التفسير/ جـ١/ صـ١٤٧.

(٣) ٧/ الروم.

والأسماء هى الرموز الصوتية اللغوية التى يتعارف بها الناس فى مجتمع ما على الأشياء ويميزوا بينها.

وقوله تعالى (كلـها) دليل على أنه علم آدم اسماء كل الأشياء الـتى استخدمها فى حياتـه ويستخدمها وسيـستخدمها أبناؤه إلـى يوم القيامة. فعلـم الأسماء الذى تعلمه آدم هو أساس العلم عند الإنسانية جمعاء.

وتعميم الأسمـاء مناسب ومتوافق مع كون الخلافـة لكل ذرية آدم وفى الأرض كلها طيلة أجل الحياة الدنيا. وهو تأكيد لهذا المعنى أى شمول الخلافة، واستغراقها لكل أفراد البشر. إذ كون علم الأسماء مـن أهم مؤهلات الخلافة، وإذ يتمتع كل أفراد النوع الإنسانى بهذه المعرفة، ففى ذلـك دليل على شمول الخلافة لكل الناس وإبطال لقصرها على الانبياء والحكام الصالحين أو حتى على المؤمنين فقط.

وحيث أن معرفة آدم للأسماء- كمؤهل أول ورئـيسى للخلافة- قد عجزت عنه الملائكـة بعد أن طلـب الله تعالى منـهم الإنباء عن اسـماء المعروضـات، إن كانوا صادقين، فبطل بذلك تعجبهم.

جـ- أقوال المـفسرين فى أمـر الله تعالى للـملائكة بالإنـباء عن الأسماء وعـلاقته بالاستخلاف:

قال تعالى﴿.. **ثم عـرضهم علـى الملائكة فـقال أنبـئونى بأسـماء هؤلاء ان كنـتم صادقين..**﴾(١).

من الواضح ان أمـر الله عز وجل للملائكـة بالانباء عن أسماء المـعروضات لم يكن طلبا لتنفيذ هذا الأمر، لانه تـعالى يعلم أنم عاجزون عنه، وانما كان لأمر آخر وهو اظهار عجزهم وتبكيتهم وإبطال تعجبهم(٢).

---

(١) ٣١/ البقرة.

(٢) ابن كثير/ التفسير جـ١/ صـ٧٠.

أما عن المعروضات فقد [قال ابن جرير عـن الحسن وقتادة قالا: علمه اسم كل شئ وجعل يسمى كل شئ باسمه وعرضت عليه أمة أمة][1].

أما عن الأمر بقوله «أنبئونى» فقد خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت، قال أبو السـعود [فقال «أنبـئونى» تبكـيتا لهم وإظهـارا لعجزهم عـن اقامة ماعلـقوا به رجاءهم من أمر الخلافة [2].

وقال الالوسى[«فقال أنـبئونى» تعجيزاً لهم، وعندى أن المـراد إظهار عجزهم، ومقصور إستعدادهم عن رتبة الخلافة الجامعة للظاهر والباطن بأمرهم بالإنباء بتلك الأسماء علـى الوجه الذى أُريد منـها والعاجز عن نفـس الإنباء أعجز عن الـتحلى المطلوب فى ذلك المنصب المحبوب][3].

وهكذا إتفق ابن كثير وغيره من أصحاب التـفسير بالمأثور مع أبى السعود وغيره من أصحاب الـتفسير بالاجتـهاد والرأى، على أن أمر الله تعـالى للملائكة بـإنبائه بأسماء المعروضات هو للتبكيت، ولإظهار عجزهم عن معرفة الأسماء التى هى أهم مقومات الخلافة، التى تطلعوا إليها، وظنوا أنهم أجدر وأحق بها، يُؤَكِّدِ هذا المعنى قوله تعالى تعقيبا (إن كنتم صادقين).

[قال ابن جـرير عن الحسن وقـتادة «إن كنتم صادقـين» أنى لم أخلق خـلقا إلا كنتم أعلم منه][4].

وثمة قول بأن معنى «إن كنتم صادقـين» منصرف إلى الافساد وسفك الدماء أى إن كنتم صادقين فى زعمكم بإفساد الإنسان.

وقال السعدى: أى أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء][5].

---

(١) ابن كثي/ التفسير جـ١/ صـ٧٠,٧١.

(٢) أبو السعود/ التفسي/ جـ١/ صـ١٤٨.

(٣) الالوسى/ روح المعانى/ جـ١/ صـ٢٢٥.

(٤) الطبرى وابن كثير وغيرهما.

(٥) تفسير ابن كثير/ جـ١/ صـ٧٠.

وهذا قول ضعيف لأن علمهم بأن ابناء آدم سيفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء علم صحيح صادق تلقوه من الله عز وجل.

لذلك لانجد هذا القول مأثوراً عن غير السدى، بينما اتفق الجمهور على المعنى الأول.

قال أبو السعود [«ان كنتم صادقين» أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته كما ينبئ عنه مقالكم](1).

كذلك قال الخازن فى تفسيره [«إن كنتم صادقين» اى أنى لم أخلق خلقاً الا أنتم أفضل منه](2).

وقال الالوسى [«ان كنتم صادقين» فى زعمكم أنكم أحق بالاستخلاف](3).

فكأنه يلزم لتصديق زعم الملائكة بأنهم أحق بالخلافة معرفة أسماء مافى الأرض على الأقل لأن [التصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه باعتبار مايلزمه من الاخبار، فإن أدنى مراتب الاستحقاق هو الوقوف على أسماء مافى الأرض](4).

وهذا ما ذكرناه من أن علم الاسماء هو المؤهل الأول الرئيسى للاستخلاف، وإن كان أبو السعود يرى أنه الحد الادنى اللازم لهذه المؤهلات بما يفيد وجود مؤهلات ومقومات غيره إلا أنها لن تكون- حسب تعبيره وفهمه رحمه الله تعالى- ضرورية مثل علم الأسماء.

ومما طرحه المفسِّرون للبحث حيال هذه الآية الكريمة مسألتان:

الأولى: وتتمثل فى سؤال السائل: لماذا قال تعالى أنبئونى ولم يقل أخبرونى؟.

---

(١) أبو السعود/ التفسير/ جـ١/ صـ١٤٨.

(٢) الخازن/ التفسير/ جـ١/ صـ٤٧.

(٣) الألوسى/ روح المعانى/ جـ١/ صـ٢٢٥.

(٤) أبو السعود/ التفسير/ جـ١/ صـ١٤٨.

ولعل أدق ماقيل فى معرض الإجابة على هذا السؤال أن (الإنباء إخبار فيه إعلام، ولذلك يجرى مجرى كل منهما، والمراد هاهنا ماخلافه، وايثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الاسماء وعظم خطرها، فإن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم)[1].

وأيد الالوسى أبا السعود فى هذ القول إذ قال [والإنباء فى الأصل مطلق الإخبار، وهو الظاهر هنا، ويطلق على الإخبار بما فيه فائدة عظيمة ويحصل به علم أو غلبه ظن.

وقال بعضهم أنه إخبار فيه إعلام، وأختاره هنا على ماقيل للإيذان برفعه شأن الاسماء وعظم خطرها، وهذ مبنى على أن النبأ إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم][2].

ويكفى دلالة على خطر الخلافة فى حياة الإنسان أن مؤهلها وهو علم الأسماء أمر خطير الشأن عظيم الأثر حتى أن الله جل جلاله إعتبر القول بالاسماء من الإنباء وليس من الإخبار او الإعلام.

ويستتبع هذه النتيجة بلا شك أن مفهوم الخلافة يدخل فى حقيقة الإنسانية بصفة جوهرية بحيث تصبح مميزا للإنسان عن غيره من المخلوقات.

الثانية: تتمثل فى السؤال القائل:

ما الحكمة فى أن الله عز وجل قد أعرض عن الإجابة على سؤال الملائكة ﴿**اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟**﴾ وطالبهم بمعرفة الأسماء؟.

يقول أبو السعود فى بيان الحكمة [وأما ماقيل من أن المعنى فى زعمكم أنى استخلف فى الأرض مفسدين وسفاكين للدماء فليس مما يقتضيه المقام].[3]

---

(١) ابو السعود/ التفسير/ جـ١/ صـ١٤٨.

(٢) الالوس/ روح المعانى/ جـ١ صـ٢٢٥.

(٣) أبو السعود/ التفسير/ جـ ١ صـ ١٤٩.

ومراد أبى السعود من هذا القول أن الله عز وجل أبطل تعجب الملائكة من استخلاف الإنسان مع إفساده بإظهار المزية والخاصية الرئيسية الضرورية التى أهله بها للخلافة، رغم كونه مفسدًا، لذا كان رد الله تعالى على سؤالهم **﴿إنى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾**(١).

ومن ثم ظهر لهم تفضل الله تعالى عليه بعلم الاسماء الذى ليس عندهم، وهو امر خطير الشأن عظيم القدر تأهل به الإنسان للاستخلاف دونهم.

ومن ثم اقر الملائكةبالعجز عن معرفة الاسماء وأيقنوا بذلك استحقاق الإنسان للخلافة دونهم ومن ثم يكون إعراض الله عز وجل عن سؤال الملائكة عن إفساد الإنسان ليس إعراضاً عن جوهر السؤال لأن جوهر السؤال ليس عن الافساد أو سببه أو كيفيته. وإنما جوهر السؤال عن الحكمة التى من أجلها آثر الإنسان بالخلافة رغم إتصافه بما يجعله غير جدير بها وإتصافهم بما يجعلهم أحق بها فى نظرهم. فكان إظهار علم آدم بالأسماء كلها، وإخفاقهم فى معرفتها هو الرد المناسب تماما على سؤالهم.

د- تفسير قوله تعالى **﴿قالوا: سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا انك انت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال الم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون﴾**(٢).

وهذا هو ردهم على أمر الله عز وجل لهم بالإنباء عن أسماء المعروضات، وفيه اقرار بالعجز وتنزيه لله عز وجل وتقديسه عن أن يعلموا مالم يعلمهم هو عز وجل إياه، وهذا هو الذى جعل أمر الله تعالى لهم للتبكيت والتعجيز.

---

(١) ٣١/البقرة.

(٢) ٣٢, ٣٣/البقرة.

روى طلحة بن عبيدالله قال سألت رسول الله ﷺ عن تفسير «سبحان الله» فقال: (هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء)(١).

قال ابن كثير (هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط بشئ من علمه الابما شاء وأن يعلموا شيئا الا ماعلمهم الله تعالى)(٢).

وقال أبو السعود هذا (اعتراف منهم بالعجز مما كُلِّفُوه)(٣).

والنتيجة التي نقررها مفصلة بهذا الصدد هي أن جمهور المفسِّرين، سواء أهل الأثر أم أهل الرأى، قد إتفقوا على أن أمر الله عز وجل للملائكة بالإنباء بعلم الإسماء وكذلك ردهم يتضمنان الافادات والنتائج التالية:-

الأول: أنه رد من الله عز وجل على سؤالهم وتعجبهم لجعل المفسد فى الأرض خليفة

الثانية: أنه طلب ذلك منهم لاظهار عجزهم علاوة على تبكيتهم.

الثالثة: أن العبودية لله تعالى وتسبيحه وتقديسه ليس ما استحق به آدم الخلافة هو وأبناؤه، بل علم الاسماء الذى خصه الله به دون الملائكة والجن.

فلما أقر الملائكة بعجزهم أدركوا أن ثمة حكمة من طلب الله لهم بالانباء بالاسماء فناسب فى هذا المقام وصف الملائكة عليهم السلام الله عز وجل بالعلم والحكمة ﴿إنك أنت العليم الحكيم..﴾ فإذ كان الموضوع هو إيثار الله عز وجل الإنسان بعلم الاسماء، فهو سبحانه وتعالى العليم الذى لايعلم أحد من خلقه شيئا إلا إذا علمه إياه، كما أنه عز وجل لايخلق خلقا ولايعلِّم أحدًا من خلقه شيئا الا لحكمة.

---

(١) تفسير القرطبى/ جـ١/ صـ٢٧٦.

(٢) الصابونى/ مختصر تفسى ابن كثير/ جـ١/ صـ٥٢.

(٣) ابو السعود/ التفسير/ جـ١/ صـ١٥٠.

ومعنى هذا أن الملائكة أقروا بجدارة الإنسان بالخلافة، أقروا بذلك، وقد علموا أن الله عز وجل لم يخصه بالخلافة دونهم إلا لحكمة جليلة شاءها سبحانه.

قال ابن كثير فى معنى الآية **﴿أى العليم بكل شئ الحكم فى خلقك وأمرك﴾**[١].

فلما أقروا بعدم معرفتهم بالأسماء أمر الله تعالى آدم أن يخبرهم بها إظهاراً لعلمه **﴿قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم﴾** حتى يعلموا مؤهلك للخلافة(أى أعلمهم بالأسماء التى عجزو عن علمها[٢]. واعترفوا بتقاصرهممهم عن بلوغ مرتبتها) **﴿فلما أنبأهم بأسمائهم...﴾**. ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام فى سرد ماعلمه الله تعالى من اسماء الأشياء)[٣].

ولو لم يرد بهذه الصراحة- ذكر إنباء وإعلام آدم الملائكة بالأسماء لكان ذلك مفهوما ومقرراً من السياق، ولكن ذكره صراحة دليل على أهمية وخطورة علم الأسماء بالنسبة لآدم ولذريته، كما أنه دليل على الصلة الوثيقة بين علم الأسماء وبين الاستخلاف.

ومن ثم جاء رد المولى جل وعلا على الملائكة بقوله لهم: **﴿قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض..﴾**. فمن غيب السماوات والأرض ماخفى علمه عن الملائكة وهو أهلية الإنسان للإستخلاف فى الأرض بما أمده الله تعالى بمقومات لها أولها وأهمها علم الأسماء.

قال أبو السعود فى معنى هذه الآية (كأنه قيل ألم أقل لكم إنى أعلم فيه من دواعى الخلافة مالاتعلمونه فيه هو هذا الذى عاينتموه). يقصد علم الأسماء. أما

---

(١) الاصبونى/ مختصر ابن كثير/ جـ١/ صـ٥٤.

(٢) الصابونى/ صفوة التعاسير/ جـ١/ صـ٤٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير/ جـ١/ صـ٥٤.

قوله تعالى. ﴿.. وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون...﴾ فقد قال أهل الأثر من المفسرين أن المقصود بما أبداه الملائكة وماكتموه هو (ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار..

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع ابن أنس ﴿وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون﴾ فكان الذى أبدوه هو قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ وكان الذى كتموا هو قولهم: لن يخلق الله خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم فى العلم والكرم.

وقال ابن جرير: وأولى الاقوال فى ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى ﴿وأعلم ماتبدون﴾ وأعلم مع علمى بغيب السماوات والأرض ماتظهرونه بألسنتكم، وماكنتم تخفون فى أنفسكم فلا يخفى علىَّ شئ. سواء عندى سرائركم وعلانيتكم.

والذى أظهروه بالسنتهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها..﴾ والذى كانوا يكتمون ماكان عليه منطويا إبليس من الخلاف على الله فى أوامره والتكبر على طاعة.

قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قتل الجيش وهزموا، وإنما قتل الواحد أو البعض وهُزم الواحد أو البعض).

ومع هذا نجد أن أكثر المفسرين بأخذون بالقول الآخر الذى سبق ذكره والذى ينسب ماكتموه إلى الملائكة جميعا وليس إلى إبليس وحده .

قال البغوى (وروى عن الحسن وقتادة (يعنى ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها..﴾ ﴿وماكنتم تكتمون﴾ يعنى قولكم لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا)[1].

وقال أبو السعود(المراد بما يبدون قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾، وبما يكتمون استبطانهم أنهم إحقاء بالخلافةوأنه تعالى لايخلق خلقا أفضل منهم)[2].

---

(١) تفسير البغوى بهامش تفسير الخازن/ جـ١/ صـ٤٧.

(٢) أبو السعود/ التفسير/ جـ١/ صـ١٥١.

ومن ثم يمكن أن نقرر حيال تفسير هذه الآية الكريمة ما يلى :-

أولاً: إتفاق أهل الأثر وأهل الرأى من المفسريـن على أن المراد من قوله تعالى للملائكة «ما تُبْدُون» هو قولهم «أتجعل . . ».

ثانيا: إختلافهم حول المراد بقوله تعالى "وماكنتم تكتمون" إلى قولين:

١- ان ذلك إشارة إلى ماكتمه إبليس فى نفسه من كفر وحقد وحسد.

٢- أن المراد هو تـطلع الملائكة إلـى منصب الخلافـة وظنهم أنهم أحـق به من الإنسان وقولهم أن الله عز وجل لن يخلق من هو أكرم ولا أعلم منهم.

وأرى- والله تعالى أعلم- أن هذين القولين ليسا متعارضين وإن كانا متغايرين.

ومن ثم يمكن إرجاعهما إلى حقيقة أساسية واحدة ينبثقان منها ولاخلاف حولها بين المفـسرين وهى أن إنبـاء الله عز وجل للمـلائكة يجعـل الإنسان خليـفة، كان إعلاما لهم ولـلجن ممثلا فى شخص إبـليس، الذى كان معهم، إذ قـال الله تعالى لهم ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾.

فإذا كان الملائـكة قد ظنوا فى أنفـسهم أنهم أكرم عـند الله عز وجل ، وأن الله تعالى لـن يخلق أفضل منـهم، فإنه مما لاشك فيـه أن هـذا كان فى نفـس إبليس أيضا.

لكن إبلـيس إفترق عن الملائـكة إذ رفض الاقرار لآدم بالافضـلية والتسلـيم له بأحقيـته بالخلافة، وذلك برفـضه السجود له فـى الوقت الذى سجد فيـه الملائكة كلهم أجمعون.

ومن ثم يمكن الجمع بين القولين: الأول الذى خـصص الكتمان لابليس فقط، والثانى الذى عممه على كل الملائكة، فتقول:

ان الخطاب الالهى كان موجها للملائكة وإبليس جميعا فما المانع أن يكون قوله تعالى ﴿وما كنتم تكتمون﴾ أى ماكتمتوه أيها الملائكة بقـولكم فى أنفسكم أننا أحق وأجدر بالخلافة وماكتمه إبليس فى نفسه من حقد وحسد حيال الإنسان الذى فضله الله عليه فأظهـر الله تعالى ذلك كله بإخبار الملائـكة بأنه يعلم مايكتـمونه ويأمرهم بالسجود إبتلاء لابليـس لفضح ما كان يخفيه وما كان يكتمـــه فى نفسه من حسد لآدم وبنيه.

الفصل الثالث

سجود الملائكة لآدم ومغـزاه الوجـودي

٧ - علاقة السجود بالإستخلاف .

٨ - أكان سجود الملائكة لآدم أم كان إلى آدم ؟ .

٩ - هل كان السجود لشخصه أم كان بصفته ممثلاً للإنسانية ؟ .

١٠- رفض إبليس السجود لآدم وصلته بالخلافة .



٧-علاقة السجود بالاستخلاف:-

قال تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾.

أى واذكر يامحمد حين أمرنا الملائكة أن يسجدوا لآدم. فالعلاقة بين السجود والخلافة واضحة جلية، لأنه مهما قيل فى معنى السجود، فإنه يحمل معنى التكريم والتفضيل.

فأمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم هو أمر منه تعالى بالاقرار له بالافضلية أو بتعبير أدق نقول: إن الاقرار لآدم بالتفضيل والاستخلاف من لوازم السجود.

وحيث أن الحوار كان حول الخلافة وماكان فى نفس الملائكة إذ تعجبوا من إستخلاف الله عز وجل الإنسان مع إفساده وسفكه للدماء، مما يثبت أن مفهوم الخلافة أو حقيقة الاستخلاف تتضمن معنى التفضيل والتكريم فأثار تعجبَّهم تكريمُ وتفضيلُ المفسدَ على المسبِّح.

ثم نظرا لابطال الله تعالى تعجبهم بعد ذلك بكشف تميز آدم بعلم الأسماء الذى عجزوا هم عن إدراكه.

ونظرا لأن فيهم كائنا قابلا للابتلاء كالإنسان، فهو مستطيع إما للطاعة وإما للمعصية لأنه ليس من جنس الملائكة، وإن كان معهم- وهو إبليس الذى كان من الجن.

نظرا لكل هذا، فإن أمر الله تعالى للملائكة ولابليس بالسجود لآدم هو أمر كونى الزامى من الله تعالى للملائكة بالاقرار بأفضلية آدم بعد أن كشف الله تعالى لهم سر تفضيله بالخلافة وهو- أى الأمر بالسجود ـ أمر ابتلائى تخييرى تشريعى لابليس بالاقرار بتكريم الإنسان وتفضيله عليه وعلى نوعه، وبالتسليم له بالخلافة. وهذا ليس لآدم وحده بل للإنسانية جمعاء.

أى أن الأمر بالسجود هو أمر إلهى بالاقرار العملى بذلك، لكنه ـ مع كونه أمرا الهيا واحدًا- كان كونيا بالنسبة للملائكة عليهم السلام، وتخييريا ابتلائيا بالنسبة لابليس لعنه الله.

فلما سجدوا كان هذا إقرارًا منهم بأحقية آدم بالخلافة وصاروا بمقتضى هذا الأمر وهذا السجود مكلفين ومطيعين لامر الله تعالي بمساعدة الإنسان فى تحقيق خلافته لله عز وجل فى الأرض. أى أنهم صاروا بذلك أولياءه.

وترتب على رفض إبليس السجود لآدم أنه صار عدوا له ولذريته، يحاول بكل جهده مع ذريته من شياطين الجن أن يعيقوا الإنسان ويحيلوا بينه وبين أن يكون خليفة كما أراد الله تعالي منه.

أي أن رفض إبليس السجود لآدم ليس معناه رفض الاقرار للإنسان بالافضلية فقط، بل إستتبع أيضا عداوته ومحاولات الشياطين الدءوبة اللحوحة لزحزحة الإنسان عن هذه المكانة ولتضييع ماحباه الله تعالى به من تكريم وتفضيل وتشريف منه بإعاقته عن تحقيق الخلافة لله عز وجل.

فاستخلاف الإنسان فى الأرض تكريم وتفضيل له على سائر المخلوقات والسجود اقرار بالاثنين معاً له لان الاقرار بالخلافة للإنسان اقرار له بالتكريم والتفضيل، والاقرار بالتكريم والتفضيل إقرار له بالاستخلاف.

وهذا يفسر لنا معنى السجود الذى وقع من الملائكة لآدم عليه السلام.

وبالرغم من هذا الوضوح فى الصلة بين الاستخلاف والامر بالسجود، فإن قضية جانبية حول سجود الملائكة أثيرت فى كتب التفسير بعدت بكثير من المفسرين عن الانتباه لهذه العلاقة الوثيقة بينهما والحديث عنها.

٨- هل كان سجود الملائكة لآدم أو كان سجوداً إلى آدم؟:-

هذه القضية الجانبية تتمثل فى السؤال التالى: كيف تسجد الملائكة لغير الله عز

وجل؟ أليس فى هذا ما يخالف التوحيد؟ وقد استغرقت الإجابة على هذا السؤال جهود المفسرين، وذلك بهدف نفى العبادة عن سجود الملائكة، حيث أنه لامعبود بحق إلا الله عز وجل، كما أنه من المسلم به أن الله تعالى لايأمر عباده بالمنكر وعبادة غيره عز وجل شرك، والله عز وجل لايأمر به.

ومن ثم حدث خلاف حول معنى سجود الملائكة لآدم، فقال بعضهم إنه لم يكن سجودًا لآدم بل كان سجوداً إلى آدم، أى أن سجودهم كان لله تعالى، وآدم كان بمثابة القبلة، كما يسجد المسلمون لله تعالى متوجهين للكعبة.

وقال أكثرهم بأنه سجود حقيقى لآدم ولكنه ليس بنية العبادة والتألية له، بل بمعنى التكريم والإقرار بالتفضيل وهو ماسنعرضه تفصيلا بإذن الله تعالى.

فمن قالوا بالمعنى الأول القاضى أبو بكر ابن العربى فى أحكام القرآن إذ قال(اتفقت الأمة على أن السجود لآدم لم يكن سجود عبادة وإنما كان على أحد وجهين: إما سلام الاعاجم بالتكفى والإنحناء والتعظيم. وأما وضعه قبلة كالسجود للكعبة وبيت المقدس وهو الاقوى لقوله فى الآية الأخرى ﴿**فقعوا له ساجدين**﴾ ولم يكن على معني التعظيم، وإنما صدر على وجه الالزام للعبادة وإتخاذه قبلة. وقد نسخ الله تعالى جميع ذلك فى هذه الملة)[1].

ولكن الجصَّاص يرفض هذا القول الذي رجحه ابن العربى ويقول عنه (وليس هذا بشئ لانه يوجب ان لايكون لآدم فى ذلك حظ من التفضيل والتكرمة وظاهر ذلك يقتضى أن يكون آدم مفضلا مكرما، فذلك كظاهر الحمد، إذ وقع لمن يستحق.

ويدل على أن الامر بالسجود قد كان أراد به تكرمة آدم عليه السلام وتفضيله قول ابليس فيما حكى الله عنه ﴿**أأسجد لمن خلقت طينا، قال أرأيتك هذا الذى**

---

(١) أبو بكر ابن العربى/ أحكام القرآن/ جـ١/ صـ١٦.

كرمت عليَّ﴾ فأخبر إبليس أن إمتناعه عن السجود كان لأجل ما كان من تفضيل الله وتكرمته بأمره إياه بالسجود له)[1].

وذُكر هذا المعنى عن كثير من السلف منهم قتادة الذى نسب له ابن كثير قوله (كانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته)[2].

ثم قال ابن كثير (كان هذا سجود تحية وسلام واكرام وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها. والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم كانت إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما)[3].

وهذا هو الذى رجحه الرازى فى تفسيره ورفض المعنى الأول. كما رفض ايضا قول القائلين بان السجود لم يكن بالهيئة المعروفة للسجود أى الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وقرر أن السجود كان سجوداً لآدم وكان سجوداً حقيقياً[4].

وقال الالوسى فى روح المعانى (﴿وإذا قلنا للملائكة إسجدوا لآدم﴾ العطف من عطف القصة على القصة، وفى كل تعداد نعمة، مع أن الأول تحقيق للفضل، وهذا اعتراف به.

وحكمة الأمر بالسجود إظهار الاعتراف بفضله عليه السلام)[4].

وقد حسم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى القضية بقوله فيما سجله عنه القاسمى فى محاسن التأويل إذ قال(قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قال أهل العلم السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه، وعلى هذا إحمال كل من يسمع قوله، فإن الله تعالى قال (إسجدوا لآدم، ولم يقل: إلى آدم، وكل حرف له معنى، وفرق بين سجدتُ له وسجدتُ إليه. قال تعالى ﴿لاتسجدوا للشمس ولا للقمر

---

(١) الجصاص / أحكام القرآن / جـ١/ صـ٣٧,٣٨.

(٢) الصابونى/ مختصر تفسير ابن كثير/ جـ١/ صـ٥٣.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) الالوس/ روح المعانى/ جـ١/ صـ٢٢٨.

وإسـجدوا لله الـذي خلـقهـن ولله يسـجد مـن فى الـسمـاوات والأرض﴾ أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشـجار والدواب محرم وأما الكعبة فيقال: كان النبى ﷺ يصلـى إلى بيت المقدس ثم صلى إلى الكعبة، ولايـقال صلى لبيت المقدس ولا للكعبة.

والصواب أن الخضوع بالقلوب والاعتراف بـالعبودية لايُصلَّى على الاطلاق الا لله سبحانه.

وأما السجود فشريعة من الشرائع يتبـع الأمر، فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه لسجدنا طاعة واتباعا لأمره، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم. وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام ولم يأت أن آدم سجد للملائكة، بل لم يؤمر بالسجود الا لله رب العالمين، وبالجملة أهل السنة قالوا إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له.

وقال المعتزلة: كان آدم كالقبلة يسجـد إليه ولم يسجدوا له، قالوا ذلك هربا من أن تكون الآية الكريمة حـجة له، عليهم، فإن أهل السنة قالوا إبـليس من الملائكة وصالح البشر أفضل من الملائكة، وإحتجـوا بسجود الملائكة لآدم وخالفت المعتزلة فى ذلك وقالت الملائكة أفضل من البشر وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة ويبطله ماحكى الله سبحانه عن إبليس قال أرأيتك هذا الذي كرمت على .... الآية)[1].

أى أن إستخـلاف الإنسان فى الأرض، هـو الذى تحقق بـه فضل آدم وتكـريمه وتشريفه، والأمر بـالسجود هو إظهار الاعتراف، والإقرار بـه من الملائكة. وقول المعتزلة فى السجود مضيع لهذا المعنى ومذهب لشرف الإنسان ومخالف لما تقرر من الجمهور آنفا كمعنى لآدم من السياق، ورابط بين الاستخلاف والسجود.

---

(١) محمد جـمال الدين القاسمى/ مـحاسن التأويل المعروف بـتفسير القاسـمى طبع باشراف وتحقيـق وتخريج محمد فؤاد عبدالباقى / جـ٢/ صـ٩٩.

ومن الادلة التى يمكن أن نسوقها لتقوية هذا التأويل وتأكيده هو نتيجة المقارنة بين قوله تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا﴾ وبين قوله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة..﴾. ففى الأخيرة كان الخطاب من الله تعالى للملائكة للإخبار عن مشيئته تعالى بخلق مخلوق جديد فى الكون وجعله خليفة فى الأرض.

ومن ثم قال «ربك» لان الخلق من شأن الربوبية، كما أن التفضيل والتكريم والعطاء والمنة على المخلوق هو من شأن الربوبية كذلك.

أما فى آية الأمر بالسجود الذي كان بعد إزالة تعجب الملائكة وبيان الحكمة من استخلاف الإنسان وتأهيلة بعلم الأسماء فقد كان الأمر بالسجود أمراً إلاهياً ملزما لامجال حيالة للتردد أو المحاورة أو حتى السؤل للاستفهام عن الحكمة منه، لذا فقد نفذوا الأمر على الفور وخروا ساجدين دون ما أدنى تردد.

ولأن الأمر كان صادرا لهم من جبار السموات والأرض العلى العظيم فناسب قوله تعالى (وإذ قلنا) حيث من المعروف لغة أن صيغة الجمع للتعظيم، فبينما كان الأمر فى آية الاستخلاف بصيغة الغائب جاء فى آية السجود بصيغة المتكلم وفى هذا الإلتفات (من الغائب للمتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة)[1].

٩- هل كان السجود لآدم لشخصه أم كان بصفته ممثلا للإنسانية:-

من المسائل الهامة المتعلقة بسجود الملائكة لآدم عليه السلام ولم تنل الأهمية التى تستحقها فى كثير من مصادر التفسير، بالرغم من أنها أولى من غيرها بالنظر والبحث لما لها من علاقة وثيقة بمفهوم الخلافة وتحديد من هو الخليفة؟.

أهو آدم فقط؟.

أم هو آدم وبعض ذريته من الصالحين؟

أم هو آدم وكل ذريته بلا إستثناء؟

---

(١) نفس المصدر والصفحة

فلو كان السجود لآدم فقط لحصر هذا الخلافة في آدم بشخصه.

أما لو كان السجود لآدم ممثلا لكل البشر أو كان السجود لكل الناس قاطبة لكان هذا دليلا وأضحا على أن الخلافة تعم كل البشر بلا إستثناء.

إذاً هذه المسألة تتمثل فى السؤال التالى :-

هل كان سجود الملائكة لآدم بشخصه أو كان بصفته ممثلا لنوعه؟.

إن الاجابة واضحة صريحة فى القرآن الكريم متمثلة فى قوله جل وعلا ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**﴾[١].

وقد قيل فى هذه الآية عدة أقوال:

الأول: خلقناكم بمعنى خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم. وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيما لأنه أبو البشر[٢] وهو قول الحسن ويوسف النحوى[٣]. وهذا القول مخالف لظاهر الآية لأن ظاهر الآية يقتضى أن أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقع بعد خلقنا وتصويرنا، ومعلوم أنه ليس الامر كذلك)[٤].

وأصحاب هذا القول يقولون أن أمر الملائكة بالسجود لآدم تأخر عن خلق آدم وتصويره، ولم يتأخر عن خلقنا وتصويرنا.

ولكن ثمة اعتراض على قولهم، عرضه الرازى فى هذا السؤال: كيف يحسن جعل خلقنا وتصويرنا كناية عن خلق آدم وتصويره؟.

والرد على هذا الاعتراض (أن آدم عليه السلام أصل البشر، فوجب أن تحسن

---

(١) آية ١١/ صورة الأعراف.

(٢) الصابونى/ صفوة التفاسير/ جـ١/ صـ٤٣٨.

(٣، ٤) الفخر الرازى/ التفسير الكبير/ الجزء/ ١٤/ صـ٣٠.

هذه الكناية، نظيره قوله (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) أى ميثاق أسلافكم من بنى إسرائيل في زمان موسى . . . . وقال تعالى مخاطبا لليهود فى زمان محمد ﷺ ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾. ﴿وإذ قتلتم نفسا﴾ والمراد من جميع هذه الخطابات أسلافهم فكذا ههنا)[1].

الثاني: (ان المراد بقوله ﴿خلقناكم﴾ آدم ﴿ثم صورناكم﴾ أى صورنا ذرية آدم عليه السلام فى ظهره، ثم بعد ذلك قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، وهذا قول مجاهد. فذكر أنه تعالى خلق آدم أولا، ثم أخرج اولاده من ظهره فى صورة الذر، ثم بعد ذلك أمر الملائكة للسجود لآدم).

القول الثالث: [ان الخلق فى اللغة عبارة عن التقدير، كما قررناه فى هذا الكتاب، وتقدير الله عبارة عن علمه بالأشياء ومشيئته لتخصيص كل شئ بمقداره المعين، فقوله (خلقناكم) إشارة إلي حكم الله وتقديره لأحداث البشر فى هذا العالم، وقوله صورناكم إشارة الى أنه تعالى أثبت فى اللوح المحفوظ صورة كل شئ كائن مُحْدَثٍ الى قيام الساعة، على ما جاء فى الخبر أنه تعالى قال: إكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فَخَلْقُ الله عبارة عن حُكْمِه ومشيئته، والتصوير عبارة عن إثبات صور الأشياء فى اللوح المحفوظ. ثم بعد هذين الأمرين أحدث الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له] ثم يقول الرازى [وهذا التأويل عندى أقرب من سائر الوجوه][1] ويضيف ابو السعود فائدة لغوية من قوله تعالى [ولقد] بقوله [وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لاظهار كمال العناية بمضمونها] وهو يُرَجِّح القول الاول الذى يفسر (خلقناكم ثم صورناكم) بمعنى خلقنا أباكم آدم وصورناه، فيقول [وإنما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين، مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام، وتصويره حتما تَوْفِيَةً لمقام الامتنان حقه، وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم، بالرمز إلى أن لهم حظا من خلقه عليه السلام وتصويره ، لما أنهما ليسا فى الخصائص المقصُورة عليه - عليه السلام - كسجود الملائكة له عليه

---

(١) المصدر السابق ونفس الموضع.

السلام، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعا، إذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نَمَطِهِ ومصنوع على شاكلته فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره][1].

وقد حاول الأخفش نفى التراخي والترتيب الذين تفيدهما «ثم» فى الآية، وقال إنها بمعنى الواو ولكن [الزجاج تعقبه بأن هذا خطأ لايجيزه الخليل وسيبويه ولا من يوثق بعلمه، لأن ثم للشئ الذى يكون بعد المذكور قبله لاغيره][2].

وهذا يفيد أن الامر بالسجود لآدم كان بعد خلق آدم وتصويره وخلق أبنائه جميعا وتصويرهم حسب ظاهر الآية ومقتضى اللغة، ومن ثم حاول المفسرون تأوبل المعني بحيث يتوافق مع القول بأن خلق أبناء آدم وذريته كان بعد سجود الملائكة لاقبله، باعتبارها حقيقة واقعة معلومة بالضرورة.

وقد أورد الالوس مايؤيد القول الثاني أثرا عن [ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة والسدى أن المعنى : خلقنا آدم عليه السلام ثم صورناكم فى ظهره ثم قلنا للملائكة إسجدوا لآدم . . . .][3].

والذى أُرَجِّحُهُ - والله تعالى أعلم - هو إستبعاد قول الرازى أن خلقناكم ثم صورناكم بمعنى التقدير، لأن التقدير سارى على جميع الخلق وقبل خلق آدم فلا معني اذاً للترتيب الوارد في الآية ولاخصوصية إذاً لهذه النعمة إذ قوله تعالى **﴿ولقد خلقناكم....﴾** معطوفا على قوله تعالى فى الآية السابقة **﴿ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما نشكرون﴾**[4]. ونظراً لان نعمة التمكين فى الارض وتقدير وتيسير المعايش فيها للانسان هي من النعم المترتبة على الخلاقة واللازمة للإستخلاف، فقد عطف المولى عز وجل خبر إسجاد الملائكة - كنعمة للانسان متصلة بالاستخلاف - على نعمة التمكين.

والذى أراه أن القول المأثور عن السلف هو الصحيح، ذلك أن القرآن الكريم

---

(١) تفسير أبى السعود / او إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الحكيم تحقيق عبد القادر عطا/ حـ ٢/ ص ٣٢٥ الناشر مكرتبة الرياض الحديثة بالرياض.

(٢) الالوس / روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى حـ ٨/ ص ٨٦ دار أحيا التراث العربى .

(٣) الالوس / روح المعانى / حـ ٨ / ص ٨٦.

(٤) الاعراف / ١٠.

يثبت خلقا أول للانسان بِكَيْنُونَة سابقة على خلقه فى رحم أمه وتواترت الأخبار عن الوجود الانسانى فى عالم الذر.

كما أن ماوصلنا عن علم الوراثة يفيد أن العوامل الوراثية المسجلة فى الخلية الذكرية والبويضه الانثوية من منى الرجل وماء المرأة عبارة عن سجل دقيق جدا لكل ما يكون عليه الكائن البشرى الذى يخلقه الله عز وجل من هاتين الخليتين.

حتى قال علماء هذا التخصص : إن المعلومات المسجلة فيهما أو فى الخلية المكونة منهما (العلقة) تتضمن أوصاف كاملة لكل ما سيكون عليه الكائن البشرى بعد تمام تكوينه.

فما الذى يمنع أن يكون معنى «خلقناكم»: أى خلق الله تعالى فى ظهر أدم الذر الذى يخلق منه الله عز وجل ذريته بالهيئة والصورة المعروفة لنا الآن فى الحياة الدنيا ، كما يكون معنى «صورناكم» : أنه عز وجل ضَمَّن فى الذرات كل صفات وخصائص وأحوال البشر، بحيث تكون ذرة كل منهم محتوية على صورته التى سيكون عليها فى الدنيا، أى على النسب والكيفيات والمقادير التى تتكون منها صورته حَتْماً : فيكون هذا تقديراً وإيجاداً لهم فى مرحلة أولى وفى هيئة مختلفة عن حقيقتهم فى الدنيا، لكنها تتضمن عوامل تميزهم الفردى في عالم الذر، ويكون هذا خلقا وتصويراً للناس سابقا لخلقهم وتصويرهم فى الارحام [قال الامام مالك بن أنس في موطئه عن زيد بن أبى انيسه ان عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم الست بربكم؟ قالوا: بلى﴾[1]. فقال ابن الخطاب سمعتُ رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال ﴿ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية - قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فإستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون﴾[2].

(١) الاعراف / ١٧٢.

(٢) ابن كثير / قصصى الانبياء / ص ٥٠.

قال ابن كثير بعد ذلك [وهذه الأحاديث كلها دالة على إستخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر][1].

كما أورد ابن كثير فى تفسير آية الاشهاد هذا الخبر فقال [وقال أبو جعفر الرازى: عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى **﴿وإذ أخذ ربك .....﴾** الاية والتى بعدها.

قال: فجمعهم له يومئذ جميعا، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فخلقهم ثم صورهم، ثم إستنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق][2].

ثم إستكمل ابن كثير بعد ذلك بعض تفاصيل الخبر حتى قال [ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك . .] [3].

وعلى هذا فإن معنى قوله تعالى **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾** إشارة إلى الخلق الأول فى عالم الذر خاصة وأن الخبر السابق ورد فيه التصوير فى عالم الذر، وأن آدم عليه السلام رأى صور أبنائه، فمنهم حسن الصورة ومنهم دون ذلك.

فما الذى يمنع أن يكون السجود لآدم بعد ذلك حسب ظاهر الآية مما يجعلنا فى غنى عن التأويل؟ ومع هذا فلو أخذنا بالرأى الاول القائل أن السجود كان لآدم، والخلق والتصوير كان لآدم، دون أبنائه، وإنما خوطب أبناؤه بذلك كنايةً عنه، فإن المعنى الخاص بتحديد المسجود له لايختلف، إذ يكون الملائكة قد أُمروا بالسجود لآدم وبنيه، وليس له بشخصه فقط، لأنه إذا كان يكنى عن البشرية كلها بآدم، كما يكنى بذكر والد القبيلة عن القبيلة، وكذلك يكنى عن آدم بذريته- كما فى هذه الآية الكريمة، حسب القول الاول - فإن النتيجة اللازمة من هذا كله أن السجود لم يكن لآدم وحده، بل كان له بإعتباره ممثلا وأبا وأصلا لجنسه وذريته.

ولكن إلتزام القول الظاهر الذى دل عليه الأثر أولى وأنسب لتوضيح حقيقة

---

(١) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٥١.

(٢,٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٥٢,٥٣.

الاستخلاف، إذ تكون الملائكة قد سجدت لكل فرد من أفراد البشرية، ومن ثم يكون كل فرد من أفراد البشر خليفة في الأرض، بمقتضى هذه الحقيقة علاوة على ماسبق من أدلة على شمول الاستخلاف.

ولا يعترض معترض على هذا القول بأن اكثر الناس كافرون - كما وردت بذلك النصوص - فكيف يسجد الملائكة المطهرون الموحدون للانسان المفسد الذى يغلب على أفراده الشرك والكفر ويغلب على طبعه الميل للخطأ والوقوع في المعاصى ؟!

وقد يفصل هذا المعترض إعتراضه بقوله: وإذا قبلنا - مع هذا - سجود الملائكة لآدم بإعتباره نبيا مكلما، ولأن الله تعالى كرمه إذ خلقهُ بيديه، وعلَّمه الاسماء وغير ذلك، فإننا لايمكن أن نعقل ونقبل أن يكون سجود الملائكة لكل فرد من أفراد البشرية، مع غلبه الكفر والشرك عليهم، إذ يمتنع عقلا وشرعا أن يكون أفراد الكفرة من الناس أفضل من الملائكة المطهرين الموحدين.

ويتمثل الرد على هذا الاعتراض فى أمرين :

الاول : أن كل ما كرم الله تعالى به آدم من مكرمات فضله بها على سائر خلقة هى له ولأبنائه جميعا. اذ فضله الله تعالى بها باعتباره ممثلا لنوعه وأصلاً له، هذه المكرمات هى :

١- ان الله تعالى خلقه بيديه.

٢- نفخ فيه من روحه.

٣- علمه الأسماء.

٤- إسجدله ملائكته.

٥- أسكة جنته .

فكل مكرمة من هذه المكرمات هى لكل فرد من أفراد البشرية، إما لكينونته كفرد، وإما لذاته كانسان، أى باعتبار ماهيته البشرية.

فكما سوَّى الله تعالى آدم من تراب، فإنه عز وجل يسوى كل فرد في رحم

أمه، وكما نفخ الله تعالى في آدم، ينفـخ في كل أفراد البشر من روحه، واذ علم آدم الأسماء، فـإن هذا العلـم أصبح مغـروسا في عقـل ونفس كل فـرد من أفراد البشر بمقتضى طبيعته وماهيته الإنسانية.

وأما الجنة فمن المعـلوم أن الله تعالي أعد لكل فرد من أفراد البشـرية جنته التى سيورثه إياها فى الآخرة فى حالة إذا ما أحسن واتقى وأطاع ربه.

وأما إسجاد الملائكة، فقد نصت الآية الـكريمة على أن الأمر بالسجود صدر من البارى جل وعلا إليهم، بعد أن خلق الله تعالي كل الناس وصورهم.

ولاشك أن السجود يتضمن التفضيل والإقرار به، ولما كان المشركون والكافرون لا يستحـقون التفضيل والتـكريم، لذا فقد ظهر مـن المتكلمين والعلـماء من رفض إثبات هذا المعنى لـكل الناس بحجة أن أكثرهم كافرون، وهـذا هو مجمل إعتراض من جعلوا الملائكة أفضل من البشر، ورفضوا إثبات سجود الملائكة لآدم، وقالوا: إنه سجود إلي آدم، أو رفضـوا إثبات سجود الملائكة لآدم، ممثلا لـنوعه وأصلا له حتى لايكون التكريم والتفصيل شاملا لكل أفراد ذريته.

وللرد على هذا الاعتراض نقول :

إن سجود الملائكة عليهم السلام لأفراد البـشر، قد وقع لهم وهم على فطرتهم الموحدة المقرة بالـربوبية لله وحده، أى وهم فى التقويم الأحسـن الذى خلقهم الله تعالى فيه، وقبل أن يـكفر الكافر منهم ويشرك المشرك ويعـصى العاصى. لأنه إنما يحدث منهم ذلك كله بعد نزولهم الـى الحياة الدنيا وتمام الإبتلاء. وقد كان إسجاد الملائكة لهم قبل ذلك فى عالم الذر.

فالتفضيل والتكريم واقع لكل أفراد النـوع بلا إستثناء، إذ خلقهم الله تعالى فى أحسن تقويم، وبقاء هذا الـتفضيل والتكريم مرتبط بالمحافظـة على الفطرة الموحدة وعلى التقويم الأحسن .

وليس تفضيل الانسـان على الملائكة هو النتيجة الوحيـدة اللازمة من السجود، إذا ترتب على السجود موقف سلوكي وتحددت بمـقتضاه علاقة الملائكة بالبشر، ألا

وهي ولاية الملائكة للانسان لأن سجود الملائكة كان بمثابة التعبير العملي عن علاقتهم بالخليفة، تلك العلاقة المتمثلة في ولايتهم له. إذا أصبحوا بمقتضى السجود أولياء للانسان، وأعوانا له بأمره تعالى لتحقيق خلاقة الله تعالى فى الأرض.

بل تمتد ولايتهم للمؤمنين من بنى الانسان حتى دار الخلود. قال تعالي ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم إستقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاَّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون. نحنٍ أولياؤكم في الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون نزلا من غفور رحيم**﴾[1].

ولكن ليس كل من أمرهم الله تعالي بالسجود لآدم نفذوا الامر إذ كان معهم إبليس الذى كان من الجن فأبى السجود ومن ثم إستتبع هذا الفسوق منه موقفا مختلفا عن موقف الملائكة وهو موقف العداء من آدم وذريته.

١٠- رفض ابليس السجود لآدم وصلته بالخلافة.

قال تعالى ﴿**إلا إبليس أبي وإستكبر وكان من الكافرين**﴾.

وقد إستتبع رفض إبليس السجود لآدم عداءه للإنسان، أو أن ما أخفاه إبليس فى نفس وأَضْمَرَهُ من حسد وحقد وعداء للإنسان بعد تكريم الله تعالى له وتفضيله لآدم هو الذى كان عليه وسببا لرفض السجود ومن ثم يكون إستمرار العداء بعد ذلك إمتداداً لهذا الحقد والحسد والكراهية ويكون رفض السجود نتيجة لهذا كله.

قال تعالى ﴿**واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا، ما أشهدتهم خلف السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً**﴾[2].

---

(١) آية ٣٠، ٣١، ٣٢ سورة فصلت.

(٢) آية ٥٠، ٥١ / الكهف.

وقال تعالى حاكيا مقالة ابليس عن آدم عليه السلام ﴿**قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن اخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكَنَّ ذريته إلا قليلا**﴾[1].

وقد اختلفت اقوال المفسرين فى ابليس هل هو من الملائكة أم لا؟.

قال طاووس عن ابن عباس: كان ابليس من حى من الملائكة يسمون جنا.

وقال سعيد بن المسيب: كان من ملائكة سماء الدنيا.

وروى ابن جرير عن الحسن بسنده: ماكان ابليس من الملائكة طرفة عين قط. وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح عن الحسن. ورجح ابن كثير أنه من الجن كما رفض الحسن بقوة قول القائل أنه من الملائكة لقول الله عز وجل ﴿**إلا إبليس كان من الجن**﴾.

يوضح هذا ويؤكده أنْ نَذكر أن الملائكة ليسوا مخلوقين للابتلاء، ومن ثم لاتقع منهم المعصية، فهم جنود الله تعالى وسفرته ورسله قال تعالى ﴿**لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ فى حين أنه من المتفق عليه ومن المعلوم بالضرورة أنَّ الجن نوع آخر من الخلق مختلف تماما عن الملائكة، قابل للمعصية والابتلاء، ويحاسبه الله تعالى يوم القيامة كنتيجةلازمة للابتلاء، شأنه فى ذلك كإلانسان سواء بسواء، وينتهى مصير المؤمنين منهم إلى الجنة، كما ينتهى مصير الكافرين والشياطين منهم إلى النار.

لذا استطاع إبليس بإذن الله تعالى الكونى أن يعصى أمر الله تعالى التشريعى التخييرى الابتلائى بالسجود لآدم عليه السلام، فأبى واستكبر. ﴿**وكان من الكافرين**﴾ أى صار من الكافرين بسبب امتناعه.

وأورد ابن كثير عن ابن فورك رحمهما الله تعالى قوله: ﴿**وكان من المكافرين**﴾ تقديره وقد كان فى علم الله من الكافرين ورجح هذا القول القرطبى.

---

(١) آية ٦٢/الاسراء.

وصلة إباء السجود إبليس واستكباره بالخلافة وثيقة إذ هذا الرفض رفض لتكريم آدم عليه السلام وتفضيله عليه قال تعـالى حاكيا مقالته وتبريره لكفره **﴿قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾** . .

فرفض ابليس السجود لآدم هو رفض للاقرار بإفضليته وخيريته عليه.

وحيث أن التفضيل والتكريم والخيرية أمور قائمة على الخلافة أو هذا كله نتيجة لاستخلاف الله تعالـى لآدم وذريته في الأرض، فإن الموقف العملـى السلوكى من ابليـس لآدم وذريته هوالعـمل على تَنْـحِيَته عن الخـلافة ورده إلى أسفل سـافلين ليشاركه مصيـره الاليم فى الآخرة، وهذا معناه الصراع بينـه وبين الإنسان إلى قيام الساعة.



الفصل الرابع

الخلافة والجنة
وعودة لمفهوم الأرض

١١- إسكان آدم الجنة وعلاقته بالاستخلاف .

١٢- اختلاف أقوال المفسرين حول الجنة التى أسكنها الله تعالى آدم وزوجه إلى ثلاثة أقوال .

١٣- علة الاختلاف المتوهم تكمنُ فى صلة القضية بعقيدة القدر .

١٤- ولاية المؤمنين الأبدية لله تعالى فى أرض الجنة امتداد لخلافتهم لله تعالى فى أرض الحياة الدنيا ونتيجة لها .

١٥- الاعتراض على تعميم الاستخلاف فى الدنيا والآخرة والرد عليه .


http://al-maktabeh.com

١١ - إسكان آدم الجنة وعلاقته بالاستخلاف:

قال تعالى ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾.

أباح الله تعالى الجنة لآدم وزوجه يسكن فيها حيث يشاء ويأكل ما شاء منها رغدا أى هنيئا واسعا طيبا، والجدير بالملاحظة والتأمل هنا هو أنه تعالى قال لآدم «أسكن» ولم يقل له أدخل او لم يقل له أورثتك الجنة أو أعطيتك الجنة فى حين أن مايقال لآدم والمؤمنين يوم القيام يفيد دخولهم الجنة توريثاً قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ندخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا)[١]. وقال تعالى (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)[٢].

ومن ثم فإن إسكان آدم وزوجه لم يكن على سبيل الدوام والخلود والأبدية، إذ احتمال خروجه منها قائم، وبقاؤه فيها مشروط بابتعاده عن شجرة نهاه الله تعالى عن الأكل منها بل والاقتراب منها.

أي أن بقاءه فيها أصبح مرهونا بإرادته هو وبإختياره، وخروجه بالتالى أصبح متوقفا على عمله الاختيارى أو الارادى الحر، وبإذن الله تعالى من قبل ومن بعد.

وقد يتوهم البعض أن السياق قد انهى الكلام عن الخلافة فى الأرض، وبدأ موضوعا جديدا بالكلام عن إسكان آدم الجنة. لكن الامر ليس كذلك إذا السياق لإزال موصولاً عن الخلافة.

فبعد أن أسجد الله تعالى ملائكته لآدم، حيث كان السجود بمثابة حفل كونى عظيم لتنصيب الإنسان خليفة فى الأرض، وتتويجه بذلك، كان المتوقع أن ينزل الله تعالى آدم إلى الأرض التى هى مقر خلافته، لكن آدم لم يبدأ عهد الاستخلاف، أى حياته الدنيوية فى الأرض، وإنما بدأه فى الجنة، مما أثار مسألة

---

(١) ٧٥ / النساء.

(٢) الاعراف/ ٤٣.

هامة من مسائل الخلافة بين المفسرين والعلماء، وإن كانت هذه المسألة تمس عقيدة القدر أيضا. وتتلخص هذه المسألة فى السؤال التالى:

إذا كان الله تعالى قد أنبأ الملائكة باستخلاف الإنسان فى الأرض ، فكيف بدأ الوجود الإنسانى فى الجنة؟!.

لقد أورثت هذه القضية توهما لدى البعض بالإختلاف بين هاتين الحقيقتين: حقيقة الإنباء بالإستخلاف فى الأرض، ثم حقيقة إسكان آدم الجنة.

ولقد أدى هذا الاختلاف المتوهم ببعض المفسرين والمتكلمين إلى إنكار دخول آدم جنة الخلد، ومن ثم ثار خلاف بينهم حول الجنة التى كان فيها آدم قبل نزوله إلى الأرض.

هل هى جنة الخلد التى هى دار الثواب والجزاء للمؤمنين فى الآخرة؟.

أم هى جنة أخرى غيرها فى السماء؟!

أم هى جنة ثالثة جعلها الله تعالى فى الأرض؟.

وقبل أن نتناول هذه القضية من خلال عقيدة الاستخلاف، وفى ضوء حقيقة الخلافة، سنعرض لأهم ماقيل من تفسيرات لهذه الآيات عند المفسرين.

فقوله تعالى لآدم (أسكن أنت وزوجك) من السكنى وهو الإفاقة والاستقرار.

ومعنى قوله تعالى (وكلا منها رغدا حيث شئتما)[١]. أى وكلا من ثمارها أكلا رغدا واسعا من أى مكان فيها (ولاتفربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)[٢]. أى ماعدا شجرة واحدة محظور عليكما أن تقرباها وتأكلا منها ولو فعلتما ستكونا من الظالمين لنفسيكما بمعصية الله تعالى.

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، أى فأغواهما الشيطان وأوقعهما فى الزلة، وأخرجهما من الجنة بمعصيتهما[٣].

وقد طرح المفسرون سؤالا عن الشجرة ماهى؟.

---

(١) ، (٢)، (٣) تفسير ابن كثير.

فقيل: أنها الكرمة، وقيل السنبلة، وقيل النخلة، وقيل التينه.

ولاشك أن ما شاكل كل هذه الأسئلة لهو مما يصرف الانظار عن الموضوع الرئيسى للسياق، إذ لو كان تعيين الشجرة أو ذكر إسمها مما يساعد فى فهمه ومعرفته لما سكت الحق تبارك وتعالى عنها ولذكر لنا اسمها العليم الحكيم جل وعلا.

ومن ثم أورد ابن كثير فى تفسيره مذهب ابن جرير الطبرى فى امثال هذه القضية مؤيداً قوله وسالكا نهجه بالعزوف عن الخوض فيها فقال [قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: والصواب فى ذلك أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة ،دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة][1]

١٢ - اختلاف اقوال المفسرين حول الجنة التى أسكنها الله تعالى آدم وزوجه إلى ثلاثة أقوال:

لكن السؤال الذى اختلفت الإجابة عليه بين المفسرين هو الذى طرحناه آنفا عن تعيين الجنة التى أسكنها الله تعالى آدم. وهو هام بالنسبه لبيان حقيقة وأبعاد الخلافة.

كما أن الإجابة عليه هامة لإزالة التعارض المتوهم الذى تحدثنا عنه. لذلك قال ابن كثيررحمه الله تعالى [إن الخلاف الذى ذكروه فى الجنة التى أُدخلها ادم: هل هى فى السماء أو فى الأرض؟ هو الخلاف الذى ينبغى الخروج منه.][2].

ثم قال ابن كثير رحمه الله [والجمهور على أنها هى التى فى السماء،وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث.][3]

---

* نقصد به التعارض المتوهم بين قوله تعالى (انى جاعل فى الارض) وقوله (اسكن انت وزوجك الجنة).

(١) الصابونى، مختصر تفسير / ابن كثير / حـ١/ ص٥٥.

(٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٢١.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

وقال أبو السعود [المراد بها ذار الثواب لأنها المعهودة][1].

وقال صاحب روح البيـان [الجنة هى دار الثواب باجماع المفسريـن خلافا لبعض المتزلة والقدرية]

واكّد هذا بقوله[والجنة فى المشهور..] يوم القيامة ، لأنها المتبادر عند الاطلاق ، ولسبق ذكرها فى السورة ، وفى ظوا هر الآثار مايدل عليه] [2]

لكن الذى يجب ذكره هو أن كثيرا ممن عـرض أدلة الفَرِيقَيْن ، وقرر أن جهمور المفسرين يـقولون بأنها دار الثواب ، يـعود ويترك القضية دون أن يـرجح، ومنهم الذى عرض الرأى الآخر، ثم لـم يرجح ، وفضل التوقف فى القـضية. ومن ثم يمكن اضافة مسلك رابع فى المسألة ، غير الاقوال الثلاثة المذكورة ،وهو التوقف.

ولعل دافع أصحاب هذا الموقف الرابع هـو حرص أصحابه على التزام المأثور ، وعدم مخالـفته وفى نفس الـوقت الاقتناع ببـعض الحجج العقـلية والأدلة النقـلية للرأى الذى برر موقفـه بأنه وجد الأدلة متكافئة ، وأن الاقوال الثـلاثة التى قيلت فى المسألة من الممكنات [3]

(أ) حجج القائلين بأن جنة آدم هى جنة الخلد:ـ

اما جحج القائلين بان جنة آدم هى جنة الخلـد فنوجزها فيما يلى ، كما عرضها ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه حادى الارواح إلى بلاد الافراح:ـ

١ـ روى مسلم في صحيحه بسنده عـن أبى هريرة وعن حذيفة قالا: قال رسول صلى اللـه عليه وسلم (يجمـع الله الناس فيقـوم المؤمنون حتى تزلف لـهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا أبانا إستفتح لنا الجنة فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟. [4]

---

(١) أبو السعود/ التفسير صـ ١٥٠

(٢) الالوسى / روح البيان ج ـ صـ

(٣) التفسير الكبير للرازى حـ ١ ص.

(٤) صحيـح مسلم كـتاب الايمان باب الشـفاعة وإخراج لـموحدين من النـار ح١٢٧-١٢٩ وفى المختصـر برقم ٩٢صفحة٣٣.

وهذا يدل على أن الجنة التى أُخرج منها هى بعـينها التي يطلب منه المؤمنون فى الآخرة إستفتاحها لهم.

٢ ـ وفى الـصحيحـين حديث إحـتجاج آدم ومـوسى وقول موسـى [أخرجتـنا ونفسك من الجنة]. [١]

والشـاهد فى الحـديث الاول والثـانى أن آدم علـيه السـلام خرج من الجـنة ، وأخرج معه ذريته ، ولـو كانت الجنة المقصودة فى الأرض لكان خـروجه منها من بساتين [٢]

٣ـ قول اللـه عز وجل ﴿. . . وقلنا إهـبطوا بعضـكم لبعض عدو، ولـكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ يدل على أن هبوطهم كان من خارج الأرض إليها. ويؤكده قوله ﴿**ولكم فـي الأرض مستقر ومتـاع إلى حين**﴾ أى أن آدم وزوجه لـم يبدآ وجودهما في الأرض واستقرارهما فيها إلا بعد الإهباط .

ولو كانت الجنة فـي الأرض لكان مقامهما فى الأرض قد بدأ منـذ أن أسكنهما الله تعالى الحنة التى هى في الأرض، وهذا مخالف للآية.

ومن ثـم يكون خروجـهما من الجـنة مجرد إنـتقال وتحول وسـفر، فلمـا قال ﴿**ولكـم في الأرض مسـتقـر ومتاع إلـى حين**﴾ ثبـت أن أول عهـدهمـا بالأرض، وإستقرارهما ومتاعهما فيها، كان بعد الخروج من الجنة والإهباط إلى الأرض وهذا يدل على أن الجنة ليست فيها.

٤ـ قال تعالـى في سورة الأعراف عن علاقـة الإنسان بالأرض ﴿**قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾[٣] وهذا يثبت أن حيـاة آدم وذريته فـي الأرض بدأت بعد هبوط آدم وزوجه إليها ولو كانت الجنة في الأرض لكان آدم قد عاش فيها قبل أن يهبط إليها، أى قبل قوله تعالى ﴿**فيها تحيون**﴾ وحيث أن الله تعالى لم يقل هذا

(١ , ٢) ابن القيم / حادى الارواح / ص ١٩.

(٣) الاعراف / ٢٥

لقول إلا بعد قوله تعالى ﴿اهبطوا﴾ لزم أن يكون بدء حياة الناس في الأرض لاحقا لهبوط آدم وزوجه وبعد أمر الله عز وجل بالهبوط **﴿قال إهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين، قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾**(١)

وهذا يلزم بأن حياة الناس في الأرض بدأت بعد الهبوط وليس قبله، وهذا يخالف القول الثاني الذي يقول إن الجنة كانت في الأرض إذ تكون حياة آدم وزوجه في الأرض قد بدأت قبل إهباطهما، الأمر الذي يخالف الآيتين المذكورتين.(٢)

٥ـ قال تعالى لآدم **﴿ان لك ألا تجوع ولا تعرى ولا تظمأ فيها ولا تضحى﴾** وليس من سنة الدنيا ولا من نواميس الحياة في الأرض هذه الأحوال التى ضمنها الله تعالى لآدم وزوجه عليهما السلام. وليس فى الأرض موضع خارج عن سنن الله تعالى الحاكمة لها.

ومجمل قول القائلين بأن الجنة كانت في الأرض، أن آدم كان في مكان ما من الأرض أفضلها مناخا وأحسنها منزلا وأنْمَاهَا بالبساتين والثمار والخيرات.

ولعل السابقين من المتكلمين والمفسرين كانوا يفترضون وجود الجنة في موضع مجهول من الأرض لا يستطيع أن يصله الإنسان، فقالوا بهذا الرأي إعتماداً على أن المفهوم من الآية السابقة هو ضمان الرزق والمناخ الطيب لآدم وزوجه، بدون سعي، بينما يعني هبوطه ضمان الرزق، ولكن بشرط السعي. فيكون الهبوط بمعنى النزول من مستوى للعيش محكوم بسنن إلى مستوى أدنى محكوم بسنن مخالفة.

لكن ابن القيم رحمه الله تعالى يوضح لنا معنى الآية الكريمة بما يفيد أن حال آدم في جنته هي نفس مال أهل جنة الخلد في الآخرة فيقول [وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ والعرى والضحى، فإن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر.

---

(١) الاعراف ٢٣/ ٢٤.

(٢) حادى الارواح لابن القيم بتصرف ص٢٠، ٢١.

والظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر فنفى عن سكانها ذل الظاهر والباطن وحر الظاهر والباطن.

وهذا أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش، والعرى والضحى، وهذا شأن ساكن جنة الخلد][1]

وهذا يؤكد أن هبوط آدم لم يكن من موضع في الأرض إلى موضع آخر، خاصة بعد أن اكتشف الإنسان كل أرجاء الأرض ولم يجد فيها موضعا تحكمه سنن إلهية مخالفة لسائر السنن.

٦ـ قال تعالى حاكيا مقالة إبليس لآدم ﴿**هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾ ولو كانت هذه الجنة في الأرض لعلم آدم كذب إبليس وإستحالة تحقق ذلك، وإنما الذي ساعد إبليس على خداع آدم والتغرير به، هو علم آدم بأن وجوده في الجنة مؤقت، وأن له عمرًا محدداً وأن الموت جائز عليه، وربما علم هذا من قوله تعالى له من الأكل من الشجرة التى يترتب عليه خروجه من الجنة. فلو كان آدم في الأرض وليس في دار صالحة للخلود، لما إنخدع من عدوه، وإنما جاءه عدوه من ثغرتين في نفسه:

الأولى: رغبة آدم الملحةفي البقاء في دار الخلود وقلقه وخوفه من الخروج منها.

الثانية: علم آدم أنه لم يسكن الجنة على سبيل البقاء.

لذلك كان تغرير إبليس لهما متمثلا في قسمه لهما وتأكيده بأنه يدلهما على شجرة الخلد وكذبه عليهما إذ أخبرهما أن الله تعالى نهاهما عن الأكل من هذه الشجرة، حتى لا يضمنا الخلود فى الجنة، فقال لهما في موضع آخر، كما قصه الله تعالى علينا في سورة الأعراف، فقال عز وجل ﴿**فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إنى لكم لمن الناصحين**﴾[2]

---

(١) ابن القيم/ مادى الارواح صـ٢٢.

(٢) الاعراف / ٢٠، ٢١.

فلو كانت جنة آدم في الأرض فهل كانا يصدقا ما قاله إبليس لهما كذبا وبهتانا بأن الشجرة هى التي سيصيرا بها خالدين وباقيين فى الجنة وقد وصفها إبليس لهما صادقا فى الوصف بقوله ﴿وملك لا يبلى﴾؟

وهل كان آدم وزوجه يأكلان من الشجرة طمعا في أن يكونا خالدين كالملائكة أو يصبحا ملائكة فى الجنة التى هما فيها إلا أن تكون هذه الجنة في السماء، وليست فى الأرض، لأنه من المعلوم بالضرورة، أن عالم الملائكة فى السماء وليس فى الأرض؟!

٧ ـ قال تعالى ﴿قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو﴾ وقد رجح بعض المفسرين ومنهم الزمخشرى أن المخاطبين فى الآية هما آدم وحواء، وهذا خطأ لأن هذا يستتبع أن يكون العداء بين آدم وحواء، بينما المعلوم أن الغالب على علاقة الرجل بزوجته المودة والرحمة والسكون، والمخاطبان فى الآية هما آدم وإبليس، ولم يرد ذكر حواء فى الآية لأنها تبع لزوجها.

والعداوة بين آدم وذريته من ناحية، وابليس وذريته من ناحية أخرى كما هو متفق عليه، ومن ثم يكون قوله تعالى ﴿اهبطا﴾ إذنا من الله تعالى ببدء حياة الثقلين المبتلين فى الأرض، وهى العالم الذى أعده الله تعالى للحياة الابتلائية والخلافة الانسانية، حيث العداوة والصراع بين المؤمنين والكافرين.

ومعلوم أن أمر الملائكة بالسجود لآدم ومعصية إبليس والسجود كان فى السماء، ومن ثم يكون هبوط إبليس وآدم الى الأرض بعد ارتكاب كل منهما معصيته الأولى التى أعدها الله تعالى داراً للابتلاء إذا يجوز فيها وقوع الطاعة كما يجوز فيها وقوع المعصية باذن الله تعالى وأمره الكونى.

فكلا من آدم وإبليس عصى الله عز وجل فى تجربته الإبتلائية الأولى، وترتب على المعصية نزول كليهما الى الأرض، إلا أن آدم عليه السلام تاب الله عليه وغفر له وإبليس أصر على معصيته فكفر.

وقوله تعالى لإبليس ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾[1] دليل على

---

(١) الأعراف / ١٣ . .

أن المعصية لم تكن فى الأرض وإنما كانت فى السماء، لأنه من المعلوم أن إبليس وغيره يتكبرون فى الأرض، ولما كان الأمر بالهبوط لآدم وإبليس أمراً واحداً، كما ورد فى الآية، دل ذلك على أن هبوط آدم وإبليس كان من السماء إلى الأرض، وأن الجنة هى جنة الخلد.

٨ ـ من الأدلة المأثورة أيضا ماوراه هوذة بن خليفة عن عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى الأشعرى، قال (ان الله تعالى لما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة وعلمه صنعة كل شىء، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لاتتغير)[١] .

وهذا دليل على أن جنة آدم هى جنة الخلد، لأنه لايوجد فى الأرض، موضع أو اقليم إلا وتتغير فيه الأشياء حسب سنن الله عز وجل فى الأرض، ماعدا القطبين الشمالى والجنوبى بسبب دوام الجليد، وهما لايصلحان للحياة الرغدة وعيشة النَّعيم التى كان فيها آدم.

٩ ـ ومن الأدلة المأثورة أيضا ماوراه [المنهال بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه).

قال: يارب ألم تخلقنى بيدك؟

قال: بلى.

قال: أى رب ألم تنفخ فىَّ من روحك؟

قال: بلى.

قال: أىْ رب، ألم تسكنى جنتك؟

قال: بلى

قال: أى رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟

قال: بلى

قال: أرأيت أن تبت وأصلحتُ أراجعى أنت الى الجنة.

---

(١) ابن القيم / حادى الارواح / ص٢٤.

قال: نعم.

قال فهو قوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾[1].

وله طرق عن ابن عباس وفى بعضها (كان آدم قال لربه إذ عصاه: رب إن أنا تبت وأصلحت. فقال له ربه: إنى راجعك الى الجنة)[2].

١٠- ورد ذكر الجنة التى أسكنها الله تعالى آدم معرفة بلام التعريف فى جميع المواضع التى ذكرت فيها فى القرآن الكريم [ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التى وعد الرحمن عباده بالغيب، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة، كالمدينة والنجم والبيت والكتاب فحيث ورد لفظها معرفا، إنصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة فى قلوب المؤمنين.

وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة أو مقيدة بالإضافة او مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة فى الأرض. فالأول كقوله ﴿جنتين من أعناب﴾ والثانى كقوله ﴿ولولا إذ دخلت جنتك﴾. والثالث كقوله (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة).

كل هذه الأدلة تدل على أن جنة آدم هى جنة المأوى التى يدخلها المؤمنون فى الآخرة.

(ب) أدلة القائلين بأن جنة آدم كانت فى الأرض:

أما أهم أدلة أصحاب الرأى الثانى القائلين أن الجنة التى أسكنها الله تعالى آدم كانت فى الأرض فهى:

١ ـ سمّى الله تعالى جنة الآخرة دار المقامة وجنة الخلد، ووصفها بأنها دار الجزاء والثواب. بينما كان آدم ساكنا لم يخلد، ولم تكن له الجنة دار مقامة،

(١، ٢) ابن القيم / حادى الارواح / ص٢٥.

ولادار جزاء أو ثواب، وكان وجوده فيها مؤقتا وقد قال الله تعالى عن أصحاب جنة الخلد ﴿وماهم منها بمخرجين﴾.

٢ ـ جعل الله تعالى الأرض للتكليف، وجعل الجنة للجزاء؛ء والنعيم، وقد كلف الله تعالى آدم فى جنته بتحريم الشجرة عليه، وهذا لايكون إلا فى الأرض، وقد سمَّى الله تعالى جنة الآخرة دار السلام.

٣ ـ وصف الله تعالى جنة الخلد بأنها الدار التى لايُعْصَى الله تعالى فيها، فى حين أذن وسمح سبحانه أن يُعصى فى الأرض، وقد عصى آدم ربه فى الجنة التى سكنها، ومن ثم وجب أن تكون فى الأرض.

٤ ـ من أحوال أهل جنة الخلد أنهم لايحزنون فيها ولا يخافون، وقد حدث لآدم وزوجه من الحزن والهم والخوف بعد المعصية الشىء الكثير، مما يمنع القول بأنهما كانا فى جنة الخلد، حيث قال تعالى عنها وعن أهلها ﴿لايمسهم فيها نصب﴾ وقد أصابه ذلك بعد المعصية.

٥ ـ وقال تعالى أيضا عن جنة الخلد ﴿لايسمعون فيها لغواً ولا كِذَّابا﴾ وقد كذب إبليس على آدم حين وسوس اليه، وحدث فيها اللغو والإثم.

٦ ـ قال إبليس لآدم ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى﴾ فإن كان آدم فى ﴿جنة الخلد وملك لايبلى﴾فَلِمَ لم يرد على إبليس ويقول له: كيف تدلنى على شىء أنا فيه؟ فلما كان فى غير دار الخلود طمع فى أن يصبح فيها وغَّرة إبليس بذلك.

٧ ـ ان جنة الخلد للمتقين، وقد ثبت أن إبليس اللعين وسوس لآدم فى الجنة التى كان يسكنها ودار الخلد محرمة على غير المؤمنين، فلو كان آدم فى جنة الخلد، لما دخلها إبليس وفتن آدم.

٨ ـ طرد الله إبليس من الجنة بعد المعصية ورفض السجودلآدم، وقال له المولى ﴿فما كان لك أن تتكبر فيها﴾ فكيف عاد إليها وكيف تمكن اللعين من التكبّر فيها بما كذبه على آدم، وأقسم له كذبا، أنه له من الناصحين. أليس هذا تكبرا على الحق؟

٩ ـ قد روى عن النبى ﷺ (أن آدم نام فى جنته) وليس فى الجنة نوم بالنص وإجماع المسلمين، فإن النبى ﷺ سئل (أينام أهل الجنة فى الجنة؟ قال: لا، النوم أخو الموت، والنوم وفاة).

١٠ ـ ورد فى أحاديث خلق آدم أن الله تعالى أطلعه على عمره الذى كتبه له وهو ألف سنة، أعطى منها إبنه داود أربعين، ثم جحد إذ حضر ملك الموت، وهذا يدل على أنّ آدم كان يعلم أنه سيموت قبل أن يدخل الجنة التى يخلد فيها، فلو كانت هى دار الخلود، وعلى فرض أنه لم يعص الله تعالى، هل كان يموت فيها آدم وهى دار الخلود؟!

١١ ـ من المعلوم أن الله تعالى خلق آدم من طين الأرض، ولم يذكر أنه رفعه إلى السماء ولو حدث لذكر ذلك، ومن ثم فإن خلقه كان فى الأرض، وجنته كانت فى الأرض.

وأما قوله تعالى ﴿قلنا إهبطوا منها جميعا﴾ فمعناه الانتقال من موضع الى موضع فى الأرض كقوله تعالى ﴿إهبطوا مصراً فإن لكم ماسألتم﴾.

١٢ ـ وأما الدليل الثانى عشر، وهو الدليل الأهم عندهم، وهو الذى يتصل مباشرة بحقيقة الاستخلاف، إذ يعتبر أصحاب هذا القول أنّ قوله تعالى ﴿واذ قال ربك للملائكة: إنى جاعل فى الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ دليلٌ واضح ومباشر على أن الله تعالى خلق آدم فى الأرض وإستخلفه فيها وأسكنه الجنة فيها أيضا.

إذ كيف يقول الله تعالى أنه جعله خليفة فى الأرض ثم يسكنه جنة الخلد التى أعدّها للثواب فى الآخرة، وهى فى السماء، وليست فى الأرض. .؟! يؤكد هذا أن الملائكة علمت أنه سيكون خليفة فى هذه الأرض، لقولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وهذا لايتم الا فى الأرض.

وباختصار فإن أصحاب هذا القول يقررون إختلافا متوهما بين قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وبين قوله تعالى **﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾**. إلا أن تكون الجنة فى الأرض[1].

(جـ) مجمل أدلة أصحاب القول الثالث:

أما أصحاب القول الثالث الذين قالونا: إن الجنة كانت فى السماء ولكنها ليست هى جنة الخلد فقد توسطت أدلتهم بين أدلة القولين الأول والثانى، فأخذوا من كل فريق ببعض الأدلة، وأقوى حججهم على أنها كانت فى السماء مأخوذة من حجج القول الأول، وأما حججهم على أنها ليست دار الخلد فى الآخرة، فأخذوها من أصحاب القول الثانى. وقد فهموا جنة آدم على أنها جنة أو عالما خلقه الله تعالى لآدم لكى يعيش فيه بسلام ويرغد من العيش بلا نصب ولا تعب، وبجعلها فى نفس الوقت دار ابتلاء له ولزوجه، فحرم عليهما أن يقربا الشجرة التى جعلها سبحانه وتعالى فى الجنة لابتلائهما، فلما عصى آدم وزوجه وأكلا منها، اهبطهما منها إلى الأرض التى أعدها الله عز وجل للابتلاء وسمح فيها بالمعصية والافساد.

ومن ثم فجنة آدم حسب فهم أصحاب هذا القول عالم يجمع بين النعيم والتكليف، وإن كان النعيم عاما وشاملا فى حين أن التكليف المتمثل فى الحرمان من الشجرة المحرمة جزئى ومحدود، إلا أن هذه الجنة عالم جمع الله تعالى فيه نعيم جنة الخلد وتكليف دار الابتلاء وهما أمران لايجتمعان معا فى أى دار من هاتين الدارين.

ومن ثم أرجح هذا القول، خاصة وأن أقوى حجج الرأى الأول تدور حول محور واحد وهو تسمية العالم الذى سكنه آدم وزوجه بالجنة، وأنه احتوى من النعيم ماهو شبيه أو مثيل بنعيم جنة الخلد، مما رجح عندهم أنها جنة الخلد وأقوى حجج الرأى الثانى تدور حول محور واحد وهو حدوث المعصية ودخول ابليس ووسوسته لآدم وزوجه وعدم ضمان آدم الخلود فى الجنة وبقائه فيها أبدا مما جعل عنده قلقا نفسيا سببه إحتمال الخروج من الجنة أو توقعه لذلك.

---

(١) جميع هذه الأدلة مأخوذة من حادى الأرواح لابن القيم بتصرف/ راجع صفحتى ٢٤، ٢٥.

وكل هذا ليس فى دار الخلود.

فإذا جمعنا أقوى حجج القولين أصبح مجموعهما من الأدلة والبراهين هو أدلة وبراهين الرأى الثالث. ومن ثم يكون هذا القول متخلصا من سلبيات كل قول منهما وجامعا فى نفس الوقت لايجابياتهما معا. ولكن يظل هذا القول الثالث بحاجة الى سند من السنة أو من أقوال الصحابة ليصبح تفسيرا حاسما للفظ الجنة فى آيات الخلافة.

ذكر ابن تيمية رحمه الله تعالى ماوراه ابن الجوزى عن ميسره بسنده (قال: قلت: يارسول الله، متى كنت نبيا؟

قال: «لما خلق الله الأرض وإستوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء، فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى، نظر الى العرش فرأى إسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا بإسمى إليه)[1].

وقد استشهد ابن تيمية رحمه الله تعالى بهذا على صحة قوله فى الموضوع الذى أورد الحديث فى سياقه مما يدل على تصحيحه له أو كونه مقبولا عنده.

والشاهد فى هذا الحديث الشريف قوله ﷺ (وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء) اذ فى هذا التعبير إشارة واضحة الى أن هذه الجنة غير جنة الخلد المعهودة وإلا لكان ذكر الجنة فقط بدون تقييدها وتخصيصها بأنها التى أسكنها آدم وحواء، فلما قيدها بهذ الوصف علم أنها غير جنة الخلد، وهذا يرد على من يتبنون الرأى الأول.

ومجيء خبر خلق الجنة بعد خلق العرش يدل على أنها ليست فى الأرض بل هى فى السماء، وهذا يرد على أصحاب القول الثانى.

وفى نفس الوقت فإن هذا وذاك يثبتان الرأى الثالث ويؤكدانه:

---

(١) ابن تيمية / الفتاوى/ جـ ٢/ ص ١٥٠.

(د) العلاقة بين حقيقة الخلافة وجنة الخلد:

ومما هو جدير بالذكر أن كثيرا ممن قال أن جنة آدم ليست جنة الخلد هم من المعتزلة الذين قالوا إن الله تعالى لم يخلق جنة الخلد بعد، وإنما سيخلقها فى الآخرة.

بينما اتفق جمهور العلماء من المحدثين والمفسرين على أن الجنة والنار مخلوقتان قبل خلق آدم وذلك لكثرة النصوص الصحيحة الواردة فى وجودهما والدالة على هذا.

ويعقد ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه «حادى الأرواح» فصلا خاصا بذلك يعرض فيه الأدلة المتعددة المثبتة لمذهب السلف فى هذه القضية.

والدليل الرئيسى عند الذين ينفون وجود الجنة قبل يوم القيامة دليل عقلى مؤداه أن الله عز وجل لايخلق شيئا إلا بحكمة، ومن الحكمة إستعمال الشىء فيما خلق له، فلا معنى من خلق الجنة وتعطيلها الى يوم القيامة، وليس عندهم من الأدلة النَّقْلِيَّة إلا مايمكن رد فهمهم له.

أما حجتهم العقلية آنفة الذكر فمردود عليها بأن الله عز وجل جعل الجنة جائزة لمن يحسن عمله فى الدنيا، ولا يمنع العقل إعداد الجائزة للمتنافسين قبل المنافسة وأثنائها، إذ هى غاية المنافسة وهدف العاملين. والعقل لايمنع أن تسبق غاية العمل حدوثه بل هو يوجب ذلك.

ولهذا الموضوع صلة وثيقة بحقيقة الاستخلاف أيضا، لأن الجنة هى مدار الخلافة ومحورها وغاية سعى الانسان فى الدنيا لتحقيق خلافته لله تعالى فيها:

فالجنة جائزة الانسان الكبرى والأبدية فى حالة فوزه فى الابتلاء، ونجاحه فى

---

(١) ابن القيم حادى الأرواح ص ٣٤.

المنافسة ومن أجلها حقد عليه إبليس وحسده عليها. بل إن الملائكة المكرمين تشوقوا إليها وتطلعوا لها.

قال ابن كثير فى قصص الأنبياء: وقد روينا عن عبدالله بن عمرو وابن عمر أيضا موقوفا ومرفوعا أن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة: إجعل لنا هذه فانك خلقت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون.

فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقتُ بيدى كمن قلت له كن فكان][1].

فارتباط الخلافة بالجنة إذاً وثيق، لأن الانسان إستحق الخلافة بما كرمه الله تعالى من مكرمات ليست لغيره من الخلق، منها خلقه بيديه عز وجل وتعليمه الأسماء والنفخة الالهية الكريمة. وكل ذلك جعله أهلا للخلافة، وجعله أيضا فى نفس الوقت جديرا - اذا حقق خلافته لله تعالى فى الأرض وأثبت صلاحه بالجنة الأبدية فى الآخرة.

١٣- علة الاختلاف المتوهم تكمن فى صلة القضية بعقيدة القدر:

وهذا يستلزم منا استكمال قضية تعيين الجنة التى أسكنها الله تعالى آدم وزوجه، بقصد رفع الاختلاف المتوهم بين جعل الانسان خليفة فى الأرض، واسكانه الجنة بعد ذلك.

لأنه اذا كان الجعل بمعنى الخلق، أو بمعنى التَّصيير فكلاهما يفيد الجبر، ومن ثم يكون الحكم بأن يعيش الانسان فى الأرض سابقا لقوله تعالى للملائكة ﴿**انى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ وسابقا على إسكانه الجنة، وهذا يوهم بالاختلاف، بالإضافة الى أنه يوهم بأن آدم لم يكن مختارا عندما عصى الله تعالى، وإنما تكون معصيته أمراً مقدرا عليه، وليس مقدرا منه.

---

(١) ابن كثير / قصص الأنبياء/ ص ٦٧.

من أجل ذلك بالدرجة الأولى، قال من قال ان الجنة فى الأرض، ظنا منهم أن ذلك يرفع هذا الاختُلاف المتوهم.

ولكن هذا لايزيل اللبس ولا يرفع الخلاف المتوهم، لأن قولهم لايعنى أن الله تعالى أسكن آدم وزوجه الأرض، وإنما النصوص كلها وردت بإسكانه الجنة، وعلى فرض صحة قولهم، وأن الجنة كانت بقعة من بقاع الأرض، لها نواميس وطبائع وأشجار ونباتات ومناخ مختلف عن سائر بقاع الأرض، فهى اذا عالم مختلف ودار متباينه تماما عن الأرض. من حيث سنن ونواميس وأحوال هذه الأرض التى حكم الله تعالى أن يكون الانسان خليفة فيها. ومن ثم يظل الاختلاف المتوهم قائما، لأن الله تعالى لم يسكنه الأرض، وإنما أسكنه الجنة، التى لايجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى.

فسواء أكانت الجنة فى الأرض أم فى السماء، فالإختلاف المتوهم قائم. ولا يرفع هذا التوهم من الذهن الا أن يكون آدم قد نزل الى أرض الحياة الدنيا مباشرة بعد خلقه دون أن يمر بدار أخرى ويعيش فيها إسمها الجنة، سواء كانت فى السماء أم فى الأرض.

والذى أراه ـ والله تعالى أعلم ـ ان حل هذه المسألة ورفع الخلاف المتوهم يكمن فى تحديد دقيق للمقصود بكلمة الأرض فى الآية، وكذلك فى سائر آيات القرآن الكريم.

ولا شك أن تحديدا واضحا لمعنى كلمة الأرض فى القرآن والسنة ـ من حيث المفهوم والما صدق ـ سيزيل هذا الإختلاف المتوهم، الذى بلغ من تأثيره ـ رغم أنه وَهْمٌ أكثر منه حقيقة ـ أنه قد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخلها.

فقد أورد بن بطة فى الإبانة هذا الأثر بقوله: حدثنا أبو شيبة عبدالعزيز بن جعفر قال حدثنا محمد بن اسماعيل قال حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان عن سالم

عن أبى حفصة عن رجل عن ابن عباس قال (وقد أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يسكنه إياها، ثم قرأ «إنى جاعل فى الأرض خليفة»).

أخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس قال (لقد أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يدخلها).

والمعنى المستفاد أن خروج آدم من الجنة أمر حتمى ومقدرٌ سلفاً بمتقضى حقيقة الاستخلاف وارتباطها بالأرض. وان قدر الله تعالى بخروج آدم من الجنة سابق على خلقه كما هو شأن كل أمر فى حياة الانسان قدره الله تعالى قبل خلقه.

ويفسر هذا المعنى رواية أخرى أوردها السيوطى فى الدر المنثور قال [وأخرج وكيع وعبدالرزاق وعبيد بن حميد وإبن المنذر وابن عساكر قال: إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يُخلق ثم قرأ ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾[1].

بل لقد أدى هذا الاختلاف المتوهم ببعض العلماء الى طرح أسئلة تتصل بمسائل القضاء والقدر والجبر والاختيار حول حقيقة الإستخلاف وإسكان آدم وزوجه الجنة.

من ذلك مارواه خالد الحذأ(قال قلت للحسن يا أبا سعيد: آدم خلق للأرض أم للسماء؟

قال ما هذا يا أبا مبارك؟ قال: فقال: خلق للأرض. قال فقلت: أرأيت لو استعصم فلم يأكل من الشجرة. قال: لم يكن له بد من أن يأكل منها لأنه للأرض خُلِق)[2].

---

(١) السيوطى/ الدار المنثور فى التفسير بالمأثور / جـ ١

(٢) رواه الآجرى فى الشريعة/ ١٢٨ واللالكائى فى شرح اعتقاد أهل السنة ٢/ ٥٥٣ وأبوداود فى كتاب السنة باب لزوم أهل السنة ٤/ ٢٠٤

وفى رواية عنه أيضا قال قلت للحسن: آدم خلق للأرض أم للسماء؟ قال: للأرض. قال فقلت له أكان له أن يستعصم؟ قال: لا)[1].

ومعنى هذا أن القضية قد أخذت بعداً آخر متصلا بمسائل القضاء والقدر.

وذلك لأنه إذا كان الله تعالى قد جعل آدم وذريته خلفاء فى الأرض، فما الحكمة من إسكان آدم وزوجه الجنة بادىء ذى بدء.

ثم لما ابتلاه بالشجرة، هل كان آدم مختاراً إختياراً حرا صحيحا يستطيع معه ألا يأكل منها؟

وعلى فرض أنه إختار ألا يأكل من الشجرة واستعصم ولم يعص ربه، هل كان سيظل فى الجنة، وقد جعله الله تعالى خليفة فى الأرض، وأنبأ الملائكة بذلك قبل خلقه؟!

كل هذا يوهم أيضا بأن آدم لم يكن مخيرا بين الطاعة والمعصية، وإنما كان مجبرا على المعصية.

وهذا غير صحيح، لأن آدم عليه السلام شأنه شأن كل فرد من أفراد البشرية حين يعصى، وكان مختاراً إختيارا صحيحا عندما إرتكب المعصية، وأقدم عليها بإرادته الحرة المختارة.

لكن الله عز وجل عَلِمَ ذلك قبل خلقة، وعَلِمَ أنه سيقع منه، فرتب الله تعالى على معصيته خروجه من الجنة، وحياته فى الأرض.

فليس خروجه من الجنة عقوبة لآدم على المعصية لأن الله تعالى تاب عليه وغفر له، ولكنه قدر إلهى إجبارى رتبه الله تعالى على فعل اختيارى لآدم هو المعصية.

فمعنى قول الحسن إذاً أن آدم (لم يكن له أن يستعصم) هو أنه من المحال أن يخيب علم الله تعالى، أو أن يخطىء ربنا عز وجل، فعلمه تعالى بما سيكون من

---

(١) نفس تخريج الحديث السابق.

العبد إختياراً سواء أكانت طاعة أم معصية، هو أمر سابق على الخلق، ومن ثم قدر الله تعالى أن آدم سيختار المعصية ويأكل من الشجرة، ورتب عليه حياة آدم وذريته فى الأرض التى خلقها الله داراً قابلة للمعصية.

يؤكد هذا ويوضحه ما ورد عن محاورة آدم وموسى عليهما السلام حيث تحاجا فى السماء، فقال موسى لآدم مما قال (فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟) فكان مما رد عليه آدم قوله (فما وجدت فى كتاب الله أن ذلك كائن قبل أن أخلق؟! قال: نعم. قال ففيم تلومنى على أمر قد سبق من الله فيه القضاء قبل أن أخلق؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى فحج آدم موسى عليهما السلام)[1].

فالأمر الذى لام موسى عليه آدم عليهما السلام ليس هو الأكل من الشجرة، وإنما هو خروجه وذريته من الجنة، وهذا واضح من قوله له (فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟) ولم يقل له لم أكلت من الشجرة؟ وعصيت ربك، أو ماحملك على المعصية؟ فكان رد آدم هو أن ذلك ـ أى خروجى وذريتى من الجنة ـ أمر مقدر قبل أن أخلق وهذا صحيح، لأن خروجه من الأمور الجبرية التى لم يكن له حيالها إختيار، ولم يردها آدم وإن كان الله عز وجل قد رتب خروجه من الجنة وعلقه على معصية آدم، لكنه فى الحقيقة ليس منسوبا لآدم، وإنما هو من فعل الله عز وجل وحكمه عليه. لذا لايلام آدم عليه السلام على خروجه من الجنة، إذ لايلام الانسان الا على المعصية ويجازى على الاصرار عليها ورفض التوبة لأن التائب من الذنب كمن لاذنب له، وقد أقر آدم بمعصيته ونسبها لنفسه وتاب، فتاب الله تعالى عليه وغفر له، فلا لوم عليه بعد ذلك، فمعصية آدم تتمثل فى الأكل من الشجرة لأنه فعله، أما الخروج من الجنة فليس فعله. ولا يعنى

(١) البخارى/ باب تحاج آدم وموسى عند ربه/ ١٥٨/٨ ومسلم فى كتاب القدر ٤/ ٢٠٤٢، ٢٠٤٤ بعدة طرق ومسلم فى كتاب القدر /٤/ ٢٠٤٢، ٢٠٤٤ بعدة طرق قال الألبانى: أسناده حسن وخرجه فى الصحيحة.

تقدير الله المعصية من آدم أنه قدر حتمى ملزم مجبر له على ارتكابها، بل معناه أنه واقع بإختياره لا محالة لاستحالة خطأ علم الله عز وجل بما سيكون منه ومن غيره وإنما كان خروجه من الجنة، بالأمر الالهى الكونى الملزم له، فهو ليس فعلا منسوبا لآدم لأنه فعل لله عز وجل وقع على آدم عليه السلام.

وترتيب نزول آدم الى الأرض بعد وقوعه فى المعصية قائم باذن الله تعالى على اساس أن الأرض هى الدار التى خلقها الله تعالى وهيأها للإبتلاء، وسمح فيها وأذن بارتكاب المعاصى تحقيقا للابتلاء، فلما عصى آدم وزوجه ربهما ترتب على معصيتهما الأولى النزول الى دار المعاصى والخروج من الجنة التى لايسكنها العصاة، ومن ثم يمكن القول أن معرفة الملائكة بوقوع الافساد وسفك الدماء من آدم وذريته فى الأرض، ربما كان أساسه معرفتهم للحكمة التى من أجلها خلق الله تعالى الأرض التى نعيش عليها بإعتبارها الجزء المحدود من ملك الله تعالى الواسع الذى - أى هذا الجزء المحدود - هيأه الله تعالى للابتلاء وأذن فيه بالمعصية والإفساد.

لذا طرد الله تعالى إبليس من السماء إلى الأرض بعد المعصية.

كما أهبط الله تعالى آدم وزوجه إليها أيضا بعد المعصية.

هذا وجه من أوجه إزالة الاختلاف المتوهم بين حقيقة الاستخلاف فى الأرض وبين إسكان الله عز وجل آدم الجنة فقوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض) ثم إسكانه الجنة إشارة إلى علم الله تعالى الذى لايخيب ولا يخطىء أبدا باختيار آدم الأكل من الشجرة ونزوله الى الأرض بناء على فعله هذا.

١٤- ولاية المؤمنين الأبدية لله تعالى فى أرض الجنة إمتداد لخلافتهم لله تعالى فى أرض الحياة الدنيا ونتيجة لها

(ا) الخلافة وتلازم الوجود الانسانى مع الأرض:-

وثمة وجه آخر لرفع الاختلاف المتوهم يقوم على التوصل الى تعريف دقيق لمفهوم وما صدق لفظ الأرض واستخداماته فى القرآن الكريم والسنة.

ذلك أنه إذا كان المقصود بالأرض فى آية الخلافة، هى أرض الحياة الدنيا فقط، فإن الخلافة تكون ـ نتيجة لهذا ـ هدفا للانسان فى حياته الدنيا فقط، إما إذا كان معنى الأرض يتعدى هذه الأرض التى نعيش فيها الى أرض أخرى فى الآخرة، فان مفهوم الخلافة يتعدى هو أيضا حدود الحياة الدنيا ولاتصبح حقيقة الاستخلاف حقيقة بشرية قاصرة على الحياة الدنيا ومحدودة بأجلها.

ويمكننا أن نعرف هذا كله باستعراض استعمالات لفظ الأرض فى القرآن الكريم والسنة.

يكاد أن ينحصر فى الأذهان المقصود من لفظ الأرض فى اللغة وفى القرآن الكريم والسنة فى هذه الأرض التى نعيش عليها، وذلك لكثرة تعبير القرآن الكريم عن الكون المخلوق من الناحية المكانية بالسماوات والأرض.

كما يعبر عنه من الناحية الزمانية بالحياة الدنيا. فاقترنت بذلك فى الأذهان السماء الدنيا والأرض بالحياة الدنيا.

بينما نجد أن أكثر مايكون تعبير القرآن الكريم عن الحياة الآخرة من الناحية المكانية بالجنة أو الجنات، العالم الذى ينعم فيه المؤمنون، وبالنار أو الجحيم أو جهنم العالم الذى يُعذَّب فيه الكافرون. أما من الناحية الزمانية فالتعبير بالخلود الأبدى ﴿**خالدين فيها أبدا**﴾ لاهلهما ولفظ الأبد أو الخلود ينفى الزمن المحدود.

ومع تسليـمنا بأن هذا حق وهو تعـبير شائع فى القرآن الـكريم، إلا أن الله عز وجل أخبرنـا فى بعض المواضع بما يـفيد أن المؤمنين فى الجـنة قد ورثوا الأرض، وأن وجودهم فى الجـنة، وعيشهم فيهـا خالدين، لا يعنى أنـهم تركوا الأرض أو أصبحوا بلا أرض تقلهم؟

وبيان هذا أن اللـه عز وجل أخبرنا أنه سيبدل الأرض غـير الأرض والسماوات يطويها بيمينه سبحانه.

قال تعالى ﴿انا جعلـنا ما على الأرض زينة لهـا لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾[1] ومن ثم أذن اللـه عز وجل للانسان فى أرض الابتـلاء بارتكاب المعاصى وبـالكفر وبالإفساد وسفك الدماء وإهـلاك الحرث والنسل فجعله كائنا مختارا عـالما مستطيعا ليفعل مايختار تحقيقا للابتلاء.

فاذا إنتهـت مرحلة الإبتلاء وجاءت مرحـلة أخرى، فإن هذه الأرض بكيفـياتها وتضاريسـها وأحوالها ونواميـسها، لاتكون صالحـة لهذه المرحلة الجـديدة والهدف منها، ومن ثم قال تعالى بعد الآية الكريمة آنفة الذكر (وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزًا)[2] أى أرضا خربة بلقعا لازرع فيها ولا شجر.

روى ابن كثير رحمه اللـه عن ابن عباس فـى معنـى هـذه الآيـة قـوله (يهلك كل شـىء عليها ويبيـد) لأن الله تعـالـى سيغيرها لتصبـح صـالحـة لحكمة أخـرى وغـــايـــة مخـــالفـــة للابتـــلاء الا وهـى الـبعث والـنشور والحـشر والحســاب والميــزان.

قال تعـالى عن أرض النشـر والحشر ﴿ويوم نسير الجبال وتـرى الأرض بارزة وحشرنـاهم فلم نـغادر منهـم أحدا وعرضوا عـلى ربك صفـا لقد جئتمونا كـما

---

(١) ٧ / الكهف.

(٢) ٨ / الكنهف.

خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا﴾[1]. روى ابن كثير عن مجاهد وقتادة فى قوله تعالى **﴿وترى الأرض بارزة﴾** لاحجر فيهـا ولا غيابة) وروى عن قتادة قوله (لا بناء ولا شجر).

وهذا يعنـى أن الله تعالى سيزيل من الأرض الجبال، لـتبقى قاعا صـفصفا أى سطحا مسـتويا لا عوج فيه فتصـبح بارزة أى ظاهـرة بادية قـال تعالى **﴿ويسألونك عن الجبال فـقل ينسفهـا ربى نسفا فيـذرها قاعا صفصـفا لاترى فيها عـوجا ولا أمتا يومـئذ يـتبعـون الداعـى لاعوج له وخـشعت الأصـوات للـرحمن فـلا تسـمع الا همسا﴾**[2].

ومعنى هذا أن الانسان خلال مراحل وجوده المختلفة ينتقل من أرض الى أرض غيرها، لأن الله عز وجل شاء أن تكون لكل مرحلة وجودية إنسانية حكمة خاصة بها، وجـعل للإنسـان فى كل مرحـلة هدفا يـختلف عـن الهدف من وجـوده فى المراحل الأخرى.

ولما كان الانسان فى كل مراحل وجوده يحتاج لأرض تقله أو بتعبير أدق نقول: إن الله تعـالى قد شاء أن يكون لـلإنسان أرض تقله وتحـمله فى كل مرحـلة، فإن أرض كل مـرحلة لابـد أن تكون مُهَيَّأة ومناسبة لتحقيق الحكمة مـن وجوده فيها، كما لابـد أن تكون هــذه الأرض بطبيعـة ونـواميس مـتـوافقة مـع الغـايــة من وجـود الانـسان فيها. ومحـققـة لوظيـفتها فـى كـل مرحلة على أكـمل وأحسن وجه.

لذا فإن الله تعالى يبدل الأرض فى كل مرحلة بحسب الحكمة منها.

ولقد فهـمت السيدة عائـشة رضى الله عنـها هذه الحقيقـة ـ ونعنى بها حـقيقة

---

(١) آية / ٤٧، ٤٨/ سورة الكهف.

(٢)من الآية ١٠٥ الى الآية ١٠٨ سورة طه.

وجود الانسان على أرض بالضرورة فى كل مرحلة -لذا لما سمعت قول الله عز وجل ﴿يوم تبدل الأرضُ غير الأرض والسماوات﴾[1] سألت عن مكان الناس أثناء هذا التبديل، ،وكأن مثار السؤال هو: على أى شئ سيقفون أو يكونون أو ماذا يقلهم أثناء تبديل الأرض إلى أرض أخرى وماذا يظلهم أثناء تبديل السماوات إلى سماوات أخرى.؟.

أورد الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت (أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) **قالت قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال: على الصراط﴾**[2] .

كما أورد الإمام مسلم فى صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً سأل فيه حبر من أحبار يهود رسول الله ﷺ قائلاً أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ **﴿هم فى الظلمة دون الجسر﴾**[3] .

فهذا السؤال ينطلق من مسلمة إنسانية تقول أن الإنسان فى جميع مراحله الوجودية يكون على أرض، ولا يتصور إلا أن يكون على أو فى أرض تحمله.

ومن ثم كان سؤال السيدة عائشة رضى الله عنها، أى عن الأرض التى يكونون عليها عندما تبدل الأرض غير الأرض، أى عن الذى يحمل الناس عندما تفنى الأرض التى يكونون عليها، وقبل أن تحملهم أرض المرحلة التى تلى ذلك، فكان

---

(١) ٤٨/ إبراهيم.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل/ جـ٦/ ص٣٥، ص١٠١، ١٣٤ورواه الترمذى كتاب التفسير باب١٥، ١٦ باب سورة إبراهيم وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين/ باب حديث ٢٧٩١ وقد رواه الحاكم فى المستدرك كتاب معرفة الصحابة جـ٣ / ص٤١٨ وقال صحيح على شرط الشيخين ولفظه يختلف عن لفظ مسلم.

جواب رسول الله ﷺ للسيدة عائشة (على الصراط) وللحبر (هم فى الظلمة دون الجسر) ولعل الجسر هو الصراط، ولعل الناس يكونون على الصراط دون الجسر، أو لعل بعضهم يكون على الصراط والبعض فى الظلمة دونه.

ب - وراثة المؤمنين أرض الجنة:

أما المرحلة التى تلى ذلك فهى الجنة للمؤمنين والنار للكافرين.

فالجنة هى المرحلة الوجودية الأخيرة للمؤمنين من ذرية آدم، وهى المرحلة الدائمة الخالدة، وهى أرض، أو هى الأرض التى خلقها الله عز وجل لينعم فيها المؤمنون، وسيورثهم إياها ليعيشوا فيها أولياء لله عز وجل خالدين فيها. قال تعالى **﴿وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾**[1] فما معنى الأرض إذا؟.

يؤكد معنى كون الأرض هى ما تحمل الإنسان وتقله وتكون تحته قول الله عز وجل **﴿الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء﴾**[2] ومن ثم يكون المقصود بالأرض فى هذه الآية كل ما هو مستوى منها وصالح لحياة الإنسان، قال تعالى **﴿والأرض فرشناها فنعم الماهدون﴾**[3].

وأحياناً تأتى كلمة الأرض مراداً بها منطقة أو إقليماً مثل قوله تعالى **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾**[4].

وأحياناً تأتى كلمة الأرض مراداً بها موضعاً صغيراً من التربة مثل قوله تعالى **﴿فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض﴾**[5]. أى فى تربتها.

---

(١) الزمر/ ٧٤.

(٢) البقرة/ ٢٢.

(٣) الذاريات/ ٤٨.

(٤) الحج/ ٦٣.

(٥) المائدة/ ٣١.

وأحياناً يكون المراد من لفظ الأرض باطنها قال تعالى ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنّاه فى الأرض﴾[1].

وهكذا... لكن أكثر المراد بالأرض فى القرآن الكريم هو من العام أو كل الأرض وأما ما أريد به جزء منها أو موضع منها فهو قليل وهو من قبيل إطلاق الكل على الجزء.

حيث أننا نعلم الآن أن الأرض التى نعيش فيها كوكب كغيرها من الكواكب الأخرى بيد أنها الوحيدة الى جعلها الله تعالى صالحة للحياة، وهيأها للإنسان، لذا نجد أكثر الآيات التى ذكرت فيه الأرض تشير إليها كوحدة واحدة أو تشير إليها كمخلوق واحد أعده الله تعالى لخلافة الإنسان، ولعل الحكمة من مقابلة الأرض بالسماء أو بالسماوات، وتكرار ذلك فى القرآن الكريم كثيراً راجعه إلى أن القرآن الكريم خطاب من الله عز وجل منزل على رسول الله ﷺ وموجه للناس كافة، والناس يعيشون فوق هذه الأرض وتحت هذه السماء، فالكون أو العالم بالنسبة للناس سماء تظلهم وأرض تقلهم، لذا جاءت الأرض فى أغلب الآيات معرفة بالألف واللام لأنها المعهودة فى الأذهان وقليلاً ما جاءت معرفة بالإضافة فى مثل قوله تعالى ﴿يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون﴾[2].
ومثل قوله تعالى ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها﴾[3].

وأمثال هذه الآيات التى جاءت فيها الأرض مخصصة للدلالة على جزء من الأرض أو إقليم منها جاءت معرفة بالإضافة: أرضكم وأرضنا وأرضهم

---

(١) المؤمنون/١٨.

(٢) العنكبوت/٥٦.

(٢) الأحزاب/٢٧.

أما ذكر الأرض بعد ذلك فى القرآن الكريم، فأكثر ما يدل عليها لفظها عموم الأرض وذلك فى مثل قوله تعالى ﴿**سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾[1]. وقوله تعالى ﴿**والله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض**﴾[2]. وقوله تعالى ﴿**وله الكبرياء فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم**﴾[3]. وقوله تعالى ﴿**لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء**﴾[4]. وقوله تعالى ﴿**ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين**﴾[5].

ومن ثم فإن دلالة لفظ الأرض فى هذه الآيات تنسحب على الأرض الكوكب، أى كل الأرض . ولا شك أن لفظ الأرض في قوله تعالى ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾[6] هو أيضاً دلالة على عموم الأرض وليس موضع واحد منها، كما سبق أن ذكرنا ذلك فى موضعه وأثبتناه.

لكن تسمية ما يُقِلُّ الإنسان فى الحشر أرضاً، وتسمية الجنة أرضاً أيضاً يجعلنا نعيد النظر، فى دلالة لفظ الأرض فى آية الخلافة إذ أنه لم يصبح قاصراً على معنى هذا الكوكب فقط، وللدلالة عليه وحده.

وإذا أمعنا النظر فى قوله تعالى بالنسبة لأرض الحياة الدنيا ﴿**ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون**﴾[7]. لعلمنا أن التمكين يتضمن التمليك ونوعاً من السيادة عليها وتسخيرها لإرادة الإنسان ومطالبه ورغباته.

وكذلك إذا أمعنا النظر فى قوله تعالى حَاكياً مقالة أهل الجنة (وقالوا الحمد لله

---

(١) الحديد/ ١. (٢) الحجرات/ ١٦ .(٣) الجاثية/ ٣٧.

(٤) الشورى/ ٤٩. (٥) فصلت/ ١١. (٦) البقرة/ ٣٠

(٧) الأعراف/ ١٠.

الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين)[1]. لَتَبيَّن لنا أن التملك والسيطرة والسيادة تدخل كجزء رئيسى فى معنى وراثة الأرض فى الآيتين الكريمتين.

وحيث أن المراد بالأرض فى الآية الأولى أرض الحياة الدنيا، والمراد بها فى الآية الثانية أرض الجنة، يكون التعريف الجامع المانع للأرض هو: أنها كجزء من ملك الله عز وجل الواسع يملكه ويورثه لمن يشاء من عباده.

بيد أن الفرق بين تملك الإنسان للأرض فى الحياة الدنيا وتملكه لها فى الآخرة، أى فى الجنة، هو أن الأول مؤقت، لأنه للإبتلاء، والثانى دائم، لأنه للجزاء والنعيم، تفضلاً من الله تعالى وكرماً ورحمة منه.

ولكن الله عز وجل فى كلا الحالين قد عبر عن تمليك الإنسان للإبتلاء أو عن تمليكه للنعيم بالتوريث، فهو الذى أورثه الأرض فى الحياة الدنيا، وهو الذى سيرثها منه بقيام الساعة وهو الذى سيورث المؤمنين الجنة فى الآخرة.

أما دليل هذا المعنى الأخير، فهو قولهم فى الآية الكريمة السابقة ﴿...**وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة...**﴾[2]. وأيضاً قوله تعالى ﴿**تلك الجنة التى تورث من عبادنا من كان تقياً**﴾[3].

وأما دليل توريث الله تعالى أرض الحياة الدنيا للناس فهو قوله عز وجل﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**﴾[4]. فالتمليك والتوريث والتمكين

---

(١)، (٢) الزمر/ ٧٤.

(٣) مريم/ ٦٣.

(٤) الأعراف/ ١٢٨.

والسيادة، كل ذلك من لوازم معنى الأرض ومفهومها، وبخاصة أرض الدنيا والآخرة.

يؤكد هذا أنه لم ينسب لجهنم أو النار أو الجحيم أرضاً كما نسبت للجنة أرضاً، فبينما سُميت الجنة أرضاً فى الآية لم ترد تسمية النار بالأرض، وإنما قال الله تعالى فيما تحت أهلها وفيما فوقهم **﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وكذلك نجزى الظالمين﴾**[1].

قال الرازى رحمه الله تعالى (المهاد: جمع مهد، وهو الفراش، قال الأزهرى أصل المهد فى اللغة الفرش، يقال للفراش مهاد لمواتاته، والغواش جمع غاشية، وهى كل ما يغشاك أى يجللك....... قال المفسرون: المراد من هذه الآية: الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب، فلهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف). ويدل أيضاً على هذا ويؤكده قول الله عز وجل عن جهنم **﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾**[2]. أورد ابن كثير فى تفسيره بسنده عن على بن أبى طالب رضى لله عنه أنه قال (إن أبواب جهنم هكذا: أطباق بعضها فوق بعض)[3].

وأورد قوله برواية أخرى (أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيمتلئ الأول ثم الثانى ثم الثالث حتى تمتلئ كلها)[4].

كما أتى ابن كثير برواية عن عكرمة بسندها فقال (وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق)[5]. والشاهد من هذا كله إنتفاء نسبة الأرض لجهنم فما دامت

---

(١) الأعراف/ ٤١.

(٢) الرازى/ التفسير الكبير/ جـ١٤/ ص٧٨ جـ١ دار إحياء التراث العربى بيروت الطبعة الثالثة.

(٣)، (٤)، (٥) ابن كثير/ التفسير/ جـ٢/ ص٥٥١ طبعة المكتبة التجارية/ مصر.

أبوابها رأسية، وأهلها مكدسون فيها أطباق بعضها فوق بعض، فإنه يلزم من هذا إنتفاء تملك أهلها لما يستقرون عليه، بل إنتفاء ما يستقرون عليه، لأن ما تحتهم ليس سوى فرش من نار كما أن ما فوقهم غواش من نار أيضاً.

ذلك بلا شك مخالف تماماً لحال أهل الجنة الذين أورثهم الله تعالى الملك الأبدى (الأرض) يتبوءون منها حيث يشاءون، وهذا دليل التملك الحقيقى، فالشاهد من هذا كله لموضوعنا هو أن الله عز وجل لم يطلق على دار أهل جهنم أو ما هو تحتهم أرضاً، بينما أطلق مهاداً، أى فرشاً إشارة إلى أن النار من تحتهم، وكذا من فوقهم، وليس هذا ولا ذاك -بالنسبة لهم- أرضاً أو سماء لأن الأرض هى ما تقل المخلوق وتحمله مع إثبات نوع من السيادة عليها، وقدر من التملك لها، أو على الأقل حرية الإستخدام والتنقل والحركة عليها. وهذا كله ليس لأهل النار.

وهذا المعنى يمكن إطلاقة على كل أرض يوجد عليه الإنسان خلال مراحله الوجودية المختلفة.

ففى الحياة الدنيا جعل الله عز وجل الإنسان خليفة فى الأرض، أى فى هذه الأرض التى نعيش عليها.

ثم تتغير الأرض لتكون صالحة للحشر ولإيقاف الناس صفاً واحداً، فهى تقلهم وهم يساقون فوقها للحشر ثم يقفون عليها صفاً واحداً ليعرضوا على ربهم عز وجل، ثم أخيراً أرض الجنة التى أعدها الله تعالى للنعيم.

فالقاسم المشترك فى المعنى بين أرض الحياة الدنيا التى أعدها الله عز وجل للإبتلاء، وأرض الجنة، التى أعدها الله عز وجل لنعيم الذين فازوا فى الابتلاء،

هو التملك والسيادة، والمفهوم المشترك لكلمة الأرض بين العالمين هو أنها جزء من ملك الله الواسع يُمَلِّكُه سبحانه للإنسان، ملكية مؤقتة للابتلاء فى الدنيا، وملكية دائمة أبدية جزاء ونعيماً تفضلاً من الله فى الآخرة.

فالفارق بين مفهوم الأرض فى الدارين يتمثل فى الحكمة من كل أرض منهما.

ومن ثم كانت أرض الحياة الدنيا أفضل عالم ممكن لتحقيق الابتلاء، وأرض الجنة أفضل عالم ممكن لتحقيق النعيم لأهلها، كما أراد ربنا عز وجل .

وبناء على هذا كله نتتهى إلى القول بأن معنى الأرض فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) لا يقتصر على أرض الحياة الدنيا، وإنما يمكن أن يتعداه إلى معنى الجنة الأبدية.

١٥ - الاعتراض على تعميم الاستخلاف فى الدنيا والآخرة والرد عليه:

والاعتراض الذى يمكن إثارته وتقديمه على تفسير الأرض فى آية الخلافة بمعناها العام غير المقيد بأرض الحياة الدنيا هو أن يقول القائل:

إذا كان لفظ الأرض قد خصص فى قول المولى عز وجل **﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة﴾**[١] بمقتضى سياق الآية وبقوله تعالى (من الجنة) فإن آية الخلافة قد خصِّصت لفظ «الأرض» بأرض الحياة الدنيا، وهذا واضح من قوله تعالى مخبراً عن سؤال الملائكة التعجبى **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾**[٢] وحيث أن الجنة ليس فيها إفسادٌ أو سفك للدماء ومعصية لله عز وجل فلا وجه إذاً لتعميم المراد بلفظ الأرض ليشمل أرض الجنة، ومن ثم تعميم الخلافة على دار الخلود. ؟

---

(١) الزمر/ ٧٤.

(٢) البقرة/ ٣٠.

وللرد على هذا الاعتراض ودحضه نقول:

١ - إن تطابق المعنى العام للأرض على أرض الحياة الدنيا وأرض الجنة، يجعل تعميم الإستخلاف ليشمل دار الخلود قائماً وصحيحاً، بمقتضى اللغة، وبخاصة أن مقالة المؤمنين فى الجنة، تتضمن نفس التعبير الذى أطلقه الله عز وجل على تملك الإنسان للأرض فى الحياة الدنيا، حيث ورد قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفهُم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ وذلك إشارة إلى تمليكهم الأرض كما ملكها تعالى لمن قبلهم.

وكذلك قوله بما يفيد نفس معنى التمليك والتمكين، ولكن بلفظ التوريث، بدلاً من الإستخلاف ﴿وأورثنا القوم الذين كانون يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها﴾[1] فعبر عز وجل عن وعده للمؤمنين بتمليكهم الأرض وتمكينهم فيها بلفظ الإستخلاف، كما عبر عن تحقيق هذا الوعد بلفظ التوريث، وهذا يدل بوضوح على أن التوريث والتمليك والتمكين هو من الاستخلاف، أو هو جوهر حقيقة الاستخلاف، ومن ثم فلا وجه للمغايرة بين المراد من لفظ الأرض فى آية الخلافة وآية وراثة الجنة.

٢ - أما تخصيص لفظ الأرض فى آية الخلافة بسؤال الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها...﴾[2]. فهو قائم من وجه وغير قائم من وجه آخر. ذلك أن اللفظ إذا كان عاماً فإنه لا يمنع من دخول المراد الخاص فى معناه العام، بل لكونه عاماً، فإن المراد الخاص يدخل فيه ويندرج تحته.

وسياق آيات الخلافة يتضمن تخصيص لفظ الأرض بأرض الحياة الدنيا فى مرحلة الإبتلاء فقط، وهذا هو الوجه القائم من التخصيص، ولكن هذا لا

---

(١) الأعراف/ ١٣٧.

(٢) البقرة/ ٣٠.

يتعارض مع كون المراد بالأرض المعنى العام، الذى ينطبق على معنى الأرض الابتلائية، وعلى معنى الأرض فى المراحل الوجودية الإنسانية التى بعدها حتى أرض الخلود.

ومن ثم يكون قصر معنى الأرض فى آية الخلافة على أرض الحياة الدنيا فقط غير صحيح من هذا الوجه.

أما إثبات المعنى العام غير المقيد فهو يتضمن أرض الحياة الدنيا الإبتلائية وأرض الجنة.

وتطبيقاً لهذه القاعدة نقول:

أنه إذا كان فى سياق آيات الخلافة ما يخصص الأرض بأرض الحياة الدنيا فى مرحلة الابتلاء فإن فيه أيضاً ما يصرف مدلولها -مع ذلك- إلى أرض الجنة فى دار الجزاء.

فالذى أثبتناه عن الخلافة فى الأرض، أنها خلافة إبتلائية فى أرض الحياة الدنيا ابتدءًا، تستتبع وتستلزم بعدها خلافة -أو بتعبير أدق- وراثة أبدية لأرض الجنة انتهاءًا.

وحيث أن الأولى تسبق الثانية فى الزمان، فقد تعجب الملائكة فى إستخلاف الإنسان لعلمهم بوقوع الإفساد وسفك الدماء منه فى الأرض الدنيوية، فلو علموا أن الإستخلاف للإنسان قاصر على الحياة الدنيا وأرضها فقط، لما كان ثمة مبرر للتعجب أو مثير للدهشة، إذ أن مثار التعجب والدهشة هو إنباء الله تعالى لهم بإستخلاف الإنسان فى الأرض بالمعنى المطلق الذى يشمل الجنة، رغم إفساده، ولو فهموا أنه بالمعنى القاصر على أرض الحياة الدنيا، لما تعجبوا، لأن الأرض الدنيوية مخلوقة للإبتلاء، ومأذون لساكنها بالمعصية، فلو علموا أن الإستخلاف قاصر عليها ومتوقف عند أجلها، لما كان فى ذلك أدنى دهشة أو عجب ، لأن الدهشة والعجب لا يحدثان أو ينتجان إلا من إجتماع المختلفين أو المتضادين، أو ما يتوهم التضاد والإختلاف بينهما، ولا إختلاف بين إستخلاف الإنسان فى أرض الحياة

الدنيـا وإفساده فيـها، وقد أعدها الله تـعالى لهذا، أى لـلإبتلاء، الذى يـكون من نتائجه اللازمة الإفساد، وإنما توهم إجتـماع الإختلاف والتضاد هو أن يكون المفسد وسافك الدماء أهلاً لـلإستخلاف فى الجنة أرض الخلود. وهذا ما علـمته الملائكة من إخبار الله تعالى لهم بإستخلاف الإنسان فى الأرض، فليس ثمة موضع للعجب والدهشـة ما لم تفهـم الملائكة أن الإستـخلاف فى الأرض يعـنى توريث الخلـيفة الأرض للإبتلاء فـى الحياة الدنيا ثم توريـثه الجنة فضلاً وجزاء فـى الآخرة. لما فى ذلك من إختلاف متوهم بين إفساده وإستحقاقه لها.

فكان سؤالهم للإستيضاح الذى يرتفع به والتعجب الناتج عن الجمع المنوهم بين مختلفين لا يستلزم أحدهما الآخر، بـل يستلزم نقيض الآخر، وهم الإفساد ووراثة الجنة ولو فهمـوا أن الإستخلاف فى الأرض يعنى تملك الإنســان أرض الحياة الدنيا فقط ملكية مؤقتة للابتلاء، لما كان ثمة وجه للعجب والدهشة ، ومعلوم أن سؤال الملائكة عن الإنسان النوع وليس الأفراد.

٣ - وعلـى فرض أن سؤال المـلائكة المـتضمـن وصف الإنســان بالإفســاد فى الأرض يخصص لفظ الأرض فى آية الخلافة بأرض الحياة الدنيا، فإن قول الملائكة أيضاً فـى نفس السـؤال (ونحن نسبـح بحمدك ونـقدس لك)[1]. دليل عـلى أن المقصود بـالأرض فى آية الخلافة هو المعـنى العام المطلق لـلأرض، لأن الملائكة لا يتطلعون إلى أرض الحياة الدنيا الفانية وهـم يعلمون أن الله تعالى خلقها للإبتلاء، وأذن فيها بالمعـصية والإفساد، وهم لا يفعلون ذلك، ولا يريـدون فعله. ومن ثم لزم أنهـم إنما تطلـعوا إلى الخلافة لـيس فى أرض الحيـاة الدنيا، ولـكن فى أرض الجنة.

فالمقارنة التى عقدوها فى سؤالهم بـين الإنسان الذى يكون منه الافساد وبينهم وهم المسـبحون لله والمقدسـون له، تعنى أنـهم ظنوا فى أنـفسهم جدارة وأحـقية

(١) البقرة/ ٣٠.

للإستخلاف فى الأرض عن الإنسان، فبداهة لا يكون ذلك فى أرض الإفساد وسفك الدماء أى أنهم لم يتطلعوا إلى الخلافة الابتلائية، وإنما تطلعوا إلى الخلافة الأبدية أو بتعبير أدق إلى وراثة الأرض الأبدية.

يؤكد هذا الذى نقول قول الله تعالى ﴿... **إن كنتم صادقين**﴾[1] أى صادقين فى ظنكم أنكم أحق بالخلافة، كما قال بذلك جمهور المفسرين. وكذلك يؤكده قوله تعالى ﴿....**وما كنتم تكتمون**﴾[2] أى تطلعهم إلى الخلافة.

فمدار كلامهم إذاً ليس على أرض الحياة الدنيا، وإنما هو على أرض الآخرة، وإن كان ذكر الإفساد يشير إلى أرض الحياة الدنيا، إلا أنه لا يقصر مفهوم لفظ الأرض عليها، لأن المعنى الخاص يندرج فى المعنى العام .

٤ - كذلك يثبت هذا الذى نقول ويؤكده الأثر الذى رواه ابن كثير فى قصص الأنبياء فقال (وقد روينا عن عبدالله بن عمرو وابن عمر أيضاً موقوفاً ومرفوعاً: أن الله تعالى لما خلق الجنة قالت الملائكة: يا ربنا إجعل لنا هذه فإنك خلقت لبنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون، فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقتُ بيدى كم قلت له كن فكان)[3]. أى أن تطلعهم للخلافة فى الأرض كان فى أرض الجنة وليس أرض الدنيا.

٥ - ومما ينقض هذا الاعتراض ويجعل معنى الخلافة مطلقاً أيضاً قول الله عز وجل ﴿**وقلنا يا أدم أسكن أنت وزوجك الجنة**﴾[4]. فلا وجه للاختلاف بين آية الخلافة وبين إسكان أدم الجنة، إلا إذا خصصنا الأرض فى قوله تعالى ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾[5]. بأرض الحياة الدنيا، لكن إذا أطلقنا المراد بالأرض فإن الخلاف المتوهم يرتفع على الفور، إذ تكون جنة آدم أيضاً أرضاً مندرجة تحت

---

(١) البقرة (٣١). (٢) البقرة (٣) (٣) ابن كثير/ قصص الأنبياء ص٦٧.

(٤) البقرة/ ٣٥. (٥) البقرة/ ٣٠.

المعنى العام للأرض، ومن ثم يكون معنى الآية هو أن الله تعالى أخبر الملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة أى خالق نوعاً من الخلق يملكه الأرض،ويفهم من آيات القرآن الأخرى التى تتناول الأرض وعلاقة الإنسان بها، أن تفصيل هذا الاستخلاف فى الأرض، وبيانه، ومراحله كالآتى:

أولاً: استخلاف آدم فى الأرض التى أسكنه الله تعالى إياها هو وزوجه، وهى الجنة.

ثانياً: إستخلافه فى أرض الحياة الدنيا هو وذريته.

ثالثاً: إستخلافه -أو بتعبير أدق -توريثه والذين آمنوا من ذريته الأرض الأبدية أى الجنة فى الآخرة.

٦ - ومما يبطل هذا الاعتراض أيضاً موقف إبليس، فقد حقد إبليس على آدم وحسده على إستخلافه فى الأرض أى على الملك الذى أنعم الله على آدم وبنيه.

فلما أمره الله تعالى بالسجود إقراراً بهذه الأفضلية وهذا التكريم والإنعام الإلهى على آدم رفض السجود حقداً وحسداً إذ إستكبر فى نفسه وزعم أنه خير من الإنسان، فلو كان حقد إبليس وحسده على الإنسان نتيجة إستخلافه فى أرض الحياة الدنيا فقط، لما أهبط الله تعالى إبليس إليها بعد أن عصاه، ولو كان تكريم الله تعالى لآدم هو بإستخلافه وتمليكه أرض الحياة الدنيا فقط،لما أعطى الله تعالى النظرة والإمهال لإبليس إلى آخر الحياة الدنيا أى إلى يوم الوقت المعلوم*.

لكن الله عز وجل أهبط إبليس ليعيش فى أرض الحياة الدنيا معه، بالرغم من أنه لم يُستخلف، ومن ثم وجب القول أن الخلافة فى الأرض لا تعنى أرض الحياة الدنيا فقط، وإنما هى أيضاً فى دار الخلود، ،وهى الدار التى لا ينالها ولا يرثها إبليس وجنوده من الإنس والجن. فالإستخلاف في الأرض أعم من ملك ووراثة أرض الحياة الدنيا فقط.

* ليس الوقت المعلوم -كما يظن البعض - هو قيام الساعة، إذ أن دابة الأرض التى هى من الآيات العشر التى تسبق الساعة ستقتله قبل قيام الساعة كما ورد فى بعض الآثار والله تعالى أعلم.

ولما كانت الجنة هى عين النعمة العظمى التى مَنّ الله تعالى بها على الإنسان، وهى التى تطلعت الملائكة إلى أن تكون لهم، فإن إبليس الذى كان معهم لم يحقد على آدم بسبب إستخلاف الله له فى أرض الحياة الدنيا فحسب، وإنما أساس الحقد هو إستخلافه فى أرض الجنة، ويؤكد هذا: أن محاولة إبليس تكفير الإنسان ليس ليخسر الإنسان الحياة الدنيا، وإنما ليخسره الجنة، وإن كان أتباعه يخسرون الاثنين أى أن كل محاولات إبليس وجنوده مع ذرية آدم متوجهة لكى تكون خلافتهم فى الأرض لغير الله تعالى، ومن ثم تكون قاصرة على الحياة الدنيا، فلا تمتد إلى أرض الآخرة أى وراثة الجنة.

٧ - ومن الأدلة على أن المراد بالأرض فى آية الخلافة المعنى العام أن الله تعالى قد أشار إلى الجنة بالأرض، بل ذكرها بإسم الأرض فى قوله تعالى ﴿**ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون**﴾[1].

فالأرض هنا إسم للجنة دون ذكر ما يخصصها بأرض الجنة فى الآية على أساس المعنى الذى حددناه للأرض من قبل، وهو أنها جزء من ملك الله تعالى يملكه لمن يشاء من عباده.

وتفسير الآية: هو أن الله تعالى شاء أن يورث الأرض للصالحين من الناس وكتب هذا فى اللوح المحفوظ، وبهذا المعنى تعتبر هذه الآية الكريمة مفصلة لقوله تعالى ﴿**إنى جاعل فى الإرض خليفة**﴾[2]. إذا تنطبق آية الخلافة على تمليك الله تعالى الإنسان أرض الحياة الدنيا للابتلاء ثم تمليك أرض الجنة للصالحين فقط.

فلفظ خليفة فى آية الخلافة عام ومطلق والمقصود به الإنسان بصفة عامة، وكذا لفظ الأرض فيها مطلق ومعناه عام .

فجاءت آية الانبياء مخصصة لكلمة خليفة فعينت الصالحين من الإنس للجنة،

---

(١) الأنبياء/١٦.

(٢) الأعراف/١٣٧.

كما حددت أيضاً معنى الأرض بأرض الآخرة على قول، ولم تحددها أو تقيدها بأرض الآخرة على قول آخر كما سنرى.

فقد إختلف المفسرون فى تفسير هذه الآية إلى ثلاثة أقوال ذكرها الرازى كما يلى:

أحدها: الأرض أرض الجنة، والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى ، فالمعنى: أن الله تعالى كتب فى كتب الأنبياء عليهم السلام، وفى اللوح المحفوظ، أنه سيورث الجنة من كان صالحاً من عباده، وهو قول إبن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وأبى العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور:

أما أولاً: فقوله تعالى **﴿وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾**.

وأما ثانياً: فلأنها الأرض التى يختص بها الصالحون لأنها خلقت لهم، وغيرهم إذا حصل معهم فى الجنة فعلى وجه التبع، فأما أرض الدنيا فلإنها للصالح وغير الصالح.

وأما ثالثاً: فلأن هذه الأرض مذكورة عقب الإعادة، وعقب الإعادة الأرض التى يكون هذا وصفها لا تكون إلاالجنة.

وأما رابعاً: فقد روى الخبر أنها أرض الجنة فإنها بيضاء نقية.

وثانيها: أن المراد من الأرض أرض الدنيا، فإنه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين فى الدنيا، وهو قول الكلبى وإبن عباس فى بعض الروايات، ودليل هذا القول قوله سبحانه **﴿وعد الله الذين آمنوا﴾** إلى قوله **﴿ليستخلفهم فى الأرض﴾** وقوله تعالى **﴿قال موسى لقومه إستعينوا بالله وإصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾**.

وثالثها: هى الأرض المقدسة يرثها الصالحون ودليله قوله تعالى **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها﴾**[1]. ثم بالآخرة يورثها أمة محمد ﷺ[2].

فإذا تدبرنا الأقوال الثلاثة الواردة عن المفسرين لمعنى الأرض فى الآية، لوجدنا أن ثمة معنى مشترك بينها يمكن تقريره كمفهوم ثابت ومعنى دائم وعام للفظ «الأرض» فى القرآن الكريم: ألا وهو أنه جزء من ملك الله تعالى يورثه من يشاء من عباده، وهذا لا يمنع أن يتعدد ما يصدق عليه هذا المفهوم.

كما لا يمنع هذا أن تحمل كل أرض -مع هذا المفهوم العام الثابت- المعنى الذى يخصها والخصائص التى تتميز بها عن الأرضين المغايرة لها.

ومن ثم وجدنا فى المأثور ما يفيد تفسير لفظ الأرض فى هذه الآية الكريمة بمفاهيم ثلاثة تنطبق على ثلاثة أرضين وهى الجنة وأرض الحياة الدنيا بعامة والأرض المقدسة بخاصة.

والسبب أن كلا منها يحمل المعنى المشترك الثابت للفظ الأرض.

ولكن ألا يحق لنا أن نسأل عن السبب الذى يجعلنا نخصص مفهوم الأرض فى الآية بواحد من الأقوال الثلاثة دون الاثنين الآخرين.؟؛

ليس من سبب لذلك إلا إستحالة الجمع بين هذه الأقوال جميعا، أى أن تكون متناقضة تناقضاً يمتنع معه الجمع بينها.

فإذا لم يكن ثمة إختلاف أو تضاد أو تعارض أو تناقض بينها، بحيث يمكن الجمع بينها فى قول واحد، فليس ما يبرر إذاً تخصيص العام، أو تقييد المطلق إلا بمخصص أو بمقيد وهو غير موجود فى آية الإستخلاف.

لقد إستدل أصحاب كل قول على قولهم بآيات من القرآن الكريم، فإذا كان ثمة

---

(١) الرازى/ التفسير الكبير/ جـ٢٢/ ص٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) الأنبياء/ ١٠٥.

قول يجمع بين هذه الأقوال، فإن الدلالة عليها جميعاً تصبح أدلة على هذا القول الجامع، وبخاصة إذا كانت الأدلة كلها تثبت هذا القول وتبرهن عليه بلا تعارض أو إختلاف.

والمتأمل حقاً فى الأدلة السابقة على الأقوال الثلاثة يجد أنها حميعاً تثبت أن المراد بالأرض فى قوله تعالى ﴿**ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون**﴾[1]. هى الأرض بالمعنى العام المطلق، فهى ليست الأرض المقدسة وحدها، وليست أرض الحياة الدنيا وحدها، وليست أرض الجنة وحدها، وإنما هى كل أرض يتواجد عليها الإنسان فى كل مرحلة من مراحل وجوده حتى دار الخلود، فالآية الكريمة إخبار من الله تعالى عن مشيئته وإرادته عز وجل لسنة من سنن التاريخ البشرى أو بتعبير أدق عن سنة إلهية خاصة بالصراع البشرى بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وقد كتبها سبحانه فى الزبور (اللوح المحفوظ) هذه السنة الإلهية الخاصة بالصراع البشرى باعتبار أنها سنة عامة شاملة كلية يتعامل الله تعالى بها مع عباده الذين خلقهم للإبتلاء فى الدنيا، ومؤداها أنه عز وجل ينصرهم فى جميع مراحل وجودهم، فهو يورث الأرض للصالحين منهم فى صراعهم مع الكافرين خلال مرحلة الإبتلاء سواء الأرض المقدسة التى يشتد عليها الصراع أم سائر مشارق الأرض ومغاربها التى حول الأرض المقدسة، بل وكل أرض الحياة الدنيا، ما داموا يجاهدون فى سبيله لإعلاء كلمته فيها كلها.

وسواء فى وجودهم الدنيوى كله ام فى وجودهم الأخروى ام فى وجودهم الأول المجمل المتمثل فى أبيهم آدم، فقد أسكنه الله تعالى الجنة، أى أعطاه الأرض الصالحة لهذه المرحلة.

فخلال الصراع البشرى فى الحياة الابتلائية على الأرض، نجد التاريخ البشرى محكوماً بهذه السنة الوجودية الشاملة لمراحل الوجود الإنسانى كله.

---

(١) الأعراف/ ١٢٨.

فالصالحون المجاهدون الصابرون المثابرون يورثهم الله تعالى سيادة الأرض والعلو فيها على أعدائهم، علوا ليس لأنفسهم ولكن لأمر الله ودينه وشرعه، ومن ثم يرثون مشارق الأرض ومغاربها بما فى ذلك الأرض المقدسة.

ثم فى الآخرة لا يورث الله تعالى الجنة أى لا يملك الأرض الدائمة الخالدة إلا للصالحين.

وتتم بذلك كلمة ربنا صدقاً و عدلاً على المؤمنين الصالحين بوراثة الأرض.

ولقد جمع إبن كثير فعلاً بين هذه الأقوال، ولم ير تعارضاً أو إختلافاً بينها، فقال رحمه الله (يقول تعالى مخبراً عما حتَّمه وقضاه لعباده الصالحين فى السعادة فى الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة، كقوله تعالى ﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾[1].

وقال: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾[1] وقال: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليَستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم**﴾[2].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى ﴿**ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر**﴾[3].

قال مجاهد: الزبور: الكتاب، وقال إبن عباس والحسن (الزبور الذى أنزل على داود (الذكر) التوراة وعن إبن عباس (الذكر) القرآن وقال سعيد بن جبير: الذكر الذى فى السماء وقال مجاهد: الزبور الكتب، ،والذكر أم الكتاب عند الله وإختار ذلك إبن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول. وقال الثورى هو اللوح المحفوظ.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور الكتب التى أنزلت على الأنبياء والذكر أم الكتاب، الذى يكتب فيه الأشياء قبل ذلك أخبر الله سبحانه وتعالى فى

---

(١) غافر/٥١. (٢) النور/ ٥٥ .(٣) الأنبياء/١٠٥.

التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض، أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون)[١].

وقال إبن عباس (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال إبن عباس (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال: أرض الجنة)[٢].

فهل يوجد بعد أقوال السلف فى تفسير الأرض بأنها أرض الحياة الدنيا وأرض الجنة قول آخر؟؛

هذا ما أردنا إثباته من إطلاق لفظ الأرض فى آية الخلافة الأمر الذى يستتبع بالضرورة إطلاق الإستخلاف كغاية عليا للإنسان، فلا تقتصر هذه الغاية على الحياة الدنيا بل تتعداها إلى الآخرة، ومن ثم تكون خلافة الإنسان لله فى الأرض بالمفهوم المطلق هى غاية الإنسان.

ولا شك أن الانتهاء إلى هذه النتيجة، أى الاعتقاد بأن إستخلاف الإنسان فى الأرض ليس أمراً قاصراً على الحياة الدنيا، بل هو حقيقة وجودية آخروية كذلك، يجعل من حقيقة الإستخلاف حقيقة رئيسية وهامة من حقائق العقيدة الإسلامية بل إنه يرتفع بها إلى مستوى الهدف الاسمى للإنسانية والغاية العليا ليس لحياة الإنسان فى الوجود الابتلائى الدنيوى فقط بل لوجوده الأبدى كذلك.

ومن ثم يكون لهذه النتيجة ما ينبنى عليها ويتأسس من مفاهيم ومعتقدات وأحكام بل وحقائق إنسانية نفسية واجتماعية وسياسية وإقتصادية وخلقية وتربوية وتاريخية ومن خلال هذه الحقيقة تتحدد مبادئ الجهاد وأحكامه فى الإسلام.

وهذا ما سنراه تفصيلاً بعد إن شاء الله تعالى وبإذنه وعونه وتوفيقه.

---

(١) تفسير ابن كثير/ جـ٣/ ص٢٠١.

(٢) نفس المصدر والصفحة



الفصل الخامس

الخلافة والتفسير الإسلامى للتاريخ

١٦ - الخلافة والتاريخ البشرى .

١٧ - الصراع والعداء متزامنان مع الخلافة الابتلائية ونتيجة حتمية لها .

١٨ - خلفاء الرحمن وخلفاء الشيطان هما طرفا الصراع التاريخى الرئيسيان .

١٩ - الكتاب والحكم والنبوة مقومات رئيسية لتحقيق خلافة الله فى الأرض .

٢٠ - تحول بنى إسرائيل عن خلافة الله تعالى إلى خلافة الشيطان لعنة الله عليه وعليهم .



١٦ - الخلافة والتاريخ البشرى:

أ - الخلافة ومراحل الوجود الإنسانى عبر الزمان:

تحددت علاقة الإنسان بالزمان والمكان بالآيتين السابقتين على آبات الخلاقة فى سورة البقرة، وذلك فى قوله تعالى ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فاحياكم ثم يُمِيتُكُمْ ثم يُحييكم ثم إليه ترجعون، هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا ثم إستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شئ عليم﴾.[1] فالآية الاولى بيان للمراحل الوجودية للإنسان عبر الزمان، والآية الثانية بيان لإرتباط الوجود الانسانى فى جميع هذه المراحل بالأرض. والأصل الاعتقادى لذلك كله يكمن فى مخلوقية الانسان، إذ أن كل مخلوق حادث، والحادث له حد فى الزمان، والانسان كمخلوق حادث قد حدَّدَ له الخالق جل وعلا مراحل وجوده وأجل كل مرحلة ابتداء وإنتهاء حتى ينتهى وجوده إلى دار الخلود التى لا إنتهاء لها.

كذلك كل مخلوق له حدوده المكانية فى اللحظة الواحدة كما أن له حدوده الزمانية فى المكان الواحد وفى كل مكان قدره الله تعالى له..

فكما أن الوجود الانسانى ـ سواء الفردى منه والنوعى على حد سواء ـ له حدوده الزمانية فى كل مرحلة من مراحله، فإن له أيضا حدوده المكانية ـ سواء بالنسة لـلفرد وبالنسة للنوع على حد سواء ـ تلك الحدود التى لا يمكنه أن يخرج عنها فى أى لحظة من لحظات وجوده. فهو لايستطيع إلاَّ ان يكون فى لحظه مقدرة وفى مكان محدد لا يخرج عنهما بحال، أى أنه لا يمكن ان يوجد الا فى مكان محدد مقدر خلال أجل محدد مقدر، وهذا من قدر الله عزوجل للانسان ولكل شئ مخلوق. وقد سبق أن تحدثنا عن علاقه الانسان بالمكان وصلته بوجوده ـ حسب مشيئة الله وقدره ـ فوق أرض تقله وسماء تظله، وذلك فى جميع مراحل وجوده.

---

(١) ٢٨، ٢٩/ البقرة

والآية تتحدث عن هذه المراحل الزمنية للوجود الإنساني. تلك المراحل التى ذكرها الله تعالى فى الآية بموتتين وحياتين.

أما الموتة الأولى، فقد وصف الله تعالى الانسان فيها بأنه كان موجوداً فى حالة موت، وذلك بقوله تعالى (وكنتم أمواتا) لان فعل الكينونة يفيد الوجود، ولان العدم هو نفى للكون أو للوجود وليس نفياً للحياة التى هى نقيض الموت. وقد أثبت الله تعالى العدم للانسان قبل وجوده بقوله تعالى ﴿**هل أتى على الانسان حين من الذهر لم يكن شيئا مذكورا**﴾ [1] فالانسان، ككل شئ، سوى الله عزوجل، سبق العدم وجوده، وهذا معنى جوهرى فى مفهوم الخلق. فقوله ﴿**وكنتم أمواتا**﴾ يفيد الكينونة والوجود بعد أن لم نكن شيئا مذكورا. وهذا يعنى أن الموت وجود وليس عدماً.

ومن ثم فالآية تقرر أن الله عزوجل لم يخلق الانسان أول ما خلقه حياً بل خلقه ميتًا، أو على صورة موت أو فى حالة موت، ثم أحياه من بعد الموتة الاولى هذه. ﴿**وكنتم أمواتا فأحياكم**﴾ أى هذه الحياة التى نحياها الآن، وتلك هى المرحلة الوجودية الثانية، وهى الحياة الاولى.

فالموت يسبق الحياة وقد خلقنا الله تعالى موتى أولا، كما هو واضح من الآية الكريمة، ويؤكده أن الله تعالى قدم الموت على الحياة فى كل موضع فى القرآن الكريم إجتمع ذكرهما فيه، من ذلك قوله عز وجل ﴿**تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**﴾ [2] أما المرحلة الثالثة من مراحل الوجود الانسانى عبر الزمن، فهى مرحلة الموتة الثانية، أو هى الوجود البرزخى الذى يكون فيه الانسان فى مرحلة بين الدنيا والآخرة. وهى حالة وجودية وليست عدما أيضا وقد سماها الله تعالى موتا، وهذا يدل على أن الموت الأول الذى خلق الله تعالى عليه الانسان وجودٌ وليس عدما.

---

(١) ١/ الإنسان.

(٢) آيه ١، ٢/ سورة الملك.

بعد ذلك تأتى المرحلة الوجوية الرابعة (ثم يحييكم) أى من مبعد الموتة الثانية. وهذه المرحلة الرابعة هى الحياة الثانية، أو الحياة الآخرة، أو يتعبير أدق بداية الحياة الآخرة، إذ يلى ذلك الرجوع إلى الله عز وجل للحساب، ثم الخلود: إما فى الجنة للؤمنين، وإما فى النار للكافرين.

فعلافة الانسان بالزمان محددة بقدر الله تعالى ومشيئته بإجتيازه هذه المراحل الوجودية المتتالية فى موتين وحياتين. وهذا ما يتذكره الكافرون فى جهنم بقولهم الذى قصه الله تعالى علينا فى القرآن الكريم (قالوا ربنا أمتنا إثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل؟[1] تلك هى مقاله أهل النار، بعد أن يستعرضوا المراحل الوجودية التى عبروها، فيجدوا أنها أربع مراحل: موتان وحياتان. الأمر الذى ألاح لهم أملاً فى أن يمنحهم الخالق عزوجل مرحلة وجودية أخرى يخرجون ويعودون إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحا معترفين بذنوبهم فقالوا ﴿...فهل إلى خروج من سبيل﴾ يسألون الله عزوجل أن يعطى لهم فرصة أخرى للابتلاء فيعيدهم ويحييهم فى الدنيا ثم يميتهم ويحاسبهم زاعمين أنهم - إذا عادوا للدنيا وابتلاهم الله فيها مرة ثانية - فسيعملون صالحا ولايكفرون.

قال تعالى **﴿ولوترى إذا وقفوا على النار فقالوا ياليتنانرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل،ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه،وإنهم لكاذبون﴾**[2]

وذلك لانهم إذا عادوا فسيكونون بنفس الظروف والأحوال والطبائع التى كانوا عليها أو يكونون عليها الآن فى الحياة الدنيا تحقيقا للإبتلاء. ومن هذه الظروف والأحوال أنهم سَيَنْسَوْنَ ما شاهدوه من مشاهد القيامة ومن وقوفهم على النار، كما أن الانسان فى حياته الدنيا لا يذكر وجوده فى المرحلة الاولى التى سماها الله تعالى موتا مع أن الله عزوجل أشهده على نفسه فيها، كما أسجدله فيها

---

(١) آية ١١ / سورة غافر.

(٢) ٢٧، ٢٧/ الانعام

الملائكة، وعرض عليه الأمانة. لكن عند مجئ الانسان إلى أرض الحياة الدنيا، فإنه يكون قد نسى ذلك كله، تحقيقا للابتلاء.

من أجل ذلك فإن هؤلاء الكافرين الذين وقفوا على النار، لوعادوا بنفس ظروف وأحوال الابتلاء إلى الدنيا، فسيعودون إلى ارتكاب ما نهوا عنه، وهم فى قولهم ﴿لانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ كاذبون فيه لا محالة.

ب - علاقة الانسان بالزمان والمكان تنبثق من الحكمة من الخلق:-

إن علاقة الانسان بالزمان والمكان تتحدد من خلال الحكمة التى خلق الله تعالى من أجلها الانسان فى مكان وزمان كل مرحلة.

أى أن كل مرحلة وجودية إنسانية لها زمانها الخاص بها ولها مكانها كذلك، وتحديد الزمان والمكان مرتبط بالحكمة من وجود الانسان فى كل مرحلة من هذه المراحل.

وجميع هذه المراحل مرتبطة بالحكمة الاولى التى من أجلها خلق الله تعالى الانسان. إن الحياة الدنيا هى مرحلة الإبتلاء، والامتحان والتمحيص، والإختبار. لذلك ليست هى المرحلة الوجودية الأولى للانسان، لأن الابتلاء بمعنى الامتحان يقضى إعداداً سابقاً للكائن المبتلى، ومن ثم كانت مرحلة الموتة الأولى هى مرحلة الإعداد التى أشهد الله تعالى فيها الناس على أنفسهم، أنه عز وجل ربهم ولارب لهم سواه، وشهدوا بذلك وأقروا، وهذا من الإعداد اللازم لطبيعة المخلوق المبتلى كما أسجد الله تعالى الملائكة لكل فرد من افراد الانسانية بعد أن خلقهم وصورهم كما مر بنا ذلك من قبل.

كذلك عرض الله تعالى الأمانة على المخلوقات ومنها الانسان فحملها الانسان وحده. كل ذلك من اللوازم السابقة لإقامة الابتلاء، وهى سابقة على الحياة الدنيا لان حدوثها للانسان فى الحياة الدنيا يتعارض مع تحقيق الإمتحان ويتنافى معه. فكان كل ذلك فى المؤته الأولى .

أما المرحلة الوجودية الثانية وهى الحيـاة الاولى ونعنى بها حياة الإبتلاء فهى بدء تولى الانسان خلافة الارض. لذلك فالعلاقة بين الابتلاء والخلافة وثيقة، كما سنرى ذلك بعد فى فصل خاص.

فالانسان يبـتلى بالخلافة أو أن الخلافة هـى محور ابتلاء الانسان وهى الحـقيقة الانسانية الجامعة لكل حقائق الابتلاء وظواهره ومقدماته وآثاره. فإذا إنتهت مرحلة الابتلاء بالنسبة للفرد أو بالنسبة للأمة، أو حتى بـالنسبة للبشرية كلها فإن هذا يعقبه الحساب والجزاء كنتيجة لازمة مترتبة على الامتحان.

وقد شاء الـله عزوجل أن يكـون مجئ النـاس الى دار الابتلاء فرادى كـأجيال متتابعة عبر الزمان كما شاء - وهو عز وجل على كل شئ قدير - أن يحاسب الناس جميعا مرة واحدة فى يـوم واحد. فكان هذا اليوم هو الحياة الثانية الـتى يبعث الله تعالى فيها النـاس قياما لرب العالمين، ومن ثم كانت الموتة الثانـية التى هى مستودع يودع فيه الناس انتظاراً للبعث ومن ثم كانت برزخاً بين الدينا والآخرة.

وهكذا يتـضح لنا أن كل مرحلـة زمنية يمر فيـها الانسان لها حكـمة وإن كانت المراحل جميعا تدور حول محور واحد هو حـقيقة الابتلاء بما فى ذلك اليوم الآخر الذى هو حساب وجزاء على ماعملوه فى وجودهم الابتلائى الإستخلافى.

١٧ - الصراع والعداء متزامنان مع الخلاقة الإبتلائية ونتيجة حتمية لها:

والذى يهمنـا الآن هو مرحلة الخلافة الإبتلائيـة، وما يتم فيها بقدر الـله تعالى من خلال آيات الخلافة

تبدأ هذه المرحلة بخروج آدم وزوجه من الجنة وهبوطهما الى الأرض الإبتلائية. قال تعالى ﴿**وقلنا إهبطوا بـعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين.فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم.**

قلنا إهبطوا منهـا جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تـبع هداى فلا خوف عليهم

ولاهم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآيا تنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدن.

يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدى اوف بعهدكم وإياى فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولاتكونوا اول كافربه ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون.﴾ [1]

ثم يستمر السّياق مخاطبا بنى إسرائيل ومتحدثا عنهم ثم مخاطبا المسلمين آمرا إياهم بالجهاد وبالقتال فى سبيل الله ومُفصّلاً القول فى موضوعات كثيرة ومتعددة حتى نهاية السورة. لكن اكثر هذه الموضوعات تتصل بحقيقة الإستخلاف بطريقة مباشرة او غير مباشرة وتحدد العلاقة بين الامة الإسلامية التى إصطفاها الله تعالى على البشر ليكونوا خلفاءه فى الأرض وبين سائر الأمم الأخرى، وأخطر هذه الامم الأخرى بالنسبة للمسلمين هم اليهود أو بنو إسرائيل، لانهم الأمة المعزوله عن الخلافة، فكان من الطبيعى أن يكونوا أشد الناس حقداً على الذين إصطفاهم الله تعالى لرسالته الأخيرة للبشرية وكلفهم باقامة خلافة الله تعالى فى الأرض بدلا منهم.

ولقد أجمل الحق تبارك وتعالى قصة البشرية فى الأرض منذ الهبوط إليها إلى قيام الساعة، أى مجمل التاريخ البشرى كله فى هذه الآيات من قوله تعالى **﴿قلنا اهبطوا منها جميعا....إلى قوله تعالى....أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** إن هذه الآيات الكريمة تَتَضَمَّنْ أهم مبادئ تفسير التاريخ الإنسانى وعلى رأس هذه المبادئ الأساس الاول الذى بسببه يقوم الصراع فى الأرض.

ففى قوله تعالى **﴿قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو﴾** بيان لحقيقة الصراع وأهم أسسه وعوامله واطرافه المتصارعة كذلك. لقد بدأت حياة الانسان على الأرض متزامنة مع هذا الصراع، بل إن الصراع بدأ فى الوجود الانسانى قبل نزوله الى الأرض، لقد بدأ الصراع بإقتران أول كفر فى الوجود، ذلك الذى وقع

---

(١) من الآية ٣٦ إلى الاية ٤١ سورة البقرة.

من إبليس حين رفض السجود لآدم، ببسب حقده على الإنسان، وكراهيته وبغضه له وعلى تفضيل الله عزوجل الانسان على الملائكة وعلى إبليس، ولأنه خص الانسان بنعمة الاستخلاف فى الأرض. فأصبح ابليس عدوا لآدم وبنيه والعداء يعنى الصراع .

لقد بدأ هذا العداء حين أبى إبليس السجود لآدم عليه السلام قال تعالى **﴿وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا الأ إبليس أبى،فقلنا يا آدم:إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولاتعري.**

وأنك لاتظمؤ فيها ولاتضحى. فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ؟ فاكلا منها فبدت لهما سوء اتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم إجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى. ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.﴾[(١)]

وتتضمن هذه الآيات الكريمة قصة البشرية والصراع الذى حدث قبل الوجود الأرضى بين إبليس وبين آدم عليه السلام.

لقد حذر الله تعالى آدم وزوجه منه وأعلمه أنه عدو له ولزوجه، وأن الهدف القربب الذى سيسعى إليه هو إخراجه من الجنة إلى أرض الابتْلاء حتى يستطيع أن يتَّخذ من ذريتهما ـ أى ذرية إبليس وذرية آدم ـ جنوداً يصارع بهم الذين يتمسكون

---

(١) من الآية ١١٦ إلى الآية ١٢٧ سورة طه.

بالحق ويثبتون على فطرتهم. ،وبالرغم من تحذير الله عز وجل، إلا أن العدو إستطاع ـ عندما ارتدى ثوب الصديق النَّاصح ـ أن يغرر بآدم وزوجه، فأزلهما عن الجنة، وأخرجهما منها. ومن ثم جاء أمر الله تعالى ﴿**...إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو**) كما سبق أن أخبرنا الله تعالى بهذا الآمر فى سورة البقرة بقوله عزوجل ﴿**وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو...**﴾ ثم قال بعد ذلك فى نفس السياق ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى...**﴾.

فالعداء أو الصراع متزامن مع الوجود البشرى فى الأرض، ومن ثم فهو وثيق الصلة بحقيقة الاستخلاف التى تزامنت معه كذلك.

وتبدو لنا الصلة واضحه وجليه بين حقيقة إستخلاف الله تعالى للانسان، وبين العداء والصراع فى تاريخ البشرية من خلال رفض أبليس السجود لآدم عليه السلام أو بتعبير آخر رفض السجود للإنسانية إذ السجود ـ كما مر بنا ذلك ـ يحمل معنى الاقرار لآدم ولبنيه بالخلافة. .

فالعداء إذاً، بسبب ايثار الله تعالى آدم بالخلافةوالصراع الدائر فى الأرض يدور حول محور واحد هو تحقيق الخلافة أو السبق نحو تحقيق الخلافة والإستئثار بها.

وأخطر ما يمكن أن يتم فى حلبةالصراع، هو أن يغفل المتصارع عن عدوه الحقيقي، ويلتفت عنه إلى عدو وهمي، أو إلى هدف خادع كالسراب، وأشد ما يكون الخطر إذا إتخذ المصارع عدوه صديقا أو وليا. وتلك خدعة إبليس الكبرى التى خدع بها آدم والتى لا يزال يفعلها مع كثير من أبنائه، فينضمون إلى معسكره دون أن يشعروا بذلك، ويتحولون من كونهم خلفاء لله عزوجل فى أرضه ليصبحوا خلفاء للشيطان وللطاغوت.

لذلك حذر الله تعالى آدم وزوجه ونبهه الى أن الشيطان عدوهم اللدود، وبين

الحق تبارك وتعالى لهما أن هدفه القريب هو إخراجهما من الجنة، وذلك بعد أن أعطاه الله تعالى النظرة وأمهله الى يوم الوقت المعلوم وأذن له تعالى فى أن يقعدنَّ لهم صراطه المستقيم، وسمح له عزوجل أن يتخذ منهم جنودًا للضلال، وأولياء ممن يتبعونه باختيارهم تحقيقا للابتلاء ونتيجة حتمية له.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ

كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾[١].

ويمكن أن نسجل الحقائق التى تتضمنها هذه الآيات بالنسبة لما نحن بصدده كالآتى:

١ - إن الله عز وجل أمر الملائكة بالسجود لأدم بعد أن خلقه وخلق ذريته وصورهم[٢] فسجدوا إلا إبليس الذى علل إباءه بأنه أفضل من آدم وخير منه بسبب أفضلية النار على الطين حسب زعمه. وهذا رفض منه لامر الله التخييرى الابتلائى له بالإقرار بأفضلية الانسان إذ جعله الله خليفة، ولذلك كانت هذه المعصية منه كفراً، وترتب عليها موقفه المعادى للإنسان.

٢ - حكم الله تعالى بالصغار على إبليس وهو حكم كونى وطرده من الجنة وأهبطه إلى الأض باعتبار أنها الدار التى أعدها الله تعالى للاختبار وللإبتلاء وسمح فيها بالمعصية.

٣ - طلب إبليس لعنه الله تعالى النظرة من الله تعالى، فأذن الله تعالى له بذلك وبالوسوسة للإنسان، وبإمكانات الغواية والدعوة إلى الضلال والكفر، حتى ينحرف من يستجيب له من الناس عن الصراط المستقيم الذى به وحده تتحقق خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض. ومن ثم لا يصبح هؤلاء المستجيبون للشيطان خلفاء لله تعالى بل يصبحوا خلفاء للشيطان وللطاغوت ويكونوا بذلك حزباً وجبهة معادية مصارعة محاربة لحزب الله تعالى.

ومن ثم يتقرر ويتحدد أطراف الصراع فى التاريخ البشرى من بدئه إلى منتهاه بطرفين رئيسين:

---

(١) من الآية ١١ إلى الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٢) فى عالم الذر كما مر بنا من قبل أو فى الموتة الأولى..

الأول: حزب الله عز وجل وخلفاؤه بقيادة الأنبياء والمرسلين هم وأولياء الله، المؤمنون به، المجاهدون فى سبيله.

الثانى: حزب الشيطان، وهم أتباعه من الإنس والجن الذين خرجوا عن الصراط المستقيم وعن هدى الله المنزل على أنبيائه ورسله، ومن ثم استحقوا وعيد الله تعالى بأن يجمعهم الله تعالى مع إبليس فى جهنم ويملأها منهم أجمعين.

٤ - غرر إبليس بأدم وزوجه بأن أخفى عداءه، وأقسم لهما أنه مخلص لهما فى نصحه، وأنهما لو أكلا منها فسيصيرا خالدين كالملائكة.

٥ - لما وقعا فى الذنب، وأكلا من الشجرة، ذكرهما الله تعالى بتحذيرهما من إبليس، وبوجوب معاملته دائما على أنه عدو **﴿وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾**....

٦ - توبة آدم وزوجه وقبول الله تعالى لتوبتهما.

٧ - أمر الله تعالى لهما بالهبوط، وإثبات العداء المصاحب والمزامن للوجود البشرى منذ بدئه إلى منتهاه، إذ لم يرد الأمر بالهبوط إلا مقروناً بذكر هذا العداء المترتب عليه الصراع الذى هو أساس أول لأحداث التاريخ الإنسانى خلال فترة الحياة الأرضية التى فيها للإنسان إستقرار ومتاع إلى آخر أجل هذه المرحلة.

٨ - حذر الله تعالى بنى أدم من الشيطان كما حذر أبويهم لكى يتخذوه عدواً وحذَّرهم من الوقوع فيما أوقع فيه أبويهم وإغراقهم فى الشهوات فيصبحوا له أولياء وينتهى مصيرهم الأبدى معه فى النار.

ولقد تكرر تنبيه الله عز وجل لبنى آدم إلى وجوب إتخاذ الشيطان عدواً، كما أنه عدوهم قال تعالى **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**[1].

وتكررت هذه الآية الكريمة بهذا التحذير الهام من الحق تبارك وتعالى فى الآية الثامنة بعد المائتين من سورة البقرة. كما تكرر نفس التحذير بنفس الألفاظ فى الآية

---

(١) آية ١٦٨: البقرة.

الثانية والأربعين بعد المائة من سورة الأنعام وقال تعالى فى تقرير عداء إبليس للإنسان أيضاً على لسان يعقوب عليه السلام ناصحاً يوسف بألاً يقص رؤياه على إخوته خوفاً من أن يكيدوا له ومعقباً بقوله **﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾**[1].

ومعلوم بداهة أنه ليس أضل ممن يتخذ عدوه ولياً، كما أنه ليس أخطر على مصيره فى حربه وصراعه مع عدوه من أن يركن إليه ويتعامل معه باعتباره وليًا، قال تعالى: **﴿وإذ قلنا للملائكة إسجدوا لآدم، فجسدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو؟؛ بئس للظالمين بدلا. ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾**[2].

فالعداء من إبليس يأتى دائماً بعد ذكر فسقه عن أمر ربه بالسجود لآدم.

وجاء التنبيه إلى الخطر من إتخاذ هذا العدو ولياً فى هذا السؤال التعجبى الإستنكارى، لأنه من الغفلة والخطر أن لا يتخذ الإنسان عدوه عدواً أو أن ينسى أنه عدوه. فما بال من يتخذ هذا العدو ولياً؟؛

إن إتخاذ الشيطان ولياً من دون الله تعالى معناه عبادته، سواء كانت عبادة الشيطان مباشرة أو غير مباشرة.

أى أن كل المعبودات الباطلة-وكل ما عبد من دون الله تعالى باطل- ما هى إلا أقنعة يستتر خلفها الشيطان سواء كان المعبود كوكباً أو شمساً أو قمرًا أو صنماً أو نهراً أو بشراً أو حاكماً أو حزباً أو طبيعة أو مادة أو أى شئ من دونه تعالى، وذلك لأن العبادة هى الطاعة ، والأمر الحقيقى بالشرك والكفر وعبادة غير الله عز وجل إنما هو إبليس، وذلك من خلال جنوده من الإنس والجن من دعاة الكفر والضلالة والفسق والفجور. فيكون المعبود من دون الله تعالى هو الشيطان، لأنه هو الذى أطاعه الضّالون فى معصية الله عز وجل، قال تعالى **﴿وامتازوا اليوم أيها**

---

(١) آية ٥ : سوسف.

(٢) آية ٥٠، ٥١ من سورة الكهف.

المجرمون ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألّا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين؟؛ وأن إعبدونى هذا صراط مستقيم﴾[1].

١٨ - خلفاء الرحمن وخلفاء الشيطان هم طرفا الصراع التاريخى الرئيسيان:

ومن ثم فإن حزب الشيطان وخلفاءه وجنوده حقيقة واقعة فى الأرض طيلة الحياة الدنيا. وتمثل طرفا من طرفى الصراع التاريخى فى حياة البشرية. وهذا الحزب يواجه الطرف الآخر، ألا وهو حزب الله تعالى وخلفاؤه وجنوده.

فليس الصراع فى الأرض سوى صراع بين أهل الحق وأهل الباطل أو بين أهل الإيمان بالله تعالى والكافرين.

وموضوع الصراع هو خلافة الأرض، لأنها المِنَّة التى مَنَّ الله تعالى بها على آدم وبنيه. ومن ثم حقد عليه إبليس، ونزل ليصارعه فى محاولة منه لكى يكفر أبناء آدم بالله تعالى، فيخسرون خلافتهم لله عز وجل ويتحولون إلى خلافة الشيطان.

فحقيقة الخلافة تدخل فى التفسير الإسلامى للتاريخ كحقيقة إعتقادية أصولية بحيث لا يصح تفسير التاريخ إلا بها، ومن خلالها، مع غيرها من الحقائق الاعتقادية الأخرى.

والدليل على هذا أن آيات الخلافة فى سورة البقرة تضمنت ذكر العداء المتزامن مع هبوط آدم وزوجه من ناحية، وإبليس من ناحية أخرى.

لقد ظن بعض المفسرين أن العداء فى قوله تعالى **﴿وقلنا إهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو﴾** هو عداء آدم لزوجه، وعداء البشر للبشر، وأن الأمر بالهبوط لهما ولذريتهما لكن جمهور المفسرين على غير ذلك، إذ الأمر بالهبوط كان لآدم مع زوجه وإبليس والحية التى أخفت إبليس فى فمها، ومن ثم شاركت إبليس فى عداوتها للإنسان، وفى هذا المعنى [أخرج ابن جرير عن إبن عباس قال (سئل رسول الله ﷺ عن قتل الحيات؟ فقال: خلقت هى والإنسان كل واحد

---

(١) من الآية ٥٩ إلى الآية ٦١ سورة ياسين.

منهما عدو لصاحبه إن راها أفزعته وإن لدغته أوجعته. فاقتلها حيث وجدتها)[1].

كما أورد السيوطى الروايات المأثورة التى تثبت العداء بين آدم وحواء من ناحية وبين إبليس والحية من ناحية أخرى.

قال السيوطى [أخرج عبد بن حميد وابن جرير وإبن المنذر وإبن أبى حاتم عن إبن عباس فى قوله (وقلنا إهبطوا بعضكم لبعض عدو) قال آدم وحواء وإبليس والحية (ولكم فى الأرض مستقر) قال: القبور (ومتاع إلى حين) قال: الحياة.

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى قوله (إهبطوا بعضكم لبعض عدو) قال: آدم والحية والشيطان وأخرج أبو الشيخ عن قتادة عن أبى صالح قال (إهبطوا) قال: آدم، وحواء، والحية.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال (إهبطوا) يعنى آدم وحواء وإبليس][1].

وفسر إبن كثير رحمه الله تعالى (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) (أى قرار وأرزاق وآجال) إلى وقت محدد ومقدر، أى إلى قيام الساعة. ومن ثم يكون الأمر بالهبوط وإثبات العداء المصاحب له، ليس موجهاً إلى آدم وزوجه أو إلى آدم وإبليس فقط، وإنما يكون هذا الأمر موجهاً أيضاً لذرية آدم، باعتباره أصل الإنس، وذرية إبليس بإعتباره أصل الجن، والدليل على هذا إلحاق هذا الأمر وتضمينه إستقرار الإنس والجن فى الأرض وتمتعهم فيها إلى قيام الساعة، وكذلك إستمرار العداء بينهم منذ هبوطهم إلى قيام الساعة.

هذا هو الذى قرره الفراء بقوله [وقال: إهبطوا : يَعْنيه ويعنى ذريته، فكأنه خاطبهم. وهو كقوله «فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كَرهاً قالتا أتينا طائعين». المعنى- والله أعلم- أتينا بما فينا من الخلق طائعين. ومثله قول إبراهيم «ربنا واجعلنا مسلمين لك» ثم قال: «وأرنا مناسكنا»وفى قراءة عبدالله «وأرهم مناسكهم فجمع قبل أن تكون ذريته [2] ».

---

(١) السيوطى/ الدر المنثور/ جـ١/ ص١٣٤.

(١) أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ/ معانى القرآن/ جـ١/ ص٣١ نشر عالم الكتب بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠.

لكن الألوسى يـرجح أن الخطاب [لآدم وحواء لقوله تـعالى: (قلنا إهبطـا منها جميعاً) والقصة واحدة، وجمع الضمير لتنزيلهما منزلة البشر كلهم][1].

وذكر الألوسى الاعتراض الذى ذكره البعـض على إدخال الحية مع آدم وإبليس فى الأمر بالهـبوط، لعدم تكليفـها، ثم ذكر بأن الإجابة علـى كل ذلك، بأن الأمر بالهبوط هـو أمر تكوينى، ومن ثم تكـون العداوة القائمة بين الإنســان والشيطان، وبين الإنسان والحـية عداوة تكوينـية، أى بمقتضى الطـبع والجِبلَّة التـى يخلق الله تعالى عليها أفراد هذه الأنواع الثلاثة وقد يصدق هذا القول على العلاقة بين الإنس والحيات كما ورد فى الحديث المروى عن إبن عباس رضى الله عنهما السابق ذكره. لكــن بالـنسبـة للـعداء بين الـناس والـشيطـان وجنـوده، أو إبليـس وذريتـه من الجن. فالأمر لايمكــن تفسيره بمقتضى الطـبع والجِبلَّة، أى بمقتضى الأمرالـتكوينى بالعداء فى قوله تعالى (بعضكم لبعض عدو).

وذلك لأننا لو فهمناه من خلال الأمر التكوينى فقط، فإنه يلزم أن يكون جميع بنى آدم أعداء لجميـع ذرية إبليس وجنوده، كما كان آدم وزوجـه عدواًن لإبليس، وهذا غير صحيح.

وتفسير ذلك أن العــداء ليس حتمياً بين أفراد الثقلـين: الإنس من ناحية والجن من نــاحية، بـإعتبـار أن هذا إنســى وذاك جـنـى، كـمـا هــو الحال بـين الإنس والحيات.

وإنما يدخل فى وجود هذا العداء الاختيار الحر الصادر من الكائن المبتلى، سواء أكان من الإنس أم كـان من الجن. ومن ثم نزل الأمر الإلهـى التشريعى التـخييرى الإبتلائى بتوجيه العداء نحو إبليـس وذريته، وتوجيه الولاء لحزب الله تعالى، وهو الأمر المتمـثل فى الآيات التى سبق ذكـرها إذ يأمر فيها الله تعـالى الإنس والجن أو المؤمنين منهم بإتخاذ إبليس عدواً.

(١) الألوسى/ تفسير روح المعانى/ جـ١/ ص٢٣٦.

ومن ثم فمعنى قوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) أى بعض الناس سيكونون أعداءاً لبعض. والمحصلة أن حزب الله تعالى سيكونون من الإنس والجن، كما أن حزب الشيطان سيكونون من الإنس والجن كذلك، أى أن كل حزب أو فريق فى الصراع سيتشكل -ليس بمقتضى الجبلة والطبع -وإنما بمقتضى إختياره بين الحق والباطل، ليصير أهل الحق من الإنس والجن حزب الله تعالى وخلفاءه فى الأرض، ويصير أهل الباطل من الإنس والجن أيضاً حزب الشيطان وخلفاءه فى الأرض. لذلك رفض الرازى تفسير قوله تعالى (إهبطا منها) بأنه موجه إلى آدم وحواء، مستدلاً على ذلك بأن العداء المصاحب للهابطين ليس بين آدم وزوجه، لأن الله تعالى جعل بين المرء وزوجه مودة ورحمة وهذا ينفى العداء بينهما، ويرى أن الأمر موجه لأدم وإبليس، ولم تذكر حواء فى هذا الأمر لإنها تبع لزوجها.

كما يمكن أن نقرر أن الأمر بصيغة المثنى ليس لآدم وإبليس الفردْين بل هو لهما باعتبارهما فريقين أو حزبين إذ كان آدم يمثل آنئذ حزب الله تعالى وهو خليفته أى كان يمثل خلفاءه عز وجل، بينما كان إبليس يمثل حزب الباطل، وهبط محاولاً الغواية والإختلال لتكوين حزب الطاغوت ليبدأ صراعاً وحرباً متشعبة الجوانب والأساليب ضد حزب الله تعالى وخلفائه عز وجل بقصد حرمانهم من خلافتهم لله تعالى وزحزحتهم عنها ليصيروا خلفاءه وأولياءه ومن ثم يشاركونه مصيره الآليم فى جهنم ويُحرمُوا من خلافتهم الأبدية لله أولياء له عز وجل منعمين فى أرض الخلود.

هذا هو أصل الصراع الدائر فى أرض الخلافة الإبتلائية. صراع على خلافة الأرض بين أهل الحق وأهل الباطل. . بين المؤمنين بالله تعالى وباليوم الآخر وبين الكافرين.

فإذا كانت الخلافة أصلاً هاماً من أصول ومبادئ تفسير التاريخ فى الإسلام، فإن النبوة والوحى الإلهى ودور الرسل مبادئ وأصول رئيسية أيضاً فى هذا التفسير، حتى يمكن القول أن التاريخ البشرى هو تاريخ الصراع على خلافة

الأرض بين أهل الحق بقيادة الأنبياء والرسل وأتباعهم المتمسكين بوحى الله عز وجل، وبين أهل الباطل بقيادة إبليس وجنوده وأتباعهم من الإنس والجن المتمسكين بالفلسفات والمبادئ القائمة على الأهواء والبدع وإرضاء الشهوات.

١٩ - الكتاب والحكم والنبوة مقومات أساسية لتحقيق خلافة الله تعالى فى الأرض:

لذلك جاء قوله تعالى ﴿**قلنا إهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾[1]. بعد الأمر بالهبوط للأرض فكما صاحب الأمر بالهبوط ذكر العداء، كذلك أعاد الله تعالى ذكر الأمر بالهبوط مقروناً بذكر الوحى الإلهى الذى أنزله الله تعالى على بنى آدم خلال تاريخهم الطويل ، حاملاً الهدى الإلهى للحق، وهو الهدى التخييرى التشريعى الذى هو دلالة للناس إلى الخير وبيان للحق حتى لايضلوا.

وقوله تعالى ﴿**فمن تبع هُدَاىَ...**﴾ ثم قوله تعالى ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا...**﴾ يتضمن تقرير موقف أفراد الثقلين من الإنس والجن من الهدى الإلهى ومن الرسل إذ ينقسمون إلى فريقين: مؤمنين مصدقين، وكافرين مكذبين، وذلك الإختلاف هو نتيجة حتمية للإختيار الذى يمكنهم الله تعالى منه تحقيقا للإبتلاء.

وهذا الإختلاف والإنقسام هو الذى يؤدى إلى قيام خلافة الله تعالي فى الأرض مصارعة لخلافة الطاغوت أو الشيطان. وذلك فى كل زمان من أزمان التاريخ البشرى، والحرب بين الفريقين سجال، تكون السيادة فى الأرض والملك والظهور لأهل الحق تارة ولأهل الباطل أخرى.

وتعتبر حياة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بدء حقبة من حقب التاريخ

---

(١) ٣٨، ٣٩/ البقرة.

البشرى، لعلهـا بالنسبة لما سبقها من حـقـب، أكبر أهمية لحياتنا كمـا أن لها تأثيرها المستمر فى مجال الصراع التاريخـي على حكم الأرض وسيادتها وتحقق خلافة الله تعالي فيها أكبر من سوابقها من الحقـب التاريخية فى عهد نوح وهود وثمود ثم فى قرون أخرى كثيرة لايعلمهم إلا الله تعالى.

فابراهيم الخـليل عليه السلام هو أبو الأنـبياء فى هذه الحقبة التى تمـتد إلى قيام الساعة، ومن ثم فهي الحقبة الأخيرة في تاريخ البشرية وقد جعل الله تعالى الامامة فى الأرض، أى قـيادة خلفـاء الله عز وجل لـه ولذريتـه من بعده، وإن كـان هذا العهد قد قصره الله تعالى على الصالحين مـنهم، ماداموا متمسكين بهدى الله تعالي وتشريعه.

وقد شاء الله عز وجل أن يـبتلى ابراهيم عليـه السلام قبل أن يخبره بـإصطفائه لامامة البشرية قال تعالى **﴿وإذ ابتلى ابراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن. قال: إني جاعلك للناس إماما، قال ومن ذريتى، قال لاينال عهدى الظالمين﴾**.

أى أن الله عز وجل إستجاب لابراهيـم عليه السلام فـجعل الامامة فـى ذريته أيضا إلا أنه حرم منها غير الصالحين منهم.

وذلك لارتـباط الامامـة التى اصـطفى الله تـعالـى لها ابـراهيم عـليه الـسلام والصالحين مـن ذريته بالنبـوة وبالكتاب المنـزل من الله لعباده هدى ورحـمة ودليلا ومرشدا وقائدا لهم فى صراعهم مع حزب الشيطان وخلفائه.

وعهد الله تعالـى- كما ينص على ذلك كثـير من آيات الذكر الحكيـم- يتضمن توريث الأرض وسيادتها وحكـمها وملكيتها للصالحين من بنـى آدم فلا تنتزع منهم عصا الحكم والسيادة فى الأرض، إلا إذا فرطوا في كتـابهم المنزل عليهم، فالامامة والحكم والـنبوة ثلاثـة عوامل رئيـسية فى تـفسير الـصراع فى الأرض، كمـا أنها المؤهلات الرئيسية لاستحقاق عهد الله تعالي بالنصر على حزب الشيطان، والتفريط

فيها، بعضها أو كلها، يعطى الفرصة لخلفاء الشيطان بالعلو والسيادة والإفساد فى الأرض.

قال تعالى **﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم. ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون. اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾**[1].

فمن ذرية إبراهيم هؤلاء الانبياء والرسل. جميعا عليهم الصلاة والسلام. وغيرهم ممن لم يرد ذكرهم تعيينا وورد إجمالا فى قوله تعالي (ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم). وهذا مصداق العهد الذي أعطاه الله تعالى لابراهيم فى أن تكون الامامة فى ذريته، الصالحين منهم دون الفاسقين والكافرين.

وارتبطت المقومات الرئيسية لخلافة الإنسان لله في الأرض بعضها ببعض فى قوله عز وجل **﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾** اذ يعتبر الوحى الإلهى المنزل على رسله فى الكتب السماوية هو المقوم الأول لتحقيق خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض، والحكم أو السلطان هو المقوم الثانى، والنبوة باعتبار النبى هو الذي تتمثل فيه الهداية الالهية المنزلة عليه، أى هو التطبيق العملى لما فى الكتاب بالاضافة إلى أنه سلطان الله تعالى فى الأرض إذ الحكم يتمثل فى أفعاله وسلوكه وقيادته للمؤمنين أيضا.

---

(١) ٨٣ - ٨٩/ الأنعام.

وتقدم الكتاب علي الحكم لأن الحكم بغير الكتاب ضلال وكفر وظلم وفسق ومن ثم يكون فى دائرة خلافة الإنسان لغير الله عز وجل.

وتقدم الحكم على النبوة لأن الخلافة قد تتحقق بالنبوة وقد لاتتحقق ، فكم من نبى كذبه قومه ولم يؤمن له أحد، وكم من نبى قتله قومه، حتى أن بنى إسرائيل قتلوا عشرات من أنبيائهم. بينما تقوم الخلافة لله فى الأرض بالكتاب وبالحاكم أو السلطان الصالح حتى ولو لم يكن نبيا. فالحكم والسلطان مقوم ثانى للخلافة من هذا الوجه وسابق فى ذلك على النبوة .

والذي يرجح أن معني الحكم فى الآية هو الملك والسلطان الذى وهبه الله تعالى لذرية ابراهيم مع الكتاب والنبوة لتحقيق إمامتهم للناس - أى للصالحين منهم- هو قوله تعالى **﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما، فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه، وكفى بجهنم سعيراً [1]﴾**.

وبدأت الامامة التي جعلها الله تعالى فى بعض ذرية ابراهيم عليه السلام فى نسل اسحق ويعقوب أى إسرائيل، فلما كفروا تحولت عنهم.

٢٠ - تحول بنى إسرائيل عن خلافة الله تعالى المتحققة فى عهد داود وسليمان إلى خلافتهم للشيطان بعد أن انتزع الله تعالي منهم الكتاب والحكم والنبوة نتيجة لكفرهم وبغيهم:-

تبين لنا أن الله سبحانه وتعالى جعل الامامة في الصالحين من ذرية ابراهيم عليه السلام، فى بنى إسرائيل، أى فى نسل إبنه إسحق عليهم جميعا السلام. فلما حدث من بنى إسرائيل ماحدث من كفر وعناد وتكذيب بالانبياء وقتل لبعضهم. وتكذيب للمسيح عليه السلام الذى أرسله الله تعالى نذيرًا أخيرًا لهم، ليس هذا

---

(١) ٥٤، ٥٥/ النساء.

فحسب ، بل تآمروا على قتله وصلبه، لما فعلوا ذلك إنتزع الله تعالى منهم الكتاب والحكم والنبوة وأرسل الله عز وجل رسوله الخاتم محمداً ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام، فكذبه بنو إسرائيل أيضا وحاربه اليهود مع علمهم بصدق نبوته ورسالته وكفى بجهنم لهم سعيرا، ولكل من كذبه وكفر به.

وقد تولى بنو إسرائيل محاربة الإسلام منذ عهد النبوة حتى الآن.

بل إنهم تولوا مهام الشيطان فى محاولة إطفاء نور الله عز وجل حتى أصبحوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا...**﴾[1].

وهذا يعنى انهم أصبحوا بهذه العداوة الشديدة أئمة للضلال يصدون عن سبيل الله تعالى، ويدعون إلى الباطل والكفر والفساد . أى أنهم من منظور حقيقة الإستخلاف رضوا وقبلوا أن يكونوا خلفاء الشيطان فى الأرض.

وذلك لأن العدواة المصاحبة والمتزامنة مع نزول آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض تتمثل -كما قلنا- دائما فى جنود مباشرين من الإنس والجن يتخذهم الشيطان لمحاربة جنود الله المؤمنين والمسلمين من الإنس والجن أيضا ، حتى يمكن القول أن الشيطان الأول إبليس لعنه الله عز وجل يتخذ من هؤلاء الذين هم فى كل زمان ومكان أشد الناس عداوة للمؤمنين، جندا مجندين منظمين فى شكل مؤسسة شيطانية، ذات درجات هرمية، يتربع على قمتها إبليس نفسه ويتصل به الفئة الإنسية الخبيثة عن طريق طقوس وعبادات خاصة يقدمونها له فيوحى إليهم بما ينفذونه من مخططات. وتنظيمات وأفكار وأعمال من شأنها أن تمكنهم في النهاية من تحقيق هدفهم البعيد وهو إقامة خلافة الشر والشيطان فى الأرض.

وليس بنو إسرائيل أو قيادة بنى إسرائيل فى صراعهم القديم مع الحق وأهله فى الأرض من أجل تقويض خلافة الإنسان لله تعالى وإقامة خلافتهم للشيطان

---

(١) ٨٢/ المائدة.

وحدهم فى هذا الميدان، إذ معهم المشركـون والكافرون، هؤلاء الذين عمل اليهود بمخططاتهم وتنظيماتهم (وبروتوكولاتهم) ومـؤسساتهم الشريرة الخبيثة، السرية منها والمعلنة على إغوائهم وتكفيرهم واخراجهم من فطرتهم الموحدة إلي الشرك والكفر والالحاد. ومن ثم قال تعالى ﴿**اليهود والذين أشركوا..**﴾ لكن يظل تقديم اليهود على الذين أشركوا دليلا على أن القيادة والـتوجيه والريادة فى هذا المضمار الخبيث لليهود.

وهذا يفسر لـنا المناسبة بين آيات الخلافة وبـين قوله تعالى مخاطباً بـنى إسرائيل بعد آيات الخلافة مباشرة ﴿**يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون..**﴾[1].

لقد جاء خطاب الله تعـالى لبنى إسـرائيل فى هذه الآيـة وما بعدهـا إلى الآية إحدى وأربعين بعـد المائة أى فى إثنتين ومائـة من الآيات المتصلة (سوى كـثير من الآيات المتفرقة) ذكَّرهم فـيها بتفضيل الله لهم على العالمين، عـندما كانوا موحدين مسلمين له، بـينما كانت البشرية كـلها على الشرك والوثنيـة، ومن ثم خصهم الله بالرسالة والحكم والـنبوة، وبيَّن من الأحداث التى حدثت لهـم وحدثت منهم مع كليم الله تعالى موسى عليه السلام ومع سائر أنبيائهم، حتى المسيح عيسى بن مريم فى تفصيـلات لقضايا كثيرة وإجمال لمـسائل أخرى. يمكن أن نردها جميـعاً بطريق مباشر تارة وبطريق غير مباشر تارة أخرى إلى قضية الخلافة.

ولكن على أى حال، لا يتسنى لنا فهم آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن بنى إسرائيل سواء تلـك التى فى سورة البقرة، أم التى فى سائـر سور القرآن الكريم، إلا من خـلال حقيقـة الصراع الـدائر بين أهل الإيمـان وأهل الكـفر على خـلافة الأرض، وقد كان ذلك فى عهـد بنى إسرائيل الأول، الذى كانوا يمثـلون فيه أهل الإيمان ويجاهدون لتحقيق خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض بمقوماتها الثلاثة التى وهبهـا الله تعالى إياهـم وهى الكتاب (الـتوراة) والحكم (السـلطان) والنبـوة التى

---

(١) ٤٠/ البقرة.

جعلها الله تعالى فيهم دون غيرهم. ومن ثم تحققت خلافتهم لله تعالى بهذه المقومات الثلاثة على يد داود عليه السلام **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب.﴾**[1].

ومن بعده سليمان ومن جاء بعدهم من الملوك الصالحين والأنبياء والرسل.

كما كان هذا أيضا فى عهد تحقيق خلافة الإنسان لله فى الأرض على يد الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام وعلى يد خلفائه الراشدين ومن جاء بعدهم من الخلفاء حتى نهاية الخلافة العثمانية، إذا كان المسلمون هم المؤسسة الايمانية التى تمثلت فيها خلافة الله تعالي في الأرض، والمتصارعة عبر الأجيال ضد خلفاء الشيطان الذين تمثلوا تارة فى التتار وتارة فى الصليبين ومن قبل هؤلاء ومن بعدهم ومن خلفهم الأعداء المتخفين والمستترين فى صراعهم، ونعنى بهم: اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا.

هؤلاء اليهود الذين تحولوا إلى دعاة للضلال والكفرو قادة للكافرين ودعاة لعبادة الشيطان وخلافته فعلوا فى عصرنا هذا فى الأرض علوا كبيرا بالإفساد. ولا يزال الصراع دائراً بينهم، كخلفاء للشيطان وبين خلفاء الرحمن المتمثلين فى المسلمين المؤمنين المتمسكين بالكتاب، وسيزال إلي أن يظهر الله تعالى دينه ويزيل الغربة التى عاد فيها الاسلام كما كان في أول عهد النبوة.

والخلاصة التى نود أن نثبتها كنتيجة وحقيقة تقررها آيات الخلافة أن ورود الكلام عن بنى إسرائيل بعد ذكر آيات العداء بين أبناء آدم دليل على أنهم سيكون لهم اليد الطولى الخبيثة الخفية فى الصراع التاريخى بين المسلمين - أهل الحق والايمان وخلفاء لله عز وجل- وبين الكافرين والضالين- أهل الباطل والشر وخلفاء الطاغوت وهو دليل أيضا علي أن بنى إسرائيل أو اليهود سيكون لهم علو

---

(١) ٢٦/ص.

بعد إفساد وبسببه كما تخبـرنا بذلك آيات سورة الإسراء. وتلك هى الأحداث التى نعاصرها في زماننا هذا، والله تعالى أعلم.

ومن ثم يمكننا القول أن حقيقة الإستـخلاف هى إحدى الحقائق الانسانية الهامة فيما يخص تـفسير الأحداث التاريخية، بـل هى محور التفسير الاسلامـى للتاريخ وذلك لأن المعـادلة التى تـقوم عليهـا هذه الحقيقـة هى أن المكان المحـدد والزمان المحدد والخلافة أى التملـيك والتمكين هى العناصر الرئيـسة للصراع وهذا ما أراده الله عز وجل فى الحياة الدنيا المحدودة الزمان والمكان للابتلاء.

ولذلك قال تعالى ﴿**قلنا إهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو**﴾ فالعداء بين الناس حتمـى ، لان الاختلاف هو أيضا نتيـجة حتمية للابتـلاء . قال تعالى ﴿**ولو شاء ربكَ لجعـل الناس أمة واحدة ولايزالون مـختلفين. إلا من رحـم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ (١).

فإنتـقال السيـاق من ذكر العداء المـصاحب للـهبوط طيلـة إستقرار الانـسان فى الأرض مدة الحياة الدينا وخلال أجل الخلافة الابتـلائية بعد آيات الخلافة والسجود لآدم ومعصية إبليس إلي ذكر ما كان وما سيـكون من بنى إسرائيل تفصيلا فى كل سورة البقرة ثم فى سـور أخرى من القرآن الكريم مما يثبت أن حقـيقة الخلافة هي محور احداث الصراع الناتج عن عداء الكافرين لـلمؤمنين وعلى رأس الكافرين بنو إسرائيل.

ولقد وضَّـحَ صاحب الظلال رحمـه الله تعالى الصلـة بين حقيقة الاسـتخلاف وبين مخاطبة بنى إسرائيل بعده بقوله [ثم نلحظ من جانب التناسق الفنى والنفسى فى الأداء القـرآنى، أن بدء هذه الجولة يـلتحم بخـتام قصة آدم، وبالايمائـات التى أشرنـا إليها هـناك، وهذا جانـب من التكـامل فى الـسياق القـرآنى بين القـصص والوسط الذى تعرض فيه :

---

(١) ١١٨، ١١٩/ هود.

لقد مضى السياق قبل ذلك بتقرير أن الله خلق ما فى الأرض جميعا للانسان، ثم بقصة إستخلاف آدم فى الأرض بعهد الله الصريح الدقيق، وتكريمه على الملائكة، والوصية والنسيان، والندم والتوبة، والهداية والمغفرة، وتزويده بالتجربة الأولى فى الصراع الطويل في الأرض، بين قوى الشر والفساد والهدم ممثلة فى إبليس، وقوى الخير والصلاح والبناء ممثلة فى الانسان بهذا كله فى السورة، ثم أعقبهُ بهذه الجولة مع بنى إسرائيل فذكر عقد الله معهم ونكثهم،ونعمته عليهم وجحودهم بها، ورتب على هذا حرمانهم من الخلافة، وكتب عليهم الذلة، وحذر المؤمنين كيدهم كما حذرهم مزالقهم فكانت هناك صلة ظاهرة بين قصة إستخلاف آدم وقصة إستخلاف بنى إسرائيل، وإتساق فى السياق واضح وفى الأداء][1].

حتى يقول رحمه الله تعالى حول نفسى الموضوع [ومن مراجعة المواضع التى وردت فيها قصة بنى اسرائيل هنا وهناك يتبين انها متفقة مع السياق الذى عرضت فيه، متممة لا هدافه وتوجيهاته. . . وهي هنا متّسقه مع السياق قبلها. سياق تكريم الانسان، والعهد اليه والنسيان.

متضمنّة إشارات الى وحدة الانسانية، ووحدة دين الله المنزل عليها، ووحدة رسالاته، مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها، وإلى عواقب الإنحراف عن هذه المقومات التى نِيطَتْ بها خلافة الانسان في الأرض، فمن كفر بها كفر بإنسانيته وفقد أسباب خلافته، وإرتكس فى عالم الحيوان .

وقصة بنى اسرائيل هي اكثر القصص ورودًا فى القرآن الكريم، والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة توحى بحكمة الله في علاج امر هذه الأمة المسلمة، وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى . . .] [1] *

---

* سنفرد لموضع الخلافة والتفسير الاسلامى للتاريخ وعودة الخلافة الاسلامية بعد سقوطها جزء مستقل من هذا الكتاب بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه أسأل الله تعالى أن يمد فى الأجل ويعين على إتمامة. المولف.

(١) فى ظلال القرآن / الشهيد سيد قطب حـ ١ ص ٦٥، ٦٦ المجلد الأول ى دار الشروق الطبعة السادسة ١٩٧٨.



الفصل السادس

من هو الخليفة ومن هو المستخلَف ؟ (بفتح اللام)

٢١ - محاور الخلاف بين المفسرين حول معنى الخلافة .

٢٢ - من هو المستخلَف ؟ .



٢١ - محاور الخلاف بين المفسرين حول معنى الخلافة:

لقد سبق أن أرجأنا تفصيل القول فى تفسير كلمة «خليفة» إلى ما بعد الإنتهاء من عرض السياق كاملاً لأسباب ذكرناها فى موضعها.

والآن أصبح لزاماً علينا تناول معنى هذه الكلمة ومفهومها من خلال تفسيرسياق آيات الخلافة.

إذ من المعلوم أن المحور الأساسى لهذا البحث والهدف الرئيسى له هو معرفة الخلافة .

لقد إختلف المفسرون فى معنى الخلافة ومجالها.

ويكفى لبيان أهمية هذا الخلاف، ثم لبيان وجوب العمل على إزالة اللبس الذى نجم عنه الخلاف -أن نذكر إجمالاً القولين الرئيسين فى هذه القضية:

الأول: وهو منسوب للطبرى رحمه الله تعالى حيث قرر أن «خليفة» بمعنى «نائب» عن الله عز وجل فى إقامة دينه، وتنفيذ حكمه، وتطبيق شرعه. وقد تابع الطبرى كثير من المفسرين كماسنرى.

والثانى: وهو رأى شيخ الإسلام إبن تيمية رحمه الله تعالى الذى يبطل فيه ما ذهب أصحاب المذهب الأول.

ومما يزيد خطورة الخلاف وأهمية القضية ما صرح به ابن تيمية رحمه الله تعالى عن القول الأول أنه باطل لا يجوز ويؤدى بقائله إلى الشرك.

ومن ثم وجب التفصيل بقدر الإمكان لبيان معنى كلمة خليفة عند أهل اللغة والبيان، واستعراض ما ذكره المفسرون فيها تفصيلاً، بغية الوصول إلى قول يزول به الخلاف، بعون الله تعالى وتوفيقه.

والقضية التى تواجهنا أولاً تتمثل فى تعيين الخليفة، أى من هو الخليفة.؟

ويمكن حصر الإحتمالات الممكنة من خلال الإجابات المقدمة من المفسرين على هذا السؤال فى التالى:

١ - أن الخليفة هو آدم فقط باعتبار أن الإشارة فى الآية إليه.

٢ - أن الخليفة هو آدم باعتباره نبياً وكذا سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣ - أن الخليفة هو النبى الذى حكم قومه أى جمع بين النبوة والملك كداود وسليمان .

٤ - أن الخليفة هو كل حاكم فى كل زمان ومكان، سواء أكان نبياً أم لم يكن، صالحاً أم غير صالح، مسلماً كان أم كافراً.

٥ - أن الخليفة هو الحاكم المؤمن الصالح الذى يقيم حكم الله تعالى دون غيره من الحكام.

٦ - أن الخليفة هو كل إنسان مؤمن بالله تعالى سواء أكان حاكماً أم محكوماً.

٧ - أن المقصود بالخليفة هو الإنسان كنوع، فيكون كل فرد من أفراد الإنسانية مستحقاً لهذا الوصف سواء أكان حاكماً أم محكوماً، مؤمناً أم كافراً، مقيماً لشرع الله تعالى أم مقيماً لشرائع جاهلية.

وقبل أن نناقش هذه المذاهب للوصول إلى القول الراجح فيها، سنطرح القضية الرئيسية الثانية فى حقيقة الخلافة، إذ هى وثيقة الصلة بالقضية الأولى، حتى أنه يصعب علينا أن نتبين الواحدة منهما بدون الأخرى، ومن ثم فإن مناقشتهما معا يمهد لنا الوصول إلى القول الراجح فى كل منهما كما أنهما تمهدان معاً لنا معرفة حقيقة الإستخلاف.

وتتمثل هذه القضية فى السؤال التالى:

إذا كانت كل الإحتمالات الخاصة بالقضية الأولى لا تخرج عن نطاق كون الإنسان هو الخليفة سواء أكان نوعاً أم فرداً إذ لم يختلف إثنان على ذلك، فمن يكون المستخلَف (بفتح اللام)؟

أى من هو الذى صار الإنسان خليفة له.؟

ولبيان هذه القضية نقول:

إن مقتضى اللغة يلزم بأن يكون الخليفة هو من جاء خلفاً لسلف سبقه؟

فإذا كان الانسان (آدم أو الأنبياء أوْ الحاكم، إلخ) هو الخليفة، فمن هو المستخلف؟.

اختلف المفسرون فى الاجابة؟ على هذا السؤال إلى الأقوال الآتية:

١ - أن الله عز وجل هو المستخلف فهو سبحانه الذى إستخلف الإنسان فهو المستخلِف (بكسر اللام) وهو أيضاً المستخلَف (بفتح اللام).

٢ - أن الإنسان صار خليفة للجن الذى سكن الأرض قبله، وأفسد فيها، فجعل الله الإنسان خليفة له من بعده.

٣ - أن الخلافة صفة إنسانية لازمة لحياته وإستمرار وجوده فى الأرض، إذ أن كل جيل يخلف من سبقه من الأجيال، فالخلافة تعبير عن السُنَّة العامة التى خلق الله تعالى الإنسان عليها، والمتمثلة فى خلافة الجيل اللاحق للجيل السابق، أى الخلف للسلف طيلة عمر البشرية فى الأرض.

وأصحاب هذا القول يثبتون معه القول الثانى فيقولون: إن آدم عليه السلام خلف الجن، ثم يخلف أبناؤه وذريته بعضهم بعضاً.

وكل قول من هذه الأقوال يرتبط بقول من الأقوال الخاصة بالقضية الأولى.

فالذين قالوا: إن الخلافة هى نيابة الله تعالى، قصروا مفهوم الخلافة على الأنبياء والحكام الصالحين أو سائر المؤمنين.

والذين قالوا أن المستخلَف (بفتح اللام) هو الجن كنوع ، جعلوا الخلافة للإنسان كنوع أيضاً، دون تمييز بين مؤمن وكافر.

والذين جعلوها بمعنى الجيل يخلف الجيل، عمّموها على سائر الناس بلا تمييز بينهم.

وهكذا نجد أن معرفة حقيقة الخلافة كطبيعة جوهرية للإنسان ترتبط إرتباطاً وثيقاً بهذين السؤالين:

من هو الخليفة؟

ومن هو المستخلَف؟ (بفتح اللام)

فإذا حددنا الإجابة عليهما أمكننا أن نصل إلى الإجابة على السؤال الرئيسى فى هذا البحث، وهو ما هى الخلافة وما حقيقتها؟

أما بالنسبة للسؤال الأول فقد ذكر الطبرى رحمه الله عدة أقوال فى معنى خليفة، ولم أجد فيمن بعده من المفسرين من زاد عليها أو من إنتقص من هذه الاحتمالات:

الأول: أن الإنسان خلف الجن فى الأرض الذين سكنوها قبله، فأفسدوا فيها،فأرسل الله إليهم جيشاً من الملائكة بقيادة إبليس، الذى كان من الجن، فطاردوهم إلى الجزر النائية وأعالى الجبال.

ومن ثم يكون معنى خليفة: أى يخلف الجن فى سكنى الأرض وتعميرها.

الثانى: (أى خلفاًيخلف بعضهم بعضاً، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم، ويخلف كل قرن منهم القرن الذى سبقه)[1].

الثالث: ثم إن الطبرى لا يرفض ولا يقبل أحد هذين القولين، كما لا يرجح أحدهما، ولكنه يعرض قولاً ثالثاً، وهذا القول يستنبطه من رواية ينسبها بسندها لإبن عباس وإبن مسعود رضى الله عنهما:

---

(١) تفسير الطبرى/ جـ١/ ص٠٠٢.

قال الطبرى [عن إبـن عباس وابن مسعود وعن أناس من أصـحاب النبى ﷺ، أن الله جل جلاله قال للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة).

قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟

قال: يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضا.

فكان تأويل الآية على هذه الرواية، التى ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس:

إنى جاعل فى الأرض خليفة منى يخلفنى فى الحكم بين خلقى، وذلك الخليفة هو آدم، ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه.][1].

وبالرغم من أن هذا القول هو قول الطبرى، إستنبطه من رواية إبن عباس وابن مسعود رضى الله عـنهما، إلا أننى قرأت فى أكثر مـن تفسير من التفاسيـر الشهيرة التى يُعتمد عليها نسبة هذا القول لابن مسعود وابن عباس.

كذلك يلاحظ القارئ فى مصادر التفسير الـقديمة والحديثة، التى يفسر أصحابها بالمأثور، والأخرى الـتى تعتمد المعقول، أنـهم اعتمدوا جميعاً هـذه الأقوال الثلاثة باعتبار أن كل قول منها تفسيرٌ يحتمله النص وتقبله اللغة، بل ولكل قول أدلة على صحته من الكتاب والسنة والعقل.

وما يجـدر ذكره هنا أن الرواية الـتى عزاها الطـبرى لابن مسعود وابـن عباس رضى الله عنهما، لا يلزم عنها القول أو الرأى الذى استنبطه الطبرى.

وقد جاء فيه أن الخليفة هو آدم عليه السـلام، لأن الله كلفه بإقامة حكمه تعالى بين أبنائه، ثم يخلف آدم من أبنائـه الحكام الصالحون، ومن ثم يكون آدم والحكام الصالحون خلـفاء لله تعالى دون سائر البـشر، حسب كلام الطبرى، بـل يفهم من قوله أنه يصف آدم فقط بأنه خليفـة الله تعالى، دون سائر أبنائه الحكام، لأنه نص على أن الحكام من ذريته خلفاء له هو، وخلفاء لبعضهم البعض.

---

(١) تفسير الطبرى/ جـ١/ ص٢٠١.

أى أنه لم يطلق الخلافة على الإنسان كنوع بل قصرها على الأنبياء والحكام الصالحين، ونوه إلى أن آدم عليه السلام وحده هو خليفة الله تعالى.

والذى نود التنبيه إليه هو أن هذه النتائج ليست لازمة من رواية إبن مسعود وإبن عباس رضى الله عنهما. لأن هذه الرواية لم تتضمن سوى خبراً واحداً، هو أن ذرية الخليفة ستفسد فى الأرض، وهذا معلوم من آيات الخلافة.

كذلك تفيد الرواية أن الخليفة هو آدم.

[قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية].

ففى قوله: يكون له ذرية إشارة إلى آدم، ولكن هذا أيضاً معلوم من آيات الخلافة، فى قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) ثم قوله تعالى (... أسجدوا لآدم...) ففيهما إشارتان أخريان إلى أن المقصود بالخليفة هو آدم، لذلك قرر الطبرى -ومن بعده كثير من المفسرين- بمقتضى سياق الآيات وبمقتضى هذه الرواية أن آدم هو الخليفة.

وحيث أن ادم نبى مكلَّم لا يحدث منه الإفساد وسفك الدماء، فقد قصر الطبرى الخلافة عليه، وجعلها خلافة لله تعالى، وألحق به الأنبياء والصالحين إجتهاداً منه، إعتماداً على غير الرواية المذكورة لأنها لا تتضمن هذا.

ولعل الطبرى قد حاول بذلك أن يوفق بين الإشارة إلى أن الخليفة هو ادم كما تدل على هذا الرواية، وبين حقيقة تتابع الأجيال، وخلافه القرون بعضهم لبعض،فذكر هذا القول الثالث.

والذى يجدر ذكره بهذا الصدد أن آيات الخلافة لا تحتمل قصر الخلافة على آدم عليه السلام، لأن أكثر المفسرين -كما رأينا- قد قرروا أن آدم ليس مقصوداً فى آيات الخلافة بشخصه، بل بصفته أى باعتباره ممثلاً للنوع الإنسانى كله.

الملاحظة الثانية على كلام الطبرى: أن إستنباطه فكرة خلافة آدم وصالحى الحكام لله عز وجل لا تحتملها رواية ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما، وإن كانت هذه الفكرة قائمة فى مضمون سياق الآيات الخاصة بالخلافة، وآيات أخرى كثيرة فى القرآن الكريم، وأحاديث ثابتة عن الرسول ﷺ ستأتى جميعها فى حينها.

بيد أن ذكر هذه الفكرة وعرضها كنتيجة مستنبطة من رواية ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما، مع خلو الرواية ممايثبت هذه الفكرة، أمر قد يؤدى لدى البعض إلى إضعافها، وبالتالى إلى رفضها بإعتبار أنها استنباط غير صحيح، فى حين أن لها سنداً وأدلة فى الكتاب والسنة كما سنرى.

ومع هذا فقد أصبح قول الطبرى الثالث أحد الأقوال الرئيسية فى تفسير معنى الخلافة، وأصبحت فكرة خلافة الانسان لله تعالى فى الأرض قولاً مقبولاً من العلماء والمفسرين خلال العصور الإسلامية المختلفة قديماً وحديثاً، فلا نكاد نجد تفسيراً إلا وقد ذكرها كأحد الأقوال المحتملة لآيات الخلافة، والتى تحتملها نصوصها ونصوص أخرى من الكتاب والسنة، حسب مقتضيات الألفاظ والقواعد اللغوية.

قال إبن الجوزى (وفى معنى خلافة آدم قولان:

أحدهما : أنه خليفة عن الله فى إقامة شرعه، ودلائل توحيده والحكم فى خلقه وهذا قاله إبن مسعود ومجاهد.

والثانى: أنه خلفٌ لسلفٍ فى الأرض قبله، وهذا قول إبن عباس والحسن).

وقال القرطبى [والمعنى بالخليفة هنا فى قول إبن مسعود وإبن عباس وجميع أهل التأويل آدم عليه السلام][1].

---

(١) القرطبى / الجامع لأحكام القرآن/ جـ١/ ص٢٦٣.

لكن الرازى يضيف قولاً ثالثاً إلى هذين القولين، ليس مختلفاً عنهما، ولكنه مستنبط من أحدهما، ومتمم له فيقول:

[**الأول:** بأنه تعالى لما نفى الجن من الأرض واسكن آدم الأرض كان آدم عليه السلام خليفة لأولئك الجن الذين تقدموه. يروي ذلك عن ابن عباس .

الثانى: إنماسماه الله خليفة لأنه يخلف الله فى الحكم بين المكلفين من خلقه، وهو المروى عن إبن مسعود وابن عباس والسدى وهذا الرأى متأكد بقوله **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾**].

ثم يعرض الرازى الرأى الثالث الذى يعمم الخلافة لتكون بمعنى الجيل يخلف الجيل ويقول [وهو قول الحسن ويؤكده قوله [وهو الذى جعلكم خلائف الأرض].

ويمكن أن نفهم من عبارة الرازى فى القول الثانى [وهو متأكد بقوله (يا داود الآية] أنه يرجح هذا الرأى فيعمم الخلافة بعد آدم على الأنبياء والحكام الصالحين.

ويذكر صاحب البحر المحيط هذه الأقوال السابقة فيقول [والخليفة: قيل هو آدم لأنه خليفة عن الملائكة الذين كانوا فى الأرض، أو عن الجن بنى الجان، أو عن إبليس فى ملك الأرض، أو عن الله تعالى، وهو قول ابن مسعود وابن عباس. والأنبياء هم خلائف الله فى أرضه، واقتصر على آدم، لأنه أبو الخلائف، كما أُقتصر على مضر. وتميم وقيس، والمراد القبيلة][1].

ومن ثم ينتهى إلى أن آدم الخليفة ليس ممثلاً لشخصه فقط، بل باعتباره ممثلاً للنوع البشرى كله.

واستدلال أبى حيان على هذا من طريق اللغة يعنى أن تعميم الخلافة للنوع ليس من قبيل الإجتهاد العقلى أو الرأى.

ومن ثم تصبح الإجابة على السؤال: من هو الخليفة؟ بأنه الإنسان النوع دون إستثناء.

---

(١) أبو حيان الأندلسى/ البحر المحيط/ جـ١/ ص١٣٩، ص١٤٠.

ويذكر ابن الكلبى الغرناطى فى كتابه التسهيل لعلوم لتنزيل: أن الخليفة هو [آدم عليه السلام لأن الله استخلفه فى الأرض، وقيل ذريته لأن بعضهم يخلف بعضاً، والأول أرجح ولو أراد الثانى لقال خلفاء][1].

وهذا الترجيح منه يعنى قصر الخلافة على آدم وحده كفرد مستنداً إلى أن خليفة إسم مفرد جمعه خلفاء.

ولكن يرد ترجيحه هذا ويبطله أن خليفة إسم جنس لا يقصد به الفرد فقط.

قال الشنقيطى فى أضواء البيان [إن القول خليفة مفرداً أريد به الجمع، والمفرد إن كان إسم جنس يكثر فى كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع][2].

لذلك ذكر صاحب البحر المحيط الأقوال بصيغة التضعيف «قيل» بينما ذكر القول الذى يرجحه، وهو تعميم الخلافة على النوع الإنسانى، مدعماً بالدليل اللغوى.

ونجد كثيراً من المفسرين يرجحون تعميم الخلافة على سائر الناس، ويعرضون عن القول بتخصيص الخلافة بآدم وبالصالحين، ففى الكشاف مثلاً [الخليفة من يخلف غيره، والمعنى خليفة منكم، لأنهم كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته، فإن قلت: فهلا قيل خلائف أو خلفاء؟.

قلت: أريد بالخليفة آدم وإستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما إستغنى بذكر والد القبيلة فى قولك مضر وهاشم][3].

أى أن تعميم الخلافة على كل بنى آدم، هو من طريق اللغة بالإضافة إلى أن السياق العام للآيات يدل عليه، إذ جاءت آيات الخلافة فى معرض ذكر نعم الله تعالى العظمى على الإنسان النوع.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الكلبى الغرناطى تحقيق محمد عبدالمنعم وإبراهيم عطوة نشر دار الكتب الحديثة القاهرة/ جـ١/ ص٧٦.

(٢) أضواء البيان للشنقيطى / جـ١/ ص٤٨.

(٣) الكشاف/ الزمخشرى/ جـ١/ ص.

ومن ثم تكون الخلافة إحدى هذه النعم العامة التى أسبغها الله تعالى على كل أفراد النوع البشرى.

ومن ثم يرجح الشوكانى هذا القول بقوله [. . . .قيل هو آدم، وقيل كل من له خلافة فى الأرض، ويقوى الأول قوله خليفة دون خلائف واستغنى بآدم عن ذكر من بعده][1]. أى باعتباره ممثلاً لنوعه.

كذلك نجد تاج المفسرين أبا السعود يحصر الإجابة على السؤال: من هو الخليفة؟ فى إحتمالين [إما آدم عليه السلام وبنوه، وإنما اقتصر عليه إستغناء بذكره عن ذكرهم، كما يُستغنى عن ذكر القبيلة بذكر أبيها، مضر وهاشم، ومنه الخلافة فى قريش، وإمَّا مِنْ يَخْلِف أو خَلَفَ يَخْلِف فيعمه عليه السلام وغيره من خلفاء أمته][2].

ويمكننا أن نقرر اتفاق أكثر المفسرين على أن الخليفة هو آدم عليه السلام ممثلاً للإنسان، ولم يقصر الخلافة عليه كفرد إلاَّ القليل منهم.

أى أن الجمهور اعتبر الإشارة إلى آدم وذكره إشارة إلى الإنسانية قاطبة.

ومن ثم تكون إجابة جمهور المفسرين على السؤال: من هو الخليفة؟

هى: هو الإنسان.

وثمة قول باستثناء من هذا التعميم الشامل لاطلاق وصف الخلافة على كل بنى آدم وهو قصر هذا الوصف على الحكام من بنى البشر، فى قول، أو الحكام الصالحين فقط، فى قول آخر.

ولكن نرد هذا الاستثناء، ونطلق وصف الخلافة على كل أفراد البشر، ولتصبح الخلافة حقيقة إنسانية بعدد من الأدلة هى:

---

(١) الشوكان/ جـ١/ ص

(٢) أبو السعود/ التفسير/ جـ١/ ص١٤٢.

أولاً: قول الملائكة [أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء][1]. إذ يدل هذا القول منهم على أن الخلفاء من بنى آدم ليسوا جميعاً صالحين، وإنما يدخل معهم فى هذا الوصف المفسدون أيضاً.

كذلك يدل هذا على أن المستحق لوصف الخلافة أيضاً غير الحاكم من الناس، إذ أن الإفساد وسفك الدماء يقع من الحكام والمحكومين على السواء.

ومن ثم فإن الخلافة -بموجب ذلك- وصف يلحق بكل أفراد النوع البشرى، مؤمنهم وكافرهم، ولو كانت الخلافة قاصرة على صالحين فقط من بنى آدم، لما تعجبت الملائكة، ولم يكن ثمة موضع أو مبرر لقولهم (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) ومثار التعجب أن يكون المفسد هو الخليفة فالخلافة للمفسدين والصالحين على السواء صفة تلحق بالإنسان بمقتضى إنسانيته.

فهى إذا حقيقة إنسانية عامة تدخل فى تكوين النفس الإنسانية وليست عرضاً يلحق ببعض البشر دون غيرهم. وسيأتى تفصيل لذلك فى حينه بإذن الله تعالى.

ثانياً: يؤكد أن الخلافة حقيقة إنسانية عامة، ويدل على أنها خاصية يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات -الملائكة والجن والكائنات الحية جميعاً- ما سبق أن ذكرناه عن تفسير الأسماء التى علمها الله تعالى آدم فالأسماء لم تكن أيضاً علماً خاصاً بآدم وحده اى الفرد وإنما أصبحت ميزه يتميز بها جميع أفراد ذريته من بعده بمقتضى الوراثة.

وكثير من مفكرى الإسلام وعلمائه يقولون بأن اللغات البشرية توقيفية إستناداً على تعليم آدم الأسماء كلها، أى أن اللغة هى نتيجة لعلم الأسماء، وهذا هو الذى فهمه الحسن رحمه الله تعالى من تعليم آدم الأسماء [قال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنى يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن الحسن قال: كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده][2].

---

(١) ٣٠/ البقرة.

(٢) ابن كثير/ قصص الأنبياء/ ص٦٦.

ومن ثم فإن تعليم آدم الأسماء ليس خاصا به، بل هو خاصية تتعدى الى جميع أفراد نوعه، ويدل عليه واقع الحياة البشرية.

وحيث قد ثبت لنا مما سبق صلة علم الأسماء الوثيقة والمباشرة بالخلافة، فإن شمول علم الاسماء للنوع الإنسانى كله، يصبح دليلا على شمول الخلافة لكل الناس بلاإستثناء.

ثالثا: من الأدلة على هذا أيضا ما توصلنا إليه عن المقصود بالأرض فى آية الخلافة إذ تبين لنا أنها ليست موضعا واحدا من أرض الحياة الدنيا، بالنسبة للخلافة الابتلائية، بل هى كل الأرض.

وحيث أنه من المعلوم بالضرورة أن الذين يخلفون فى الأرض مؤمنون وكفرة وصالحون وفاسقون وحكام ومحكومون، فإن هذا يدل على أن الذين إستخلفهم الله تعالى فيها ليسوا من المؤمنين او الحكام الصالحين فقط، بل كل البشرية بلا إستثناء.

رابعاً : يدل على شمول الخلافة ويثبت أنها حقيقة إنسانية ومكوِّن جوهرى فى الذات الانسانية أمر الله تعالي الملائكة بالسجود لآدم بعد أن خلق كل البشر وصورهم قال تعالى **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس﴾**[١].

ولقد مربنا تفسير قوله تعالى **﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...﴾**[٢] الآية. وتفصيل القول فى هذه المسألة، وإنتهينا إلى أن السجود كان لكل فرد من أفراد البشرية، وليس لآدم وحده ولشخصه، بل له بصفته ممثلا للنوع ولذريته جميعا أيضا.

وهذا يثبت أن الخلافة شاملة لكل فرد اذ أن الأمر بالسجود تضمن الامر بالاقرار بالافضلية والتكريم والاعتراف لآدم وذريته بالخلافة.

خامساً : لعل قائلا يقول إن الخليفة هو من استخلفه الله تعالى على غيره، فيكف يكون الناس كلهم خلفاء وفيهم العبيد والضعفاء والمحكومون، والحكام فيهم قلة، ؟!

---

(١) ١١/ الاعراف. (٢) ٣٤ / البقرة .

وللرد على ذلك الاعتراض نقول: إن الله تعالى استخلف كل إنسان على ما تحت يده من أمانات مادية ومعنوية وبشرية ولا يخلو إنسان ما- حتى العبد - من أن يكون مستخلفا على أمانات إسترعاه الله تعالى عليها ودليل ذلك قوله تعالى ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**﴾[1]. فالخطاب هنا موجه لكل الناس وكل الناس خلفاء الأرض بالرغم من أن المجتمعات البشرية قائمة على البنيان الهرمى الذى يكون الناس فيه درجات وعلى قمة الهرم السلطة، ولكن ليس معنى هذا أن خلفاء الأرض هم الذين فى البنية العليا من الهرم الاجتماعى فقط، بل إن الذين فى البنية التحتية او فى القاعدة هم أيضا خلفاء على ما تحت أيديهم من أموال وزروع وأنعام وغير ذلك من أمانات، ذلك لأن خلافة الانسان فى الارض خلافة ابتلائية ومن ثم قال تعالى فى آخر الآية ﴿**ليبلوكم فيما آتاكم**﴾. فكل ما أوتى إنسان من خيرات ونعم رزقه الله تعالي إياها من الأرض فقد أوتى هذه النعم مستخلفا عليها ليبلوه الله تعالى بها. . ومن ثم كان كل إنسان بهذا المعنى مستخلفا على ما أنعم الله به عليه، وبذلك يكون كل الناس خلفاء الأرض.

يؤكد هذا المفهوم قول الرسول ﷺ فى الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالامام الاعظم الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته. والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وهى مسئولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[2].

وحيث ان الراعى هو المستخلف على رعيته، فإن كل إنسان بهذا يكون خليفة على ما إسترعاه الله عليه.

---

(١) ١٦٥/الانعام.

(٢) متفق عليه، واللفظ هنا للبخارى كتاب الاحكام الباب الاول ورواه مسلم كتاب الامارة حديث ١٨٢٩. ،وابو داود في كتاب الامارة الباب الاول والترمذى كتاب الجهاد الباب السابع حديث ١٧٠٥ ورواه أحمد فى مسنده حـ ٢ / ٥٤.

٢٢- من هو المستخلَف؟ (بفتح اللام).

فى الخلافة دائما خالف، أى خليفة ومخلوف أو مستخلَف، وهو سلفه أو مُستخلِفُه وإذا كان جمهور المفسِّرين قد أثبتوا الخلافة لآدم وبنيه، فإن الإجماع بينهم على أن الله عز وجل هو المستخلِف (بكسر اللام).

ولكن الخلاف الرئيسى قائم بينهم حول السؤال:

من هو المخلوف او المستخلَف؟

أو بتعبير آخر لمن صار الانسان خليفة في الأرض؟

ذكرنا من قبل قول الطبرى رحمه الله تعالى: أنه إما أن يكون خلف الجن، أو يكون بمعنى (إنى جاعل فى الأرض خليفة منى فى الحكم بين خلقى)[١].

وقال ابن الجوزى [وفى معنى خلافة آدم قولان:

أحدهما: أنه خليفة عن الله فى إقامة شرعه، ودلائل توحيده والحكم فى خلقه، وهذا قول إبن مسعود ومجاهد.

والثانى : أنه خلف من سلف فى الأرض قبله، وهذا قول إبن عباس والحسن][٢].

وقال القرطبى [وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأداء امره، لأنه أول رسول إلى الأرض][٣].

وقال الرازى : إن [آدم عليه السلام كان خليفة لأولئك الجن الذين تقدموه] فى قولٍ، وفى الثانى [إنما سماه الله خليفة لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من

---

(١) الطبرى / التفسير/ ح١ / ص ٢٠١.

(٢) ابن الجوزى / زاد المسير / حـ ١ / ص ٦٠.

(٣) القرطبى / الجامع الاحكام القرآن / حـ ١ / ص ٢٦٣.

خلقه، وهو المروى عن إبن مسعود وإبن عباس] ثم قال: [وهذا الرأى متأكد بقوله ﴿يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق﴾] ثم يذكر الرازى قولا ثالثا وهو بمعنى خلافة الأجيال بعضها لبعض فيكون الخليفة هو الانسان والمستخلَف هو الانسان وهو قول الحسن ويؤكده قوله ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾](1).

وذكر أبو حيان الأندلسى رحمه الله إحتمالا لغويا جديدا لمعنى «خليفة» يتصل بالقضية التى نحن بصددها إذ قال [إن خليفة (يحتمل أن يكون بمعنى الخالف، ويحتمل أن يكون بمعني المخلوف، وإذا كان بمعنى الفاعل كان معناه القائم مقام غيره فى الأمر الذى جُعل اليه](2).

أما من الذى يقوم الإنسان مقامة أوقام آدم مقامه، فيذكر أبو حيان أنه إما أن يكون خليفة [عن الملائكة الذين كانوا فى الأرض، أو عن الجن بنى الجان، أوعن إبليس فى ملك الأرض، أو عن الله تعالى، وهو قول إبن مسعود وإبن عباس والأنبياء هم خلائف الله في أرضه](3). وقال أبو السعود [والمراد بالخلافة من جهته سبحانه في إجراء أحكامه، وتنفيذ أوامره بين الناس، وسياسة الخلق](4).

وجاء فى روح البيان [لأنه خلف الجن، وجاء بعدهم، ولأنه خليفة الله فى أرضه](5).

وقال الخازن فى تفسيره [لأنه خلف الجن وجاء بعدهم، وقيل لأنه يخلفه غيره. والصحيح أنه سُمِّي خليفة لأنه خليفة الله في أرضه لاقامة حدوده وتنفيذ قضاياه](6)

---

(1) الرازى / التفسير الكبير / حـ ١ / ص ١٦٥.

(2) أبو حيان الاندلس / البحر المحيط / حـ ١ / ص ١٤٠.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) ابو السعود / التفسير / حـ ١ / ص ١٤٢.

(5) الالوس / روح البيان / حـ ١ / ص ٩٤، ٩٥.

(6) تفسير الخازن / حـ ١ / ص ٤٤,٤٥.

وقال القاسمى فى محاسن التأويل [أى قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن. . ويجوز أن يراد خليفة منكم، لانهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته، وان يراد خليفة منى لأن آدم كان خليفة الله فى أرضه، وكذلك كل نبى][1].

وقال الشنقيطى فى أضواء البيان [إن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، لأنه خليفة الله فى أرضه فى تنفيذ أوامره.

وقيل: لأنه صار خلفاً للجن الذين كانوا يسكنون الأرض][2].

بعد هذا العرض لإجابة بعض المفسرين على السؤال المطروح (من المستخلَف)؟.

يتبين لنا أن المفسّرين خلال العصور الإسلامية المختلفة، وعلى تباين مناهجهم فى التفسير، لم تخرج إجاباتهم عن الاحتمالات التى ذكرها الطبرى رحمه الله تعالي.

لكن قبل مناقشة هذه الاجابات أو الاقوال الثلاثة أود أن أسجل حقيقة هامة وهى أن من يرجع لأكثر مصادر تفسير القرآن الكريم سواء منها تلك التى يعتمد أصحابها على المأثور، أو الأخرى التى يعتمد أصحابها على المعقول، أو التفسيرات اللغوية التى يكون جُلّ إعتماد أصحابها الاساسى على دلالة اللغة، فسيجدأن كل هؤلاء لم يخرجوا عن تقرير الاقوال الثلاثة.

ولولا خشية الاطالة والتكرار وملل القارئ لعرضت إجابات المفسرين عرضا إحصائيا، لكنى اكتفيتُ بما ذكره أهل التفسير بالنظر الى إختلاف عصورهم، وتنوع مناهجهم، ومباينه ترجحاتهم فى الاجابة على السؤال المطروح.

ومما سبق يمكن أن نوجز إجابة المفسرين على هذا السؤال فى قولين:

١- ينقسم الاول منهما إلى رأيَين إثنيْن هما:

أ- أن الإنسان صار خليفة للجن، وهذا يعنى أن نوعا من الخلق خلف نوعا آخر.

ب- أن الناس يخلف بعضهم بعضا جيلا بعد جيل.

(١) القاسمى / محاسن التأويل / حـ ١ / ص ٢٦.

(٢) الشنقيطى/ أضواء البيان / حـ ١ / ص ٤٨. طبعة ستة ١٤. الطبعة الثانية.

٢- اما الثانى منهما فـيقول ان الإنسان خليفة الله تـعالى فى أرضه، أى أن الله تعالى هو المستخلف (بكسر اللام) وهو المستخلَف (بفتح اللام).

فالاجابة الأولى - وان كانت تنقسم إلى أنهما يشتركان فى معنى واحد وهو أن المستخلَف مخلوق سواء كان الجن أم الملائكة أم الآباء.

ففى هذه الإجابة نجد أن الخليفة مخلوق وهو الإنسان والمستخلَف (بفتح اللام) مخلوق أيضا: إما الملائكة وإما الجن وإما الأجيال المتعاقبة من الناس.

اما الإجابة الثانيـة فتختلف إختلافا كليا عن الاجابـة الاولى، إذ أن الخليفة هو الانسان والمستخلَف هو الخالق عز وجل.

ولاشك أن الاجابة الأولـى بعيدة عن أى مجال مـن مجالات التوحيـد ويسلم قائلوهـا من الشبهات التى يمـكن أن تنجم عن القول الـثانى بينما نجد أن ألـقائلين بخلافة الانسان الله تعالى قد تعرضوا للإتهام بهذه الشبهات ويمكن تصنيف المفسرين من خلال أقوالهم حيال هذه القضية إلى أربع فئات:

الفئة الأولى: وهى تشكل اكـثر المفسرين وهم الذين ذكـروا الاقوال الثلاثة دون ترجيح لأحدها.

الفئة الثانية: وهم الـذين رجحـوا القول بخـلافة الإنسـان لله فى الأرض، ومنهـم الطبرى، وأبو الـسعود والشنقـيطى وصاحب الـظلال رحمهم الله تـعالى وغيرهم.

الفئة الثالثة: وهم الـذين رجحوا خـلافة الأجيال بـعضهـا لبعض وأولـهم الحسن رحمه الله تعالى لكنهم لم يتعرضوا للقول الأول بالرفض.

الفئة الرابعة : ويتزعمها شيخ الاسلام إبن تَيْمِيَة رحمه الله تعالى ويتبعه أكثر تلاميذه وابن خلدون المؤرخ وبعض المحدثين غير المحققين، ويتلخص فى أنه يقول بقول الحسن، لكنه يحرم القول بخلافة الانسان لله تعالى فى الأرض بأى معنى من المعانى ويعتبره شركا.

وهذا ما سنعرضه تفصيلاً فى فصل لاحق بإذن الله تعالى.



الفصل السابع

الخلافة فى اللغة العربية

٢٣- معانى الخلافة وعناصرها فى اللغة العربية .

٢٤- الفروق اللغوية بين الخلافة وبين ألفاظ العناصر الداخلة فيها .



٢٣- أصل كلمة الخلافة والكلمات المشاركة لها فى المعنى :

(أ) (الخلافة : **الأصل** : خَلَفَ، الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة :

أحدها : أنه يجئ شئ بعد شئ يقوم مقامه .

والثانى : خلاف قدام أى الخلف.

والثالث : التغير مثل قولهم: خلف فوه، اذا تغير.

والأول الخلف بمعنى مـا جاء بعد، والخلافة إنما سُميت خلافـة لان الثانى يجئ بعد الأول. وتقول قعدتُ خلاف فلان أى بعده)[١].

(والخلافة هى الـنيابة عن الغـير، إما لغيبة المـنوب عنه أو لموته أو لـعجزه وإما لتشريف المستخلَف)[٢].

(والخلافة أيضا هى الإمارة) [٣]. . . (والخلائف جمع خليفة، أما الخلفاء فهى جمع خليف)[٤].

(قال إبن الانبارى: الأصـل فى الخليفة خليف والـتاء للمبالغة فـى مدحه بهذا الوصف، كما قالوا علامة ونسابة.

وكلمة خليف مفرد يراد به الجمـع، لأن المفرد - إن كان إسم جنس، يكثر فى كلام العرب إطلاقه مرادًا به الجمع) [٥].

(فالخليفة إسم يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والاثنى) [٦].

وبناء علـى هذا كله تكون الـنيابة عن الغـير عنصرا رئيـسيا فى معنـى الخلافة،

---

(١) ابن فارس/ معجم مقاييس اللغة حـ٢ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) الفيروز أبادى / بصائر ذوى التميز مجلد، ص ٥٦٢.

(٣) ابن منظور / لسان العرب.

(٤) نفسى المصدر.

(٥) الشنقيطى / اضواء البيان فى ايضاح القرآن / حـ ١ / ص ٤٨ ط ١٤٠٠.

(٦) الرازى / التفسير الكبير / حـ ١ / ص ١٦٦.

ونظرا لأن معنى النيابة عنصر رئيسى فى معانى الكلمات: الوكالة، والولاية، والوراثة، والنصرة، والتفويض، فإنه يلزم - للوصول الى النتيجة المرجوة من هذا البحث - معرفة معانى هذه الكلمات وأصولها اللغوية والفروق اللغوية بين كل منها وبين الخلافة من جهة، ثم الفروق اللغوية بين كل منها وبين الآخر من جهة أخرى .

(ب) - الوكالة : الأصل وكل

(الواو والكاف واللام أصل صحيح يدل على اعتماد على غيرك فى أمرك، والتوكل منه، وهو إظهار العجز فى الأمر والاعتماد على غيرك، ويسمى الوكيل لانه يوكل اليه الامر) [1].

والمعنى المشتْرك بين الخلافة والوكالة هو نيابة كل من الخليفة والوكيل للمستخلف والموكل.

(جـ) والولاية : الأصل : وَلْىٌ بتسكين اللام.

(والواو واللام والياء أصل صحيح يدل على قرب.

من ذلك الولْى: القرب، يقال تباعد بعد ولْى أى قرب. وجلس مما يلينى أى يقاربنى .

ومن الباب : المولى: المعْتَق والمعتُق والصاحب والخليف وإبن العم والناصر والجاد كل هؤلاء من الولْى، وكل من ولى أمر آخر فهو وليه) [2].

ولاشك أن قول ابى فارس (والخليف) دليل على إشتراك الولى أو المولى والخليفة فى المعنى .

---

(١) ابن فارس / معجم مقايس اللغة / حـ ٦ / ص ١٣٦.

(٢) نفس الصدر / حـ٦/ ص١٤١.

(د) الوراثة، الاصل : ورث

(الواو والراء والثاء كلمة واحدة هى الورث والميراث أصله الواو والراء والثاء وهو أن يكون الشئ لقوم ثم يصير لآخرين بنسب أو سبب) (١).

والعنصر المشترك بين معنى الوراثة ومعنى الخلافة هو حلول كل من الخليفة والوراثة محل المستخلف والموروث فى مقامه أو مكانته أو ما يملك.

(هـ) النصرة ، الاصل: نصر.

(النون والصاد والراء أصل صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه، ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم. . . وانتصر: إنتقم، وهو منه.

وأما الإتيان فالعرب تقول نصرتُ بلد كذا، إذا أتيته ولذلك يسمى المطر نصرا. والنصر العطاء) (٢).

والعنصر المشترك بين معنى كل من الخلافة والنصر هو أن الناصر ينوب عن المنصور فى الحصول له على الظفر على عدوه أو عدوهما فهو بمعنى ما خليف أو وكيل له فى هذا الأمر.

وحيث أن معنى النيابة - كما مربنا - قاسم مشترك لمعانى هذه الكلمات السابقة جميعا، فقد وجب علينا إيراد قول معاجم اللغة فيها.

(و) النيابة .

(ناب عنى فلان ينوب نوبا ومنابا أى قام مقامى، وناب عنك فى هذا الامر نيابة إذا قام مقامك) (٣).

والنيابة بهذا المعنى قاسم مشترك بين الالفاظ السابقة بالرغم من وجود فروق لغوية بينها.

---

(١) المصدر السابق / حـ ٦ / ص ١٠٥.

(٢) نفسى المصدر / حـ / ص ١.

(٣) ابن منظو/ لسان العرب.

وبيان هذا أن الخليفة هو من ينوب عن المستخلف ويقوم مقامه فيما إستخلفه فيه. والوكيل هو من ينوب عن الموكل ويوقم مقامه فيما وكله فيه.

والوارث هو الذى يقوم مقام الموروث فى أملاكه أو فيما ورثه عنه.

والناصر أو النصير هو الذى يتولى الدفاع عن المنصور، أو إعلاء أمره، فهو يقوم مقامه فى ذلك وينوب عنه فيه.

والمفوِّض هو الذى سلم للمُفَوَّض له أمره لينوب عنه فى انجازه ويقوم مقامه فى إتمامه.

وهذه الكلمة الأخيرة (التفويض) - وإن كانت تشترك مع الكلمات السابقة فى وجود عنصر النيابة أو الإنابة فيها، إلا أنها تختلف عنها جميعا بمعنى يخصها، من أجله أرجأنا عرض معناها فى القواميس والمعاجم.

(ز) التفويض،الأصل: فوَّض.

(الفاء والواو والضاد أصل صحيح يدل على إتكال فى الأمر على آخر ورده عليه.

فوَّض إليه أمره إذا رده. وباتوا فوضى أى مختلطين، ومعناه أن كلا فوَّضَ أمره إلى الآخر. وتفاوض الشريكان فى المال، إذا إشتركا ففوض كلٌّ أمره إلى صاحبه [1].

٢٤- الفروق اللغوية بين الخلافة وبين ألفاظ العناصر الداخلة فيها :

وبالرغم من دخول معنى النيابة كعنصر ريئسى مشترك فى معانى الكلمات السابقة - وعلى رأسها الخلافة - إلا أن هذه الكلمات ليست متطابقة فى المعنى مطابقة تامة، إذ ثمة فروق لغوية بين معانيها، لأن إختلاف الأسماء فى اللغة يوجب إختلاف المعانى أيضا.

---

(١) إبن فارس / معجم مقاييس اللغة حـ ٤ ص ٤٦٠.

قال أبو هلال العسكرى فى مقدمة كتابه " الفروق اللغوية» (الشاهد على أن اختلاف العبارات والأسماء يوجب إختلاف المعانى أن الاسم كلمه تدل على معنى دلالة الاشارة، واذا أشير الى الشئ مرة واحدة ، فَعُرِف، فالاشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة، وواضع اللغة حكيم [1] فلا يأتى فيها بما لا يفيد، فإن أُشير منه فى الثانى والثالث إلى خلاف ما أشير إليه فى الأول، كان صوابا فهذا يدل على أن كل واحد منهما يقتضى خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثانى فضلا لا يُحتاج إليه)[2]

ومن ثم يتعين علينا البحث عن الفروق اللغوية بين هذه الأسماء لتحديدها، حتى يتبين لنا المعنى الدقيق للخلافة، ولكل إسم منها، ثم لتستبين لنا العلائة بينها جميعا.

(أ) الفروق بين الخلافة والوكالة:

تنعقد الخلافة للخليفة ليقوم مقام من إستخلفه، أو من إستخلفوه فى كل الامور، وعلى مدى العمر كله فى الأغلب، ويترتب على إنعقاد الخلافة له وقيامه بها المحاسبة. والجزاء، بناء على تصرفه فيما أستخلف فيه، ومن أصل معنى الخلافة: أن لا يخلف الخليفة المستخلف الا بعد موته، أو غيابه الغعلى أو الاعتبارى، ثم أُستعملت على التوسع بدون موت المستخلف أو غيابه وإنما لتشريف الخليفة.

والوكالة نيابة أيضا تنعقد بين الوكيل والموكل باختيارهما ولكنها - على الأغلب - مؤقتة وجزئية، ولا يلزم فيها غياب الموكل او موته بل غالبا ما تبطل بموته.

وتتضمن الوكالة عنصر المحاسبة والجزاء للوكيل بناء على تصرفه فيما وكل

---

(١) يذهب الأشاعرة إلى أن اللغة توقيفية من خلق الله عز وجل ولا دور للأنسان فى وضعها.

(٢) أبو هلال العسكرى / الفروق اللغوية، ضبط وتحقيق حسام الدين القدسى/ ص ١٠.، ١١.

عليه، شأنها شأن الخلافة فى ذلك، فهو أمر مشترك بين الخلافة والوكالة بالاضافة إلى معنى النيابة.

ومن أهم ما تختلف فيه الوكالة عن الخلافة فى الاغلب أن الوكالة لا تكون عامة شاملة دائمة مدى الحياة حيث أن ما يحدث عادة هو ان الموكل يوكل وكيله فى أمر جزئى من اموره ليتمه له وتنتهى الوكالة بتمامه او بانهاء الموكل لها اذا أراد.

بينما الاستخلاف يأخذ صفة الدوام والاستمرار على الأغلب. لذلك اطلق على قيام الابناء فى مقام آبائهم خلفاء، ولم يطلق عليه نيابة أو وكالة أو تفويض، لانهم يحلون محله فى كل شئ حتى يصبحوا المالكين والحاكمين والمتصرفين والمسئولين عن الواجبات فيما كان يملكه ويتصرف فيه آباؤهم من قبل، وهكذا حتى آخر العمر، وليس هذا فى الوكالة.

أى أن الخلافة عامة وشاملة ودائمة، والوكالة جزئية ومحدودة ومؤقتة، فاذا كانت النيابة تتصف بالعمومية والشمول والدوام فهى الخلافة، أما إذا كانت محدودة ومؤقتة، وتقتصر على أمر واحد، أو بعض الأمور الجزئية، فهى الوكالة.

(ب) الفروق بين الخلافة والتفويض، وبين التفويض والوكالة:

يفرق الفيروز أبادى بين التفويض والوكالة بقوله [واختلف فى التفويض والتوكل: أيهما أعلى وأرفع؟ قال الشيخ أبو عبد الله الأنصارى: التفويض ألطف إشارة وأوسع معنى، فإن التوكل بعد وقوع السبب، والتفويض قبل وقوعه وبعده، ومنه قول مؤمن آل فرعون ﴿وأفوض أمرى إلى الله﴾ إشارة إلى عجزه عن إتخاذ الأسباب»[1].

أى أن جوهر معنى التفويض يكمن فى عجز المفوِّض عن إنجاز أمره، أو حتى عن الأخذ بأسباب إنجازه، مما يضطره إلى تسليم أمره تماما للمفوَّض إليه نتيجة للعجز وإقرارًا به.

(١) الفيروز آبادى / بصائر ذوى التمييز/ مجلد ٢/ ص ٣٢٥.

والتوكيل يختلف عن التفويض من هذا الوجه، حيث لا يشترط فى الأول العجز كما هو الحال فى الثانى .

بل إن علاقة الوكيل بالموكل يمكن أن تقوم على الخضوع - أى خضوع الأول للثانى - حيث يقبل الوكيل شروط الموكل ثم الحساب والجزاء. بينما التفويض هو إنابة مع إقرار بالعجز أمام النائب، لذلك لا يستتبع التفويض حسابا ولا جزاء بالضرورة، ولا يتضمن شروطا أو تكليفا.

ومن ثم يمكن القول أن أهم الفروق بين التفويض والخلافة يكمن فى سقوط عنصر التكليف والمحاسبة والجزاء عن التفويض، ليحل محله عنصر الرضا والإستسلام بعمل **المفوَّض إليه أيًا كانت النتيجة .**

بينما ذلك كله عنصر رئيسى فى الوكالة والخلافة معا.

ومعنى هذا أنه ليس للمفوِّض دور أساسى وإيجابى يقوم به بعد التفويض وقبله، بينما نجد للمستخلف وللموكل دوراً إيجابيا، يتمثل فى وضع الشروط والتكليفات ثم فى المحاسبة والجزاء. هذا مع أن النيابة عنصر مشترك فى معانى التفويض والخلافة والوكالة جميعا. ولا شك أن هذا الفرق الهام بين التفويض من جهة وبين الخلافة والوكالة من جهة آخرى يباعد بينهما إذ تكون الوكالة من الخلافة او الخلافة وكالة، ولا يكون الإستخلاف تفويضا.

(جـ) الفروق بين الخلاف والولاية:

يوجد عنصر النيابة فى الولاية أيضا إذ أن النائب قريب ونصير لمن ينوب عنه، كما أن الولى نائب ووكيل لوليه . وإذا كان المولى الذى يتولى أمر وليه مشتق من الولْى أى القرب، فذلك لأن الولى ينوب عنه فى شئون حياته جلها او بعضها أو كلها، فهذا قدر مشترك بين معانى الخلافة والولاية ، لأن الخليفة هو أقرب مَنْ يكون للمسُتخلف، كما أن الخلف هم الذين يلون السلف فى الزمان.

وكذلك الخليفة هو نصير المستخلف ووليه، لأنه يتولى أمره الذى إستخلف من

أجله أو الذى خلفه فيه من بعده. ولذلك يمكن إستخدام كل لفظة منهما محل الأخرى على التوسع فى اللغة، حيث أن الذى يستخلف غيره على شئونه إنما هو يوليه عليها، كما أن الذى يتولى شئون غيره، إنما هو يخلفه فيها ولا يمنع هذا وجود فروق لغوية بينهما، ولعلها تكمن فى كون الخلافة أعم وأشمل، والولاية أخص، فهى جزء منها، أى أن الخليفة ولى بالضرورة، وبمقتضى المعنى بينما معنى الولاية لا يستلزم أن يكون الولى خليفة، فيكون كل خليفة ولى ولا يكون كل ولى خليفة.

(د) الفروق اللغوية بين الخلافة والوراثة :

الوراثة خلافة الموروث فيما ترك، لأن الوارث خليفة للموروث من حيث أنه يجئ بعده ويمتلك ماله، فهو ينوب عنه فى التصرف فى ماله والانتفاع به، فالوراثة اذاً نيابة فى المال، ولكنها نيابة دائمة كالخلافة، وهذا هو القدر المشترك من المعنى بينهما.

أما الإختلاف بينهما فيكمن فى أن الخليفة يرث سلفه أى المستخلف فى كل شئ: الواجبات والمسئوليات والحقوق والسلطة والممتلكات، وكل مقومات الحياة، بينما الوراثة غالبا ما يقتصر استعمالها على خلافة الخلفّ للسلف فى الممتلكات المادية، وإن كانت تستعمل أيضا فى غير ذلك - على سبيل التوسع فى اللغة - وبذلك تكون الخلافة أعم وأشمل من الوراثه، أى أن معنى الخلافة يتضمن معنى الوراثة، وليس العكس.

فالخليفة وارث بالضرورة لسلفة، أولمن إستخلفه بينما لا يستلزم معنى الوراثة أن يكون الوارث خليفة، لمن ورثه، وإن أطلق عليه لفظ الخلافة، فيلزم التحديد كالقول بأنه خلفه فى ماله أو ملكه، أى أن العلاقة بين الخلافة والوارثة شأنها شأن العلاقة بين الخلافة والولاية وهى علاقة الكل بالجزء.

(هـ) الفروق بين الخلافة والنصرة:

النصْرة هى إثبات الظفر على العدو وتتضـمن معنى النيابة لان الناصر ينوب عن المنصور فى تحقيق الظفر له أو يشاركه فيه، وهذا لا يكون إلاَّ بأن يتولى أمر الدفاع عنه ويصبح وليه فيه. ومن ثم يكون خلـيفة له فى هذا الأمر، وبهذا المعنى يكون القائد وجيشه خلفاء لأمتهم أو للسلطان فى تحقيقه النصر على الاعداء وإعلاء شأن الأمة بازاء أعدائها.

وبهذا يكون معنـى النصر جزء من معنى الخلافة، شأنهـا فى ذلك شأن الوكالة والولاية والوراثة فالخلافة أعم من النصرة والنصرة جزء منها.

نتـهى من عرض هـذه الفروق اللغـوية الى أن الخلافـة تتضمن مـعانى النـيابة والوراثة والوكالة والنصرة والولاية، فهى جمـيعا عناصر تَدْخل فى معنى الخلافة. ومن ثم يكون الخليفة نائبا ووكيلا وناصرا ووليا لمن إستخلفه ووارثا له أيضا، ولا يكون الناصر أو الولى أو الوكيل أو الوراث خلـيفة، ولو عبر عن واحد منهم بهذا اللفظ، فإنما يكون على التوسع فى اللغة.

أما بالـنسبة للـتفويض فأوجه الخـلاف بينه وبين الخـلافة أكبر وأكثـر من أوجه الإتفاق، كما أن التفويض ليس عنصرا فى الاستخلاف.



الفصل الثامن

عناصر معنى الخلافة ومشتقاتها في القرآن الكريم

٢٥ - الخلافة وعناصرها فى القرآن الكريم .

٢٦ - الخلافة بالمعنى الشرعى وبالمعنى الكونى فى القرآن الكريم .

٢٧ - الصلة بين حقيقة الإستخلاف ومعانيها الجزئية فى القرآن الكريم .



٢٥- الخلافة وعناصرها فى القرآن الكريم :

إذا كان ما أثبتناه من معانى أصيلة لهذه الأسماء ومن فروق لغوية بينها صحيحا، فإنه من الضرورى أن يكون لها شواهد فى القرآن والسنة تثبت وتوكد صحة هذا كله.

لهذا سنحاول بإذن الله تعالى أن نستعرض الآيات الكريمة التى وردت فيها هذه الأسماء، للتأكد من ذلك، وكذلك بهدف الوصول إلى المعانى الدقيقة لها، لما لهذه المعانى من أهمية بالغة لتحديد معنى الخلافة، وهو الهدف الذى نسعى - بعون الله تعالى - لتحقيقة من هذا المبحث. وسنبدأ بالأسماء الأخرى قبل الخلافة.

(أ) الوراثة فى القرآن الكريم:

تعتبر الوراثة - كما مر بنا معناها اللغوى - تعبيرات عن علاقة بين إثنين أو طرفين من خلال موروث مادى، أو غير مادى، يخلف فيه الوارث الموروث فيما ترك .

فالفعل ورث من الأفعال المتعدية بمفعولين، كقولنا ورث زيد أباه فى ماله. فالوراثة تعبير عن علاقة بين طرفين من خلال موروث، أو هى تعبير عن علاقة ذات بعدين وبين ثلاثة أطراف:

البعد الأول : العلاقة بين الوارث وسلفه.

والبعد الثانى : يتمثل فى العلاقة بين الوارث والشئ الموروث.

ويمكن أن يكون الفعل رباعيا: أورث، وفى هذه الحالة تكون الاطراف أربعة: المورِّث والوراث والشخص المورِوث والشئ المُوَرَّث.

وقد تضمن القرآن الكريم الفعل ثلاثيا فى قوله تعالى **﴿وورث سليمان داود﴾**[1] وفى قوله عز وجل **﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾**[2].

كما تضمن القرآن الكريم الفعل الرباعى أيضا فى مثل قوله تعالى **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها﴾**[3] ففى هذه الآية الكريمة: الله تعالى هو المورِّث والمؤمنون هم الوارثون والكافرون هم المَوْروثون والأرض والأموال والديار هى الأشياء الموروثة.

والخلاصة أن الوراثة بين البشر علاقة، بين طرفين أو ثلاثة، من خلال تراث مادى أو معنوى، ولا تتم الوراثة عادة إلا بموت الموروث أو غيابه أو فقدان ما يورث منه، كما هو الحال فى وراثة الكتاب فى مثل قوله تعالى **﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنىَ اسرائيل الكتاب﴾**[4] أو فى وراثة الإمامة والسيادة فى الأرض فى مثل قوله تعالى **﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون﴾**[5] أى يرثون إمامتها والسيادة فيها من المفسدين.

وهذا الشرط فى معنى الوراثة وهو الموت أو الغياب أو الفقدان هو أمر لازم لها، لأن السلف إذا أعطوا الخلف الملك والسيادة بإرادتهم، فإن هذا يكون هبة وتنازل وعطاء ولا يكون وراثة.

والسؤال الذى يجب علينا أن نطرحه الآن هو: هل يجوز أن تقوم علاقة من قبيل الوراثة بين الله عز وجل وبين خلقه بعامة والإنسان بخاصة ؟

إن ما يتبادر إلى الذهن على الفور- كاجابة لهذا السؤال - هو ألنفى، لأنه لا يجوز أن يرث الله عز وجل أحدا من خلقه وهو المالك لكل شئ، وهو المعطى الوهاب الغنى عن عباده أن يرث منهم، فهم وما يملكون من خلقه، والكل عبيده، وله ملك السماوات والأرض.

---

(١) النحل / ١٦\

(٢) الاعراف / ١٦٩.

(٣) الاحزاب / ٢٧.

(٤) غافر / ٥٣.

(٥) الانبياء / ١٠٥.

وكذلك لايجوز أن يرث الانسان أو أحدٌ من الخـلق اللهَ عز وجل، لانه سبحانه حى لايمـوت ولايغـيب سلـطانـه، عزيـز لا يغلـبه أحـد من خلـقه ولا خـلقـه مجتمعـون.

ومن ثم فإنه بحكـم العقل والمنطق، وبحسب مبادئ التـوحيد الاسلامى تكون الإجابة بالنفى. فلا يجوز القول بأن الله تـعالى يرث الانسان، كما لا يجوز القول بأن الانسان يرث الله عز وجل.

ومع هذا، فإن هذا القول جائز بحكم الـنص القرآنى حيث ورد ما يفيد أن الله تعالى يورِّث الأرض لمن يشاء من عباده، ووصف نفسه بأنه المورِّث، قال تعالى (إن الأرض لله يُورثها من يـشاء من عباده)[1]، وكذلك وصف الله تعالـى تمليك الجنة للمؤمنين بهذا الوصف، فقال عز وجل **﴿تلك الجنة التى نـورث من عبادنا من كان تقيا﴾**[2] أى أن المؤمنين يرثون الجنة، قال تعالى **﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾** [3].

أى أن ملكية الجنة للمؤمنين وراثة حيث يُورِّثها الله تعالى لهم **﴿وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء...﴾**[4].

ففى قوله تعالى **﴿أن الأرض لله يورثهـا من يشاء مـن عباده﴾**[5] إثبـات فى اول الآية ملكـية الأرض لله تعالى ثم إثـبات توريثها مـن يشاء من عباده أى تمـكين من يشاء منها بنوع من المـلكية المؤقتة للإبتلاء فهى ملكية إبتلائيـة وليست ملكية دائمة أبدية ومن ثم فهو عز وجل ينقل ملكية الأرض الابتلائية من أمة إلى أمة ومن قوم إلى قوم ومن فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل .

فملكية الوارث مؤقتة، إذ الملك الحقـيقى لله عز وجل المورِّث الذى يعطيه لهذا أو هؤلاء ثم ينقله لذاك أو أولئك، وفى نـهاية الابتلاء البشرى تؤول الأرض ومن

---

(١) الاعراف / ١٢٨.
(٢) مريم / ٦٣.
(٣) المؤمنون / ١٠.
(٤) الزمر / ٧٤.

عليها إلى مالكها الحق عز وجل، ويكون هو الوراث الوحيد والنهائى لها ولكل من وما عليها.

قال تعالى واصفا نفسه بأنه الذى يرث الارض ومسميا نفسه عز وجل بالوارث ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾[1] وقال عز وجل ﴿إنا نحن نحي ونميت ونحن الوارثون﴾[2] وقال سبحانه وتعالى ﴿ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير﴾[3].

وخلاصة القول أن الوراثة- كعنصر من عناصر الخلافة، وكجزء من معناها - قد نُسبت لله عز وجل : مُوَرِّثا ووارثا، فهى كتعبير عن علاقة بين الله تعالى والإنسان من خلال تمليك الأرض وما عليها تفيد فعل التوريث والوراثة له سبحانه وتعالى ، وإشتق من ذلك الفعل إسْما من أسمائه الحسنى وهو الوارث.

بيد أنه مما يجدر ذكره فى هذا المقام أنه لم يرد فى القرآن الكريم ما يفيد وصف الله عز وجل بأنه موروث من الإنسان، فهو مُوَرِّث وليس موروثا، لأن الواحد من الناس لا يوصف بهذا الا بعد موته أو بعد فقد الملك غصبا منه، وبدون إرادته ، وهذا كله لايجوز على الله عز وجل، لذلك لم يرد فى القرآن ما يفيد أنه سبحانه وتعالى موروث من الانسان، وإن ورد أنه تعالى يُوَرِّث الانسان الأرض ثم يرثها منه، فهو عز وجل مُوَرِّث ووارث.

ولا شك أن نسبة هذا الفعل لله عز وجل بِظَاهر معناه يثير إعتراضا عند بعض مفكرى الاسلام فيؤولونه تأويلا كلاميا يخرج الكلمة عن معناها المعروف لغة تحاشيا للتشبيه حسب مذهبهم.

ولكن مذهب السلف فى مثل هذه الصفات والأفعال والأسماء التى نسبها الله تعالى لنفسه وفى نفس الوقت نسبها للمخلوق بنفس الألفاظ، كالسمع والبصر واليدين مثلا، هو إثباتها لله تعالى بلا تعطيل وبلا تكييف، ويقولون: إن الإشتراك

---

(١) مريم / ٤٠.　　(٢) الحجر / ٢٣.

(٣) آل عمران / ٨٠.

بين ما وصف الله تعالى به نفسه وبين ما وصف به خلقه فى مثل هذه الصفات والأفعال إنما هو إشتراك فى إسم الصفة أو الفعل دون حقيقة الصفة أو الفعل.

وهذه القاعدة تنطبق على فعلىْ التوريث والوراثة وعلى إسم الوارث لأن حقيقة فعل الله عز وجل الذى أطلق عليه توريث الإنسان الأرض، فكان الله تعالى به مورثا، لاتشابه بينها وبين حقيقة فعل التوريث الحادث من العباد بعضهم لبعض، لأن الا شتراك بين فعل التوريث المنسُوب لله عز وجل وفعل التوريث المنسوب للإنسان إشتراك فى الاسم دون حقيقة الفعل.

وكذلك الحال بالنسبة للوراثة، إذا نسبناها لله عز وجل كفعل أو كصفة، لأن إطلاق إسم الوارث على الله عز وجل بمقتضى الشرع مع جواز إطلاقه على العبد إشتراك فى اللفظ أو الاسم دون حقيقة الفعل او الصفة.

ومن ثم لايلزم نسبة غياب سلطان الله عز وجل عن الإرض وملكيته لها وسيطرته عليها إذا وَرَّثَها للانسان، كما لا يلزم نسبة الحاجة لله عز وجل كنتيجة لوصفه بأنه الوارث، لأن حقيقة فعل التوريث، وحقيقة فعل الوراثة إذا نُسباَ لله عز وجل غير حقيقتى الفعلين إذا نسبا للانسان، وإن أطلق على كل منهما نفس اللفظ.

ومن ثم يمكننا أن نربط بين الوراثة والخلافة، بإعتبار أن الوارث يكون خلفا للموروث، فهو خليفة له فيما ترك من مال، إذ قام مقامه وحل محله فى تملك هذا المال، أى أننا إذا حصرنا الخلافة فى الممتلكات المادية والمعنوية، فإنها تكون وراثة، وبالمثل فإن حصر خلافة الإنسان فى الأرض بمعنى ما فيها من أمور مادية فقط، فإنها نكون وراثة الانسان للأرض، ولذلك يمكننا أن نفهم الآيات التى تثبت توريث الله عز وجل الإنسان الأرض من قبيل تفصيل إستخلافه فيها.

فالآيات الخاصة بالوراثة جعلت الوراثة فعل متبادل بين الله عز وجل والإنسان، حيث أثبتت أن الله تعالى يُورِّث الإنسان ويرثه والموروث فى الحالين هو الأرض .

وحيث أن خلافة الانسان مقصورة على الأرض، ومحصورة فيها، فإن معنى الوراثة يكون بهذا جزءا رئيسيا من معانى الخلافة.

فإذا جاز القول بأن الله تعالى يورث الانسان الأرض، ويرثها منه، بمقتضى النص القرآنى وبمعنى خاص يليق بجلاله عز وجل، فإن هذا يستتبع القول بأن الانسان خليفة الله عز وجل فى الأرض، بمعنى خاص يليق بجلاله أيضاً.

وكما نفهم توريث الله الانسان الأرض بمعنى تمليكه إياها دون أن يغيب سلطانه عنها أو تنتهى هيمنته عليها، كذلك نفهم إستخلاف الله تعالى الإنسان فى الأرض بهذا المعنى، لان ما يُستلزم من الجزء يُستلزم من الكل، والوراثة جزء من الخلافة .

(ب) الوكالة فى القرآن الكريم :

هى أيضا تعبير عن علاقة بين الله تعالى وبين عباده، فقد أمرنا الله تبارك وتعالى أن نتوكل عليه، فقال ﴿وإتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[1].

بل إن من واجبات التوحيد أن لا يتخذ المؤمن وكيلا غير الله عز وجل، فقال تعالى ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾[2].

بل نهى ربنا عز وجل عن إتخاذ وكلاء من دونه، كما نهى عن إتخاذ أرباب من دونه، فقال ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألاَّ تتخذوا من دونى وكيلا﴾[3].

كذلك جعل الله عز وجل إفراده بالوكالة شرطا لصحة الإيمان والإسلام بقوله عز من قائل ﴿... إن كنتم أمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾[4].

فمن خصائص الربوبية أنه سبحانه وتعالى على كل شئ وكيل قال تعالى ﴿الله

---

(١) المائدة / ١١ (٢) الاحزاب / ٣.
(٣) الأسراء / ٢ (٤) يونس / ٨٤.

خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل﴾[1]. فقرن سبحانه خلقه لكل شئ بوكالته على كل شئ، فدل هذا على أن وكالته عز وجل على كل شئ من أخص خصائص ربوبيته، ومن ثم فهو عز وجل الوكيل، والوكيل من أسمائه الحسنى، كما أنه عز وجل الخالق.

لذلك نفى فى أكثر من موضع من القرآن الكريم أن يكون الرسول ﷺ وكيلا على المؤمنين أو غيرهم فى مثل قوله تعالى **﴿الله حفيظ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل﴾**[2] وفى قوله تعالى أيضا **﴿وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل﴾**[3].

لقد أمر الله عز وجل المؤمنين أن يتوكلوا عليه وحده، ونهاهم عن التوكل على غيره، وهذا الأمر يختلف عن كون الله تعالى وكيلا على كل شئ، لأن قوله تعالى **﴿... وهو على كل شئ وكيل﴾** يدل على أنه عز وجل وكيل على المؤمن والكافر على حد سواء، وإقترنت وكالته على كل شئ بخالقيته لكل شئ، وبكونه حفيظا على كل شئ، بينما الأمر بالتوكل عليه وحده، والنهى عن التوكل على غيره، لايستجيب لهما إلا المؤمنون فقط، حيث يتوكل الكافرون والمشركون على وكلاء من دونه عز وجل، وهذا يبرز لنا الفرق بين الوكالتين، حيث تنتمى الوكالة الكونية للأمر الالهى الكونى الذى هو من أفعال الربوبية كالخلق والرزق والحفظ والهيمنة والسلطان والتدبير والإحياء والإماتة، لأن كل هذا يتم بالامر الالهى الكونى.

أما المعنى الثانى للوكالة كأمر من الله تعالى للمؤمنين بالتوكل عليه وحده فهو من الأمر التشريعى الذى يصدر من الله تعالى للانس والجن إبتلاءاً وتخييرا لهم. فمن ثم فالبعض منهم يتوكل عليه وحده، وهم المؤمنون الموحِّدون والبعض يتوكل على وكلاء من دونه، كما يتخذون أربابا من دونه، وهم المشركون الكافِرون.

---

(١) الزمر / ٦٢. (٢) الشورى / ٦٠

(٣) الانعام / ١٠٧.

والمعنى الثانى للتوكل، أى بالأمر التشريعى، مبنى على المعنى الاول الخاص بالأمر الكونى، لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الخالق الحفيظ المدبر الرازق المالك لكل شئ، وهو على كل شئ قدير، ومن ثم فهو وكيل على كل شئ، فإنه لابد للمؤمن أن يتخذه وحده وكيلا، وأن يسلم له وحده تدبير أموره.

فالإستجابة للأمر التشريعى بالتوكل على الله وحده عند المؤمن، قائمة على إعتقاده أن الله تعالى هو وحده الوكيل على كل شئ كونيا.

ومعنى أن يتوكل العبد على الله تعالى، هو أنه يسلم أمره له بعد إتخاذ الأسباب، وَهذا التسليم يعنى الإنابة، أى أنه يُنيب الله عز وجل عنه فى إنجازه، إعترافاً منه بالعجز، وايمانا منه بقدرته وكرمه ورحمته عز وجل.

والعلاقة بين الخلافة والوكالة واضحة، إذ يجمع بينهما معنى النيابة، هذا عندما يكون كل منهما تعبيرا عن علاقة بين البشر بعضهم ببعض.

اما بالنسبة لعلاقة الإنسان بربه، فقد علمنا أن الله تعالى أمرنا أن نتوكل عليه وحده، ونهانا عن التوكل على غيره.

فهل يجوز أن يتخذ الله عز وجل الانسان أو غيره من مخلوقاته وكلاء له. ؟!

لاشك أن الذى يتبادر إلى ذهن المسلم على الفور هو النفى، إذ أن معنى الوكالة العامة لله تعالى على كل شئ من صفات وخصائص وأفعال الربوبية، كما علمنا، فكيف يجوز القول أن الله تعالى يوكل أمراً من أموره للإنسان أو لغيره.؟!

إلا أن النص القرآنى أجاز ذلك، وأثبت توكيل الله تعالى الانسان فى أمر معين ومجال محدد .

لقد وردت مادة« . . . » وكل فى القرآن الكريم سبعين مرة فى سبعين آية كريمة، يثبت الله عز وجل فى ثمانية وستين آية منها الوكالة له وحده، بالمعنى الكونى على كل شئ، وعلى المؤمنين ويأمر فيها المؤمنين بالتوكل عليه.

وفى آية واحدة منها يثبت توكيل الله عز وجل ملك الموت لتوفى الناس، وهى قوله تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكِّل بكم﴾[1]. أما الآية الثانية بقية السبعين فتثبت توكيل الله تعالى المؤمنين بتحمل الرسالة والقيام بالتكليف ونصرة دينه وإعلاء كلمته وتبليغها لسائر البشر. قال تعالى ﴿ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء، فقد وكَّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾[2].

وهذا هو الموضع الوحيد الذى يثبت توكيل الله عز وجل المؤمنين فى أمر معين ومجال محدد ألاَ وهو تحمل الرسالة والقيام بالشريعة وتبليغ كلمة الله عز وجل للناس، فهم وكلاؤه فى ذلك فقط، والرسالة هى أمر الله تعالى التشريعى للبشر ومقوماتها الكتاب والحكم والبنوة وهى مقومات الخلافة أيضا.

ومعنى هذا أن توكيل الله تعالى للانسان قاصر على الأمر التشريعى ، أما توكل الانسان على الله عز وجل فهو فى مجال الامور الكوينة.

وهكذا نجد أن علاقة الوكالة بين الله عز وجل وبين الإنسان علاقة متبادلة مع وضوح الفرق بين الوكالة المنسوبة لله عز وجل والتى هى من خصائص الربوبية ولا يشاركه فيها غيره، او هكذا ينبغى أن تكون عقيدة المؤمن، وبين التوكل المنسوب للمؤمنين، وهو خاص بالأمر الالهى التشريعى، وهو بذلك يكاد يرادف معنى التكليف.

فالوكالة، فعلاً كانت أم صفةً، تُنْسب لله عز وجل كما تنسب للإنسان، بيد أن الاشتراك هو فى اسم الصفة أو الفعل دون حقيقتيهما، لأن الوكالة المنسوبة لله عز وجل هى فى مجال الامور الكونية، لكن المنسوبة للإنسان قاصرة على مجال الامر التشريعى أى أن الله تعالى وكيل الانسان فى جميع أموره الكونية التى بها يحيا

---

(1) السجدة / ١١.　　(2) الانعام / ٨٧و٨٨.

ويكون، بينما الانسان لا يكون وكيلا لله عز وجل إلا حيال الرسالة أو أوامره التشريعية، ونصرة الدين وتبليغ كلمته سبحانه.

وحيث أن الوكالة جزء من الخلافة - كما مربنا - أو هى عنصر من عناصرها، وحيث أن ما يلزم من الجزء يلزم من الكل. فإن النتيجة اللازمة من هذا كله هى أنه لابد أن يصح القول بأن الله خليفة للانسان، كما يصح القول بأن الانسان خليفة لله عز وجل.

بيد أن خلافة الله للإنسان تكون فى الأمور الكونية، التى تتم بالمشيئة الالهية، والامر الالهى الكونى، بينما خلافة الانسان لله عز وجل لا يجوز أن تكون فى الامور الكونية ، بل تكون فى أمره التشريعى فقط، أى يكون الانسان خليفة لله تعالى فى تنفيذ أمره ومنع حدوث مانهى عنه، والأمر بأمره والنهى عن نهية وبكلمة واحدة يكون خليفة له فى تبليغ رسالته وإقامة شرعه ودينه وتحمل تبعة الكتاب والحكم والنبوة التى هى مقومات الرسالة« والخلافة»و «الوكالة».

(جـ) الولاية فى القرآن الكريم :

يحرم القرآن الكريم على المؤمنين اتخاذ أولياء أو وليّا من دون الله تعالى. قال تعالى لنبيه الكريم ﷺ **﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعَم قل إنى أُمرت أن اكون اول من أسلم ولا تكونن من المشركين﴾**[1]. وقال تعالى للمؤمنين **﴿... ومالكم من دون الله من ولى ولانصير﴾**[2].

وقال تعالى **﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور﴾**[3].

فالآية الاولى تتضمن استنكار اتخاذ ولى من دون الله تعالى والثانية تنفى وجود ولى او نصير للمؤمنين من دون الله عز وجل كتقرير لواقع قائم فى حياة المؤمنين.

---

(١) الانعام / ١٤. (٢) البقرة / ١٠٧.

(٣) البقرة / ٢٥٧.

والآية الثالثة تثبت ان الله عزوجل ولى المؤمنين فى أخص وأهم أحوالهم التى ينبنى عليها مصيرهم الأخروى ألا وهو الهدى والايمان والخروج من الظلمات الى النور.

وكما قرن الله عز وجل الولاية بالنصرة قرن الولاية بالشفاعة ونفاهما عمَّن سواه عز وجل، قال تعالى ﴿ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة تثبت ولاية الله عز وجل ونصرته للمؤمنين وتنفى وجود ولى أو نصير أو شفيع لهم من دونه عز وجل .

فالولاية هنا من خصائص الربوبية التى لا يشارك الله تعالى فيها غيره. ومن ثم وجب على المؤمن إفراده سبحانه وتعالى بها. قال تعالى ﴿أن تبسل نفسٌ بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها اولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون﴾[2].

وقال تعالى : ﴿واذا أراد الله بقوم سوءاً فلامرد له وما لهم من دونه من وال﴾[3]، فولاية الله عز وجل لكل نفس، وليس لاى نفسى ولى من دون الله تعالى، لان الولاية من خصائص الربوبية والله تعالى رب كل شئ ومليكة. قال تعالى ﴿مالهم من دونه من ولى ولايُشرك فى حكمه أحداً﴾[4] فقرن نفى الأولياء من دونه بنفى الشركاء فى حُكمه عز وجل.

وعلى هذا فإن الولاية بهذا المعنى تكون من افعال التدبير الالهى ومن خصائص الربوبية، أى أنها تختصُّ بالامور الكونية، شأنها فى ذلك شأن الوكالة لأن كلا منها يختص بمجال تدبير شئون الخلائق بعامة والانسان بخاصة. ويشتق من كل

---

(1) الانعام / ٥١.   (2) الانعام / ٧٠.   (3) الرعد / ١١.

(4) الكهف / ٢٦.

منهما إسمان لله عز وجل من أسمائه الحسنى وهما الوكيل والولى، وكما أمر الله عز وجل الناس بافراده بالوكالة، أمرهم كذلك بافراده وحده بالولاية فقال تعالى **﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً﴾**[1].

بل نفى الله عز وجل ان يجد الانسان له وليا أو نصيرا من دونه فقال **﴿من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾**[2] وبيان هذا أن من يتخذ وليا من دون الله تعالى، بهذا المعنى، الذى هو من مشتقات معانى الربوبيه، فإنه يكون قد إتخذ الشيطان له وليا، مع أنه - لعنه الله تعالى - عدوٌ له، وليس وليا ولا نصيراً ، ومن ثم يضل بذلك ضلالا بعيدا، لأن من يركن إلى عدوه وهو يظن أنه وليه، فلاشك أنه يضيع نفسه، ويخسر خسرانا مبينـاً، قال تعالى **﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فقد خسر خسراناً مبيناً﴾**[3]. لأنه ليس من ولى حق للانسان إلا الله عز وجل، فإذا لم يتخذ الانسان الله عز وجل وليًّا، لن يجد بعد الله وليا من غير المؤمنين، إلا من الكافرين أو من الشياطين، الذين هم أعداء يخذلون ولاينصرون.

ومن ثم فإفراد الله عز وجل بالولاية بهذا المعنى جزء من إفراده تعالى بالربوبية، لان معنى الولاية هنا مرادف او هو جزؤ من معانى الربوبية ومن ثم يكون الذى يتخذ من دون الله تعالى وليا ، بهذا المعنى، مشركا. قال تعالى **﴿قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعَم، قل إنى أمرت أن أكون اول من أسلم ولا تكونَنَّ من المشركين﴾**[4] فهذا السؤال الاستنكارى الذى يتضمن نهيا قاطعا عن إتخاذ ولى غير الله تعالى يتَضمن أيضا تعليلا لهذا النهى والإستنكار، أو بتعبير آخر يتضمن الأساس الاعتقادى لهذا النهى والاستنكار فى قوله تعالى **﴿فاطر السماوات والأرض﴾** ومن ثم يرتقى معنى الولى فى الآية إلى معنى الرب الذى فطر السماوات والأرض وخلقهن، فلا يجوز إتخاذ ولى من دون الخالق بهذا

---

(١) النساء / ٧٥ .(٢) النساء / ١٢٣.
(٣) النساء / ١١٩ .(٤) الانعام / ١٤.

المعنى. ومن يفعل ذلك لا يكون مسلما، ويكون مشركا بدليل قوله تعالى بعد هذا ﴿قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ ثم أمره بعد هذا بقوله ﴿ولا تكونَنَّ من المشركين﴾.

ومن ثم أطلق الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ولايته على كل شئ من دونه بعامة وكذلك على المؤمنين بخاصة، فيكون إسم الولى قريبا من إسم الرب أو معنى الأول جزء من معنى الثانى، ومن ثم لا تكون الولاية بهذا المعنى إلا فى مجال الامر الكونى، شأنها شأن الوكالة الخاصة بنفس المجال.

وعلى هذا تنتهى من هذا المبحث الى وجوب منع اطلاق هذا الإسم بهذا المفهوم على غير الله عز وجل، وكذلك منع وصف غير الله عز وجل بهذه الصفة، ونسبة هذه الافعال إلى غيره عز وجل، تماما كما لا يجوز إطلاق إسم الخالق الرازق البارئ على غير الله تعالى.

فالقرآن الكريم يمنع إطلاق كلمة ولى بهذا المعنى على غير الله ولا يصف أحداً من دونه عز وجل بالصفات التى ذكرناها والتى هى من خصائص ربوبيته جل وعلا.

بَيْدَ أننا نجد فى القرآن الكريم إطلاق إسم الولى، مفردًا وجمعا، على غير الله تعالى كتعبير عن العلاقة بين المؤمنين بعضهم ببعض، ولكن بمعنى مغاير ومخالف تماما للمعنى الاول، الذى أطلقه على نفسه جل وعلا. كما أن القرآن الكريم يتضمن إطلاق اسم الولى بهذا المعنى الثانى على الله عز وجل أيضا: قال تعالى: مخاطبا الذين آمنوا ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[1]. فبينما وجدنا أنه - بالنسبة للمعنى الأول للولاية للمؤمنين- فإنه هنا يثبت للمؤمنين ولاية الرسول ﷺ والذين آمنوا بعد ولاية الله

(١) المائدة / ٥٥.

عزَ وجل، مع أنه من المسلم به أن الرسول ﷺ والمؤمنين هم من دون الله سبحانه وتعالى، وليس فى هذا اختلاف أو تضارب، إذ المقصود بالولاية فى هذه الآية الكريمة يختلف عن المقصود بالولاية الذى أثبتناه آنفا بالمعنى الأول، حيث أن هذه الولاية المنسوبة لله عزَ وجل وحده، هى كما قلنا بمعنى الربوبية أو هى خاصية من خصائصها بينما الولاية بالمعنى الثانى التى يتولى فى مجالها المؤمنون بعضهم بعضا مع ولاية الله عز وجل ورسوله لهم، انما هى فى مجال الامور التشريعية والافعال الانسانية الاختيارية.

فالأولى ولاية كونية لا يجوز نسبتها لغير الله تعالى ومن فعل ذلك أشرك به عز وجل، أما الثانية فهى ولاية فى الامور الشرعية يكلف بها المؤمنون جميعا ويستجيبون لها بإختيارهم ولا يستجيب لها الكفار باختيارهم، ومن ثم فإنه - حسب هذا المعنى الثانى للولاية - يكون الله عز وجل ورسوله ﷺ أولياء للمؤمنين وكذلك المؤمنون بعضهم اولياء بعض، وفى نفس الوقت ليس الله تعالى ورسوله والمؤمنون أولياء للكافرين لأن الكافرين لايقبلون شرع الله ولا يتخذون سنة رسول الله ﷺ ومنهجة ودينه طريقا لحياتهم. فالكافرون ليسوا أولياءًا للمؤمنين، وكذلك الله ورسوله والمؤمنون ليسوا أولياءًا للكافرين. وهذا يثبت بوضوح إختلاف مفهوم الولاية بالمعنى الأول عن المقصود بهاء المعنى الثانى، إذ ألاول معنى ينتمى للامر الالهى الكونى، والثانى ينتمى للامر الالهى التشريعى فبالمعنى التشريعى، يجب على المؤمن ان يكون وليا للمؤمن، أى أن الله تعالى أمر المؤمنين أمرا تشريعا أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض. قال تعالى ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض...﴾[1]. وقال تعالى (والذين أوَوْا ونَصَرواْ اولئك: بعضهم أولياء بعض﴾[2].

ومن ثم فإن ولاية المؤمن للمؤمن هى استجابة وطاعة لامر الله عزَ وجل

---

(١) التوبة / ٧١. (٢) الانفال / ٧٢.

بتصرته، وعونه، وأخذ أسباب رعايته، مع محبته، وليست فى إحيائه ورزقه ودفع الضر عنه بالمعنى الكونى، لأن هذا كله من الله وحده.

والخلاصة أن الولاية- كما أنها تعبير عن علاقة العبد بربه، والرب بعبده - فإنها أيضا تعبير عن علاقة ومعاملة المؤمن للمؤمن، بل بين البشر بعضهم ببعض لان الكافرين أولياء للكافرين أيضا قال تعالى ﴿... والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾[١]. وقال عز وجل ايضاً ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون﴾[٢].

لذلك نهى الله عز وجل أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين قال تعالى ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾[٣].

والسؤال الذى يطرح نفسه علينا الآن هو: إذا ثبت لنا أن الله تعالى وصف نفسه فى القرآن الكريم أنه ولى على كل نفس بالمعنى الكونى وولى للمؤمنين بالمعنى الكونى وولاية خاصة بنجدتهم لا ينالها الكافرون، فهل وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم أولياء لله تعالى. لاشك أنه لا يجوز أن يكون لمخلوق ولاية بالمعنى الكونى، لا بالنسبة لله عز وجل، ولا بالنسبة لمخلوق غيره.

ومع هذا فقد وصف الله تعالى المتقين بأنهم أولياؤه عز وجل فى مثل قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون)[٤] وقوله تعالى أيضاً (إنْ أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون)[٥].

وهذا يستلزم أن تكون مفهوم ومعنى ولاية لله عز وجل لكل نفس بعامة، وللمتقين بخاصة، أى الولاية الكونية التى هى من قبيل إرادته الكونية، وتتم بمشيئته الكونية عز وجل، غير مفهوم ومعنى ولاية المؤمنين لله جل وعلا، فهم

---

(١) الاعراف / ٣٧.

(٢) الانفال / ٣٢ .(٣) آل عمران/ ٣٨.

(٤) يونس/ ٦٢ .(٥) الأنفال/ ٣٤.

أولياء لله من قبيل أنهم يقومون بتنفيذ أوامره التشريعية فى أنفسهم وبين عباده، ويقومون بالدعوة إلى دينه، ويجاهدون فى سبيل إعلاء كلمته. ومن ثم فهم أولياء لله تعالى بمعنى أنهم محبون له نصراء لدينه، ولذلك إقترنت الولاية بالنصرة فى كثير من الآيات التى مرت بنا قال تعالى ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[(١)] ويلتقى هذا المفهوم للولاية بمعنى الخلافة ومعنى الولاية، لأن معنى خليفة كما جاء فى تفسير الطبرى (أى خليفة منى يخلفنى فى إقامة شرعى وتنفيذ أمرى)[(٢)]. أى أمره التشريعى، فولى الله تعالى هو الذى يجعل نفسه خليفة لله تعالى فى إقامة أمره التشريعى. وهو الذى يكون موكلاً بهذا الأمر. ففيه إلتقاء بالمعنى الثانى الذى أثبت الله تعالى فيه توكيله الإنسان للقيام بالرسالة بقوله ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾[(٣)].

وعلى هذا نخلص إلى أن المقصود بالولاية المنسوبة لله تعالى عن المؤمنين يختلف عن المقصود بولاية المؤمنين لله عز وجل، كإختلاف المقصود بالوكالة المنسوبة لله عزو جل عن المقصود بالوكالة التى يوكل الله فيها الإنسان بالرسالة ومن ثم يؤدى هذا إلى أن المقصود بخلافة الله عز وجل للإنسان، يختلف عن خلافة الإنسان لله عز وجل، حيث الأول من قبيل المعنى الكونى والثانى خاص بالأمر التشريعى، وذلك لأن الولاية جزء من معنى الخلافة، كما مر بنا، شأنها فى هذا شأن الوكالة مع الخلافة أيضاً.

د - النصرة فى القرآن الكريم:

نسب الله تعالى النصرة للمؤمنين لنفسه ومن أسمائه جل وعلا الناصر والنصير قال تعالى ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾[(٤)]. وقال تعالى أيضاً ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾[(٥)].

---

(١) يونس / ٦٢. (٢) الطبرى. / التفسير / جـ١ / ص٢٠١.
(٣) الأنعام / ٨٩. (٤) الفرقان / ٣١ (٥) الحج / ٧٨.

بل نفى الله عز وجل أن يكون للمؤمنين نصير من دونه تعالى كما نفى أن يكون لهم ولىٌّ من دونه وكما نهى أن يتخذوا وكيلاً أو ولياً من دونه قال تعالى ﴿وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾[1].

ومن ثم يترتب على هذا أنه لا يجوز أن يطلب المؤمن النصر من غير الله تعالى، كما لا يجوز أن يعتقد أن غير الله تعالى قادر على نصره وإن أخذ بأعمال النصر من العدة والعتاد والاستعداد لأنه لا ناصر إلا الله عز وجل قال تعالى ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[2]. وقال تعالى أيضاً﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾[3]. وقال عز من قائل ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده﴾[4]، أى أن النصر من عند الله تعالى وحده ولا ناصر إلاهو وإذا لم يرد الله تعالى نصر فئة فلن تنتصر على عدوها أبداً.

فالنصر إذاً مرتبط بقدرة الله تعالى وبإرادته الكونية التى لا يتم شئ فى الكون إلابها. وبدون أمره الكونى لن يكون هناك نصر لأمة على عدوها، لذلك إنفرد الله تعالى بكونه الناصر والنصير ونهى عن إتخاذ غيره نصيراً.، ونهى عن إعتقاد وجود نصير قادر على تحقيق النصر من دون الله تعالى وبدون إذنه وإرادته الكونية ومن إعتقد فى ذلك فقد كفر بالله تعالى واشرك به شأنه فى ذلك شأن من إتخذ وكيلاً أو ولياً من دونه كما مر بنا.

ولكن إذا كان النصر من عند الله وحده والله تعالى هو الناصر والنصير وحده، فهل يجوز القول بأن العبد ينصر الله تعالى كما أن الله تعالى ينصر عباده؟ إن الإجابة على ذلك بالإيجاب والإثبات كما تدل على ذلك آيات الذكر الحكيم. قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنو إن تنصروا الله ينصركم ويثبت

---

(1) الشورى/ ٣١.　　(2) آل عمران/ ١٢٦.

(3) الأنفال/ ١٠.　　(4) آل عمران / ١٦٠.

أقدامكم﴾[١] . وقال تعالى أيضاً ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾[٢] .
وقال تعالى ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾[٣] .

ففى هذه الآيات الكريمة ينسب الله عز وجل نصره للمؤمنين كما ينسب نصر المؤمنين له ولرسوله . ، بل جعلت الآيات مجئ نصر الله، عز وجل ونزوله على المؤمنين متوقفاً على مبادرة المؤمنين بنصر الله عز وجل.

وكما نهى الله عز وجل أن يتخذوا من دونه ولياً أو وكيلاً فإنه عز وجل قد نفى نصيراً أو ناصراً للمؤمنين بعد الله عز وجل فقال ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده﴾[٤] . ، أى أن النصر من عند الله تعالى وحده ولا ناصر إلاَّ هو وإذا خذل الله تعالى فئة أو قوماً أو أمة فلا ناصر بعده لها أبداً . ، ومن ثم فالنصر هنا من أفعال الربوبية وهو من قدر الله تعالى الذى يتم بالمشيئة الكونية التى لا يحدث ولا يتم شئ فى الكون إلا بها.

أما نصر المؤمنين الله عز وجل فهو من فعل المؤمنين، ومن ثم فهو طاعة لله عز وجل وجهاد فى سبيله لإعلاء كلمته والطاعة والعبادة تأليه لله عز وجل، ومن ثم فهو فعل أو أفعال بشرية فى مجال توحيد الألوهيه أى إقراره بالنصرة وبالجهاد فى سبيله لإعلاء كلمته، وهو فى مجال تنفيذ أمر الله تعالى الشرعى، ولا تعارض بين مفهوم نصر الله تعالى للمؤمنين بالمعنى الكونى الذى هو من توحيد الربوبية، وبين مفهوم نصر المؤمنين لله عز وجل بالمعنى التشريعى، حيث يخص مجال الأمر التشريعى الذى هو من توحيد الألوهية.

وحيث قد سبق أن علمنا أن العلاقة بين الخلافة والنصرة وثيقة، فالخليفة هو

---

(١) محمد/ ٧ (٢) الحج/ ٤٠.
(٣) الحشر/٨. (٤) آل عمران / ١٦٠.

من وجه ناصر لمن إستخلفه كما أن الناصر نائب وخليفة للمنصور، وإن اقتصرت النيابة والخلافة على إعلاء شأن المنصور وإتيان الظفر له.

وحيث قد صحت خلافة الله عز وجل بالمعنى التشريعى الذى هو من توحيد الألوهية، فإن الخليفة يكون من واجبه نصره دين الله وإعلاء كلمته وحفظ شريعته، إن كانت قائمة، والجهاد لإقامتها، إن كانت غائبة عن واقع الحياة.

وحيث قد ثبت ندب الله تعالى المؤمنين وأمرهم بنصره وحيث أن هذه النصرة بهذا المعنى الشرعى جزء من مفهوم الخلافة بالمعنى الشرعى الذى هو جزء من توحيد الألوهية، فإنه يصح أن يقال إن الإنسان خليفة الله تعالى فى إقامة شرعه والدفاع عن دينه كما يصح القول أنه نصير لله عز وجل أو ناصر له.

وفى نفس الوقت لا يجوز القول بأن الإنسان أو المؤمنين نصراء لله تعالى بالمعنى الكونى وقائل هذا مشرك وكافر كما لا يصح القول أن الإنسان أو المؤمنين خلفاء لله تعالى بالمعنى الكونى لأن هذا شرك بالربوبية وكفر بالله عز وجل.

والخلاصة أن النصرة والولاية والوراثة والوكالة كأفعال للإنسان تعبِّر جميعها عن علاقة بينه وبين الله عز وجل وجميعها من خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض. بمعنى النيابة عنه فى تنفيذ أمره الشرعى واقامة دينه ونصرته واعلاء كلمته وكل هذا فى مجال توحيد الألوهية.

هـ - الخلافة والهداية فى القرآن الكريم:

مما لا مراء فيه أن أول واجب على خليفة الله عز وجل فى الأرض نشر الهدى الإلهى وتبليغه للناس، لأنه من المعلوم بالضرورة أن إقامة حكم الله تعالى وإعلاء دينه على الدين كله لا يتحقق فى مجتمع ما إلا إذا آمن أكثر الناس به، وهذا لا يكون إلا بالدعوة إلى الله تعالى ونشر هديه فى العالمين.

وهذه مهمة الرسل والأنبياء بالدرجة الأولى، ثم هى مهمة العلماء المجدِّدين بعد الرسل ثم الدعاة ثم الحكام والمؤمنين بعامة.

فالـهداية إذاً عـمل رئـيسى مـن أعمال الخـليفـة الحاكـم وواجب أساسـى من واجبـاته. ولـيس هذا واجـباً من واجـباتـه هو فحـسب، وإنما هـى من واجـبات ومسـئوليات كـل مسلم مـؤمن، يسـعى لإقامة خـلافة الله فى الأرض، ويجـاهد للمحافظة عليها وإستقرارها -إن كانت قائمة- بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فالهداية من واجبات المؤمنين بعامة علماء ودعاة وحكام وسائر الرعية، كل فيما يختص به، وبحسب مسئولياته وسلطاته وإمكاناته.

وكما أن الأسماء التى هى عناصر فى معنى الخلافة يختص كل منها كما ثبت لنا بمعنيين أحـدهما فى مجال الأمر الإلهى الـكونى والآخر فى مجال الأمر الـتشريعى التكليفى، فإن الهداية فى حياة البشر لها معنيان أيضاً.

أى أن هذا النوع من الهـدى الإلهى يتمثل فى الوحى المنزل عـلى الرسل صلى الله تعالى عليهم جـميعاً قال تعالى **﴿قلنا اهبطوا منها جميـعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تـبع هداى، فلا خوف عـليهم ولا هم يـحزنون والذين كـفروا وكذبوا بآيـاتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[١].

وقال تعالى **﴿وآتينا موسى الكتاب وجعـلناه هدى لبنى إسرائيل﴾**[٢]. وقال تعالى **﴿هو الذى أرسل رسوله بـالهدى ودين الحق ليظهره علـى الدين كله﴾**[٣]. وحيث أن هذا الهدى هـو أمر الله التشريعى، فـإن الناس ينقسـمون بإختيارهم حـياله إلى فريـقين: مستـجيب لـه، ومعرض عنـه ومن ثم يـترتب علـيه مصـير الناسُ فـى الآخـرة.

وتَحَمُّلْ الرسالة السماوية من قبل خـلفاء الله تعالى فى الأرض: حكاماً وعلماء وقضاة ودعـاة ورعية، يدخل فى تـبعاته تبلـيغ هذا الهدى لـلناس، ونشره بيـنهم والجهاد لتوصيله لكل البشر.

---

(١) البقرة/ ٣٨، ٣٩. (٢) الإسراء/ ٢. (٣) الفتح/ ٢٨.

ومن ثم صح القول بأن الإنسان يهدى بهذا المعنى، وهو أن يكون وكيلاً عن الله تعالى فى تبيين رسالته وتبليغها، وهذه مهمة الرسل والأنبياء أساساً، ثم هى مهمة ورثة الأنبياء وهم العلماء والدعاة العاملين، ومهمة كل مؤمن كذلك لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل مسلم ومؤمن.

وكل من يبلغ إنساناً بالهدى الإلهى ويبينه له بالحكمة والموعظة الحسنة فإن هذا الداعى المبلغ يكون قد هدى المدعو إلى الصراط المستقيم،أى دله عليه وأرشده إليه سواء إستجاب المدعو أم لم يستجب، وأول الهداة بهذا المعنى هو رسول الله ﷺ قال تعالى له ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾[1] . فممن هداهم رسول الله ﷺ إلى الصراط الإلهى المستقيم أئمة الكفر الذين أبوا أن يستجيبوا له بعد أن بين لهم. فهدى هنا بمعنى بيَّن ودَلَّ وأرشد.

أما النوع الثانى من الهدى، فإنه من أفعال الله تعالى التى لا يستطيع أن يفعلها مخلوق حتى الرسل لأنها من خصائص ربوبيته جل وعلا، لذا لا يجوز نسبة الهدى بهذا المعنى الثانى لغير الله عز وجل. والإنسان يقف عاجزاً عن إتمامه كما حدث لنوح عليه السلام مع إبنه، وكما حدث لإبراهيم عليه السلام مع أبيه وكما حدث للرسول عليه الصلاة والسلام مع عمه، قال تعالى لنبيه الكريم ﷺ ﴿**إنك لاتهدى من أحببتَ ولكن الله يهدى من يشاء**﴾[2] . وقال له أيضاً ﴿**أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون**﴾[3]. وقال جل شأنه فى هذا المعنى ﴿**أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين.**﴾[4].

وذلك لأن المقصود بالهدى هنا الذى هو فعل لله عز وجل هو الهدى الذى يتم

(١) الشورى/ ٥٢، ٥٣.　　(٢) القصص/ ٥٦.　　(٣) يونس/ ٤٣.
(٤) الزخرف/ ٤٠.

بأمر الله الكونى ومشيئته النافذة وقدره الذى لا يُرد، فمن يهديه الله بهذا المعنى لا يضله أحد ولا شئ أبداً. لأنه نور يقذفه الله تعالى فى قلب العبد فيهتدى بأمره ومشيئته فيحب به الله ورسوله ويكره به الكفر والفسوق والعصيان والطواغيت الداعية لها. ويقابل هذا الهدى بالمعنى الكونى الضلال حيث يختم الله تعالى على قلب العبد الكافر فلا ينفتح للإيمان والطاعة ولا يستجيب للحق. قال تعالى ﴿ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى إنتقام؟﴾[1]. وقال تعالى ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾[2].

فالهدى الأول بمعنى الإرشاد والبيان والتوضيح والدعوة ويتم هذا بالرسل وما ينزله الله تعالى عليهم من البينات والآيات والتشريع المحكم من عنده عز وجل، ويتم أيضاً ويستمر فى الأرض بجهود العلماء توضيحاً وتبييناً وشرحاً وتفسيراً وفتوى أما الهدى بالأمر الإلهى الكونى فهو الهدى القلبى الذى هو نور يقذفه الله فى قلب العبد المؤمن فيهتدى أى يزداد إيماناً ويثبت عليه قال تعالى ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[3]، أى أن الهدى هو من فعل الله عز وجل فى قلب العبد الذى آمن به فهو إذاً من أمره الكونى ومن أفعال ربوبيته التى لا يشاركه فيها غيره جل وعلا.

ومن ثم فإثبات الهداية للنبى ﷺ لا يتعارض مع نفى الهداية عنه لأن الرسول عليه الصلاة والسلام يهدى الناس إلى الصراط المستقيم أى يدلهم عليه ويوضحه لهم ويفصل طريقه، لينتفع بهديه من يريد الهدى، ويعرض عنه من لايريد فيضل. فهذا معنى قوله تعالى ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾[4].

فالهدى الإلهى -بهذا المعنى الأول- تشريعى إبتلائى تخييرى والرسل عليهم السلام وورثتهم من العلماء والدعاة خلفاء الله عز وجل فى توصيله وتبليغه للناس

---

(١) التغابن / ١١. (٢) الاعراف / ١٧٨.
(٣) التغابن/ ١١ (٤)الشورى/ ٥٢.

قال تعالى ﴿وأمَّا ثمود فهديناهم فإستحبوا العمى على الهدى﴾[1]. فالناس مخيرون حيال هذا الهدى الذى هو بمعنى الإرشاد بين الإتباع والإعراض بخلاف الهدى الإلهى الكونى الذى ينزل فى قلب العبد المؤمن أى الذى يختار الإيمان ويستحبه على العمى بأمر الله الكونى، فهو ليس باستطاعة أحد من دون الله تعالى ولا حتى الرسل، لأنه من أمره الكونى .لذلك قال تعالى لرسوله الكريم ﷺ ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾[2].

فليس بين الآيتين -التى تثبت الهداية للرسول إلى صراط مستقيم، والتى تنفى عنه هداية من أحب- أى تعارض أو إختلاف كما يتوهم البعض جهلاً بالفرق بين مجالات الأمر الكونى ومجالات الأمر التشريعى التى منها الهدى. ومعنى الآية الأخيرة هو أن الله تعالى يقول لنبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: أنت مستطيع يا محمد على تبليغ الناس وتعليمهم والتبيين لهم وإرشادهم إلى الصراط المستقيم المنزل عليك، لكنك لست مستطيعاً أن تدخل الإيمان والهدى إلى قلوبهم.

لأن الرسول ﷺ مستطيع أن يهدى بالمعنى التشريعى لكنه لا يستطيع -وكذا كل البشر- الهدى بالمعنى الكونى، فالهداية التى هى واجب من واجبات الخليفة أو خلفاء الله عز وجل، هى من أعمال الإنسان الخليفة التى تنسب إليه وليست من قبيل الهداية المنسوبة لله عز وجل، مع أن الهداية التشريعية أيضاً هى من الله تعالى، إلاأن الإنسان المؤمن هو وكيل الله عز وجل فيها لتبليغ هدية التشريعى وبيانه قال تعالى ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾[3] أى بالرسالة والدين والشرع.

وشأن الهداية بالمعنى التشريعى شأن الوكالة والولاية والوراثة والنصرة بالمعنى التشريعى أيضاً، كلها عناصر فى معنى الخلافة بالمعنى التشريعى التخييرى.

---

(١) فصلت/١٧. (٢) القصص/٥٦.
(٣) الأنعام/٨٨.

فالذى ينسب الهداية بالمعنى الكونى لغير الله تعالى مشرك بالله تعالى فى ربوبيته والذى ينسب الوكالة بالمعنى الكونى لغير الله تعالى مشرك بالله تعالى فى ربوبية هذا الغير.

والذى ينسب الولايه لغير الله تعالى بالمعنى الكونى فقد جعل هذا الغير شريكاً لله عز وجل. ويشرك بالله تعالى فى ربوبيته غيره من يطلب النصرة بالمعنى الكونى من هذا الغير، ومجموع ذلك كله أن الذى ينسب الخلافة لغير الله تعالى بالمعنى الكونى يكون قد اتخذ هذا الغير رباً من دون الله تعالى.

أما من ينسب الهداية لغير الله عز وجل بالمعنى التشريعى فهو مؤمن وفعله وقوله جائز، وهو حق ثابت فى القرآن الكريم.

وكذلك من نسب الوكالة للإنسان ويعتقد أن الإنسان وكيل لله تعالى فى تبليغ أمره التشريعى وبيانه، فهو مؤمن وإعتقاده صحيح وثابت فى القرآن الكريم.

والذى يجعل الإنسان ولياً لله تعالى بالمعنى التشريعى فإنه لم يخرج عن مقتضيات الإيمان وإعتقاده صحيح وهو حق ثابت فى القرآن الكريم والذى يصف الإنسان بأنه ناصر لله عز وجل ونصير له بالمعنى التشريعى الإبتلائى فهو على صواب ولم يخالف مبادئ التوحيد ومقتضياته، ومن ثم فإن الذى يقرر أن الإنسان خليفة الله تعالى فى الأرض فى مجال الأمر التشريعى الإبتلائى فهو مصيب، وإعتقاده حق ثابت فى القرآن الكريم، وبهذه المعانى جميعاً يكون الإنسان خليفة لله تعالى فى إقامة شرعه وبيان هديه ووكيلاً عنه فى تنفيد أوامره التشريعية وولياً له فى المحافظة عليها، وناصراً لله تعالى بالجهاد فى سبيل إعلاء كلمته وعلو دينه على الدين كله، ويكون بذلك وارثاً للكتاب المنزل من عنده تعالى ومُتَحمّلاً لتبعاته.

والأمة التى تفعل ذلك يورثها الله عز وجل السيادة والتمكين فى الأرض، ويستخلفهم فيها من بعد عدوهم، لينظر كيف يعملون؟.

و - الخلافة والتفويض:

يختلف التفويض عن الوكالة والـولاية والنصرة والوراثة والخلافة فى أنه يجوز نسبتـه -كفعل للإنسان- مـفوضاً الله عز وجل فى أمـره، بينما لا يجوز نـسبته لله تعالى مفوضاً غيره فى أمر من الأموز حتى ولا الأمر التشريعى. لأن المفوض يسلم الأمر لـلمفوض إلـيه تسلـيماً، إقراراً مـنه بالـعجز والقـصور، ومن ثم لا يـكون التفويـض إلا من الإنسان لله عز وجل،، فـيجوز بذلك أن يفـوض الإنسان أمور حياته وتدبير معاشه لله عز وجل عندما يعجز حتى عن إتخاذ الأسباب، ومن ثم لا يصير للتفويض أى معنى أذا نُسِبَ، كفعل لله عز وجل، يفوض الإنسان فى أموره التشريعـية، لأن الله عزو جل بمقتضى حـقيقة الخلافة لا يفوض الإنـسان فى أمره التشريعـى، بل يكلّفه به، وعلى الإنـسان المؤمن أن يلتزم به ويتـبع ولا يبتدع ولا يتدخل فـى الشريعة المكلف بـها بتغيير أو تحريـف أو تنقيص، أو بالزيادة فـيها بل عليه أن يتلقى الرسالة وأن يلتزم بتنفيذ ما فيها كما وردت بقدر طاقته.

وعلى هذا لا يجوز القول عقلاً أن الله تعالى فوَّض الإنسان بأمره التشريعى، إذ يصبح كـلاماً متناقضاً لا معـنى له، لأن التفويض هو الـتسليم بالعجـز حيال الأمر وإحالته إلى الغير ليتصرف فيه بمطلق حريته واختياره بينما الأمر التشريعى أمر ملزم من الله تعالى للـمؤمنين عليهم أن يتبعـوه وليس لهم حياله أدنى إختـيار قال تعالى **﴿ما كـان لمؤمـن ولا لمؤمـنة إذا قـضى الله ورسـوله أمـراً أن يكـون لهـم الخيـرة من أمرهم﴾**[1].

وعلى هذا فقرر أن الله عز وجل أنزل رسالته وأوامره التشريعـية على الإنسان ليقيمها المؤمنـون فى حياتهم فهم إذاً موكلون عليها وأولياء لله تعـالى فى تطبيقها، وليسوا مفوضين فى ذلك،بل هم مكلفون بها.

ومن ثم فالتفويض كعلاقة بين الله عز وجل والإنسان جائز فقط من الإنسان لله

---

(١) ٣٦/الأحزاب.

عز وجل وبالمعنى الكونى حيث يعجز الإنسان عن الفعل عجزاً تاماً سواء بالنسبة لأسبابه ومقدماته أو بالنسبة للنتائج، وهذا هو الفرق بينه وبين التوكيل إذ الأخير بعد الأخذ بالأسباب، أما التفويض فلايكون إلا معه، وهو إنقطاعها فلا يفوض الله عز وجل أمره للإنسان وهو الخالق وعلى كل شئ قدير، وإنما يكلفه به. فإذا ثبت ذلك بالعقل فإننا نجد ذلك ثابتاً أيضاً بالقرآن الكريم، حيث لم يرد فيه التفويض إلامرة واحدة كفعل منسوب للإنسان يفوض فيه ربه عز وجل إقراراً بعجزه وقصوره، قال تعالى قاصًا مقالة مؤمن آل فرعون بعد أن يئس من إستجابة قومه ﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله﴾[1]. إذ لم يكن له أى مجال يأخذ فيه بأسباب نصرة الحق.

وليس فى القرآن الكريم فى غير هذه الآية إستخدام لهذه الكلمة.

والفرق بين التفويض والتوكل يكمن فى أن المفوض أكثر عجزاً من المتوكل، حيث فى مكنة المتوكل الأخذ بالأسباب، مع إدراكه أنه لا يملك الحصول على النتائج، وهذا شأن المتوكل مع ربه، يأخذ بأسباب الفعل ويدعو الله تعالى أن يحقق له نتائجه وثماره المرجوة.

أما المفوض فهو عاجز حيال ما يريد حتى عن إتخاذ الأسباب، ومن ثم فهو يفوض أمره كله لله أسباباً ونتيجة.

ولذلك وجدنا فى القرآن الكريم نسبة التفويض للإنسان، ولم نجد التفويض منسوباً، كفعل، لله عز وجل فى حين أنه قد ثبت نسبة الوكالة والولاية والنصرة والوراثة للإنسان بمعنى ونسبتها جميعاً لله عز وجل بمعنى آخر، وهو المعنى الكونى. وذلك لأن توكيل الله تعالى الإنسان وتوريثه وتوليته، أو بكلمة واحدة، إستخلافه لتنفيذ أوامره التشريعية لا تنسب عجزاً له عز وجل، ولا تنسب له إحتياجه للإنسان، وإنما هى كلها أفعال إلهية من الله تعالى للإنسان محورها

---

(١) غافر/ ٤٤.

التكليف وترتبط جميعها بالحكمة من إستخلاف الإنسان فى الأرض وهى الإبتلاء الذى هو الحكمة التى من أجلها خلق الخالق عز وجل السماوات والأرض والإنسان .

ز - الحكم - باعتباره لازما من لوازام الاستخلاف- بين الأمر الكونى القدرى والأمر التشريعى

سبق القول أن إستخلاف الإنسان فى الأرض أمر إلهى كونى حتمى قدرى بدليل قوله تعالى (إنى جاعل) إذا الجعل يفيد التَّصْيِير والحتم.

لكن إستخلاف الإنسان -وإن كان أمراً كونياً حتمياً- فإنه يستلزم تبعا له أمرًا تشريعياً تخييرياً، يتم بفاعلية الإنسان المستخلَف أى الخليفة.

وهذا الأمر هو الحكم فى الأرض بين الناس،هذا الحكم الذى هو موكول للإنسان، أو للخليفة أو للسلطان، أى لفاعليته الحرة المختارة التى يستطيع بها أن يحكم بين الناس بالعدل، أى بما أنزل الله عزوجل أويحكم بينهم ظلماً وعدواناً أى بغير ما أنزل الله تعالى.

قال تعالى **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالعدل ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله....﴾**[1].

فداود صار خليفة بالجعل الإلهى أى بالأمر الكونى الحتمى الذى لا إختيار لداود أو لأى حاكم فيه، لكن له الإختيار فى أن يسلك سبيلاً من إثنين.

إما سبيل الله عز وجل فيتحقق بذلك العدل بين الناس على يديه.

وإما سبيل الهوى حيث لا يتحقق إلاَّ الظلم، فأمر الله تعالى لداود ولكل حاكم أن يحكم بالعدل هو أمر شرعى تخييرى إذ يستطيع كل حاكم أن يطيعه أو يخالفه.

لذلك نقول إن الحكم ذروة كل عنصر من عناصر معنى الخلافة لأنه بالضرورة

---

(١) ٢٦/ص.

لازم من لوازمها جميعا فالصلة بين الخلافة والحكم صلة وثيقة بالرغم من أن الخلافة تَتَضَمَّن معنى النيابة كعنصر رئيسى من عنصارها بينما الإستقلال أو السيادة يشكلان العنصر الرئيسى فى مفهوم الحكم.

وهذا التعارض الظاهر بين الخلافة أو النيابة من ناحية والحكم من ناحية أخرى إنما هو تعارض متوهم لا وجود له.

وينكشف لنا الوهم ويرتفع هذا التعارض إذا علمنا أن الحكم قد ورد فى القرآن الكريم بالمعنى الشرعى الابتلائى التخييرى، كما ورد بالمعنى الكونى القدرى الحتمى، شأنه فى ذلك شأن الخلافة وشأن العناصر المكونة لمعناها كالوكالة والنصرة والولاية وغيرها.

فالحاكم مخيَّر بين أن يحكم بما أنزل الله تعالى وأن يحكم بغير حكمه عز وجل. فإذا حكم بحكم الله تعالى، فإنه لا يكون مستقلاً فى حكمه أى لا يكون حاكماً على الحقيقة بل يكون منفذاً لحكم لله عز وجل، ومن ثم يكون نائباًلله عز وجل فى هذا الأمر، أى فى تطبيق شرعه، وخليفة عنه فى إقامة دينه ونصرته ووكيلاً عنه فى حمل رسالته والمحافظة عليها.

أما إذا حكم الحاكم أو السلطان بحكم الجاهلية الذى هو أى حكم مخالف لحكم الله عزوجل، فإنه يكون مستقلاً فى حكمه، فإذا إنفرد هو كفرد بالتشريع وحكم بهوى نفسه فإنه يكون متألهاً مدعياً للربوبية حتى ولو لم يعلن ذلك صراحة وإذا حكم بشرع غيره كمجلس نيابى أو غيره فإنه يكون خليفة ونائباً لهذا الغير.

فالحكم بالمعنى الشرعى هو من الأمور الموكولة لفاعلية الإنسان بعامة والحاكم بخاصة. أما الحكم بالمعنى الكونى القدرى فلا يكون إلا لله عز وجل وحده.

وقد جاء هذا المعنى الأخير للحكم فى قول شعيب عليه السلام لقومه فيما حكاه عنه الله عز وجل بقوله ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾[1].

فما هو الحكم الذى حكم الله تعالى به بينهم؟!

قال تعالى بعد ذلك ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾[2].

وهذا حكم إلهى قدرى حتمى، إنه قضاء الله النافذ وبهذا المعنى جاء قوله تعالى لرسوله الخاتم ﷺ (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)[3]. وجاء هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى (أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لامعقب لحكمه وهو سريع الحساب)[4].

فهذا الحكم بمعنى القضاء النافذ الذى لا مردله أو القدر الحتمى.

أما الحكم بالمعنى الشرعى التخييرى فهو كل ما تضمنه كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ من أوامر ونواهى وأحكام.

قال تعالى ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيِّين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما إختلفوا فيه...﴾[5].

وقال تعالى ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾[6]. ومن ثم فالناس بإزاء هذا النوع من حكم الله تعالى مخيرون بين إتباعه أو مخالفته.

قال تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون)[7]. أى أن بعض الناس أو الحكام ينصرفون عن حكم الله تعالى المنزل، وبعضهم يتبعونه، فريق وفريق.

---

(١) ٧٨ / الأعراف.
(٢) ٩١/ الأعراف
(٣) ١٠٩/ يونس.
(٤) ٤١/ الرعد.
(٥) ٢١٣/ البقرة
(٦) ٢٣/ آل عمران.
(٧) ٤٨/ النور.

وهذا دليل على أن الناس مخيرون بإزاء هذا الحكم. بخلاف الحكم القدرى الذى هو عين القضاء الحتمى والقدر النافذ جبراً.

ومن ثم فكل أمر من الله تعالى للإنسان بالحكم هو أمر تخييرى تشريعى إبتلائى، يملك الإنسان أن يطيعه كما يملك أن يخالفه.

فمن يطع الله عز وجل ويحكم بما أنزله فقد صار نائبًا لله عز وجل وخليفة له فى الأرض أى فيما إستأمنه الله تعالى عليه، وإستخلفه فيه، وإستولاه إياه، وأما من يعص الله عز وجل ورسوله ويحكم بهواه فقد تأله وادعى الربوبية، وإذا حكم بغير ما أنزل الله تعالى وبغير هوى نفسه أى بحكم غيره من الناس فقد عبد غير الله عز وجل وجعل نفسه خليفة لغير الله تعالى.

ومن ثم يكون الحكم لله عز وجل، إذ يصح نسبة فعل الحكم له سبحانه، ووصفه عز وجل بالحاكمية.

قال تعالى ﴿إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾[1]. وقال تعالى ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾[2].

ولذلك فقد ظهر فى تاريخ الإسلام الذين رفضوا نسبة الحكم كفعل وصفة لغير الله عز وجل إستناداً إلى قوله تعالى ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه)[3]. وقوله تعالى (ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[4]، وهم الخوارج.

وعلة الخطأ عند هؤلاء تكمن فى عدم التمييز بين الحكم بالمعنى الشرعى والحكم بالمعنى الكونى. وحيث أن بعض الآيات تقصر الحكم بالمعنى الكونى على الله وحده، ومنها هاتان الآيتان أنفتا الذكر، فإن هؤلاء قد منعوا نسبة الحكم بالمعنى الشرعى لغير الله عز وجل، كما هو الحال بالنسبة للحكم بالمعنى الكونى. هذا بالرغم من أن كثيراً من آيات الذكر الحكيم نسب فيها المولى عز وجل الحكم للإنسان ليس بالمعنى الكونى -ولكن بالمعنى الشرعى- من ذلك قوله تعالى (ما كان

(١) ٥٧/ الأنعام. (٢) ١٠/الممتحنة.
(٣) ٤٠/يوسف. (٤) ٦٢/الأنعام.

لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله . . . . .)[1]. وقال تعالى ﴿**ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة**﴾[2].

فالحكم منسوباً للإنسان هو من قبيل التكليف الذى يكلف الله به عباده فهو من الأمر الشرعى، لأن بنى إسرائيل وقفوا من هذا الحكم موقف المختار الذى ينفذ الأمر تارة ويخالفه تارة أخرى، أو ينفذ بعضه ويخالف بعضه، حتى جاء عليهم العهد الذى خالفوا فيه حكم الله تعالى الذى أمرهم به تماماً وبالكلية، فانتزعه الله تعالى منهم، أى عزلهم عن الحكم والنبوة والإستخلاف فى الأرض فالحكم، كفعل، إذا نسب لله تعالى فهو بالمعنى الكونى، ولا يجوز نسبة الحكم بالمعنى الكونى لغيره عز وجل، وإلا صار هذا شركاً.

أما الحكم بالمعنى التكليفى الشرعى التخييرى فهو أمر موكول للفاعلية الإنسانية، ولكن نسبة الحكم، كفعل للإنسان يختلف فى حقيقته، كفعل، إذا كان بما أنزل الله تعالى، عما إذا كان بغير ما أنزل الله عز وجل.

فالحاكم الذى يحكم بما أنزل الله لم يجعل من نفسه حاكماً على الحقيقة، أى أنه يكون قد رفض أن يجعل من نفسه حاكماً على الحقيقة، وإذا وُصف الحكام بهذا الوصف أو أطلقت عليهم تسمية الحكام، فإنما يكون ذلك على سبيل التوسع فى إستعمال الكلمة اللغوى، لأن الإنسان عندما يحكم بشرع الله عز وجل وينفذ أمره لا يكون حاكماً، وإنما يكون منفذاً لحكم الله تعالى، ومن ثم يكون خليفة له ونائباً له فى أرضه، ويكون الحاكم فى الحقيقة هو الله عز وجل، أى يكون الله عز وجل هو الحاكم بالمعنى الكونى والحاكم بالمعنى الشرعى أيضاً.

من أجل ذلك لم يطلق على السلطان فى التاريخ الإسلامى حاكماً، وإنما سمى خليفة، أما إذا حكم الحاكم بأمر نفسه وهواه وشيطانه أو طاغوته أو شعبه أو

---

(١) ٧٩ / آل عمران.　　(٢) ١٦/ الجاثية.

مجالسه النيابية، معرضاً عن حكم الله تعالى، فإنه يكون قد حكم بغير حكم الله الشرعى، فى الوقت الذى لم يخرج فيه عن حكم الله القدرى الكونى.

أى أن الحكم لله عز وجل بالمعنى الكونى قائم فى الأرض فى جميع الأحوال، فلا رب فى الأرض إلا هو، ففى حالة إيمان الحكام وتطبيقهم لشرع الله تعالى يكون الحكم لله عز وجل شرعياً وكونياً، وهذا هو حال المجتمع المسلم.

أما فى حالة المجتمع الجاهلى، فإن الحكم التشريعى فيه يكون للطواغت لكن هذا الحكم لم يكن ليقع أو ليحدث أو ليكون، إلا بحكم الله الكونى القدرى، ومن ثم قال تعالى ﴿إن الحكم إلا الله﴾[1]، فالمجتمع الذى يقوم بحكم الله الشرعى، هو مجتمع الخلافة لله عز وجل، لأن أهله ما حكَمُوا إلا بما أنزل الله، أى بحكمه تعالى، ومن ثم يكونوا نواباً عن الله عز وجل فى تنفيذ شرعه، وليسوا حكاماً على الحقيقة. ومن ثم كانت أدق تسمية أطلقت عليهم الخلفاء.

أما الأمة التى تعيش بحكم هواها وشريعة طواغيتها، فهى مجتمع الخلافة لغير الله عز وجل لأنهم صاروا نواباً عن الطواغيت فى تنفيذ أحكامهم وأوامرهم.

فالحكم وثيق الصلة بالخلافة، لأن الخلافة إما أن تكون نيابة لله تعالى، وإما أن تكون لغيره، وكذ الحكم إما أن يكون حكماً لله عز وجل، وإما أن يكون حكماً لغيره، هذا بالمعنى التشريعى. وفى جميع الأحوال فإن الحكم بالمعنى الكونى لله تعالى وحده لا يشاركه فيه أحد.

وسواء أكان الحكم موافقا لشرع الله تعالى أم مخالفاً فهو واقع بمشيئة الله تعالى وقدره الكونى.

٢٦ - الخلافة بالمعنى الشرعى والخلافة بالمعنى الكونى فى القرآن الكريم

إذا كانت الوكالة والولاية والنصرة والوراثة والحكم عناصر رئيسية فى معنى الخلافة وقد وردت جميعها فى القرآن الكريم بمعنيين:

---

(١) الأنعام/ ٧٥.

الأول: ويخص توحيد الربوبية كأفعال لله عز وجل فى الكون وفى حياة الإنسان لا يشاركه فيها غيره فهى من أمره الكونى، ولا يجوز نسبة هذه الأفعال والصفات والأسماء المشتقة منها لغيره تعالى أى أنها من التوحيد الاعتقادى.

الثانى : المعنى الثانى لهذه الاسماء هى مما ينسب للانسان أو غيره من المخلوقات، وهى من الافغال التى تدخل فى التكليف الذى كلف الله تعالى به الناس، فهى من ناحية من الافعال الاختيارية، وهى من ناحية أخرى تعتبر طاعة من المؤمنين لله عز وجل، لأنها فى مجال الأمر التشريعى. فهى من توحيد الألوهية أى أنها من التوحيد العملى السلوكى.

وكما أنه لايجوز نسبة هذه الافعال بالمعنى الاول للانسان، كذلك لايجوز نسبة هذه الافعال بالمعنى الثانى لله عز وجل. فكلا الأمرين مخالف للتوحيد ويؤدى إلى الشرك والكفر.

وحيث أن هذه الأسماء والافعال عناصر رئيسية فى مفهوم الخلافة، فالنتيجة اللازمة أن تكون الخلافة ذات معنينْ أيضا:

الأول: خلافه بالمعنى الكونى وهذه تخص الله وحده، فلا يجوز أن يستخلف المؤمن غير الله تعالى بهذا المعنى، بل يجب أن يعتقد المؤمن بأنه لايقدر على الخلافة بهذا المعنى الا الله وحده.

وهذا الاعتقاد من لوازم الاعتقاد بأنه لارب سواه عز وجل، ومعنى الاستخلاف هنا هو أن المؤمن يستخلف ربه تعالى على أهله يحفظهم ويرزقهم وينصرهم وغير ذلك، من أفعال الربوبية .

الثانى: أما الخلافة بالمعنى الثانى فهى التى يكون بها الانسان خليفة لله عز وجل، وخلافة الانسان الله تعالى بهذا المعنى تقتصر على مجال تنفيذ التكليف والاوامر التشريعية وتنحصر فى مجال توحيد الالوهية الذى لايتم إلا بالطاعة والقيام بالتكليف.

وكما ثبت فى القرآن الكريم أن الله تعالــى هو الولى والوكيل والوارث والناصر والحاكم بالمعـنى الكونى، فإنه يلزم من ذلـك ان يوصف بأنه خليفة ولكـن بالمعنى الكونى ايضا، هـذا مع أن صفة الخلافة قد وصف الله تعالـى بها الانسان أو آدم، إلا أن المعـنى المنسُوب للخلافـة كوصف للانـسان غير المـعنى المنـسوب للخـلافة كوصـف لله عز وجل، تمـاما كمـا أن المعانى المـنسوبـة للولـى والوكيـل والوارث والهادى والناصر كأسماء لله عز وجل غير المعانى المنسوبة لهذه الكلمات أو الأسماء عند وصف الانسان بها وقد مر بنا تفصيل ذلك وبيانه.

وليس جواز وصف الله عز وجل بالخلافة أمراً مسـتنبطا مما سبق فقط، ولو كان الامر قاصرا على الاستنباط وحده لصـح باذن الله تعالى، ولكن هذا مما وصف به رسول الله ﷺ ربـه عز وجل فى دعـاء السفر حـيث قال مما قـاله فى هذا الـدعاء (اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل) [1].

ولا خلاف فى أن معنى إستخلاف المؤمن الله عـز وجل فى أهله عند سفره هو توكله عليه فى رعاية شئونهم وأسبـاب حياتهم ونفعهم أى أنه يدعوه جل وعلا أن يكون وليا لأمورهم وأن يكون ناصرا لهم عـلى أعدائهم، أى يكون وكيلا له على أهله وماله حتى يعود، ولا يدعو بهذا الـدعاء إلا من كان يؤمن بأن الله تعالى بيده مقادير كل شئ، ولا يقـع خير ولاشر فى الكون إلا بمشيئته وقـدرته وعلمه، فهو إذاً إستخلاف المؤمن لله عز وجل فى أهله ومالـه بالمعنى الذى يخص الامر الإلهى الكونى وينتمى له.

وبذلك لايـجوز أن يتخذ المؤمـن خليفة مـن دون الله تعالى بهذا المـعنى، لان أتخاذ الله تعالى خليفة بهذا المعنى لا يكون إلا بناء على إعتقاد المؤمن بأن الله تعالى هو وحده الفـعال لما يريد الخالـق الرازق المحى المميت الـنافع الضار الغـنى القادر

---

(١) متفق عليـه رواه مسلم وأصحاب السنن - السنـة صحيح مسلم كتاب الحج بـاب ماذا، يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره. رقم الحديث مسلسل عام ١٣٤٢.

السميع البصير العليم الرحيم وهى صفات لا تكون إلا الله وحده، الذى لارب سواه، ومن ثم لا وكيل من دونه ولا ولى غيره ولانصير الا هو، وعليه فلا خليفة للانسان بهذا المعنى الكونى إلا الله عز وجل، أى لايجوز أن يستخلف الانسان غيره تعالى .

وإما المعنى الثانى فهو الذى يكون فيه الإنسان خليفة الله تعالى، أى وكيلا عنه ووليا من قبله لاعلاء كلمته مجاهدا لنصرة هذا الدين حتى يعم الأرض التى أورثها الله تعالى الانسان، وإستخلفه فيها، أى وكله عنه لتحمل رسالته، وتنفيذ أمره الشرعى. التخييرى، فهو خليفة الله تعالى فى اقامة أمره التشريعى تماما كما جعله الله تعالى وكيلا له فى إقامة دينه ووليا له فى تنفيذ شرعه، وكما ورثه الله تعالى الكتاب والحكم والأرض من الأمم السابقة لذلك كله.

فالخلافة بهذا المعنى - كصفة منسوبة للإنسان - بعيدة عن مجال الامر الكونى الذى يُخصُّ الله وحده، ومحصورة فى مجال تنفيذ الأوامر التشريعية التكليفية الاختيارية .

وقد شاء الله تعالى ذلك تحقيقا لابتلاء الإنسان، وهو الحكمة التى من أجلها خلق الله السماوات والأرض والإنس والجن.

فكما أنه سبحانه وتعالى جعل الانسان مخيرا حيال أمره التشريعى، ومن ثم يكون الانسان مخيرا حيال الخلافه فإما أن يجعلها لله عز وجل وإما أن يجعلها لغيره سبحانة وذلك تحقيقا للإبتلاء.

فالخلافة أمر جبرى فى حياة الانسان، والانسان لا يستطيع إلا أن يكون خليفة، وهذا ما يفيده قوله تعالى ﴿إنى جاعل﴾ لأن الجعل، إما بمعنى الخلق أو بمعنى التَّصْيير، وكلاهما أمر جبرى حتمى. لكن هذا الوجه الجبرى من حقيقة الخلافة لاينفى أو يتعارض مع وجه إختيارى آخر لها، وهو أن الانسان مخيَّرٌ بين أن

يصرف خلافته لله عز وجل وحده، أو أن يصرفها لغير الله تعالى تماما كما أنه فى امكان البشر أن يتوكل على الله عز وجل وحده، أو أن يتوكلوا على غيره وكذلك فى أن يتخذوا الله عز وجل وليا، أو يتخذوا أولياء من دونه وهكذا. . .

وبهذا يصح متن مارواه الطبرى عن ابن مسعود بقوله (أى خليفة منى يخلفنى فى إقامة شرعى وتطبيق منهجى بين خلقى)[1].

أما الذى يفسر خلافة الانسان لله تعالى على أساس نيابة الانسان عن الله عز وجل فى مجال الامور الكونية فإنه مشرك أو ملحد، لانه يجعل الانسان شريكا لله عز وجل فى تدبير شئون الخلائق وفى خصائص ربوبيته جل وعلا.

فالقائل بأن الانسان نائب لله عز وجل فى الإحياء والإماته والنفع والضر والخلق والتدبير مشرك وكافر وخارج عن الملة، لأن الله عز وجل منفرد بربوبيته فى الكون كله لايشاركه فى فعل من أفعال الربوبية إنس ولاجن ولاملك ولاشئ من دونه. وهذا معنى أن الله عز وجل خليفة للانسان فى أهله وماله.

أما وجوب إفراد الله عز وجل بالألوهية فمعناه ألاّ نعبد إلاّ إياه، وهذا معناه أن لا نطيع غيره، وبذلك نصبح خلفاء لله عز وجل، فخلافة الانسان لله عز وجل هى من إفراد الله عز وجل بالألوهية بقصر الطاعة والعبادة عليه دون سواه.

والبشر مخيرون فى هذا الامر، فإما أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا بعبادته أحداً أو شيئا، فيحققوا إفراده بالإلاهية جل وعلا، ومن ثم يصبحوا خلفاء له عز وجل فى الأرض بهذه الطاعة التى أقاموا بها دينة وشرعه، وإما أن يعبدوا غيره ومن ثم يصبحوا خلفاء لغير الله عز وجل، ولكن على أى حال فهم خلفاء

---

(١) الطبرى / التفسير / حـ ١ / ص ٢٠١.

لغيرهم. ذلك أن الخلافة من مقتضى البشرية ومن لوازمها الثابتة وخصائصها المميزة التى لاتنفك عن الانسان.

وإقامة الدين، وتنفيذ الشرع، أى إفراد الله تعالى بالألوهية هو المحقق لخلافة الانسان لله تعالى فى الأرض، ومن ثم كان أولى الآدميين بهذه الصفة هو رسول الله ﷺ، إذ تمثلت الخلافة أوضح وأجلى ما تمثلت بعامة فى الرسل والانبياء وبخاصة فى الرسل الملوك أو الحكام منهم مثل داود وسليمان قال تعالى **(يادواد ان جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)**[1].

فالحكم بين الناس بالحق، ولا حق إلا ما أنزله الله تعالى، هو تحقيق الخلافة لله، ولا يحققها لله عز وجل، إلا من يقيم حكمه تعالى نيابة عنه حيث قد وكله الله تعالى بهذا الأمر وأصبح بذلك وليه تعالى فيه، أى فى الحق الذى أنزله الله عليه. وكل إنسان مكلف بإتباع الحق الذى أنزله الله تعالى مع ترك الباطل الذى تضل به الشياطين الانسان عن تحقيق خلافة الله فى الأرض، وتهديه بهذا الباطل لتحقيق خلافة الطاغوت.

وليس الامر قاصرا على الانبياء والرسل والحكام الصالحين وحدهم، لإن الله تعالى جعل الانسان خليفة فى الأرض خلافة تكليفية والناس كلهم مكلفون، ومن ثم فكل الناس خلفاء أو كلفوا أن يحققوا خلافتهم لله تعالى، والكل سواء فى ذلك: الرسل والانبياء والصالحون والحكام والدعاة والعلماء والقضاة وكل انسان موكل فى إمر أو أنيب على شئ إذ حيوان او جماد او غيره ذلك مما فى الأرض، فهو مستخلف فيه وليس من فرد من بنى آدم الا وهو كذلك.

فكل الناس رعاة مستخلفون على ما استرعاهم الله عز وجل من أمانات ومن ثم

(١) ٢٦/ص

فكل إنسان بهذا المعنى - مكلف بتحقيق خلافته لله تعالى فيما استرعاه فيه، وكل مايُسترعى فيه الانسان ويستخلف فيه فهو من الأرض وفى الأرض. وكل ما يولى عليه الانسان ويوكل فيه او عليه ويرثه هو من الأرض وسوف يحاسب على نتيجة إستخلافه فيه.

والخلاصة ان الانسان خليفة لله عز وجل فى أمره التشريعى دون الكوني، ووكيل لله عز وجل فى مجال الاوامر التشريعية دون الكونية، أى أنه موكل من الله تعالى بالرسالة والدين لاقامة شرعه فى واقع الحياة الانسانية، وتنفيذ حكمه بين الناس. فهو نائب عن الله عز وجل فى تنفيذ هذا الامر وهو وليه فيه، وكذلك نقول أن الله تعالى أورث الانسان الارض وإستخلفه فيها لاقامة حكمة تعالى فيها مدة وراثته اياها.

كما نقول أن الله تعالى أمره امراً تشريعيا أن ينصر دينه وكلمته، وأن يجاهد فى سبيل إعلائها. فإذا فعل الانسان ذلك كله نصره الله تعالى بأمره الكونى ومشيئته النافذه. وإذا أقام الانسان نفسه وكيلا لله وحده تعالى ونائبا عنه فى إقامة أمره التشريعى واعلاء كلمته فى الأرض، كل الارض، صار الله تعالى وكيلا له فى كل شئون حياته وآخرته وإذا تولى الانسان أمر الله التشريعى وسعى سعيه الحسن لاقامته وتنفيذه تولى الله تعالى أموره فى معاشه ومعاده ولاية كونية. وإذا أقام حكم الله تعالى فيما ورثه إياه من علم ومال وأبناء وأمانات عديدة زاده الله تعالى ملكا وعزا وقوة وأدام وراثته وسيادته فى الأرض ما حافظ على حكم الله تعالي.

ومن ثم يمكن أن نخلص إلى النتيجة الصحيحة الآتية: إن من حقق خلافته لله تعالى فى أمره التشريعى، فإن الله تعالى يكون خليفة له بالمعنى الكونى، أى يكون وكيله ووليه ونصيره، ومن ثم يورثه سيادة الأرض فى الحياة الدنيا، كما يورثه الولاية الابدية له فى الجنة.

أى أن تحقيق الخلافة لله تعالى فى الأرض الابتلائية أى فى الحياة الدنيا، هو الطريق للوصول إلى الخلافة الأبدية لله تعالى فى أرض الجنه.

وكذلك تنتهى إلى القول، بأن من أفرد الله تعالى بالخلافة (الولاية - الوكاله- النصرة- الهدى - الحكم) بالمعنى الكونى القدرى فقد أفرده بالربوبية لان الخلافة بهذا المعنى جزء من الربوبية.

وكذلك من جعل نفسه خليفة لله تعالى بالمعنى القاصر على تنفيذ أمر الله الشرعى فقد افرد الله عز وجل بالالوهية. أى أن تحقيق الانسان خلافته لله فى الأرض هو تحقيق لتوحيد الربوبية والالوهية .

فتحقيق الخلافة لله تعالى فى الارض هو الوجه الانسانى للتوحيد الاسلامى، اذ هو الفعل الانسانى الذى لا يتم إلا بافراد الله عز وجل بالربوبية والالوهية . .

٢٧- الصلة بين حقيقة الاستخلاف ومعانيها الجزئية فى القرآن الكريم.

وردت مادة "خلف" فى القرآن الكريم بعدة مشتقات تتصل بحقيقة الاستخلاف إتصالا وثيقا.

منها قوله تعالى ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾[١] ومنها قوله تعالى ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض**﴾[٢]، ففى هذين الموضعين من القرآن الكريم فقط وردت كلمة "خليفة".

ومن المشتقات أيضا كلمة "خلائف" وقد وردت فى أربعة مواضع، منها قوله تعالى ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾[٣].

ومنها قوله تعالى أيضا ﴿**هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولايزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا**﴾[٤].

(١) ٣٠/البقرة . (٢) ٢٦/ص
(٣) ١٦٥/الأنعام. (٤) ٣٩/ فاطر.

ومن المشتقات أيضا كلمة "خلفاء" وقد وردت فى ثلاث آيات كريمات منها :

قوله تعالى فى معرض إثبات نعمه العامة الشاملة على بنى آدم جميعا ﴿**أمَّن جعل الأرض فراشاً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا، أءله مع الله ؟! بل أكثرهم لايعلمون. أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله ؟! قليلا ما تذكرون**﴾[1].

فإذا تأملنا هذه الآيات السابقة جميعا وجدنا أن وصف الانسان بالخلافة او بالاستخلاف سواء أكان بصيغة المفرد المراد به اسم الجنس " خليفة" او بصيغة الجمع " خلائف" و "خلفاء" انما هو وصف للانسان كنوع من أنواع الخلق أى أنه إثبات لخاصية إنسانية عامة.

ومن ثم فإن هذه الآيات تتحدث عن حقيقة إنسانية عامة، وليس حديثها عن حقيقة جزئية تخص جماعة من الناس دون جماعة أخرى.

ولعل أهم هذه المواضع هو قوله تعالى ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾[2] إذ تتضمن كلمة خليفة هنا تعبيراً عن قَدَر الإنسان العام الشامل منذ بدء وجود الانسانية إلى الخلود فى الجنة بلا نهاية.

كذلك قوله عز وجل فى سياق ذكر نِعَمِه ومنِّه عز وجل على الانسانية بما خص به الانسان دون سائر أنواع الخلق الأخرى وذلك بقوله تعالى ﴿**ويجعلكم خلفاء الأرض**﴾[3] وقوله عز وجل ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض**﴾[4] وقوله تعالى ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض**﴾[5] وكذلك قوله تعالى ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾[6] لأن الخطاب مرجع لكل إنسان إذ أن كل فرد من افراد البشرية مستخلف فيما يمتلكه من أنواع المال.

أما قوله تعالى ﴿**ياداود أنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس**

(١) ٦١ ، ٦٢ / النمل .
(٢) ٣٠ / البقرة
(٣) ٦٢/ النمل .
(٤) ٣٩/ فاطر
(٥) ١٦٥/ الأنعام.
(٦) ٧ / الحديد

بالحق..﴾[1] فيبدو من ظاهره أنه خاص بداود عليه السلام، ولكن العبرة بعموم الامر الشرعى من الله تعالى لكل ذى سلطان فى الأرض إذ قال تعالى ﴿**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[2]. فالأمر بالحكم بالعدل بين الناس ليس خاصا بداود وحده، ومن ثم فكونه خليفة باعتباره ملكا او حاكما ليس أمرا يخصه وحده، بل يعم كل حاكم وكل ذى سلطان.

واذا أخذنا معنى الحكم بمفهومه الواسع وجدنا اكثر الناس يتولون الحكم بين بعضهم البعض فى مسائل جزئية ومحدودة كل فيما يخصه كالقضاة والعلماء والمفتين وأهل الحسبة والموظفين والولاة ورجال الشرطة وضباط الجيوش وأساتذة العلم وغيرهم.

ومن ثم يكون إختصاص السلطان الاعظم فى الدولة باسم الخليفة باعتباره أكثرهم إختصاصا بالحكم، ولأن حكمه أعم وأشمل كما أن ما إستخلفه الله تعالى فيه من مصائر الناس وحياتهم وأموالهم وأمنهم اكثر وأوسع، وما يتحمله من مسئوليات تبعا لذلك أجل وأضخم وأعظم.

لكن من الواضح أن السلطان ليس وحده المستخلف بدليل قوله عز وجل للناس كافة حكاما ورعية ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**﴾ فالجميع خلفاء وكل منهم خليفة ولكنهم مختلفون فى درجات الاستخلاف بحيث يكون الخليفة الاعظم هو الحاكم أو صاحب السلطة الاعظم ثم من يليه فى الحكم وهكذا حتى أقل الناس درجة فى المجتمع كالعبيد والموالى والخدم إذ هم جميعا مستخلفون فى أمانات أسيادهم التى جعلوها تحت ايديهم (والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته).

وقد ورد إشتقاقًا "خلائف" و"خلفاء" كوصف لأمم وأقوام معينين للدلالة

---

(١) ٢٦ / ص (٢) ٥٨ / النساء.

على إستخلاف الله عز وجل لأمة فى الأرض بعد أمة أو لقوم بعد آخرين. وهذا الإستعمال لهذين اللفظين بمفهوم أضيق أو أخص من الإستعمالات السابقة لها اذ جعل الله تعالى خلافة الناس فى الأرض خلال الزمان جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة وقوما بعد قوم.

أما بخصوص إستخلاف الجيل للجيل فقد جاء فى قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾[1]. وفى قوله عز وجل ﴿وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾[2].

وجاء ذكر إستخلاف القوم بعد القوم فى قوله تعالى حكايةً لمقالة هود لقومه ﴿فإن تولوْا فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم ويستخلف ربى قوما غير كم ولاتضرونه شيئا إن ربى على كل شئ حفيظ﴾[3].

ومثلها قوله عز من قائل حاكيا مقالة بنى إسرائيل لموسى ورد موسى عليه السلام عليهم ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون﴾[4].

وجاء معنى إستخلاف أمة بعد أمة فى قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما إستخلف الذين من قبلهم...﴾[5].

فكل هذه الآيات آنفة الذكر تتحدث عن سنة الله عز وجل فى إستخلاف الناس خلال الأزمنة كأجيال وأقوام وأمم يخلف اللاحق منهم السابق.

مثال ذلك إستخلاف الله عز وجل المؤمنين من قوم نوح فى الأرض بعد إهلاك قومه، قال تعالى ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾[6].

---

(١) ١٦٩/ الأعراف . (٢) ١٣٣ / الانعام.
(٣) ٥٧/ هود. (٤) ١٢٩/ الاعراف.
(٥) ٥٥/ النور. (٦) ٧٣/يونس

وهكذا ظلت الأمم والاقوام يخلف بعضهم بعضا ويرثون الأرض جيلا بعد جيل او أمة بعد أمة حسب سنة الله تعالى حتى صار الامر إلى امة خاتم الانبياء والرسل ﷺ .

قال تعالى مخاطبا أمة الرسول ﷺ سواء أمة الدعوة أو أمة الاجابة ﴿**ولقد أهكلنا القرون من قبلكم، لما ظلموا، وجاءتهم رسلهم بالبينات، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾[1].

والشاهد من هذا كله أن سنة الله عز وجل فى إستخلاف الأجيال والأقوام والأمم مبنية على مشيئته عز وجل وقدره الشامل فى إستخلاف الإنسان، أى أن قوله تعالى للملائكة ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ كان إخبارا بمشيئته سبحانه وتعالى عن قدر الانسان العام فى الكون بكلمة واحدة هى "خليفة".

ومن ثم فإن سنته عز وجل فى إستخلاف الأجيال والاقوام والامم فى الارض إنما هى أقدار جزئية متتالية لتنفيذ مشيئته العامة التى عبر سبحانه عنها إذ أخبر الملائكة بنفسه بها.

وعلى هذا يكون تفسير معنى الإستخلاف فى آية سورة البقرة بتعاقب الأجيال -كما قال بعض المفسرين - هو من قبيل تفسير العام بالخاص أو تفسير الشئ بجزء من معناه وهذا بلاشك تفسير قاصر، ولا يدل على المعنى الكلى العام لحقيقة الخلافة الكونية التى هى تعبير عن قدر الانسان العام وعن مكانته الكونية بين المخلوقات.

فالذين فسروا قوله تعالى ﴿**انى جاعل فى الارض خليفة**﴾ بتعاقب الأجيال إستنادا إلى الآيات المثبتة لهذه السنة الحياتية للوجود البشرى فى الأرض أخطأوا لهذا السبب أى لتفسير الإمر الكلى بحقيقة جزيئة منبثقة منه. ونسوا أن تعاقب

---

(١) ١٣، ١٤ / يونس .

الأجيال والامم خلال الزمان حقيقة حياتية تنطبق على غير الانسان الذى لم يستخلفه الله تعالى فى الأرض كالجن والحيوان والنبات، وأنها ليست أصلا من أصول تفسير الانسانية وسببا من أسباب تكريمها، أى أنهم نَسُوا أو لم يدركوا الارتباط الوثيق القائم بين حقيقة استخلاف الانسان فى الأرض، وبين إسجاد الملائكة له، وانفراده بتعلم الأسماء، وهم بذلك التفسير قد خالفوا السياق العام الذى وردت فى إطاره آية الخلافة الكونية فى سورة البقرة عندما فسروها بآيات الإستخلاف الحياتية فى السور الأخرى، وكأنهم بذلك الخطأ المنهجى قد نزعوا أية الخلافة الكونية من سياقها فى سورة البقرة ووضعوها فى سياقات الآيات الأخرى. والمنهج الصحيح لتفسير أى آية من آيات القرآن هو تفسيرها فى إطار السورة التى نَزَلت فيها ومن خلال الموضوعات العامة للسياق.

ولذلك يجب أن لاتفسر كلمة من كلمات الذكر الحكيم بمرادفات لها أو بمشتقات لجذرها إلا فى إطار سياق السور وفى ضوء الموضوعات الرئيسية لها.

وبالنسبة لمرادفات لفظ "خليفة" أو " الإستخلاف" وجدنا الخلافة فى آية البقرة حقيقة كونية عامة شاملة لوجود الانسان فى الدنيا والآخرة. بينما الاستخلاف فى الآيات الأخرى حقيقة جزئية فى حياة الانسان فى الأرض. ومن ثم يصح أن تفسر آيات الاستخلاف فى ضوء الحقيقة الكلية العامة أى فى ضوء آية سورة البقرة، وليس العكس كما فعل بعض المفسرين اذ يكون المعنى غير صحيح كما يكون قاصراً إذا فسرنا العام بالخاص وبالعكس يصح المعنى اذا فسرنا الخاص فى ضوء العام.

إن قول الله عز وجل للملائكة ﴿انى جاعل فى الأرض خليفة﴾ إنما هو إعلان ربانى للكون كله، تولى المولى عز وجل بنفسه إخبار الملائكة به، وهذا لايتم منه سبحانه وتعالى لكل مخلوق جديد، وانما هو أمر خص به المولى عز وجل الانسان وحده، كما خصه بتكريمات أخرى أولها الخلافة.

ومن ثم يمكن فهم إستخلاف الانسان فى الأرض على أنه مشروع البشرية من أجل مستقبلها الدنيوى والابدى.

ان قوله عز وجل ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ يفيد تسمية المخلوق الجديد بهذا الاسم "خليفة" وهذا يعنى أن فى مفهوم الخلافة فى هذه الآية الكريمة تفسير لكل أحوال وصفات هـذا المخلوق: سواء أكان فردا أم جماعةً أو مجـتمعاً أم قوما أم أمةً أم حضارةً أم حاكما أم مـحكوما، وقبل ذلك كله وبعده باعـتبار أنه نوع من أنواع المخلوفات، فيه تفسير لمكانته والأصل والغاية والمصير.

كل هذا وأكثر تَتَضَمَّنه كلمة خليفة فى آية سورة البقرة بإعتبارها الكلمة الواحدة والوحيدة المتضمنة لقدر الانسان كله، الدنيوى والأخروى على حد سواء.



الفصل التاسع

الخلافة فى السنة النبوية الشريفة

٢٨ - الإستخدامات المختلفة لكلمة خليفة فى السنة النبوية الشريفة .

٢٩ - خلافة الله عز وجل للإنسان .

٣٠ - خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض .

٣١ - الخلافة فى الأرض بدون تعيين المستخلَف .



(٢٨) - الاستخدامات المختلفة لكلمة خليفه فى السنة النبوية الشريفة:

ورد فى السنة الصحيحة ما يثبت خلافة الله تعالى الانسان، وما يثبت خلافة الإنسان الله عزوجل فى الأرض، وما يثبت كذلك خلافة الإنسان فى الأرض بدون تعيين المستخلف. فقد تبين لنا مما سبق أن القرآن الكريم يتضمن إستعمالات للألفاظ المعبرة عن العلاقة بين الله عز وجل والانسان التى هى عناصر داخلة فى معنى الخلافة باعتبار أن حقيقة الاستخلاف هى الحقيقة المعبرة عن العلاقة بين الانسان وخالقه عز وجل من ناحية وبين الانسان وسائر المخلوقات من جهة أخرى. هذه الألفاظ مثل الوكالة والوراثة والنصرة والولاية والنيابة والهداية، وكذا الحكم.

وقد ثبت لنا بما لايدع مجالا لشك - نتيجة لإستقراء إستعمالات القرآن الكريم لهذه الألفاظ - أن القول بخلافة الانسان لله تعالى فى الأرض هو مما يجيزه القرآن الكريم ، بناء على أنه أجاز القول والاعتقاد بنيابة الإنسان عن الله تعالى فى الأرض فى تحمل رسالته وقيامه بها، ولسنا فى حاجة لاعادة ذلك، إذ ذكرناه تفصيلا فيما سابق.

ولو لم يكن لدينا إلا هذه الإستعمالات فى القرآن الكريم لهذه الالفاظ لكفتنا للدلالة على صحة القول بأن الإنسان المسلم الصالح خليفة الله فى أرضه.

وحيث أن السنة الصحيحة المحقَّقَة لابد أن تكون موافقة للقرآن الكريم ومصرحة لما يتضمنه من مبادئ ومعانى وأصول إعتقادية وشرعية وفقهية، لذا تضمنت السنة الصحيحة إستعمالا لتعبير "خلافة الله عز وجل" أو "خليفة الله تعالى" توافقا وتوضيحا وتصريحا لما فى القرآن الكريم من آيات تتحدث عن الخلافة.

ولقد سبق لنا الاشارة إلى أن شيخ الاسلام إبن تيمية رحمه الله تعالى لايجيز الاعتقاد بأن يكون الانسان او الحاكم الصالح خليفة الله عز وجل فى الأرض-

الأمر الذى سنوضحة تفصيلا فيما بعد - ولكن بعد أن نعرف إستعمالات لفظ الخلافة فى السنة النبوية الشريفة.

كما سبق لنا الإشارة الى أن إبن تيمية رحمه الله تعالى لايرجح مذهبه فى الخلافة على ما عداه من آراء أو تفسيرات فقط، بل إنه يحكم بالشرك على من يقول بخلافة الانسان الله عز وجل، أى أنه يحرم القول بأن الإنسان او الحاكم او السلطان خليفة الله تعالى أو نائب الله عز وجل فى الأرض.

ولاشك عندى فى أن إبن تيمية رحمه الله تعالى لم يكن يصر على رأيه هذا لو وصل إلى علمه أحاديث رسول الله ﷺ المتضمنة التعبير الذى أصر على رفضه وهو "خليفة الله فى الأرض" وذلك لأن شيخ الاسلام كان من أشد العلماء إتباعا للنص وإلتزاما به.

لقد تضمنت السنة النبوية الشريفة حديثا بروايتين عن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه يرفعه لرسول الله ﷺ تعبير "خليفة الله":

الأول: رواه الإمام أحمد فى مسنده.

الثانى: رواه أبو داود فى سننه.

وسنورد بعون الله تعالى الروايتين برجالهما وما جاء فى كتب الحديث عن تخريجهما وما جاء فى كتب الرجال عن سندهما.

كذلك تضمنت السنة حديث عن ثوبان وصف فيه رسول الله ﷺ المهدى بأنه "خليفة الله" وسنورده أيضا مع تخريجه.

وكل هذه الأحاديث الشريفة تتضمن وصف الانسان بأنه خليفة الله عز وجل، أى أنها تثبت الخلافة لله بالمعنى الشرعى الذى يكون الانسان بحسبه هو الخليفة لله تعالى بمعنى النائب عنه عز وجل فى اقامة الدين ونصرته وتطبيق شرعة وتنفيذ أمره الإختيارى الابتلائى الذى هو تكليف من الله تعالى للانسان، لذلك يمكن القول أن الخلافة هى مجمل التكليف وغايته.

كذلك تضمنت السنة النبوية الشريـفة أحاديث متعددة تثبت خلافة الله عز وجل للإنسان ولكن بالمعنى الكونى.

وكما وجـدنا فى القرآن الكـريم إستعمالات لألـفاظ الوكالة والولايـة والوراثة والنصر والهداية والحكـم لله تعالى بالمعنى الكونى ووجدنا أيضـاً إستعمالات لنفس الالفاظ فى القرآن الكريم للتعبير عـن العلاقة بين الانسان وبين ربه فى مجال الأمر الشرعى، فإن ما سنـورده من الأحاديث يتضمن إستعمالات لـلفظ الخلافة فى كل مجال من هذين المجالين مما يثبت صحة ما توصلنا إليه من قبل إذ تبين لنا أن معانى هذه الألفـاظ عناصر فى معـنى الخلافه، وكل منـها جزء من الخلافة ومـكون من مكونات حقيقتها.

كذلـك تضمنـت السنـة أحاديث متـعدّده تثبـت الخلافة لـلانسان بدون تحـديد المستخلَف (بفتح اللام) وهى متفقة مع آية الخلافة فى سورة البقرة اذ لم يحدد الله تعالى فيها المستخلَف كما سبق أن ذكرنا.

٢٩- خلافة الله عز وجل الانسان.

(أ) الحديث الأول :

أولا : نص الحديث :

جاء فى صحيح مسلـم حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنـا الوليد بن مسلم حدثنى عبد الرحمـن بن يزيد بن جابر حدثنى يحى بن جابـر الطائى قاضى حمص حدثنى عبد الرحمن بن جبير عن أبيه جـبير بن نُفَير الحضرمى أنه سمع النواس بن سمعان الكلابى (الحديث)

وحدثنى محمد بن مران الرازى (واللفظ له) حدثـنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جـابر عن يحى بن جابر الطائى عن عبد الـرحمن بن جبير بن نُفَيـر عن أبيه جـبير بن نُفَـيْر عن النواس بـن سمعان قـال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخـفَّض فيه ورفَّع حتى ظنناه فـى طائفة النخل فلما رجـعنا اليه عرف ذلك فينا، فقال:

ما شأنكم؟

قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفَّضت فيه ورفَّعت حتى ظنناه فى طائفة النخل؟!

فقال: غير الدجال أخوفنى عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم][1].

وجاء الحديث فى مسند الامام أحمد رحمه الله تعالى فى حديث طويل عن الدجال قوله ﷺ لاهله بعد أن اشتد عليهم الامر خوفا من الدجال فبكوا [لا تبكوا فإن يخرج الدجال، وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج بعدى فالله خليفتى على كل مسلم]. وسنده عند أحمد [حدثنا عبد الله حدثنى ابى ثنا يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد][2].

ثانياً : دلالة الحديث بالنسبة لحقيقة الاستخلاف يثبت قوله ﷺ (والله خليفتى على كل مسلم) صحة الاعتقاد بان الله عز وجل يخلف الإنسان على ما يترك من مال وأهل وأبناء يتولاهم عز وجل برعايته وولايته لهم ونصرهم وهدايتهم وتثبيتهم على الايمان فيكون الله عز وجل وكيلا له عليهم بعد موته او فى غيابه فالله عز وجل وكيل وولى ونصير وهادى ورازق لمن يخلفهم المؤمن وراءه من ذرية أو أبناء أو أهل، ليس بالمعنى الشرعى، بل بالمعنى الكونى الذى هو من خصائص ربوبيته عز وجل وكل هذا فى كلمةواحدة أنه خليفة للرسول ﷺ على كل مسلم، كما أنه بذلك يكون خليفة للمؤمن على أهلة وذريته.

وإن كان الحديث يثبت خلافة الله عز وجل للرسول ﷺ على كل مسلم، فإن هذا لايخص الرسول ﷺ وحده بإعتباره رسول الله عز وجل، بل هو عام لكل مؤمن بالله تعالى ورسوله.

---

(١) صحيح مسلم / كتاب الفتن وأشراط الساعة / باب ذكر الدجال وصفته وما معه حديث ١١٠ فى الباب ورقم ٢١٣٧ مسلسل عام .

(٢) مسند الامام أحمد حـ ٤ ص ١٨١، حـ ٦ ص ٤٥٤، ص ٤٥٦ وجاء فى الفتح الربانى حـ ٢٤ حديث رقم ١٨٥ ص ٩٨.

وهذا ما يدل عليه الحديث التالى ذكره.

(ب) الحديث الثانى :

أولا: نص الحديث

جاء فى صحيح مسلم [حدثنى هارون بن عبد الله حدثنا حجاج بن محمد قال قال ابن جريح أخبرنى أبو الزبير أن عليًّا الأزدى أخبره أن ابن عمر علَّمهم أن رسول الله ﷺ كان إذا إستوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال: سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون أللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى.

اللهم هون علينا سفرنا هذا وإطوِعنا بعده.

اللهم أنت الصاحب«فى السفر والخليفة فى الأهل، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب فى المال والأهل»

وإذا رجع قالهن وزاد فيهن "آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون"][1].

أخرجه الترمذى[2] أيضا وقال حديث حسن صحيح .

وأخرجه النسائى[3] والدارمى[4] وابن ماجه[5] وأبو داود[6].

كذلك أخرجه الامام أحمد فى مسنده [7].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج ، باب ٧٥ ما يقول اذا ركب الى سفر الحج وعبره، رقم الحديث مسلسل عام ١٣٤٢.

(٢)سنن الترمذى / كتاب الدعوات ٤١.

(٣) سنن النسائى / كتاب الاستعاذة / ٤١, ٤٢, ٤٣.

(٤) سنن الدارمى / كتاب الاستئذان / ٣٤, ٤٢.

(٥) سنن ابن ماجة / كتاب الدعاء/ ٢٠.

(٦) سنن أبو داود / كتاب الجهاد / ٧٢.

(٧) المسند / المجلد ٢ ص ٤٠١ ، ص٤٣٣، المجلد الخامس ص ٨٢، ٨٣.

ثانيا : دلالة الحديث بالنسبة لحقيقة الاستخلاف:

تضمن دعاء الرسول ﷺ فى السفر وصف الله عز وجل بأنه الخليفة فى الأهل .

وحيث ان هذا الدعاء هو لكل مسلم وله أن يدعو به إقتداء بالرسول ﷺ فان قول المؤمن (اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل) إنما هو طلب ودعاء فى صورة التقرير والخبر.

وعلى هذا يصح وصف الله عز وجل بأنه خليفة للإنسان أو أنه يخلف الانسان المسلم فى أهله وماله وذريته إذا غاب عنهم أومات فليست خلافة الله تعالى قاصرة على الرسول ﷺ بل لكل مسلم فالله عز وجل خليفة الرسول على كل مسلم بإزاء الفتن وعلى رأسها فتنة الدجال وهو سبحانه وتعالى خليفة كل مسلم على أهله وماله وذريته وكل ذلك ودائع يستودعها المؤمن ربه عز وجل .

وهذا هو معنى أن يستخلف ربه عليها.

(جـ) الحديث الثالث :

ذكر شيخ الاسلام إن تيمية فى كتابه «نقد أساس التقديس» نقلاً عن مسند الامام الشافعى [أن أهل بيت رسول الله ﷺ سمعوا صوت معز عزاهم بها، يا أهل بيت رسول الله ﷺ إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت، فبالله فتقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب][1].

ففى قول المعزى إن فى الله. . . «خلفا من كل هالك" دليل على ما سبق أن ذكرناه كنتائج مستنبطة تخص حقيقة الاستخلاف: أهمها أن النصوص الصحيحة والصريحة الدلالة تثبت وصف الله عز وجل نفسه بأنه خليفة للإنسان وهذا، متوافق تماما مع وصفه تعالى بأنه الوارث للإنسان والوكيل على كل نفس والولى

---

(١) مسند الإمام الشافعى/ك الجنائز والحدود صفحة ٣٦١ نشر دار الريان للتراث.

لكل مؤمن والنصير لكل ضعيف ومظلوم، وكل ذلك فى كلمة واحدة: هى وصفه بأنه خليفة على كل مسلم.

٣٠- خلافة الانسان الله تعالى فى الأرض :

(أ) الحديث الأول :

أولا : نص الحديث :

ورد بمسند الامام أحمد رحمه الله تعالى [عن عبد الله حدثنى أبى حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن نصر بن عاصم الليثى عن خالد بن خالد اليشكرى قال: خرجت زمان فتحت تستر حتى قدمت الكوفة فدخلتُ المسجد، فإذا أنا بحلقة فيها رجل صدع من الرجال حسن الثغر يعرف أنه من رجال أهل الحجاز فقلت: من الرجل؟ فقال القوم: أوما تعرفه؟ فقلت: لا. فقالوا: هذا حذيفة ابن اليمان صاحب رسول الله ﷺ. قال: فقعدت وحدث القوم فقال[ان الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، فانكر ذلك القوم عليه، فقال: انى سأخبركم بما أنكر تم من ذلك.

جاء الاسلام حين جاء فجاء أمر ليس كأمرالجاهلية، وكنتُ قد أعطيت فى القرآن فهما، فكان رجال يجيئون فيسألون عن الخير، فكنتُ أسألة عن الشر، فقلت يا رسول الله : أيكون بعد هذا الخير شر كما كان قبله شر ؟!

فقال : نعم :

قال قلت: فما العصمة يا رسول الله ؟

قال : السيف.

قال قلت: وهل بعد هذا السيف بقية ؟

قال: نعم، تكون إمارة على أقذاء، وهدنة على دخن.

قال: قلت : ثم ماذا ؟

قال: تنشأ دعاة الضلالة، فإن كان لله يومئذ في الأرض خليفة جلد ظهرك وأخذ مالك فالزمه والا فمت وانت عاض بجذل شجرة.

قال: قلت: ثم ماذا.؟

قال: يخرج الدجال بعد ذلك معه نهر ونار من وقع فى ناره وجب أجره وحط وزره، ومن وقع فى نهره وجب وزره وحط أجره.

قال: قلت: ثم ماذا؟

قال: ثم ينتج المهر فلا يركب حتى تقوم الساعة].

ثانيا : المصادر الحديثية التى ورد فيها الحديث بسنده ولفظه:-

١- مسند الامام أحمد من حديث حذيفة بن اليمان الجزء الخامس بالصفحة رقم ٤٠٣ [١].

وجاء فى كتاب الفتح الربانى ترتيب مسند الامام أحمد الشيبانى بالجزء (٢٤) حديث رقم (٦٣) الباب السادس بعنوان (ومن الفتن ظهور ثلاثين كذابا)[٢] بالصفحة رقم (٢٥)[٣].

٢- أخرجه عبد الرزاق بن همام فى مصنفه وهو الذى روى عنه الامام أحمد بن حنبل الحديث ، ولا اختلاف بين الروايتين، الا أن عبد الرزاق زاد شرحا لبعض الالفاظ الغريبة فيه منسوبا لقتادة [٣]. مجلد ١١ صفحة ٣٤٢.

٣- أخرجه الحكم فى المستدرك بسنده قال [حدثنى محمد بن صالح بن هانى حدثنا يحيى بن محمد بن يحى حدثنا ابو الوليد الطيالسى حدثنا ابو عوانه

---

(١) نشر المكتب الاسلامى ودار صادر بيروت.

(٢) قام بترتيب المسند حسب الموضوعات وخرج أحاديثه وشرح غريبة الشيخ. أحمد عبد الرحمن البنا والد الامام الشهيد حسن البنا رحمهما الله تعالى نشر مطبعة دار الشهاب - القاهرة .

(٣) المصنف للحافظ الكبير ابى بكر عبد الرزاق بن همام الصنعانى ١٢٦ هـ ٢١١ هـ تحقيق حبيب الرحمن الاعظمى، المجلد ١١ ص ٣٤٢، ٣٤٣.

عن قتادة عن نصر بن عاصم عن سبيع بن خالد قال. . . الحديث] الجزء الرابع كتاب الفتن والملاحم[1] الصفحة رقم ٤٣٣.

٤- واورده الذهبى فى تلخيص المستدرك بسنده.

ثالثا : الحكم على رجال الحديث :

١- خالد اليشكرى

قال الحافظ المزى فى تهذيب «الكمال فى أسماء الرجال» [سبيع بن خالد، ويقال خالد بن خالد اليشكرى البصرى ويقال سبيع بن خالد او خالد بن سبيع بالشك ويقال غير ذلك. روى عن حذيفة بن اليمان فى الفتن . . . إلى أن قال. . . وذكره ابن حبان فى كتاب الثقات وروى له ابو داود بالوجهين جميعا والنسائى وسمَّاه خالد بن خالد][2].

قال عنه الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب [سبيع بن خالد اليشكرى: مقبول، من الدرجة الثانية] [3].

وقال عنه فى تهذيب التهذيب [ذكره إبن حبان فى الثقات والعجلى][4].

٢- نصر بن عاصم الليثى البصرى.

قال عنه المزى فى تهذيب الكمال ما نصه [روى عن خالد بن خالد اليشكرى وعبد الله فطيمة أحد كتاب المصاحف وعمر بن الخطاب وفروة بن نوفل ومالك بن الحويرث وروى عنه آخرون.

---

(١) المستدرك على الصحيحين فى الحديث للحافظ الكبير إمام المحدثين ابى عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابورى المتوفى سنة ٥٠٤. نشر دار الفكر بيروت ١٣٩٨ - ١٩٧٨م ص ٤٣٣.

(٢) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للامام الحافظ. جمال الذين ابى الحجاج يوسف المزى ٦٥٤ - ٧٤٢ هـ نشر دار المأمون للتراث دمشق، مصور عن النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية .

(٣) تقريب التهذيب / للحافظ ابن حجر العسقلانى .

(٤)تهذيب التهذيب / لابن حجر طبعة حيدر آباد الركن سنة ١٣٢٥ المجلد ٤ .

وذكر خليفة خياط فى الطبقة الثانية من قراء أهل البصرة. وقال ابو داود كان خارجيا وقال النسائى ثقة وذكره ابن حبان فى كتاب الثقات.

روى له البخارى فى كتاب رفع اليدين فى الصلاة والباقون سوى الترمذى][١].

وقال عنه فى التقريب [ثقة من الثالثة][٢].

٣- [قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسى ابو الخطاب البصرى ثقة ثبت وهو رأس الطبقة الرابعة][٣].

٤- معمر بن راشد الأزدى ابو عروة البصرى [ثقة ثبت فاضل من كبار السابقة مات سنة ٥٤ هـ][٤].

٥- عبد الرزاق بن هيمام بن نافع قال عنه فى التقريب [ثقة حافظ مصنف من التاسعة][٥].

٦- أبو عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى مشهور بإسمه وكنيته روى عن قتادة وغيره.

قال عنه ابو زرعة ثقة اذا حدث من كتابه، وقال عنه أبو قاسم كتبه صحيحة واذا حدث من حفظه غلط، وسئل أحمد بن حنبل أبو عوانة اثبت أوشريك؟ فقال اذا حدث أبو عوانة من كتابه فهو أثبت روى عنه قتية بن سعيد وغيره وروى له جماعة[٦].

٧- ابو الوليد الطيالسى هو هشام بن عبد الملك الطيالسى روى عنه البخارى وغيره روى له الجماعة قال ابو زرعة عنه ادرك نصف الاسلام وكان اماما فى زمانه جليلا عند الناس وقال ايضا: سمعت ابى يقول : أبا الوليد إمام فقية فاضل ثقة حافظ][٧].

---

(١) تهذيب الكمال للمزى

(٢) التقريب / حـ ٤ / ص٢٩٩.

(٣) التقريب حـ ٢ ص ١٢٣.

(٤) التقريب حـ ٢ ص ٢٦٦.

(٥) التقريب حـ ١ ص ٥٠٥.

(٦) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال.

(٧) تهذيب الكمال فى أسماء الرجل ص ١٤٤٢.

٨- يحى بـن محمد بن يحـى : قال الرازى: «كان صحيـح الحديث»[١] وقال المزكى « كان يحى بن محمد لـه موضع من العلم والحديث»[٢] وقال الحاكم ابو عبد الله الحـافظ: سمعت أبا عـبد الله بن عبد الآخر يـقول : « مارأيتُ مثل جيكـان لارحم الله قاتله»[٣] جيكان لـقب يحى بن محمـد «وقال عبد الرحمن إبن أبى حاتم » سمعت منه وهو صدوق[٤] .

٩- محمد بن صالـح بن هانئ. ممن أخذ عنهم الحكم الـنيسابورى، وقد روى عنه هذا الحديث وصححهُ فهو عنده ثقة.

رابعا : تخريج الحديث وأقوال العلماء فيه :

١- قال عنه الحاكم فـى المستدرك [هذا حديث صحيح الاسـناد ولم يخرجاه][٥] أى البخارى ومسلم .

٢- قال عنه الذهبى فى تلخيص المستدرك [صحيح][٦].

٣- قال صاحب الفتح الربانى فى تخـريج الحديث [أورده الحافظ ابن كثير فى النهاية مختصرا عن البخارى عن طريـق يحى بن موسى حدثنا الوليد حدثنى إبن جابر حـدثنى بشر بن عبيـد الله الحضرمى حدثنى ابـو ادريس الخولانى ومنه سمـع حذيفة ابن اليمان. وقـال « ثم رواه البخارى أيضا ومـسلم عن محمد بن المثنى عـن الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بـن يزيد بن جابر به نحوه وقد روى هـذا الحديث من طرق كثـيرة عن حذيفة فـرواه أحمد وأبو داود والنسائى مـن طريق نصر ابن عاصم عـن خالد اليشكرى الكـوفى عنه

---

(١) ابو محمد بـن ابى حاتم الرازى / كتاب الجرح والتـعديل الطبعة الأولى صـيدر آباد الدكن ١٣٧٣ - ١٩٥٣ المجلد التاسع مسلـل رقم ٧٦٩.

(٢) (٣) (٤) تهذيب الكمال فى أسمال الرجال المجلد الثالث ص ١٥١٧، ١٥١٨.

(٥) المستدرك للحاكم حـ ٤ ص ٤٣٣.

(٦) تلخيص المستدرك للذهبى بها من المسندرك هامش صفحة ٤٣٣.

مبسوط وفيـه تفسير لما فيه مشـكل ورواه النسائى وابن ماجـه من رواية عبد الرحمن بن قـرط عنه] وبخصوص رواية المسـند قال الشيخ البنـا فى الفتح الربانى [وفى رواية سنده حدثنا عبد الله حدثـنى أبى ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبى التـياح قال سمعتُ صخرا يحدث عن سبـيع قال أرسلونى من ماء الى الكوفة أشتـرى الدواب فأتينا الكناسة فإذا رجل علـيه جمع قال فأما صاحبى فـانطلق الى الدواب وأما أنـا فاتيته فإذا هـو حذيفة فسمعـته يقول الخ.

وعنه من طريـق آخر (سنده) حدثنا عبد الله حـدثنى أبى ثنا عبد الـصمد ثنا حماد ثنا على بن زيد عن اليشكرى عن حذيفة][1].

خامسا : دلالة الحديث بالنسبة لحقيقة الإستخلاف .

١- الشاهد فى هذا الحديـث الشريف فيما يخص حقيقـة الإستخلاف هو قوله ﷺ وعلى آله [فإن رأيت يومئذ خليفـة الله فى الأرض فالزمه] وهذا التعبير النبوى الكريم يدل دلالة واضحة وصريحة عـلى أن الحاكم المسلم هو خليفة الله تعالى فى الأرض.

وهذا يعنى أن إطلاقـه هذا اللقب أو الأسم على السلطـان المسلم او وصفه بهذه الصفـة مما يبيحه الشرع، ليـس بمقتضى الإستنباط مـن القرآن الكريم، كما هو الشأن فيما إنتهى من فصول هذا البحث، بل بمقتضى النص الصريح المحكم الدلالة .

فهذا النص هو القول الفصل فى جواز وصف الحاكم المسلم بالخلافة لله عز وجل، ومن ثم وصف الانـسان كذلك، كما يفهم من الحـديث الشريف أن الخلافـة تعنى الـنيابـة عن الله تعالـى فى مجـال الامر الشرعـى دون الامر الكونى، وذلـك على تفصيـل سيأتى فى حينـه، ومن ثم يتضح لـنا بجلاء

---

(١) الفتح الربانى ترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى الجزء ٢٤ ص ٢٥، ٢٦ .

التوافق التام بين ما علمناه من القرآن الكريم عن عناصر الخلافة وحقيقتها والتمييز بين الخلافة عن الله فى الامر الشرعى والخلافة فى الامر الكونى وبين تعبير رسول الله ﷺ عن السلطان المسلم بالخلافة عن الله عز وجل.

ولا ريب أيضا أن هذا يبطل أية شبهة شرك فى هذا التعبير بمفهوم أهل السنة والجماعة، ويثبت توافق هذا التعبير مع مبادئ التوحيد الإسلامى واصوله.

٢- تسمية الرسول ﷺ السلطان فى زمن قريب من زمن الدجال خليفة الله تعالى فى الأرض دليل على أن هذه التسمية جائزة لكل حاكم فى كل زمان وكل مكان، ما دام يحكم بأمر الله تعالى وحكمه، أى بما أنزل الله تعالى، حتى لو وقعت منه بعض المظالم والمخالفات.

٣- يثبت هذا الحديث ايضا أن الخلافة الواردة فى سورة البقرة والتى هى صفة لآدم وبنيه بعامة ليس لها معنى سوى أنها خلافة عن الله تعالى فى الأرض، ويعتبر هذا دليلاً نقليا وتفسيرا من الرسول ﷺ للخلافة وتحديدا منه عليه الصلاة والسلام للمستخلَف بأنه الله عز وجل، مما يجعل الآراء الأخرى المخالفة، لا نقول أنها مرجوحة، بل نقطع بأنها غير صحيحة، كما يجعل رأى شيخ الاسلام رحمه الله تعالى الذى يمنع ويحرم القول بخلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض رأيًا باطلاً وغير صحيح.

ولا ريب أيضا فى أن هذا الدليل من السنة يكفى لرد كل حجج وأدلة الرافضين لفكرة خلافة المؤمنين لله تعالى فى الأرض، سواء كانت هذه الحجج عقلية صرفة قائمة على قياس الغائب على الشاهد، أم كانت إستنباطا غير صحيح من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أى القائمة على مفاهيم منسوبة بغير حق لنصوص الوحى.

كما أن هذا التعبير النبوى الصريح عن حقيقة الإستخلاف يثبت أن ماسنورده لإبطال حجج وأدلة شيخ الاسلام صحيح من الناحية المنهجية والموضوعية

أيضا، والفضل والمنة من الله عز وجل والحمد له تعالى على عونه وتوفيقه.

٤- يدل قول رسول الله ﷺ [فإن رأيت يومئذ خليفة الله فى الأرض فالزمه] على أن المجتمعات او الأمم تنقسم قسمين :-

الاول : مجتمع الخلافة لله تعالى فى الأرض وهو الامة الاسلامية أو المجتمع الاسلامى .

الثانى : مجتمع الخلافة لغير الله تعالى فى الأرض ، وغير الله تعالى - كمعبود من دون الله تعالى - ليس سوى الشيطان أو الطاغوت.

وهذا الاستنباط واضح من قوله ﷺ [فإن رأيت يومئذ خليفة الله فى الأرض] لأن فيه دلالة على وجود خلفاء لغير الله تعالى وهم الحكام الذين لايحققون خلافتهم لله تعالى.

وقوله [فالزمه] أمر منه ﷺ بترك غير هذا الخليفة من الحكام ونبذ العيش فى ظل حكمهم والإنتقال والتحول عنهم الى العيش فى ظل خلافة الله عز وجل .

فالسلطان فى المجتمع الاسلامى هو خليفة الله تعالى فى الأرض والحكام فى المجتمعات غير الاسلامية هم خلفاء، ولكن لغير الله تعالى، أى للطاغوت.

٥- قوله ﷺ [فالزمه وإن نهك جسمك وأخذ مالك] دليل على أن الحاكم الذى يحكم بما أنزل الله تعالى معلنا الشرعية للاسلام فى نظامه رافعا راية الاسلام هو خليفة الله تعالى فى الأرض، وإن لم يكن حكمة بما أنزل الله تعالى تاما كاملا جامعا لكل أنظمة الشريعة وأحكامها، حتى لو وقعت منه أو من ولاته مظالم كثيرة على الناس فى الأبدان والأموال .

وهذا يعنى تحريم الخروج عليه بقصد هدم نظامه وإزالة سلطانه.

(ب) الحديث الثانى :

أو الرواية الثانية للحديث الاول:

أولا : نص الحديث

روى أبو داود فى سننه [حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن نصر بن عاصم عن سبيع بن خالد، قال: أتيت الكوفة فى زمن فتحت تستر أجلب منها بغالا ، فدخلت المسجد، فإذا صدع من الرجال، وإذا رجل جالس تعرف إذا رأيته أنه من رجال الحجاز.

فتجهمنى القوم، وقالوا: أما تعرف هذا ؟ هذا حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله ﷺ .

فقال حذيفة : إن الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسالة عن الشر. فأحدق القوم بأبصارهم فقال:

إنى قد أرى الذى تذكرون، إنى قلت: يا رسول الله : أرأيت هذا الخير الذى أعطانا الله ، أيكون بعده شر، كما كان قبله؟

قال: نعم.

قلت: فما العصمة من ذلك؟

قال: السيف.

قلت : يا رسول الله ، ثم ماذا يكون ؟

قال: ان كان لله خليفة فى الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه، وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة.

قلت: ثم ماذا ؟.

قال: ثم يخرج الدجال معه نهر ونار، فمن وقع فى ناره وجب أجره، وحط وزره، ومن وقع فى نهره، وجب وزره وحط أجره.

قال: قلت: ثم ماذا؟.

قال: ثم هى قيام الساعة].

ثانياً: المصادر الحديثية التى روت هذاالحديث:

أخرجه أبو داود فى سننه " كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها" الجزء الرابع، حديث رقم ٤٢٤٤[١].

ثالثا: الحكم على رجال الحديث.

رجال الحديث عند ابى داود هم رجاله عند أحمد بن حنبل عدا مسدد لذا سنكتفى بذكر اقوال العلماء فى مسدد.

مسدد: قال عنه ابن حجر فى تهذيب التهذيب:

مسدد بن مسرهد بن مسربل البصرى الاسدى أبو الحسن الحافظ، روى عن كثير ذكرهم ابن حجر وذكر منهم ابا عوانة، وروى له البخارى وابو داود والترمذى والنسائى، قال عنه ابن معين: ثقة ثقة. وفى رواية أخرى عنه أيضا: صدوق وذكره ابن حبان فى الثقات»[٢].

رابعاً: الحكم على الحديث

سنده صحيح ورجاله ثقات، ومن ثم فحكمه نفس حكم الحديث السابق.

خامسا: دلالة الحديث بالنسبة لحقيقة الاستخلاف:

١- ومايمكن ملاحظته من اختلاف بين رواية الامام أحمد ورواية أبى داود

---

(١) سنن أبى داود، مراجعة وضبط وتعليق محمد محى الدين عبدالحميد، نشر دار الفكر للطباعة والنشر الجزء الرابع صفحة ٩٥.

(٢) ابن حجر العسقلانى/ التهذيب مجلد رقم ١٠ صـ٢٢٠ الطبعة الأولى طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكنسنة ١٣٢٥ هـ.

رحمها الله تعالى فى قوله ﷺ فإن رأيت يومئذ خليفة الله فى الأرض، فالزمه عند أحمد، بينما عند أبى داود (إن كان لله خليفة فى الأرض. . . فأطعه).

ومع اختلاف الألفاظ فى الروايتين إلا أنهما اشتركتا فى ذكر التعبير الذى هو الشاهد فى الحديثين وهو (خليفة الله فى الأرض) عند أحمد و(لله خليفة فى الأرض) عند أبى داود.

وكلا من التعبيرين يفيدان الشاهد الذى يثبت جواز أن تكون الخلافة لله عز وجل فى الأرض.

٢- وردت هاتان العباراتان بصيغة التقليل من احتمال وجود الخليفة او بصيغة التمريض بأمر هذه الخلافة وتضعيفها بالرغم من اختلاف الفاظ العبارتين، ففى قوله عليه الصلاة والسلام (إن كان لله خليفة فى الأرض) دليل على ضعف احتمال وجوده- وفى قوله فى العبارة الأخرى (فإن رأيت يومئذ خليفة الله فى الأرض) دليل على نفس المعنى.

فقوله (إن كان) دليل على أن احتمال وجوده ضعيف، وفى حالة وجودها، فإنها إذا ما وجدت تكون محدودة محصورة، هينة بين الأمم الأخرى التى هى خلافة للطاغوت وليست خلافة لله عز وجل. لان قوله عليه الصلاة والسلام (فإن رأيت. .) دليل على أنها وضع سياسى ونظام اجتماعى ضعيف غير ظاهر بين انظمة وأوضاع الخلافة لغير الله تعالى حتى أن الخليفة قد يُرى وقد لايُرى وقد يسمع به وقد لا يسمع به كثير من الناس فى الأرض بعكس الخلافة الإسلامية فى العصر الأموى أو العباسى أو حتى فى العصر العثمانى. فقد ظلت ظاهرة على أعدائها مؤثرة بشكل إيجابى فى أحداث التاريخ ولها كلمتها المسموعة حتى سقوط الخلافة العثمانية.

٣- قد يفيد هذان التعبيران (فإن رأيت يومئذ خليفة الله فى الأرض) و(إن كان لله خليفة فى الأرض) كذلك إنباء رسول الله ﷺ بان الخلافة لله تعالى فى الأرض

ستنحصر فى يوم ما فلا تكون متمثلة فى دولة بل قد تصبح فى شكل فئة أو طائفة من أمته ﷺ تتمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ تجاهد فى سبيل الله عز وجل لتكون كلمته هى العليا ولاعادة خلافتهم لله تعالى فى الأرض، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، إذ يكون الإسلام قد عاد غريبا كما بدأ غريبا.

وهذه الجماعة المسلمة المجاهدة بالدعـوة لابد أن يكون لها أمير، ومن ثم يكون هو خليفة الله تعالى فى الأرض.

فسواء كان الخـليفة حاكمـا لدولة أو إماماً لدعـوة، فإن تعبير الـرسول ﷺ فى الروايتين يدل على ضـعف الخلافة لله تعالى يومئذ، وإنحسار أمـر وسلطان خلفاء الرحمن أمام خلفاء الطاغوت أو الشيطان.

وقد يفيد هذا التعبير وذاك مجئ الخلافة بعد غياب طويل، وتنصيب الخليفة بعد أن لم يكـن للمسـلمين خليـفة. وهذا هو الأرجح لان الخـلافة المهدويـة الراشدة ستكون بعد عصر الجبرية الذى يتناوب حكم المسلمين فيه جبابرة فى كل مصر وفى الحديث دعوة كل مسلم الى تأييد الخلافة التى ستأتى بعد غياب طويل.

(جـ) الحديث الثالث

أولا : نص الحديث

[حدثنـا عبد الله حدثنى أبـى ثنا وكيع عن شـريك عن بن زيد عن قـلابة عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ «اذا رأيتم الرايات الـسود قد جاءت من قبل خراسان، فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدى»].

ثانيا: المصادر الحديثة التى أخرجت الحديث :

١- مسند الامام أحمد بن حنبل الجزء الخامس ص ٢٧٧ وجاء فى الفتح الربانى ترتيـب مسنـد الامـام أحمـد الشـيبانى بـالجزء ٢٤ ص ٥١ حـديـث رقـم ١٤٥.

٢- إبن ماجة الفتن ٣٤ عن خالد الحذا.

٣- الحاكم فى المستدرك عن خالد الحذا أيضا .

ثالثا : رجال الحديث:

١- أبو قلابة، هو عبد الله بن زيد الجرمى روى عن أنس بن مالك وغيره وروى عنه خالد الحذا وغيره بل روى له الجماعة قال عنه ابن معين: أرادوا أبا قلابة على القضاء وهو ابن خمسين فأبى .

٢- على بن زيد بن جدعان هو القاسم بن ربيعة تابعى ثقة ترجم له البخارى فى الكبير ٤/ ١/ ١٦١.

ورى بإسناد عن الحسن أنه كان اذا سئل فى شئ من أمر النسب قال عليكم بالقاسم بن ربيعة وترجم له أيضا ابنْ ابى حاتم فى الجرح والتعديل ٣/ ٢/ ١١٠[(١)].

٣- شريك : هو ابن شهاب الحارثى قال عنه النسائى ليس به بأس، وقال عنه وكيع: لم يكن أحد أروى من الكوفيين عن شريك، وقال عنه عيسى بن يونس : مارأيتُ أحدًا أروع فى علمه من شريك، وقيل عنه: شريك أعلم بحديث الكوفيين من سفيان الثورى. وقال على بن المدينى: شريك أعلم من إسرائيل واسرائيل اقل خطأ منه[(٢)].

٤- وكيع ابن الجراح: عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: ما رأيتُ أوعى للعلم من وكيع مطبوع الحفظ وعنه ايضا، : كان وكيع حافظا، ومن أهل الصدق. كما وصفه بالخشوع والورع [(٣)].

رابعا : اقوال العلماء فى الحديث وحكمهم عليه :

١- قال الحاكم فى المستدرك [هذا حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين

---

(١) أنظر مسند الإمام احمد بتحقيق أحمد محمد شاكر وأقواله عن على بن زيد فى هامش صفحة ٢٦٢ الجزء السادس.

(٢) تهذيب الكمال للمزى . (٣) تهذيب الكمال للمزى .

ولم يخرجاه][1]. وقدرواه بلفظ أطول من هذا عن خالد الحذا عن ابى قلابة .

٢- أقر الذهبى فى تلخيص المستدرك حكم الحاكم على الحديث فهو عنده صحيح على شرط الشيخين [2].

٣- [قال فى الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات][3].

٤- كما أشار الشيخ البنا فى الفتح الربانى إلى دفاع الحافظ ابن حجر العسقلانى عن صحة هذا الحديث ورده على إبن الجوزى فى كتابه القول المسدد فى الذب عن مسند الامام أحمد» قال الحافظ إبن حجر.

[حديث «إذا أقبلت الرايات السود من خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدى» أورده ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث عبيدة وهو ابن عمرو عن عبد الله وهو ابن مسعود وقد أخرجه الامام أحمد من حديث ثوبان.

ومن طريقه أخرجه ابن الجوزى فى كتاب الاحاديث الواهية وفى طريق ثوبان على بن زيد بن جدعان وفيه ضعف ولم يقل أحد أنه كان يتعمد الكذب حتى يحكم على حديثه بالوضع إذا إنفرد.

وكيف وقد تُوبع من طريق آخر رجاله غير رجال الأول. أخرجه عبد الرزاق والطبرانى وأحمد أيضا والبيهقى فى الدلائل من حديث أبى هريرة يرفعه][4].

٥- وبتتبع الحديث فى «دلائل النبوة» للبيهقى قال [وأخبرنا ابو عبد الله الحافظ، أخبرنا ابو عبد الله بن محمد بن مخلد بن أبان الجوهرى ببغداد،

---

(١) المستدرك للحاكم .

(٢) تلخيص المستدرك للذهبى .

(٣) عن الفتح الربانى حـ ٤ ، ص ٥١.

(٤) «القول المسدد فى الذب عن مسند الامام أحمد» للحافظ ابن حجر العسقلانى/ نشر إدارة ترجمان السنة / لاهور باكستان - ص ٥٣ .

حدثنا عبد الله عن عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن خالد الحذا، عن ابى قلابة عن أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ.

«يقتتل عند كنز كم هذه ثلاثة كلهم ولد خليفة لاتصير إلى واحد منهم، ثم تقبل الرايات السود من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم تروا مثلها» ثم ذكر شيئا: «فإذا كان ذلك فائتوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله».

وفى رواية إبن عبدان ثم تجئ الرايات السود فيقتلونكم قتلالم يقتله قوم ثم يجئ خليفة الله المهدى فإذا سمعتم به فبايعوه فإنه خليفة الله المهدى»](1).

كما أورد البيهقى بسندٍ آخر للحديث عن عبد الرزاق وقال: (فإذا رأيتموهم فبايعوهم ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدى).

ثم قال (تفرد به عبد الرزاق عن الثورى) كما أورده بسند آخر عن ثوبان أيضا. بعبارة (إذا أقبلوا برايات السود من عقب خراسان فآتوها ولو حبوا فإن فيها خليفة الله المهدى).

ثم قال البيهقى [ورواه عبدالوهاب بن عطاء عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان موقوفاً، قال: «إذا رأيتم الرايات السود خرجت من قبل خراسان فآتوها فإن فيها خليفة الله المهدى» ثم قال البيهقى:

أنبأنيه أبو عبدالله الحافظ إجازة أخبرنا الحسن بن يعقوب بن يوسف العدل حدثنا يحى بن أبى طالب حدثنا عبدالوهاب بن عطاء فذكره](2).

فمن أجل تعدد طرق الحديث هذه صححه العلماء كالحاكم والذهبى ودافع عنه الحافظ إبن حجر، إذ أن تعدد الطرق تقوى الضعف الذى عليه على بن زيد بن جدعان.

---

(1) أخرج إبن ماجة هذا الحديث بلفظ قريب منه عن محمد بن يحى وأحمد بن يوسف بسنده إلى ثوبان. كتاب بالفتن . باب خروج المهدى حـ ٢ حديث رقم ٤٠٨٤.

(2) البيهقى/ دلائل النبوة المجلد السادس ص٥١٥، ٥١٦.

خامساً: دلالة الحديث بالنسبة لحقيقة الإستخلاف:

وردت عن الرسول ﷺ أحاديث متعددة عن المهدى يأتى فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وقد بوَّب أصحاب السنن والمصنفات هذه الأحاديث عادة فى كتب الفتن أو أشراط الساعة وفى باب خاص بأخبار المهدى وأكثرها يدل على أن مجئ المهدى يكون فى زمن تكون الأمة الإسلامية فيها على ضعف.

ومن ثم عندما يبعثه الله تعالى ويظهر أمره ويمكن له أصحاب الرايات السود القادمين من خراسان سلطانه فسيكون هو خليفة الله فى الأرض يومئذٍ.

وفى هذا كله دلالة على أن من سواه من الحكام فى الأرض يومئذ ليسوا خلفاء لله عز وجل ودليل ذلك قول الرسول الله ﷺ (فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدى). إذ الأمر بالتزام الجماعة مرتبط بالتزام خليفة الله أو أى خليفة لله عز وجل أى الحاكم المسلم وهذا قد علمناه من الحديثين الأول والثانى إذ أمر الرسول ﷺ حذيفة وكل مسلم أن يلزم خليفة الله حتى وإن ظلمه فى بدنه وماله.

ومن ثم يمكننا القول أن أمر الرسول ﷺ المسلمين بإتيان الرايات السود والالتفاف حولها هو بمثابة الأمر بلزوم الجماعة القادمة التى سيخرج منها خليفة الله الذى سيؤول إليه أمر المسلمين وسيكون على رأس المؤسسة الإسلامية الحاكمة بعد ذلك، أى بعد أن تنهدم المؤسسة السابقة والتى لابد أن تكون قد أصبحت خلافة لغير الله عزوجل.

وهذ معناه أن الخليفة إما أن يكون خليفة لله تعالى وإما أن يكون خليفة لغيره، وأن المهدى سيكون هو خليفة الله عز وجل فى زمنه.

إن الشاهد الهام من هذا الحديث بالنسبة لموضوع الإستخلاف هو جواز وصف الإنسان المسلم أو المؤمن بأنه خليفة الله تعالى فى الأرض بدليل وصف الرسول ﷺ المهدى بهذا الوصف، وفى هذا، بالإضافة إلى الحديثين السابقين، دليل نقلى

صريح صحيح على صحة تفسير الخلافة بالنيابة لله عز وجل وصحة هذا الاعتقاد وعدم تعارضه مع أصول ومبادئ التوحيد الإسلامى، وبالتالى خطأ وبطلان قول شيخ الإسلام إبن تيمية الذى يحرم فيه هذا المعتقد ويمنعه، بالرغم من قصر النيابة لله تعالى على مجال تنفيذ الأمور التشريعية.

٣١ - الخلافة فى الأرض بدون تعيين المخلوف (بفتح اللام):

ورد ذكر الخلافة والاستخلاف فى السنة الشريفة فى مواضع كثيرة وأحاديث متعددة بغير تحديد أو تعيين المستخلف، فلا يرد فى الحديث أنها لله عز وجل أو لغير الله تعالى نأخذ هذا الحديث كمثال لذلك:

أولا : نص الحديث:

جاء فى صحيح البخارى كتاب الاحكام باب بطانة الإمام وأهل مشورته [عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما بعث من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصم الله»](١).

ويمكن أن نستنبط من هذا الحديث الشريف فيما يخص موضوع الخلافة ما يلى:

١ - قوله ﷺ (ما بعث من نبى ولا استخلف من خليفة) يدل على أن الأنبياء والرسل والحكام هم أظهر من تتمثل فيهم صفة الخلافة .

٢ - إشتراك الأنبياء والحكام فى صفة الخلافة والقيام بحقيقة الاستخلاف يدل على أن الخلافة عن الله تعالى هى فى أمر الله تعالى الشرعى إذ لا يقوم هذا الأمر فى حياة الناس إلا بتبليغه وتوصيله للناس وهذه مهمة النبوة ثم بالسلطان الذى ينصره ويقيمه فى حياة الناس ويحافظ عليه.

---

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٤ ص٢٤٥. ك - الأحكام - باب بطانة الإمام وأهل مشورته.

وقد تجتمع المـهمتان فى شخص واحد مـثل موسى وداود وسليمـان والنبى الخاتم صلى الله وسـلم عليهم أجـمعين. وقد تتفـرق المهمتان مثـل طالوت الملك والنبى الذى كـان يعاصره.. لكن المهم أن هاتين المهمـتين هما دعامتا الخلافة بل هما حقيقة الخلافة لله تعالى فى الأرض.

٣ - قوله عليه الصلاة والسلام (وما استخلف من خليفة) دليل على أن كل حاكم مستخـلف من الله عز وجل ويصح وصفـه بالخلافة لوقوع العـبارة بين «ما» و«إلا» أداتى الحصر والقصر، وهذا معنـاه أن كل الحكام الصالح والطالح منهم على السواء خلفاء فى الأرض.

كما يدل التعبيـر أن الله عز وجل هو الذى إستخلف كل خـليفة فى الأرض بلا إستثناء، كما جعل داود خليفة فى الأرض. ويدل على هذا قول الرسول ﷺ (والمعصوم من عـصم الله) أى أن من هؤلاء الخلفاء من لا يـعصمه الله تعالى من الـكفر والتجبر، ومع ذلـك فقد سماه الرسول ﷺ خلـيفة. رغم كفره واستـجابته لبطانـة الشر، لأنه خليـفة فى البدء دون تعيـين من يكون خليفة له، ثم بعد ذلك عمله ونظام حـكمه هو الذى يحدد لمن يكون خليفة له.

٤ - قوله علـيه الصلاة والسلام (إلا كـانت له بطانتـان) يُفسره حقيـقة الابتلاء إذ يبتلى الله عزو جل الحاكم بالمحكومين والمحكومين بالحاكم.

والابتلاء بمـعنى الامتـحان يستلـزم الاختيار الصـحيح، ووجود الحـاكم بين بطانتين، واحدة تحضه على الخيـر والحكم بما أنزل الله والأخرى تحضه على الشر والحكم بالهوى والقوانين الوضعـية المخالفة لشريعة الله عز وجل، هو مما يجعل مقومات الإختيار عند الحاكم كاملة، بل أمر لازم لصحة إختياره.

فإن إختار الأولى صـار خليفة لله عز وجل، وإن اخـتار الثانية صار خـليفة

لغيره، فهو على أى حال خليفة. ومن ثم ذكر هنا وصف المهدى بأنه خليفة الله عزو جل دلالة على أنه سيقيم حكم الله فى الأرض.

٥ - عندما أثبت الحديث إستخلاف الله عزو جل لكل خليفة أى لكل حاكم ولكل سلطان، فإن فى هذا نفياً لقول القائل: إن تسمية الخليفة خليفة لأنه خلف من سبقه، ويرجح أن تكون تسميته بهذا الإسم لأن الله تعالى إستخلفه، يدل على هذا ويؤكده قول الله تعالى لداود عليه السلام **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق...﴾**[١].

فهل سماه الله تعالى خليفة وجعله خليفة لأنه خلف من سبقه من حكام بنى إسرائيل وهو طالوت؟ أو سماه خليفة لأنه عز وجل هو الذى إستخلفه؟ يرجح الإجابة الثانية قوله تعالى لداود بعد ذلك (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)[٢].

فحكم داود بالحق بين الناس وترك الهوى هو السبيل إلى أن يصبح خليفة الله عز وجل، ومن ثم جاء أمر الله تعالى لداود بهذا بعد أن أخبره بإستخلافه فى الأرض.

كما يمكن أن نفهم أن نهى الله عز وجل داود عن الحكم بالهوى هو نهى له عن أن يجعل حكمه خلافة لغير الله تعالى ونهى أن يجعل نفسه خليفة لغير الله عز وجل.

وقول القائل بأن الحاكم خليفة لأنه يخلف من سبقه يؤدى إلى القول بأن آدم عليه السلام خليفة إبليس، وموسى خليفة فرعون فى بنى إسرائيل، وكذا يقال عن كل الأنبياء والرسل الذين يؤسسون حكم الله تعالى فى أقوامهم بعد حكم الطغاه.

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٤ ص٢٤٥. ك - الأحكام - باب بطانة الإمام وأهل مشورته.

الحق أن موسى هـو خليفة الله عز وجل فـى قومه بعثه الله تعـالى وأرسله إليهـم، وإستخلـفه عليهـم، فأقام فيـهم حكمه وحـقق خلافة الله فـيهم، وكذلك كل نـبى ورسول وكل حاكم صـالح، وكل مؤمن من الـناس. هو خليفة الله فيما إستخلفه عليه ما دام يقيم حكم الله تعالى فيه.

٦ - إقتران بعـث النبى بإستخلاف الخـليفة من الله عز وجل كـما جاء فى حديث الرسول ﷺ، بقوله ﴿**ما بُعث من نبى ولاإستخلف من خليفه**﴾ دليل واضح على أن الإسـتخلاف تكـليف من الله تعـالى للحاكـم ،وبما أن كل تكـليف يستتبع إما طاعة وإما معصيـة، أو إما إيماناً وإما كفراً، فإن إستخلاف الحاكم يستـتبع بالضـرورة أن يكون إما خلـيفة لله تعـالى وهذه هى الطـاعة، و إما خليفة لغيره وتلك هى المعصية والـكفر البواح من الحاكم أو السلطان -ليس باعتباره فرداً- بل كمؤسسة حاكمة وهو على رأسها.

الفصل العاشر

أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الاستخلاف ومذهبه فيه

- تمهيد

٣٢- اقوال ابن تيميه عن الاستخلاف فى مجموعة الفتاوى .

٣٣- اقوال ابن تيمية عن الاستخلاف فى كتابه تقض أساس التقديس .

٣٤- رفض ابن تيمية لعبارة «خلافة الله تعالى فى الأرض» وأسبابه ودوافعه .

٣٥- تفسير ابن تيمية للاستخلاف والرد عليه .



- **تمهيد :**

نظر للصلة الوثيقة والمباشرة بين التوحيد الاسلامى والمفهوم الصحيح للخلافة.

ونظرا لخطورة حقيقة الاستخلاف، وأهميتها للأمة الاسلامية، وبخاصة فى هذا العصر باعتبارها الأساس الفكرى والإعتقادى للجهاد الاسلامى الذى يتوخى استعادة السيادة فى الأرض من أعداء الله تعالى ليكون الحكم لله تعالى وحده.

ونظرًا لما قرره شيخ الاسلام إبن تيمية رحمه الله تعالى اذ حكم على القائل بخلافة الانسان الله تعالى فى الأرض بالشرك، الامر الذى يؤدى بالضرورة إلى ضياع الاساس الاعتقادى الذى تقوم عليه النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الاسلام، وأخطر منه ضياع الأساس الاعتقادى للجهاد فى الاسلام، وكذا ضياع الأساس الاعتقادى لوحدة الامة الاسلامية التى هى فريضه اسلامية توجب عليهم الانضواء فى بيعة سلطان واحد والتكتل فى دولة واحدة، كذلك يُفقد هذا الحكم التيموى المسلمين الاساس الاعتقادى الذى تتحدد بمقتضاه غايتهم العليا فى الحياة الدنيا ووجهتهم الحضارية التى لايشاركهم فيها غيرهم من الامم.

ونظرًا لمكانة شيخ الاسلام بين علماء الإسلام ومفكرى المسلمين على مر العصور، وحيث أن مذهبه فى تفسير الاستخلاف وحكمه على القائل بخلافة الله تعالى فى الأرض بالشرك زلة، وهى منه أخطر من زلة غيره، لأنها زلة عالم حذَّر منها رسول الله ﷺ فيما رواه الطبرانى فى الصغير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إنى أخاف عليكم ثلاثا، وهى كائنات. زلة عالم، وجدال منافق، ودنيا تفتح عليكم»).

وكذلك مارواه الطبرانى فى الكبير (عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اخاف على أمتى ثلاثا: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن والتكذيب بالقدر»).

كما روى مثله الإمام أحمد بن حنبل فى الزهد (عن أبى الدرداء رضى الله عنه

قال: «إنما أخشى عليكم زلة عالم، وجدال المنافق بالقرآن». فزلة شيخ الاسلام إبن تيمية رحمه الله لها خطورتها المساوية لمكانته العلمية.

ويتمثل خطورة مذهب شيخ الاسلام فى الاستخلاف فى حكمه بالشرك على القائل بخلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض، لأن هذا الحكم قد صدّ كثيرا من المسلمين عن هذا التفسير الذى أرى أنه الأساس الإعتقادى للأنظمة الإجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية وكذا الأساس الإعتقادى للجهاد الاسلامى وللتوجه الحضارى الإسلامى.

وذلك بالرغم من أن كثيراً من العلماء الذين وافقوا ابن تيمية على رأيه وإمتنعوا عن القول بخلافة الانسان لله تعالى فى الارض إنما سلكوا هذا النهج من قبيل الحيطة والابتعاد عن شبهات الشرك بغير أن يحققوا القضية.

ومما زاد هذا الموقف شيوعًا بين العلماء بعد ابن تيمية رحمه الله تعالى، أنه كان فارس الإسلام الأول منذ عصره وحتى اليوم فى الذود عن التوحيد وكشف خفايا الشرك ودمغ مقالات أهله ودحرهم.... هذه الصفات التى أكتسبها شيخ الإسلام عن جدارة تجعل كلامه فى التوحيد أمرًا مسموعًا لدى الخاصة وتجعل وصفه رحمه الله لأى مذهب بالشرك والالحاد جديرًا بالقبول والتسليم عند العامة فإذا كان فى الأمر لبسًا فيجب كشفه.

نظرًا لكل هذا، وانصافا لوجهة نظر شيخ الاسلام رحمه الله تعالى، والتزاما بالموضوعية وحتى لا يظن أحد فينا تجنيا على شيخ الاسلام، أو إخفاء لبعض أدلته أو حججه على مذهبه فقد رأيت أن أعرض أقواله فى الخلافة كاملة كما هى فى «الفتاوي» وفى وكتابه «نقض أساس التقديس»، قبل الرد عليها.

٣٢- أقوال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن إستخلاف الانسان فى الأرض فى الفتاوى الكبرى:

ورد فى المجلد الخامس والثلاثين من الفتاوى الكبرى لشيخ الاسلام ابن تيمية تحت عنوان «فى الخلافة والسلطان وكيفية كونه ظل الله فى الارض» ما يلي:

قال الله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ وقال الله تعالى: ﴿ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض، فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾.

وقوله: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ يعم آدم وبنيه لكن الاسم متناول لآدم عينا، كقوله: ﴿لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم﴾ وقوله: ﴿خلق الانسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار﴾ وقوله: ﴿وبدأ خلق الانسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ ﴿ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين﴾ إلى أمثال ذلك.

ولهذا كان بين «داود وآدم» من المناسبة ما أحب به داود حين أراه ذريته، وسأل عن عمره؟ فقيل: أربعون سنة، فوهبه من عمره الذى هو ألف سنة ستين سنة(1) والحديث صحيح رواه الترمذى وغيره وصححه؛ ولهذا كلاهما ابتلى بما إبتلاه به من الخطيئة، كما أن كلا منهما مناسبة للأخري، اذ جنس الشهوتين واحد، ورفع درجته بالتوبة العظيمة التى نال بها من محبة الله له وفرحه به ما نال، ويذكر عن كل منهما من البكاء والندم والحزن ما يناسب بعضه بعضا.

«والخليفة» هو من كان خلفا عن غيره: فعيلة بمعنى فاعلة. كان النبى ﷺ إذا سافر يقول: «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل» وقال ﷺ: «من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا» وقال: «أو كلما خرجنا فى الغزو خلف أحدهم، وله نبيب كنبيب التيس، يمنح إحداهن اللبنة من اللبن، لئن أظفرنى الله بأحد منهم لأجعلنه نكالا».

وفى القرآن: ﴿سيقول المخلفون من الأعراب﴾ وقوله: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ والمراد «بالخليفة» أنه خلف من كان قبله من الخلق، والخلف فيه مناسبة، كما كان أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، لأنه خلفه

(1) هكذا ورد فى الفتاوى والصحيح أن عمره ستون ووهبه آدم عليه السلام أربعين كما جاء فى المسند عن ابن عباس والترمذى عن أبى هريره وغيرها، ويبد وأن شيخ الاسلام كان يكتب من الذاكره فأخطأ.

على أمته بعد موته.

وكما كان النبى ﷺ اذا سافر لحج أو عمرة أو غزوة يستخلف على المدينة من يكون خليفة له مدة معينة. فيستخلف تارة ابن أم مكتوم، وتارة غيره، وإستخلف على بن أبى طالب فى غزوة تبوك.

وتسمى الأمكنة التى يُستخلف فيها الإمام مخاليف مثل مخاليف اليمن ومخاليف أرض الحجاز، ومنه الحديث: «حيث خرج من مخلاف إلى مخلاف». ومنه قوله تعالى: **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات، ليبلوكم فيما آتاكم﴾** وقوله تعالى: **﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا - إلى قوله - ثم جعلناكم خلائف فى الأرض﴾** ومنه قوله تعالى: **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم؛ وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم﴾** الآية.

وقد ظن بعض القائلين الغالطين - كإبن عربى - أن «الخليفة» هو الخليفة عن الله، مثل نائب الله؛ وزعموا أن هذا بمعنى أن يكون الانسان مستخلفًا، وربما فسروا «تعليم آدم الأسماء كلها» التى جمع معانيها الانسان.

ويفسرون خلق آدم على صورته بهذا المعنى أيضًا، وقد أخذوا من الفلاسفة قولهم. الانسان هو العالم الصغير. وهذا قريب. وضَمُّوا إليه أن الله هو العالم الكبير؛ بناء على أصلهم الكفروى فى وحدة الوجود، وأن الله هو عين وجود المخلوقات، فالإنسان من بين المظاهر هو الخليفة الجامع للأسماء والصفات.

ويتفرع على هذا ما يصيرون إليه من دعوى الربوبية والألوهية المخرجة لهم من الفرعونية والقرمطية والباطنية.

وربما جعلوا الرسالة مرتبة بين المراتب، وأنهم أعظَمُ منها فيقرون بالربوبية والوحدانية، والألوهية، وبالرسالة، ويصيرون فى الفرعونية هذا إيمانهم. أو

يخرجون فى أعمالهم أن يصيروا (سدي) لا أمر عليهم ولا نهي؛ ولا ايجاب ولا تحريم. والله لا يجوز له خليفة[1]؛ ولهذا لما قالوا لأبى بكر: يا خليفة الله! قال: لستُ بخليفة الله؛ ولكنى خليفة رسول الله ﷺ، حسبى ذلك.

بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره، قال النبى ﷺ «اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل، اللهم اصحبنا فى سفرنا وإخلفنا فى أهلنا».

وذلك لأن الله حى شهيد مهيمن قيوم رقيب حفيظ غنى عن العالمين، ليس له شريك ولا ظهير ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

والخليفة عند عدم المستخلَف بموت أو غيبة، ويكون لحاجة المستخلَف إلى الإستخلاف، وسمى خليفة لأنه خلف عن الغائب، وهو قائم خلفه وكل هذه المعانى منتفية فى حق الله تعالى، وهو منزه عنها، فإنه حى قيوم وشهيد لا يموت ولا يغيب، وهو غنى يرزق ولا يُرزق، يرزق عباده وينصرهم ويهديهم ويعافيهم بما خلقه من الاسباب التى هى من خلقه والتى هى مفتقرة إليه كإفتقار المسببات إلى اسبابها. فالله هو الغنى الحميد، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما **﴿يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن﴾﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الارض إله﴾** ولا يجوز أن يكون أحدٌ خلفا منه، ولا يقوم مقامه لأنه لا سَمِيٌّ له، ولا كُفْءَ له. فمن جعل له خليفة فهو مشرك به[2].

وأما الحديث النبوي: «السلطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه كل ضعيف وملهوف» وهذا صحيح[3]، فإن الظل مفتقر إلى آو، وهو رفيق له مطابق له نوعا من المطابقة، والآوى إلى الظل المكتنف بالمُظِل صاحب الظل، فالسلطان عبد الله، مخلوق، مفتقر إليه، لا يستغنى عنه طرفة عين؛ وفيه من القدرة والسلطان

(١) لاحظ أن النفى هنا مطلق اى لا يجوز له تعالى خليفة باى معنى من المعاني

(٢) لاحظ أن هذا الحكم جاء بصيغة العموم ولبس فى قوله رحمه الله تعالى ما يقيده.

(٣) رُوِىَ هذا الحديث عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبىﷺ بلفظ مختلف عن لفظ شيخ الاسلام ابن تيمية الوارد فى الفتاوى الكبرى قال(السلطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه الضعيف، وبه ينتصف المظلوم من الظالم) أخرجه ابن النجار عن أبى هريرة (جاء فى كنز العمال حـ٦ صـ٥ برقم ١٤٥٨٢،=

والحفظ والنصرة وغيـر ذلك من معانى السؤدد والصمدية التـى بها قوام الخلق ما يشبـه أن يكون ظل اللـه فى الأرض، وهو أقوى الاسباب الـتى بها يصـلح أمور خلقـه وعباده، فإذا صـلح ذو السلطـان صلحت أمـور الناس، وإذا فسـد فسَدت بحسب فـساده؛ ولا تفسد من كل وجـه؛ بل لابد من مصالح؛ إذ هـو ظل الله؛ لكن الظل تارة يكون كاملاً مانعًا من جميع الأذي، وتارة لا يمنع إلا بعض الأذى؛ وأما اذا عدم الظل فـسد الأمر، كعدم سر الربوبـية التى بها قيام الامـة الانسانية، والله تعالى أعلم[1]].

٣٣- أقوال شـيخ الاسلام رحمـه الله تعـالى عن الخـلافة فى نقـد أساس التقديس:

وقال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحـمه الله تعالـى فى نقد أساس التـقديس فى معرض الرد على من فسر الخلافة تفسيرا شركيا مخالفا لأسس التوحيد الاسلامي،

= وهو ضعيـف، وفى ضعيف الجامـع الصغير للألـبانى حـ٣ صـ٢٣٩ رقم ٣٣٥١، وفى سلسـلة الأحاديث الضعيفة للألبانى أيضا برقم ١٦٦٣، وفى مسنـد الشهاب للغفارى حـ١ صـ٢٠١ برقم ٢١٩ عن عبدالله بن عمر بلفظ(السـلطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه كل مظلوم). ورواه الـبزار برقم ١٩٥٠ وابن عدى فى الكامل حـ١ صـ٢٢. والحكيم الترمذى فى النوادر. والبيهقى فى الشعب عن طريق سعيد بن سنان.
قال الالبانى فى سلسلة الاحاديث الضعيفة حـ٢ صـ٧٠ وهو اسناد موضوع، سعيد بن سنان هو ابومهدى الحمصى اتهمه البخارى بقوله منكر الحديث. وقال عنه الجوزجانى : أخاف أن تكون احاديثه موضوعة. وقال الدارقطنى: يضع الحديث وضعَّفه سائر الائمة، وقل البـيهقى فى مجمع الزوائد (١٦٩:٥) فيه سعيدبن سنان وهو متروك.
نقول: اما قول ابن تيمية تعليقا على الحديث(وهذا صـحيح) فإنه ربما قصد معنى الحديث الذى أخذ فى بيانه وليس متنه ولفظه، وربما أخطأ رحمه الله فى حكـمه عليه، والأرجح عندى الاحتمال الاول بدليل ماورد فى كتاب السنة لابن ابى عاصم حديث ١٠٢٤ صـ٤٨٧ حدثنا المقدسى ثنا مسلم بنى سعيد الخولانى ثنا حميد بن مهران عن سعيد بـن أوس عن زياد بن كسيب عن ابى بكرة قال سمعـت رسول الله ﷺ يقول(السلطان ظل لله فى الأرض فـمن اكرمه اكرمه الله ومـن أهانه أهانه الله) علـق الشيخ الالبانـى عليه بقولـه (حديث حسن) وعلى هذا تكون عـبارة (السلطان ظل الله فى الارض) صحيحة لانها مشـتركة بين الحديثين وإن كان الحديث الأول ضعيف، وهذا يرجح أن الحكم بالصحة عند ابن تيمية على المعنى.

(١) مجموع فـتاوى شيخ الاسلام ابن تـيمية/ جمع وترتيـب عبد الرحمن الـقصيمى النجـدي/ المجلد ٣٥ من صفحة ٤٢ إلى صفحة ٤٦ تاريخ الطبع ١٤٠٤هـ.

وذلك من خلال نقضه لتأويلات من أول حديث «إن الله خلق آدم على صورته».

وأما قول طائفة من هؤلاء وغيرهم: أن الآدمى خليفة الله إستخلفه عن نفسه، فجعله يخلفه فى تدبير المملكة، فهو على صورته من هذا الوجه، فهذا يدخل فيه معنى الملك ومعنى كونه نسخة العالم، لكن فيه من الباطل ما يخصه وهو زعمهم أن الإنسان خليفة عن الله تعالى، وهذا باطل، والله تعالى لا يخلفه شيء أصلا، وإنما معنى كون آدم وداود والآدميِّين خلائف أنهم يخلفون غيرهم من المخلوقات، لا أنهم يخلفون الخالق، كما قال تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم فى الأرض كما إستخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى إرتضى لهم**﴾، وقال تعالى: ﴿**ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم**﴾، وقال تعالى: ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**﴾.

وقال تعالى فى قصة نوح: ﴿**فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف**﴾، وقال تعالى: ﴿**وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين**﴾. وقال تعالى فى خطاب هود لقومه: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة**﴾. وفى خطاب صالح لقومه: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتًا فاذكروا آلاء الله**﴾. وقال فى خطاب موسى لقومه: ﴿**عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون؟**﴾.

وقال النبى ﷺ: «من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه فى أهله بخير فقد غزا».

وقال تعالى: «أو كلما نفرنا فى سبيل الله خلف أحدهم». وقال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾. وقال تعالى: ﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره، ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾. وقال تعالى: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾. وقال: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج، فقل لن تخرجوا معى أبداً، ولن تقاتلوا معى عدواً، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة، فاقعدوا مع الخالفين﴾. ولهذا قيل للصديق: «يا خليفة الله فقال: لست خليفة الله، ولكن خليفة رسول الله ﷺ وحسبى ذاك. ولكن الله سبحانه يوصف بأنه خليفة وبأنه خلفٌ من غيره، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه كان يقول: «انت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل، اللهم أصحبنا فى سفرنا هذا خيراً واخلفنا فى أهلنا». ويقال فى الوداع: خليفتى عليك الله، وفى التعزية التى ذكر الشافعى فى مسنده أن أهل بيت رسول الله ﷺ سمعوا صوت معز عزاهم بها، يا أهل بيت رسول الله ﷺ إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفًا من كل هالك ودركا من كل فائت».

وذلك لأن الخليفة لا يكون إلا مع مغيب المستخلَف لا مع شهوده، والله شهيد على عباده لا يغيب عنه شيء، مدبر للجميع فلا يستخلف من يقوم مقامه فى ذلك كما يستخلف المخلوق للمخلوق، بل هو الخالق لكل شيء المدبر لكل شيء.

فالآدميون يموتون ويغيبون فيكون من يخلفهم، والله حى قيوم لا يغيب فلا يكون له من يخلفه، بل هو سبحانه يخلف من يغيب أو يموت، كما يكون خليفة المؤمن يكفيهم فى هدايتهم ورزقهم ونصرهم.

يبين ذلك أن الانسان، إذا آتاه ملكاً، أو لم يؤته؛ إما أن يكون عبدًا لله عاملا بطاعته وطاعة رسله أو لا يكون:

فإن كان من القسم الأول كان فى عباد الله كالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم

سلطان﴾ وقال إبليس: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ونحو ذلك. والعبد العامل بأمر الله هو عابد لربه متوكل عليه. لم يخالف ربه فى أمر من الامور، كما أن الملائكة[1] الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ليسوا مخالفين لله فى أمر من الأمور، وإن كانوا عاملين بأمره عابدين له مطيعين. وهم المدبرات أمرًا والمقسمات أمرًا.

وإن كان الإنسان غير عامل بطاعة الله ورسوله، بل عاص لله ورسوله، فهذا أبعد أن يكون عمله ذلك خلافة عن ربه، وهو يعمل ما يبغضه الله ويكرهه وينهى عنه.

فقد ظهر أنه لا وجه أن يُجعل واحد من هذين خليفة عن الله لا من يعبده ويطيعه ولا من يشرك به ويعصيه.

هذا من جهة القضاء والقدر والأمر الكونى فإن الله خالق كل شيء فهو خالق كل حى من الملائكة والانس والجن والبهائم، وخالق قدرهم وإرادتهم وأفعالهم، كما أنه خالق غير الأجسام، وهو إن كان يخلق الأشياء بعضها ببعض، كما يخلق النبات بالمطر، ويخلق المطر بالسحاب فليس شيء من ذلك خليفة، إذ هو الخالق له ولما يخلقه به، فهو رب كل شيء ومليكه ولو جاز ذلك لكان كل مخلوق خليفة عن الله. بل جميع ذلك مُسَخَّر بأمره، مُصَرَّف بمشيئته، مدبر بقدرته، منظم بحكمته، والله غنى عن جميع ذلك، وكل ذلك فقير إليه[2].

وليس الصغير أفقر إليه من الكبير، ولا المسبب بأفقر إليه من السبب، بل الجميع فقراء إليه، وهو رب الجميع ومليكه، وهو سبحانه ليس كمثله شيء فكل

---

(١) لاحظ أن ابن تيمية هنا يساوى بين الانسان فى حالة الطاعة لله تعالى وبين الملائكة علمًا بأن هذا غير صحيح لأن الله تعالى استخلف الانسان ولم يستخلف الملائكة، وهنا يكمن أحد مواضع اللبس كما سنرى بأذن الله تعالى.

(٢) فى الفقرة السابقة وما بعدها ينفى ابن تيمية أن يكون لله تعالى خليفة بالمعنى الكونى أى يخلفه فى الخلق والتدبير ولا يمارى مسلم ولا يشك فى هذا مطلقًا لأنه جوهر التوحيد.

شيء من تدبيره كما قال سبحانه: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحى الموتى وهو على كل شيء قدير، وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله، ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه أنيب، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا يذرأكم فيه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

يبين ذلك أن كل من خلف غيره فى شيء فإنه يكون معينا له فيما يعجز عنه المخلوف، إما لعدم علمه به، وإما لعدم قدرته، فالخالف شريك المخلوف وكفؤ له. كالامير الذى يستخلف فى الامصار خلفاء عنه فهم كلهم فاعلون مالا يقدر هو وحده أن يفعله، وهم مشاركون له مكافئون له، وهو وهم متعاونون على جملة التدبير، وكل منهم ينتفع بما يعاونه الآخر عليه، والله تعالى ليس كذلك، بل الغنى مطلقا بنفسه عن الخلق، وهو الخالق لكل شيء.

ثم إن من رحمته أنه يأمر العبيد بما يصلحهم وينهاهم عما يفسدهم، وهو الذى يعينهم على فعل المأمور وترك المحظور، ولا يقدرون على فعل ذلك إلا باعانته، بل بخلق ذلك كله.

قال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، ومالهم فيها من شرك، وماله منهم من ظهير، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن﴾. وقال تعالى: ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً﴾.

وإنما يتخيل أنه خليفة عن الله ونائب عنه، بمنزلة ما يعهد عن الخلفاء والنواب عن المخلوقين منهم من يكون جباراً منازعًا لله فى كبريائه، وعظمته، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما عذبته» فيكون مختالاً لا يتخيل فى نفسه أنه عظيم كبير، وأن أمره ونهيه وفعله بالنسبة إلى الله تعالى من جنس أمر الخليفة النائب عن غيره، ومن جنس نهيه وفعله، وهذا شرك وكذب وضلال وكبرياء وإختيال.

وذلك أن الخليفة عن غيره يأمر وينهى ويفعل أمورًا لم يدر بها المستخلَف، ولم يقدر عليها، ولا يكون أمر بها ونهي، بل يكون أمر هذا من جنس أمر الأول كالوكيل مع موكله وكالوصى مع الموصي، وهؤلاء بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر.

ولهذا جاءت الشريعة بذلك فجعل الفقهاء الشركة فى التصرف مبنية على الوكالة، وأن الشريك يتصرف لنفسه بحكم الملك ولشريكه بحكم الوكالة والنيابة.

وأما الوصى فهو أبلغ من هذا، لأنه يتصرف بعد إنقطاع أمر الموصِى بالموت، ولهذا يكون له من الاستقلال ما ليس للوكيل والشريك، حتى تنازع الفقهاء فى جواز توصيته، فأجاز ذلك من منع توكيل الوكيل، وحتى أجازوا له من التصرفات مالايجوز للوكيل.

وهكذا خلفاء ولاة الأمور مثل خليفة الامام الكبير ذى الإمامة الكبري، وخليفة الحاكم، وخليفة إمام الصلاة، وغير ذلك كل من هؤلاء يفعل من جنس ما يفعله مستخلِفه، وكل هذا فى حق الله ممتنع وإعتقاد ذلك فى حق أحد هو من أعظم الشرك ومن باب إتخاذ البشر أربابا قال تعالى: **﴿إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾**. وقال تعالى: **﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيِّين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيِّين أربابًا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون!؟﴾**.

يبين ذلك أن أعظم الخلق منزلة عند الله هم رسله، والرسل إنما هم مبلغون أمره ونهيه، لا يأمرون إلا بما أمر. ولهذا كان رأس الاسلام شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وطاعتهم طاعة الله كما قال تعالى: **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾** لأنهم تلقوا أمر الله إلى عباده فالمطيع لهم مطيع لأمر الله لأنه

فاعل ماأمره الله به. وأين الرسول المبلغ أمر غيره من النائب له الخليفة عنه الذى يتصرف كما يتصرف المستخلِف، بينهم فرقان عظيم. قالﷺ فيما رواه البخاري: «إنى والله لا أعطى أحدا ولا أمنع أحداً وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت[1]».

فأما من يتصرف من عباد الله بمشيئته وهواه فيعطى من أحب ويولى من أحب بغير الله ولا إذنه، فهذا عدو لله جبار مختال من جنس فرعون الذى علا فى الأرض وإتخذ أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين.

فهل يكون هؤلاء نوابا عن الله خلفاء عنه وهم أعداؤه وعصاته كأبليس؟!

وإن كان الله هو الخالق لكل شيء، فليس كل ما خلقه الله من الأعيان والافعال يكون محبا له راضيا به، وإن كان بمشيئته، فإنه سبحانه خالق إبليس وذويه، وهو يبغضهم ويعاقبهم.

ومن قال عن نفسه أو غيره إنى نائب الله، أو خليفة عن الله، ولم يكن آمرًا بما أمر الله به على لسان رسله[2]، فقد كذب على الله وإستكبر فى الأرض بغير الحق..

كما يذكر ذلك عن طائفة من الملوك الجاهلين الظالمين، بل المنافقين والمشركين، وإن كان إنما أمر بما أمر الله به[3]، فهو مصيب فى إيجاب طاعته، إذا أمر بما أمر الله به، ومصيب فى مخالفة من عصى الله وإكرام من أطاعه.

(١) وبهذا المعنى يكون رسول الله ﷺ خليفة الله تعالى فى تبليغ أمره ونهيه واقامة دينه ونصرة شرعه فهو خليفة لله فى الامر التشريعى وليس فى مجال الأمور الكونية ومن ثم وجبت طاعته لان طاعته طاعة الله..
وابن تيمية رحمه الله تعالى يخلط بين الخلافة فى الأمور الشرعية وبين الخلافة فى الأمور الكونية.

(٢) يكاد شيخ الاسلام هنا ان يفرق بين الخلافة عن الله فى أمره الشرعى والخلافة عنه فى أموره الكونية، إذ وصف القائل عن نفسه: انى نائب الله أو خليفة عن الله بالكذب على الله والاستكبار فى الارض بغير الحق وعلل هذا بأنه لم يكن آمرا بما أمر الله به على لسان رسله، وهذا معناه أن من يفعل هذا فهو نائب الله وخليفة عنه.

(٣) جواب الشرط اللازم هنا أن يقول: فهو أذن نائب الله وخليفة عنه فى تبليغ أمره الشرعى ونصرة دينه وإقامة حكمه.

وقوله: نائب. ان كان بمعنى المبلغ والرسول والمنفذ فصحيح[1]. وإن كان بمعنى أنى أنوب عنه فيمالا يفعله هو ولا يقدر عليه فهو كذب[2]، وهذا قد يقوله القدرى الذى يظن أنه مستقل بفعله، وأن الله لم يخلق فعله، وهو مبطل فى ذلك.

نعم لو قال نائب رسول الله أو خليفة رسول الله، لكان هذا صحيحًا[3]، ولهذا لما قالوا للصديق: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكن خليفة رسول الله وحسبى ذلك. فلا يطلق على أحد أنه نائب عن الله، ولا خليفة عنه أصلا، بخلاف الرسول[4] فإنه روى فى وصف خلفاء الرسل أنهم الذين يحيون سنتهم، ويعملونها فى الناس، ولهذا تجب طاعتهم، كما فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصاني».

وذلك لأنه ﷺ لا يأمر إلا بما أمر الله به، فالمطيع له مطيع لله، وكذلك أميره الذى يستخلفه على بعض أمته كأمراء السرايا. الذى أوجب إنما أوجبها إذا كان يأمر بما أمر الرسول به، كما قال ﷺ: «إنما الطاعة فى المعروف »وكما قال: «لا طاعة فى معصية الله».

فقوله: «من أطاع أميري» قد بين أن معناه طاعة الطاعة، وهو ما كان من الأفعال التى يأمر الله رسوله بها فيكون هذا الأمر منفذا لذلك الأمر. كما كان

---

(١) هذا اعتراف صريح من شيخ الاسلام بأنه يجوز أن يكون لله تعالى نائب وخليفة فى مجال تبليغ الرسالة وإقامة الدين، وهو عودة لجواب الشرط الصحيح.

(٢) هذه نيابة وخلافة فى الامر الكوني وهذا المعنى لا يثبته إلا المشركون والملاحدة من أصحاب وحدة الوجود، وكل من أجازوا القول بخلافة الانسان عن الله فى الارض من المفسرين فهم يقصدون الخلافة عن الله تعالى فى مجال الامور التشريعية وينفون الخلافة عنه فى مجال الأمور الكونية.

(٣) ولكن لمن يكون رسول الله خليفة، ولمن يكون آدم وداود خليفة، أليس كل منهم خليفة الله لأنه نائب الله بتبليغ رسالته وإقامة شرعه؟!.

(٤) هذا اعتراف صريح بأن الرسل خلفاء الله وهم بشر. فهم الخلفاء والنواب الأوائل لله تعالى والمؤمنون خلفاء من بعدهم.

عمر بن عبد العزيز يقول: أيها الناس لا كتاب بعد كتابكم ولا نبى بعد نبيكم، كتابكم آخر الكتب ونبيكم آخر الأنبياء، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، وانما أنا منفذ ولست بقاض.

فقد بيَّن أن هذه الدعاوى فى الخلافة عن الله ونحو ذلك إنما هى من دعاوى المتكبرين الجبارين المشركين الذين يريدون العلو فى الأرض كفرعون، وهؤلاء الاتحادية الموافقين لفرعون، المدعين أنهم مضاهون لله تعالى وأنه يحتاج إلى عباده، كما يحتاج عباده إليه، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرًا.

يبين هذا أن إيتاء الله للعبد الملك والسلطان والمال لا يقتضى أن ذلك إكراما منه له ومحبة، بل هو إبتلاء منه وفتنة له وإمتحان.

قال تعالى: ﴿**فأما الإنسان إذا ما إبتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه، فيقول ربى أهانن، كلا**﴾. وقال تعالى: ﴿**ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا، وجاءتهم رسلهم بالبِّينات وما كانوا، ليؤمنوا، كذلك نجزى القوم المجرمين، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾. وقال تعالى: ﴿**وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاوكم، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم**﴾. فبين أنه جعلهم خلائف ورفع بعضهم فوق بعض درجات، كما يرفع درجة ذى الملك والسلطان ليبلوهم فيما آتاهم، وإذا كان كذلك، فمن كان منهم عاملا بطاعة الله غير عامل بمعصيته، كان من أولياء الله وعباده الصالحين.

ومن كان منهم عاملا بمعصية الله مريدًا للعلو فى الأرض والفساد، متخيلا متكبرا جبارا، وكان من أعداء الله وممن سخط الله عليه ولعنه.

قال بعض السلف أظنه مجاهدا فى قوله تعالى: ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ قال هو السوط والسب والغضب فى غير طاعة الله.

فمن كان يضرب ويقتل لغير طاعة الله ورسله، فإنما هو جبار من الجبارين، فإن لم يتب، وإلا جاءه بأس الله الذى لا يرد عن القوم المجرمين، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

فكيف يستجيز المسلم أن يقول فى مثل هذا أنه خليفة عن الله ونائب عنه[1] وهذا يقتضى أنَّ فرعونٍ والنمرود ونحوهما كانوا خلفاء عن الله ،نوابًا عنه.

ثم إن هؤلاء يجعلون هذا المعنى ثابتًا لكل إنسان أنه خليفة عن الله، لإنه من الجنس المسلطين على غيرهم من أجناس الحيوان، وعلى أنواع من التدبير، ولا يفرقون بين من أطاع الله ومن عصاه، بل يجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار وهذا كله من الاشراك والجمع لما فرق الله بينه، ولهذا شرع الإتحادية كل شرك فى العالم.

ونظير هذا الاشراك الذى يجعل فيه العباد خلفاء عن الله ونوابا عنه، تشبيها لذلك بالخلافة والنيابة عن الملوك، ما يوجد فى كثير من الناس من تشبيههم لمسألة الله ودعائه وعبادته بمسألة الملوك، وما يوجد فى كثير من الناس أن أحدهم يقول: إذا أردت أن تأتى السلطان وتسأله، فإبدأ بالوسائط[2] التى بينك وبينه، كالحجُاب والنواب والأعوان، فإن قصدك السلطان من الباب قلة معرفة، وقلة تعظيم وإكرام، وذلك لا يصلح لك، فيأمرونه بالتواضع والاشراك بالمخلوقين.

---

(١) فى مجال الأمور الشرعية: نعم، فى مجال الأمور الكونية: لا.
(٢) هو شرك لأن المشرك يعتقد فى شفاعة الوسيط فى الأمور الكونية فهو يجعل الوسيط شريكًا لله تعالى فى ربوبيته.

وهذا من الاسباب التى بها عبدت الكواكب والملائكة والأنبياء والصالحون وقبورهم، وهذا كله من أعظم الشرك والضلال والقياس الفاسد، فإن الله بكل شيء عليم، وهو سميع بصير بكل شيء، وليس بمنزلة الملك الذى لا يعلم إلا ما أنهى إليه ولا يسمع ولا يبصر أكثر أمور رعيته.

وأيضًا فإن الله على كل شيء قدير ولا يحتاج أن يستعين بالأعوان على إجابة الداعى كما يحتاج الملك.

وأيضا فإن الله قريب إلى عباده كما قال: ﴿**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان**﴾ وهو رحيم بعباده رؤوف بهم مع أنّه هو الجبار المتكبر المتعالى بالحق، ليس كالملوك الجبارين المتكبرين بالباطل على بنى جنسهم، ومن هو مثلهم، حتى لا يسمعوا كلامه ولا يرحموه، وحتى يردوا الضعيف والفقير، فهذا الإشراك فى ربوبية الله وإلهيته والإستكبار والاختيال الموجود فى العباد كلهُ مُناف لدين الإسلام الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه.

وكلا النوعين يتضمن تعظيم الخلق وجعلهم أندادًا لله، ومن التفريط فى جنب الله وتضييع حقوقه لما هو من أعظم الجهل والظلم.

وأصل هذه المقالات توجد فى مقالات المشركين، ومن دخل فى الشرك من الصابئين وأهل الكتاب، وهو فى الغالية من هذه الأمة كغالية الرافضة. وغالية المتصوفة، ونحو هؤلاء.

وأما الدقيق منه فهو كثير، كما قال تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ لاسيما شرك العمل والحال، وإن لم يكن العبد مشركًا فى مقاله، وما يفترون بذلك من الخيلاء والكبر.

وأما قول من يقول إن العالم نفسه هو وجود الله، وأن الإنسان هو مظهر ذات الله الأكمل، ففيما تقدم كفاية فى بطلان قول من حمل الحديث[؟] على مجرد كون

الإنسان مخلوقًا على صورة الله التى هى العالم، وبطلان كونه خليفة عن الله($$)[1].

٣٤- رفض ابن تيمية تفسير الخلافة بالنيابة عن الله تعالى وأسبابه ودوافعه:

(أ) أسباب ودوافع شيخ الاسلام لهذا الرفض :

١- يفسر إبن عربى حقيقة الاستخلاف بالمعنى الكونى الذى يجعل الانسان ربا خالقا محدثا حافظا ومتصفا بسائر صفات الربوبية أو بأكثرها.

كما يجعل إبن عربى، الإنسان بمقتضى أصول مذهبه الفاسدة وقواعد عقيدته الإلحادية، وبحسب تفسيره الباطل للخلافة، إلها بين الكائنات.

٢- إنفرد شيخ الإسلام إبن تيمية رحمه الله تعالى من بين من سبقه من العلماء والمفسرين برفض تفسير الخلافة بمعنى النيابة عن الله عز وجل فى الأمر الشرعى بالإضافة طبعا إلى رفض معنى النيابة عن الله فى الأمر الكونى كما هو عند ابن عربي.

٣- من النتائج الواضحة: أن شيخ الاسلام رحمه الله تعالى، قد أتخذ هذا

(١) نقد أساس التقديس لابن تيمية نقلا عن كتاب عقيدة أهل الايمان فى خلق آدم على صورة الرحمن للشيخ محمد بن عبد الله بن حمود التويجرى نشر دار اللواء الرياض سنة ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م. من صفحة ١١٦ إلى صفحة ١٢٥.

($$) هذا البطلان صحيح بمعنى وغير صحيح بمعنى آخر، وليس مطلقا فهو صحيح إذا قصد بالخلافة نيابة الله فى الأمور الكونية أى فى خصائص وأفعال الربوبية وصفات الالوهية، ويكون هذا البطلان خطأ إذا قصد بالخلافة نيابة الله فى أوامره الشرعية ونصرة دينه وإقامة حكمه وبيان كلمته.

($) الحديث المقصود: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته» رواه مسلم والامام أحمد ورواه أبو بكر الآجرى فى كتاب الشريعة وله نظائر أخري. وقد جاء إستطراد ابن تيمية رحمه الله تعالى فى الكلام عن الخلافة فى معرض رده على الذين أولوا هذا الحديث بعامة، وعلى صوفية وحدة الوجود بخاصة الذين ربطوا بين مفهوم الخلافة وبين هذا الحديث بقولهم إن الاله هو العالم والانسان عالم صغير فهو على صورة الاله من هذا الوجه وجعلوا هذا القول هو معنى الخلافة عن الله جل وعلا، وسيَلِي عرض مذهب ابن عربى فى الخلافة فى فصل لاحق. باذن الله تعالى.

الموقف، أى رفض خلافة الانسان لله تعالى، سواء فى الأمر الكونى أو فى الأمر الشرعى درءا للخطر المحدق بعقيدة المسلمين بسبب مذهب إبن عربى القائل بوحدة الوجود، وتفسيره للخلافة بالمعنى الخاص به، وهذا يفسر لنا الاصرار الشديد من شيخ الاسلام على مناهضة تفسير الاستخلاف بالنيابة لله تعالى مخلصا فى هذا الموقف لأهدافه التى نذر لها نفسه وحياته، وعلى رأسها الدفاع عن عقيدة التوحيد الخالصة التى كان عليها السلف ومحاولة إبطال كل الشبهات وإبعاد كل الأخطار التى يمكن أن تشكل تهديداً أو تحريفا للعقيدة السلفية فى نفوس المسلمين.

وما يمكن أن نقرره بهذا الصدد باطمئنان أن شيخ الاسلام إبن تيمية رحمه الله تعالى من أبرز العلماء المجاهدين فى تاريخ الاسلام فى هذا المضمار الذى أفنى فيه عمره وقضى من أجله حياته.

لقد حدث أن اكتملت فى القرن الخامس والسادس الهجريين كل الإنحرافات العقدية التى يمكن أن تهاجم أمة كتابية من فلسفات وزندقات وباطنيات وإتجاهات كلامية منحرفة وفتن وحركات ومكايد من أعداء الإسلام لأمة الإسلام.

وكانت أخطر هذه الإنحرافات على مستقبل العقيدة فى نفوس المسلمين هى عقيدة وحدة الوجود الإلحادية، التى يمكن وصفها بأنها أقصى ما يمكن أن يصل إليه إتجاه تعطيل الصفات الإلهية ونفيها بالغلو.

كما أن عبادة الهين اثنين هى أيضًا أخطر ما يمكن أن تصل إليه عقيدة إنكار القدر بالغلو. ولكن نتيجة إنتشار التصوف المنحرف أصبحت الأمة الاسلامية خلال القرن السادس والسابع وما بعدهما مهددة بعقيدة وحدة الوجود أكثر من أى خطر آخر.

ومن ثم لم يأل شيخ الاسلام جهدا فى مقاومة هذه الإنحرافات بعامة

وإنحرافات وحدة الوجود بخاصة.

وفى غمرة إندفاعه الشديد لمواجهة إلحـاد ابن عربى وتلاميذه، الذين كانوا أشد منه كـفرًا والحادًا رفض ابن تيـمية رحمه اللـه تعالى كل النـتائج الباطلـة لوحدة الوجود ومنها تفسيرهم لحقيقة الإستخلاف بالمعنى الكوني.

ومما لا شك فـيه أن شيخ الاسـلام محق تمامًـا فى إبطال مـفهوم الإستـخلاف الالحادى الذى قال به ابن عربى وأتباعه.

فإذا تذكرنا ما سبق أن عرضناه تفصيلاً من المعانى التى تكوّن عناصر الخلافة فى اللغة وفى الـقرآن الكريم، والنتيجة الواضـحة التى وصلنا إليها عـن بطلان القول بخلافة الله سبحانه وتعالى فـى مجال الأمر الكوني، وأن هذا القول شرك وكفر، بينـما توصلنا إلـى أن القول بخلافة الانـسان عن الله تعـالى فى الأمر التشـريعى الاختيارى الابتلائى ليس كذلك، وأنه التفـسير الذى نرجحه لحقيقة الاستخلاف، إذا تذكرنـا ذلك كله، تبـين لنا أن ما أورده إبن تـيمية رحمـه الله تعالـى من أدلة وردود من القرآن الكريم والسنـة الشريفة ومن حجج عقلية منطقيـة كلها صحيحة ومقبولة، وليس فيها نزاع مادام يقصد بها رفض الخلافة فى الأمر الكونى.

كما يمكن القول أن ابـن تيمية رحمه الله تعالى لم يـخالف-حين رفض الخلافة بهذا المعني-أحدًا مـن علماء الاسلام والمفسرين رحمهم اللـه تعالى، إذ لم يذهب مفـسر واحد مـن أهل السـنة والجمـاعة إلـى هذا القـول الالحادى الذى قـال به الاتحادية والحلولـية، وكل الذين أثبتوا أن معـنى الخلافة هو نيابة اللـه تعالى فى الأرض كالطبري-قد حددوا مجال النيابة عن الله فى حدود إقامة حكم الله تعالى وتنفيذ شرعه ونصرة دينه.

وإنما الذى نقرره هنـا أيضًا - مع كل الحب والتقدير لشـيخ الاسلام قدس الله سره ونضر وجهه وأجزل مثوبته وأسكنه جنته - هو أنه رحمه الله تعالى قد خالف

جمهور المفسرين إذ لم يجز القول بأن الانسان خليفة عن الله تعالى في إقامة حكمه ونصرة دينه وتنفيذ شرعه، كما عبر عن هذا المعنى شيخ المفسرين إبن جرير الطبرى رحمه الله تعالى، وتبعه عليه كثير من المفسرين.

ولا شك أن إجتهاد شيخ الاسلام رحمه الله تعالى كان منه بسبب حرصه الشديد على المحافظة على التوحيد الاسلامى الخالص، كما سبق أن ذكرنا.

لقد إعتمد جمهور المفسرين- حسب مراجعتى لتفسير آية الخلافة، وقد راجعتُ جل المطبوع من مصادر التفسير - قول الطبرى فى الاستخلاف كأحد الاقوال المحتملة لمعنى الخلافة، ولم يحرمه أحد منهم، بل رجحه كثير منهم.

كذلك وجدنا أن الذين رجحوا غيره لم يحرموا القول به، ونكاد نقطع بأنه لم يقل أحد بذلك - فيما أعلم - قبل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى. ولعل السبب فى ذلك هو مجيء شيخ الاسلام بعد إبن عربى والتلمسانى وابن سبعين وغيرهم من أصحاب وحدة الوجود.

لقد منع إبن تيمية القول بخلافة الانسان لله تعالى فى مجاليْ الامر الكونى والامر التشريعى معا، وذلك بالرغم من أنه أثبت صحة معنى ونيابة الانسان لله تعالى فى تنفيذ الأمر التشريعي، كما سنرى ذلك بعد حين. وبذلك ينحصر النزاع فى جواز إطلاق القول بأن الانسان خليفة الله تعالى فى إقامة الدين ونصرته والحكم بما أنزل الله عز وجل.

(ب) تفسير ابن تيمية رحمه الله تعالى للخلافة فى ضوء شرحه لحديث: «السلطان ظل الله فى الأرض».

يرى إبن تيمية أن الخلافة حقيقة إنسانية عامة، وليست خاصة بآدم وداود فقط، ولذلك قال: «وقوله إنى جاعل فى الأرض خليفة يعم آدم وبنيه» بيد أنه عاد وقال بعد ذلك: «لكن الإسم يتناول آدم عينًا».

ثم يفسر إبن تيمية حب آدم لداود خاصة وتنازله له عن ستين[1] سنة من عمره بمناسبة أنه خليفة مثله.

ومع هذا فهو يمنع إطلاق اسم خليفة الله على الحاكم الصالح أو النبي، ويرى أنه خليفة فقط.

وفى نفس الوقت يثبت صحة الحديث النبوى الشريف الذى قال فيه رسول اللهﷺ: «السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل ضعيف وملهوف» ثم يشرح هذا الحديث بما يثبت للحاكم المسلم كل ما يمكن وصفه به كخليفة عن الله تعالى فى الارض، فيبدو واضحا أنه يُسَلِّم بمعنى الخلافة والنيابة عن الله تعالى، مع رفضه تجويز القول بذلك.

وقد قرر ابن تيمية فى شرحه لهذا الحديث الشريف نوعا من المطابقة بين الظل والمظُل صاحب الظل، ومن ثم فقد أثبت شيخ الاسلام للسلطان صفات جعلها الله تعالى له مثل: (النصرة والقدرة والسلطان والحفظ وغير ذلك من معانى السؤدد والصمدية) التى بها قوام الخلق، ما يشبه أن يكون ظل الله فى الأرض.

ومن ثم إنتهى ابن تيمية إلى أن للسلطان ما أسماه (سر الربوبية التى بها قيام الامة الإنسانية) وهذا يعنى أنه أثبت للسلطان نوعًا من الربوبية ولا شك أنها ليست ربوبية أصيلة فى الإنسان بل هى ربوبية نيابية خلافية، فعلاقة ربوبية السلطان بربوبية الله عز وجل كعلاقة الظل بالمظل صاحب الظل وفقر ربوبية السلطان إلى ربوبية الله عز وجل كفقر الظل فى وجوده واستمراره ونفعه لغيره إلى المظل صاحب الظل. وهذا يعنى أن شيخ الإسلام أثبت للسلطان عبوديته لله تعالى بجانب نسبة هذا النوع من الربوبية له.

---

(١) سبق أن ذكرنا فى الهامش أنها أربعون بخلاف قول ابن تيمية.

وهذا يؤكد لنا أن شيخ الاسلام أثبت خلافة الإنسان لله تعالى بالمعنى إذ أن هذا المعنى الذى فسر به شيخ الاسلام حديث: «السلطان ظل الله فى الأرض» هو ما قرره المفسرون من معنى خلافة الإنسان أو الحاكم لله فى الارض ومع أنه ـ رحمه الله ـ لم يـر بأسا ولا خطأ ولا إنحرافا بنسبة سر الربوبـية للسلطان بما أمده الله تعالى من القدرة والسلطان والحفظ وبكل أسباب السؤدد والصمدية، إلا أنه قد حكم على من يقول بخلافة الإنسان لله تعالى فى الارض بالشرك مع أن نيابة الحاكم لله تعالى محصورة فى تنفيذ حكمه الشرعى الذى يغيث الملهوف ويرد للمظلوم حقه ويقيم شرع الله تعالى ويقيم الحق والعدل والخير بين الناس بما يجعله أى السلطان المسلم ظل الله فى الأرض أى خليفة الله فى أرضه.

فالحديث الشريف تفسير لمعتى خلافة الحاكم الله تعالى فى اقامة دينه وتنفيذ حكمه.

وهكذا يتبين لنا بوضوح أن ما رفضه شيخ الاسلام من معنى الاستخلاف الإنسانى فى الارض كما قرره المفسرون قد أثبته فى شرحه لحديث السلطان ظل الله تعالى فى الأرض، وقرر أن هذا المعنى يفيد نيابة الإنسان بعامة والحاكم بخاصة لله عز وجل فى اقامة دينه وتنفيذ أمره الشرعي. الامر الذى أثبتناه كتفسير أو تعريف لاستخلاف الإنسان واعتبره هو رحمه الله شركًا.

وسنعود لهذا الحديث ومناقشة كلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فيه تفصيلا فى صفحات لاحقة عن تعريف الخلافة بإذن الله تعالى.

(جـ) أقوال ابن تيمية الدالة على بطلان القول بخلافة الإنسان لله تعالى فى الارض بأى معني:

من أقوال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الله لا يجوز له خليفة»[1].

---

(١) لاحظ أن النفى هنا مطلق أى لا يجوز له تعالى خليفة بأى معنى من المعاني.

ومن أقواله أيضًا فى ذلك المعني: «ولا يجوز أن يكون أحد خلفا منه ولا يقوم مقامه لأنه لا سمى له ولا كفء له فمن جعل له خليفة فهو مشرك به».

وقال أيضًا فى معرض رفض مذهب الاتحادية فى الخلافة: «وأما قول طائفة من هؤلاء وغيرهم أن الأدمى خليفة الله إستخلفه عن نفسه فجعله يخلفه فى تدبير المملكة فهو على صورته من هذا الوجه، فهذا يدخل فيه معنى الملك، ومعنى كونه نسخة العالم، لكن فيه من الباطل ما يخصه، وهو زعمهم أن الإنسان خليفة عن الله تعالى، وهذا باطل والله تعالى لا يخلفه شيء أصلا».

كما قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى أيضًا فى معرض رفض القول بخلافة الإنسان عن الله عز وجل بأى معني: «وكل هذا في حق الله ممتنع، وإعتقاد ذلك فى حق أحد هو من أعظم الشرك، ومن باب إتخاذ البشر أربابا».

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: «ومن قال عن نفسه أو غيره إنى نائب الله أو خليفة عن الله، ولم يكن آمرًا بما أمر الله به على لسان رسله، فقد كذب على الله وإستكبر فى الأرض بغير الحق».

وقال رحمه الله أيضًا: «فقد تبين أن هذه الدعاوى فى الخلافة عن الله ونحو ذلك إنما هى من دعاوى المتكبرين الجبارين المشركين الذين يريدون العلو فى الأرض كفرعون وهؤلاء الإتحاديَّة الموافقين لفرعون المدعين أنهم مضاهون لله تعالى، وأنه يحتاج إلى عباده كما يحتاج عباده إليه، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا».

يتبين مما سبق من هذه النصُوص أن شيخ الاسلام رحمه الله يحكم بالشرك على كل من يقول بخلافة الإنسان عن الله فى الأرض، دون أن يفصل القول ويميز بين القائل بخلافة الإنسان عن الله تعالى فى الأمر الكوني، ومن يثبت الخلافة عن الله تعالى فى إقامة الدين والأمر الشرعي.

ولا شك أن شيخ الاسلام محق تماما فى حكمه بالشرك على من يقول بخلافة

الإنسان، أو أى مخلوق عن الله تعالى، فى أى أمر من الامور الكونية التى تخص الله عز وجل وحده.

ولكنه ليس محقًا فى حكمه بالشرك على من يقول بخلافة الإنسان لله تعالى فى أمره الشرعى بالعمل على تطبيقه ونصرته وإقامة دينه فى واقع الحياة أى أنه - رحمه الله تعالى - لم يكن على صواب إذ حَرَّمَ القول الذى قال به وأجازه جمهور المفسرون، علاوة على أن الوراثة والولاية والوكالة والنصرة ثابتة كفعل صادر من الإنسان لله عز وجل، وهى جميعًا من عناصر الخلافة كما ثبت لنا ذلك فى فصل سابق ويحسم القضية بيننا وبين شيخ الاسلام الأحاديث الصحيحة الواردة فى هذا المعني.

٣٥- تفسير ابن تيمية للاستخلاف:

فسر ابن تيمية رحمه الله إستخلاف الانسان فى الأرض بمعنيين:

الاول: خلافه الناس بعضهم لبعض جيلا بعد جيل، والثانى: خلافة الانس للجن حيث سبق الجنُ الانس فى سُكنَى الارض ومايلى قوله فى كل تفسير منهما:-

(أ) خلافة الناس بعضهم بعضًا جيلاً بعد جيل:

قال شيخ الاسلام رحمه الله فى معنى الاستخلاف: «وانما معنى كون آدم وداود والآدميين خلائف أنهم يخلفون غيرهم من المخلوقات لا أنهم يخلفون الخالق».

ومن ثم فهو يرفض خلافة المخلوق للخالق عز وجل، ولو بالمعنى الخاص بالنيابة فى أمر الله الشرعي، فى الوقت الذى أجاز أن يكون المخلوق ظل الخالق عز وجل، وفيه سر الربوبية التى يصلح بها قوام الإنسانية.

ويفسر إبن تيمية قوله تعالى: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ بخلافة الآدميين لغيرهم من المخلوقات، إلا أنه لم يوضح فى هذا الموضوع مَا أَوْمَنْ هو المخلوق الذى خلفه الإنسان؟!.

ولكن الآيات التى أوردها للإستدلال على صحة رأيه كثيرة، وهى تدل على أن المعنى الذى يقصده هو خلافة الامم بعضها لبعض، بدليل قوله تعالى: ﴿ليستخلفنَّهم فى الارض كما إستخلف الذين من قبلهم﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الارض﴾ وقوله تعالى للمؤمنين مع نوح: ﴿وجعلناهم خلائف﴾ وقوله تعالى مذكرًا هود وقومه: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم عاد﴾ وقال فى خطاب موسى لقومه: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض..﴾ .

والشاهد الذى يقصده شيخ الاسلام من هذه الآيات هو أن الامم تخلف بعضها بعضا بمشيئة الله عز وجل. فمن سنته عز وجل أنه يقضى على الامم الجائرة الكافرة الذين يغلب عليهم الفساد واليأس من صلاحهم ويستخلف من بعدهم الصالحين المؤمنين.

وهذا الموضوع يختلف تماما عن موضوع آية الخلافة فى سورة البقرة كما تختلف النتيجة عن المقدمة، وإن كان بينهما إرتباط فى المعني.

لأن حقيقة الإستخلاف فى سورة البقرة حقيقة إنسانية عامة تتصل بالذات الإنسانية وتحدد علاقة الإنسان بكل الكائنات التى فى السماء والأرض، وبمقتضاها أصبحت الحقيقة الإنسانية أو الذات الآدمية أكرم وأفضل من ذوات جميع المخلوقين حتى الملائكة والجن.

كذلك تحدد حقيقة الاستخلاف العامة علاقة الإنسان بجميع الكائنات الأرضية الحيوان والنبات وسائر العناصر المادية، أما علاقة الناس بعضهم ببعض فهى قائمة فى حياة الناس ـ كأجيال متعاقبة أو كمعاصرين ـ على حقيقة الاستخلاف أيضًا.

وجميع هذه الآيات التى ذكرها ابن تيمية رحمه الله تعالى تتحدث عن هذه النتيجة الجزئية المترتبة على الحقيقة الإنسانية العامة وأعنى بها حقيقة الإستخلاف

فى الأرض، ولا شك أن تفسير الكل بالجزء تفسير قاصر وغير صحيح كما هو معلوم.

وإذا تأملنا قوله تعال: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ لتبين لنا عموم الإستخلاف كحقيقة رئيسية فى الوجود الإنساني، وشموله لكل شيء فى الذات الإنسانية، إذا جاءت كلمة خليفة بديلة عن كلمة إنسان أو كلمة بشر أو عن أسم آدم فصارت الخلافة أكثر من كونها وصفا للإنسان من أوصافه وأكثر من كونها خاصية من خصائصه، إذ هى بذلك التعبير الإلهى المحكم عن جزء رئيسى فى الكينونة البشرية ولا يمكن فصلها عنها، ولا يمكن تصور الإنسانية بدونها.

أما الآيات التى أوردها إبن تيمية فإنها تتحدث عن سنة الله عز وجل فى إستخلاف الأمم بعد الأمم السابقة عليها، وهى سنة إلهية شاءها الله عز وجل لوراثة الأمم للأرض بعضها من بعض خلال الصراع التاريخى بين أهل الحق وأهل الباطل أو لوراثة الجيل اللاحق الأرض من الجيل السابق فى الأمة الواحدة.

ومن ثم يكون موضوع هذه الآيات مختلفا عن موضوع آية الإستخلاف العام فى سورة البقرة. ولا يلزم منه خلافة الأقوام بعضهم لبعض فى هذه الآيات تحريم القول بخلافة الإنسان لله عز وجل فى إقامة دينه وتنفيذ حكمه، لأن معنى الإستخلاف بين البشر يختلف بالضرورة عن معناه عندما تكون الخلافة تعبيراً عن العلاقة بين الإنسان وربه عز وجل من جهة، وبين الإنسان وبين المخلوقات من جهة أخري.

يؤكد ما نقول أن من فسر الاستخلاف بخلافة جيل لجيل، فاته أن جميع الاحياء فى الأرض من نبات وحيوان يخلفون بعضهم بعضا جيلا بعد جيل، ووجود هذه الاحياء مستمر إلى ماشاء الله عز وجل بمقتضى هذه السنة الحياتية العامة. بينما خلافة الإنسان فى الأرض أمر يخص الإنسان وحده.

(ب) خلافة الإنسان للجن فى الأرض:

وثمة إحتمال آخر ربُما يكون شيخ الإسلام قد قصد إليه من إيراد هذه الآيات الكريمة، خاصة وأنه ثبت أن الخلافة تخص آدم وبنيه، وهذا المعنى المحتمل هو تفسير الخلافة بأنها خلافة الإنس للجن فى الأرض، وهو من الأقوال الرئيسية التى قيلت فى معنى الاستخلاف وهو يوافق ما ذهب إليه شيخ الاسلام وأصر عليه من أنها بمعنى خلافة المخلوق للمخلوق وليست خلافة المخلوق للخالق.

ولكن هذا التفسير يمكن رده بعدة أدلة:

أولاً: أن ابن تيمية يشترط خلو المستخلف حتى يتحقق الاستخلاف إما بموت أو بسفر أو بخلافة.

فهل خلت الأرض من الجن حتى نقول إن الإنسان صار خليفة الجن؟.

لقد خلق الله تعالى الجن للأرض وهم يعيشون فيها كما هو معلوم، ولم تخل الأرض منهم سواء كانوا مسلمين أم كفرة أم شياطين من جنود ابليس.

الثاني: ثبت بما لا يدع مجالاً للشك - إذ هو باتفاق جمهور المفسرين - أن الملائكة عليهم السلام تطلعوا للخلافة وكتموا فى أنفسهم رغبتهم فيها وظنوا أنهم أجدر من الإنسان باعتبار أن طاعتهم وعبادتهم وتقديسهم وتسبيحهم لله عز وجل، أكلم وأتم فهل تطلعت الملائكة إلى أن يكونوا خلفاء للجن الذين قالت الروايات أنهم أفسدُوا فى الأرض قبل نزول الإنسان إليها.؟!

إن تطلع الملائكة للخلافة وحقد إبليس على الإنسان بسبب تكريم الله تعالى للإنسان بها هو دليل قوى لا يمكن رده على أن نيابة الإنسان فى الأرض، ليست للجن ولا للملائكة، ولا لأى مخلوق آخر، بل هى نيابة لله عز وجل، وليست

نيابة الإنسان فى الأرض بمعنى الجيل يخلف الجيل - كما قال البعض - لأن هذا أمر يشاركه فيه الحيوانات والنباتات وهذه الاحياء لم يكرمها الله تعالى بالخلافة، ولم يرفع درجتها بها، كما أكرم الإنسان؟

فما معنى أن يكون الإستخلاف تكريما للإنسان إذا لم يكن بمعنى نيابة الإنسان عن اللـه عز وجل؟! إن النائب فى درجة وجودية أو وظيفية أقل من الذى هو نائب له. ومن ثم لا يستقيم أن يكون الإنسان خليفة لأى مخلوق، وقد كرمه الله تعالى على كثير ممن خلق وفضله عليهم تفضيلاً، حتى الملائكة والجن.

وهذا التكريم والتفضيل ليس له تفسير سوى أن تكون خلافة الإنسان فى الأرض هى خلافة الله عز وجل بالمعنى الذى أثبته الطبرى وجمهور المفسرين.

والملائكة لا يمكن أن تتطلع إلى أن تحل محل الجن فى الأرض، ويكونوا خلفاء لهم، كذلك هم لا يريدون ولا يطلبون أن يغير الله تعالى من طبيعتهم ليتناسلوا ويصبحوا ذكورا وإناثا ليخلف بعضهم بعضا جيلا بعد جيل، حسب قول القائل، إن الاستخلاف بهذا المعني.

وليس تطلعهم للخلافة إلا الطمعهم فى تفضيل الله تعالى وتكريمه لهم على كل المخلوقات، الأمر الذى خص الله تعالى به الإنسان، وفهموا ذلك على الفور بإخبار الله تعالى لهم بأنه: ﴿جاعل فى الأرض خليفة﴾ فلا مراء بعد ذلك أن الاستخلاف هو نيابة الإنسان لله تعالى وليس لمخلوق آخر.

ثم لا يكون الاستخلاف كنعمة مَنَّ بها الله تعالى على الإنسان مدعاة لحقد إبليس. إلا إذا كان بهذا المعنى أيضًا أى خلافة الإنسان اللـه عز وجل ولو كانت خلافة الإنسان للجن أو خلافة كل جيل للآخر أو كل أمة للأخرى لما أثار هذا أو ذاك حقده وحسده على آدم وبنيه.

وأخيرًا نقول: لو كانت خلافة الإنسان فى الأرض لغير الله عز وجل، فلن

يكون ثمة مميز يتميز به الإنس على الجن والملائكة من أجل أمر الله تعالى الملائكة ومعهم أبليس السجود لآدم.

ولن يكون بـين أمر الملائكة بالسجـود وبين إخبار آدم بأسماء المعـروضات التي عجزوا عـن معرفة أسمـائها منـاسبة. اذ تنفـى المناسبة بـين الأمر بالسـجود وبين الخلافة، فى حين أن المنـاسبة واضحة، وقد ذكرها بعض المفسـرين ووضحها تاج المفسرين أبو السعود رحمه الله تعالى.

ولا شك أن تفسير خلافة الإنسان بالنيابة لـغير الله تعالى له خطورته، إذ يفقد الإنسان أهم ما يتمـيز به عن سائر الأنواع الأخرى فما الذى يتـميز به الإنسان عن الحيوان وعن الجن إذا قلنـا أنه خليفة للجن أو أنه يخلف بعـضه بعضا. والحيوان والجن كذلك يخلفون بعضهم بعضا.؟!..

فبماذا يتميز الإنسان عن غيره من المخلوقات إذًا؟ !.

إذا قلنا بالعقل فالملائكة والجن عقلاء، وإذا قلـنا يتميز الإنسان بالعبادة والطاعة لله تعالى فالملائكة ـ كما قلنا ـ أعظم عباده وأتم طاعة لله سبحانه وتعالى.

واذا قال قـائل يتمـيز الإنسان بـالحرية والاخـتيار والابتـلاء؟ قلنا أن كـل ذلك يتـصف به الجـن أيضًا. وإذ دل سـياق الآيات عـلى أن الخلافـة تخص الإنـسان وحده، فلا يـبقى إلا أن يكـون الاستخلاف بمعـنى خلافة الإنسـان لله تعـالى فى الأرض الأمر الذى إرتفع به إلى درجة مرموقة سامقة بين المخلوقات لا يصل إليها غيره ولا يشاركه فيها سواه، وبها شرفه الله تعالى وكرمه..



الفصل الحادى عشر

أدلة إبن تيمية على تحريم تفسير الاستخلاف بالنيابة لله تعالى ونقضها



٣٦- الدليل الأول ونقضه:

أورد إبن تيمية رحمه الله تعالى عدة أحاديث بغرض إثبات ضرورة غياب المخلوف بموت أو سفر أو غير ذلك حتى يخلفه الخليفة، وإلا لما تحققت الخلافة، وغرضه من هذا اثبات إستحالة خلافة المخلوق للخالق عز وجل وبطلانه شرعا لأن الله عز وجل حي لا يموت ولا يغيب سلطانه عن الأرض وعن الوجود المخلوق كله.

فذكر حديث رسول الله ﷺ: «أوكلما نفرنا في سبيل الله خلف أحدهم».

وقصد ابن تيمية رحمه الله تعالى نفس الشاهد في قوله عز وجل: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾. وقوله تعالى: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾. مستدلاً من هذا كله بأن الخليفة لا يكون إلا بعد غياب المخلوف، وهذا مستحيل في حق الله جل وعلا، ومن ثم فلا يجوز أن نقول الإنسان خليفة الله تعالى، وللرد على هذه الحجة اللغوية نقول إن هذا صحيح عندما تكون الخلافة علاقة بين اثنين من البشر أو المخلوقين، لكن عندما تكون الخلافة تعبيراً عن علاقة بين الإنسان وبين ربه عز وجل فشأنها حينئذ شأن كل الفاظ الصفات التي وصف بها الشرع ربنا عزّ وجل ووصف بها الإنسان، إذ نطلق هذه الاسماء والصفات ـ حسب مذهب السلف الذي ندين به، وكما يقرره شيخ الإسلام في أكثر كتبه ومصنفاته ويكرره في مواضع عديدة منها ـ على أساس أن الشركة قائمة في إسم الصفة أو لفظها دون حقيقتها وكيفها.

فكما أن الله تعالى ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله، وإن كانت بعض صفاته عز وجل يعبر عنها بأسماء لبعض صفات الإنسان مع الاعتقاد بان صفاته عز

وجل ليس كمثلها صفات فى المخلوقين. فكذلك الشأن بالنسبة للألفاظ الدالة على العلاقة بين المخلوق والمخلوق، تقول: يجـوز وصف الله عز وجل بها أو إطلاقها على الله عز وجل مع الاعتقاد بأن حقـيقة العلاقة بين الإنسان وبين ربه من خلال هذه الالـفاظ، تـختلـف عن مـعنـى وحقيـقة الـعلاقة بـين الإنســان وغيـره من المخلوقات، أو بين الناس بعضهم وبعض.

وقد طبقنا هذه القاعدة السلفية علـى كلمات الوكالة والولاية والنصرة وغيرها، وثبت لنا أن فى القرآن الكريم إستخدامات لهـذه الكلمات للدلالة على العلاقة بين المخلوق والمخلوق، وكذلـك للدلالة على العلاقة بين المخـلوق والخالق جل وعلا بحسب القاعدة المذكورة.

ومن ثم يـجوز القول بـخلافة الإنسـان لله عز وجـل بمعنى يـليق بجـلاله ولا يتعارض مع كمالاته سبحانه وتعالى ويتفق مع افراده بالربوبية والالوهية .

ومما يرد أيضًا حـجة إبن تيمية رحمه اللـه تعالى أنه يثبت خلافـة الله عز وجل للإنسان كمـا ورد فى حديث دعاء السفر، فهل يـثبت خلافة الله للإنســان بالمعنى الذى يكون فيه الإنسان خليفة للإنسان أم بمعنى يليق بجلاله عز وجل.؟!.

فإذا كان الرد بالإيجاب، وهو لا يكون إلا كذلك؛ فلم لا نثبت خلافة الإنسان لله عز وجـل بمعنى يليق بـجلاله تعالى، لا يلـزم بمقتضاه أن يكون الـله عز وجل غائبا.

يؤكـد ما نقول مـا سبق أن أوردنـاه فى وصف الـله عز وجل نـفسه بـالوارث ووصف الإنسان أيضًا بالوارث، إذ أورثه الله تعالى الأرض وسيورث المؤمنين بإذن الله تعالى الجـنة، ولا يلزم من هذا موت المُوَرِّث سبحـانه الحى الذى لا يموت ولا يغيب سلطانه عز وجل.

والمعـنى اللائق بـجلال ربنا عـز وجل فى مسـألة خلافة الإنـسان له، ومسـألة خلافته للإنسان هو أن الإنسان خليفـة للـه تعالـى فى مجال الأمر التشريعي، وهو

عز وجل يخلف الإنسان إذا غاب أو مات فى أهله فى مجال القدر والأمر الكوني.

وبين المعنَيين والحقيقتين فرقان عظيم. ومن ثم يكون معنى دعاء الرسول ﷺ الذى أورده شيخ الإسلام بقوله رحمه الله: (كما ثبت عن النبى ﷺ أنه كان يقول: «أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل. اللهم أصحبنا فى سفرنا خيرا واخلفنا فى أهلنا») فصحبة الله تعالى هنا للمسافر بالمعنى الكوني، فيكون لهم معينا وهاديا ومهونا عليهم المشاق ودافعا عنهم الأخطار.

وخلافة الله تعالى المسافر فى الأهل تكون بحفظه لهم، ورزقه إياهم ونصرته لهم وكل ذلك من أمر الله عز وجل الكونى ومن أفعال الربوبية.

وقول إبن تيمية: «ويقال فى الوداع خليفتى عليك الله» هو بهذا المعنى أيضًا. وأيضًا نفهم قول المُعزِّى لأهل بيت رسول الله ﷺ: «إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت» بهذا المعنى أيضًا.

وبناء على ذلك كله يكون قول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وذلك لأن الخليفة لا يكون إلا مع مغيب المستخلف لا مع شهوده، والله شهيد على عباده، لا يغيب عنه شيء مدبر للجميع فلا يستخلف من يقوم مقامه فى ذلك، كما يستخلف المخلوق للمخلوق، بل هو الخالق لكل شيء والمدبر لكل شيء».

نقول: يكون قوله هذا صحيحًا مادامت الخلافة فى مجال الأمر الكوني، الذى به يتم الخلق والتدبير، والله عز وجل لا يغيب سلطانه ولا يتوقف تدبيره عن الأرض والسموات لحظة واحدة، ولا أقل من ذلك، ولا يخالفه فى هذا أحد من خلقه.

لكن إذا كان الإستخلاف فى إقامة حكمه، ونصرة دينه وتطبيق شرعه، فهذا أمر مختلف تمامًا عن سابقه، إذ أراده الله للابتلاء.

ومن ثم لا يكون خليفة الله عز وجل بهذا المعنى نائبا عنه لغيابه سبحانه وتعالى، ولكنها خلافة تشريف وتكريم إستخلفه الله تعالى مع شهوده الدائم، لحكمة شاءها جل وعلا قال الفيروز أبادى فى بصائر ذوى التمييز «والخلافة هى النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه أو لموته أو لعجزه وإما لتشريف المستخلف[1]».

كذلك يمكننا أن نتلمس الحكمة من استخلاف الله عز وجل للإنسان فى حقيقة الابتلاء، لقد خلق الله عز وجل الإنسان للابتلاء، ومن ثم فالصراع قائم بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بأذنه تعالى تحقيقًا للابتلاء، قال تعالى: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾[2]

ومع إيمان الجميع مؤمنين وشياطين بقدرة الله تعالى على الانتصار من الكافرين إلا أن الله تعالى ـ تحقيقا للابتلاء ـ يأمر المؤمنين بنصره ومحاربة أعدائه، وإقامة شرعه، فهل معنى هذا أنه يحتاج عز وجل أو يفتقر إلى عون عباده لهزيمة أعدائه، وما النصر إلا من عنده؟!.

إنما أمر عباده المؤمنين أن ينصروه فى مجال الفعل الإختيارى الإبتلائى الذى هو فى مجال الأمر الشرعى وهو عز وجل يمدهم بالنصر القدرى الكونى الذى لا يقدر عليه غيره سبحانه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [3] فالنصر المنسوب للإنسان هنا هو فى مجال الأمر الشرعى الإختيارى الابتلائي. والنصر الذى من عنده تعالى وحده هو فى مجال الأمر الكونى القدري، وما طلب الله تعالى النصر بهذا المعنى من عباده عجزا، تعالى وعز سبحانه عن ذلك، ولكنه طلبه منهم إبتلاءًا.

كذلك الشأن فى خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض هى فى مجال الأمر التشريعى وقد شاء الله ذلك تحقيقًا للإبتلاء أى أن الله عز وجل خلق الإنسان

---

(١) الفيروز أبادى/ بصائر ذوى التمييز مجلد٢ صفحة ٥٦٢..

(٢) ٤/ محمد　　　　(٣) ٧/ محمد

خليفة وأمره أن يـجعل خلافته فى الأرض لله وحده إبتلاء لـه، لا عجزًا من الله عز وجل أو فقرًا إلى من يكون نائبا له سبحانه.

والملاحظ فى هذا الدليل عند شيخ الإسـلام رحمه الله تعالى أن اللبس الحادث فيه يكمن فى أنه يحتج ببطلان القول بخلافة الإنسان الله تعالى فى الأرض بالمعنى الكونـي، وفى مجال أفعـال الربوبية، عـلى إبطال خـلافة الإنسان الله تعـالى فى مجـال توحيـد الألوهيـةوافراد اللـه تعالى بـالحاكمـية وكل هـذا فى مجـال الأمر الشرعـي. فإذ يكون الإسـتدلال صحيحًـا فى موضعـه لابطال الخلافـة فى الأمر الكوني، ينتـقل به على الفور إلى موضع آخـر لابطالها بالمعنى الشـرعى الابتلائى التكليفي، وفى هذا يكمن اللبس المفضى إلى الخطأ فى أكثر أدلته.

وهذا هو الذى سار عليه شيخ الإسلام رحمـه الله تعالى خلال عدة صفحات، إذ نجده يستدل فـيها على إبطال القول بـخلافة الإنسان الله تعالى فى إقـامة حكمه بالحجج المبطلة للقول بخلافته تعالى فى أفعال الربوبية.

ولعل السبب فى هذا أن شيخ الإسلام رحمه الـله تعالى لم يكن فى ذهنه عند رفض القول بخلافة الإنسان الله تعالى فـى الأرض، إلا المعنى والمفهوم الذى أثبته ابن عربى وأصحابـه للخلافة، الأمر الذى دفعه إلى رفض القـول بخلافة الإنسان الله تعالى مطلقا ، وهو غير صحيح.

٣٧- الدليل الثانى ونقضه :

قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه: «لست بخليفة الله ولكن خليفة رسول الله ﷺ حسبى ذاك» وذلك ردًا على من قال له: «يا خليفة الله».

هكذا أورد إبن تيـمية رحمه الله هذا الأثـر، لكن أحمد بن جنبـل رحمه الله أورده مع إختلاف فى لفظه قال: (حدثنا مـوسى بن داود حدثنا نافع عن ابن عمر عن إبن أبى ملـيكة قال: قيل لأبى بكر: يا خـليفة الله فقال: «أنا خـليفة رسول

(١) حديث ٥٩ من مسند الإمام أحمد مجلد ١ صفحة ١٧٩ بتحقيق أحمد شاكر.

الله ﷺ وأنا راض به وأنا راض»)[1].

قال المحقق أحمد شاكر: «إسناده ضعيف لانقطاعه فإن ابن أبى مليكة ـ بالتصغير ـ واسمه عبد الله بن عبيد الله تابعى ثقة ولكنه لم يدرك أبا بكر»[1] ومع هذا فإن الذى أراه أن هذا الضعف الذى أشار إليه الاستاذ أحمد شاكر رحمه الله لا يمنع من الاستشهاد بهذا الأثر، ومن ثم لزم مناقشة الروايتين.

أما رواية ابن تيمية فقد ورد فيها قول أبى بكر رضى الله عنه: «لستُ بخليفة الله» بينما لم يرد هذا القول فى رواية أحمد رحمه الله.

كذلك ورد فى رواية ابن تيمية قول أبى بكر رضى الله عنه: «حسبى ذاك» بينما ورد فى رواية أحمد قول أبى بكر رضى الله عنه: «وأنا راض به وأنا راض به وأنا راض» ولعل المعنى بين الروايتين واحد رغم إختلاف اللفظ.

فإذا أردنا مناقشة هذا الأثر قلتُ أنه ليس بحجة لرأى إبن تيمية، بل هو دليل واضح على صحة جواز القول بخلافة الإنسان الله تعالى فى الأرض، وهذا الحكم سواء بالنسبة للروايتين لأنه من المسلم به أن من قال للصديق رضى الله عنه: «يا خليفة الله» هو أوهمُ من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فلو لم يكن لديهم من العلم عن رسول الله ﷺ ما يطمئنون به إلى جواز هذا الوصف للحاكم المسلم ما وصفوا به الصدِّيق ولا دعوه بهذا اللقب[2].

لكن لما علموا أنه من الجائز وصف الإنسان به، وبخاصة السلطان المسلم، وعلموا أنه ليس بعد رسول الله ﷺ أفضل من أبى بكرٍ الصديق كصاحب للرسول ﷺ، ثم كإمام للمسلمين من بعده، وقد كانوا من قبل يخاطبون النبيﷺ بقولهم

(١) تعليق أحمد شاكر على المسند نفس الجزء والصفحة.

(٢) وقد انتقل هذا الفهم للتابعين والأئمة من بعدهم بدليل قول الإمام الشافعى رحمه الله تعالى:

شهدتُ بأن اللهَ لا ربَّ غيرُهُ ... وأشهدُ أنَّ البعثَ حقٌّ وأخلَصُ

وإن عرى الإيمان قول مبين ... وفعل زكى قد يزيد وينقص

وإن أبا بكرٍ خليفةُ ربِّه ... وكان أبوحفص على الخير يحرصُ

من ديوان الإمام الشافعى صفحة ٥٤ نشر مؤسسة الزغبى ودار الجيل بيروت لبنان ط٣ ١٩٧٤

يا رسول الله، فلما إجتهدوا فى اللقب الذى يدعون به الصديق من بعده. إنتهى إجتهادهم إلى قولهم له: «يا خليفة الله».

فهذا يدل على أن وصف الإنسان بأنه خليفة الله جائز شرعًا.

يؤكد هذه النتيجة قول الصديق رضى الله عنه وأرضاه: «لست بخليفة الله ولكن خليفة رسول الله ﷺ وحسب ذاك». فنفى هذه الصفة عن نفسه، رضى الله تعالى عنه ليس دليلاً على عدم جواز وصف الإنسان بها، أو وصف الإمام الصالح بها، وذلك لعدة أسباب: منها أن الصديق رضى الله تعالى عنه لم يصرح بأن هذا غير جائز فى حق الله تبارك وتعالى ولم ير الصديق رضى الله تعالى عنه فى ذلك شركا وكفرا بالله تعالى، ولو علم أن فى هذا شركًا لما سكت عن بيانه، فسكوت الصديق عن مثل هذا البيان دليل عند الأصوليين عن خلو هذا التعبير من الشرك على خلاف ما قرر إبن تيمية رحمه الله.

كما أن سكوته عن نهى القائل عن هذا التعبير مطلقًا دليل على جوازه.

أما النفى فى عبارة الصديق رضى الله تعالى عنه فهو منصب على وصفه هو بهذا الوصف ليس لعدم جواز وصف الانسان به، بل لأنه إستصغر نفسه، وتواضع بها، فأبى أن يحمل نفس الوصف الذى إستحقه رسول الله ﷺ كنبى ورسول وعبد لله عز وجل وقائد وإمام للمسلمين من قبله. فهو خليفة الله الأعظم.

صحيح أنَّ أحدًا لم يدع النبى ﷺ بقوله: «يا خليفة الله» لأن الله عز وجل قد حدد درجته الرفيعة وعين صفته وذكر اللقب الذى يجب أن يُخَاطب به عليه الصلاة والسلام وهو رسول الله ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ،ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليمًا﴾[1].

ولعل الحكمة فى ذلك هى أن قولنا للنبى يارسول الله يغنى عن وصفه بأنه

---

(١) ٤٠/ الأحزاب.

خليفة الله تعالى ويزيد، إذ أن الوصف بالخلافة لله هو لغيره من الانبياء والرسل وسائر الحكام الصالحين، ومن ثم فوصفه بالخلافة لله عز وجل متضمن فى دعائه: «برسول الله» جل وعلا، ومن البديهى أن يُترك النداء الذى يحمل بعض الفضل، والذى هو أمر مشترك بينه وبين غيره، إلى النداء أو اللقب الذى يحمل كل الفضل، ويدل على ما يتميز به أشرف الخلق ﷺ على سائر البشر والنبيين والرسل ، لذلك ذكر الله تعالى فى الآية كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين لأن هذا مما يفضل به عليهم جميعًا.

ومن ثم لما قيل للصديق رضى الله تعالى عنه: «يا خليفة الله» وجد فى هذا اللقب ما يجعله متصفا بصفة كانت لرسول الله ﷺ، فقال من قبيل التواضع لله عز وجل إستصغاراً لنفسه بجانب رسول الله ﷺ: «لست بخليفة الله» فنفى عن نفسه فقط هذه الصفة، ولم ينفها عن الرسول ﷺ، ولم ينفها عن غيره من البشر، ودليل هذا قوله: «ولكن خليفة رسول الله» وإلى هنا والمعنى يشير إلى أنه يقصد من هذا التعبير: «يكفينى فضلاً من الله وشرفًا أن أكون خليفة رسول الله، ولكنه مع ذلك ذكر هذا المعنى ووضح مقصوده بقوله: «وحسبى ذاك» فلا أزكى نفس فأقبل أن يقال لى يا خليفة الله، كما كان الرسول ﷺ بهذا الوصف.

يؤكد هذا أن عبارة النفي: «لستُ بخليفة الله» لم ترد فى رواية أحمد رحمه الله، ومن ثم فليس للروايتين من دلالة سوى تواضع الصديق وإيثاره أن يدعى خليفة رسول الله.

ولعل من الأسباب التى دعت الصديق رضى الله تعالى عنه إلى رفض تسميته «بخليفة الله» هو أن كل وصف ليس صالحا لأنْ يشتق منه إسم للموصوف يدعى به. ومن ذلك وصف الحاكم أو السلطان بأنه ظل الله تعالى فى الأرض، إذ لا يصح أن يسمى السلطان نفسه بذلك ولا أن يُخاطبه من يحدثه بذلك، بالرغم من وصف الرسول ﷺ للحاكم بهذا الوصف.

فهذا الوصف هو عام لكل سلطان يحكم بما أنزل الله، والمفروض فى لقب

الحاكم أن يميزه عن غيره من الحكام، كما يميزه عن المحكومين، لذلك تحول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عن لقب خليفة رسول الله ﷺ إلى لقب أمير المؤمنين فقد إستصغر نفسه هو الآخر بإزاء الصديق رضى الله تعالى عنهما، كما أنه وجد أن هناك مشكلة ستنجم عن قبوله النداء، بقولهم خليفة خليفة رسول الله ﷺ، خاصة أنه يعلم أن الخلافة ستمتد إ لى ما شاء الله تعالى فى كثير من الحكام فتحوَّل إلى لقب أمير المؤمنين.

فليس أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه مستحقًا لِلَقب خليفة رسول الله ﷺ، لأنه حكم بعده فقط، كما يقول شيخ الإسلام، وإنما إستحقاقه لهذا اللقب لأنه رضى الله تعالى عنه خلف الرسول ﷺ فى إقامة حكم الله وسنة نبيه ﷺ، وحيث أن حكم رسول الله ﷺ وسنته هو دين الله، وحيث أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله ومن أطاع أمير رسول الله فقد أطاع رسول الله لأن خليفة الله هو الذى يأمر بما أمر به الله ويحكم بما حكم به الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصاني»[1] ومن ثم فإن قول القائل أن أبا بكرٍ الصديق خلف رسول الله فى الحكم وإقامة الدين ونصرته، كقوله بأنه خليفة الله عز وجل فى ذلك، لأن جوهر معنى خلافة الله تعالي فى الأرض هو طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فيما أمر أن يكون منهما قائما فى حياة الناس، فإذا جاء عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بعد الصديق وحكم بحكم الله ورسوله فى الناس فهو خليفة لرسول الله ﷺ، وخليفة فى نفس الوقت لله عز وجل فى الأمر الآلهى الشرعي، وخليفة للصديق رضى الله عنه، بمعنى التعاقب الزمنى فى الحكم.

وحيث أن الحكم لله وحده، والرسول ﷺ مبلغ عن ربه، ومنفذ لحكمه

---

(١) متفق عليه، ورواه البخارى فى الصحيح فى ك الأحكام باب قول الله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾.

وكذلك الصديق لم يكن له سوى تنفيذحكم الله عز وجل، كما نفذه رسوله ﷺ، فإن عمر رضى الله تعالى عنه يكون بإقامة حكم الله وتطبيقه ونصرته فقد أصبح خليفة عن الله عز وجل فى هذا الأمر، حتى ولو لم يُدع بهذا اللقب، لأنه ليست كل صفة صالحة لأن يشتق منها إسما للموصوف، كما قررنا من قبل.

كذلك يمكننا أن نذكر فى هذا المقام، أن الصحابة رضى الله عنهم قد سمعوا كلمة الخلافة والخلافة الراشدة من رسول الله ﷺ فى أكثر من حديث منها قوله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله ملكه أو الملك لمن يشاء» وفى رواية: «ستكون الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون الملك»(1).

هذا عدا ما سبق أن أوردناه من أحاديث صحيحة فى فصل سابق.

ولعل هذا من الأسباب التى جعلت القائل أو القائلين للصديق رضى الله عنه: «يا خليفة الله» ينادونه بهذا اللقب.

فالخلافة فى مثل هذه الأحاديث سواء أكان المقصود منها أنها خلافة الله عز وجل أم خلافة لرسول الله ﷺ، فإنها تؤول فى النهاية إلى أن تكون خلافة لله عز وجل وحده، كما أن طاعة الرسول ﷺ تؤول إلى أن تكون طاعة لله تعالى وحده.

وكذلك طاعة أولى الأمر تؤول إلى أن تكون طاعة لله عز وجل ومن ثم فالخلافة لرسول الله ﷺ تؤول إلى أن تكون خلافة لله عز وجل.

ومن ثم يكون وصف أبى بكر رضى الله عنه لنفسه بأنه خليفة رسول الله ﷺ هو وصف له بأنه خليفة الله عز وجل فى نفس الوقت، لأن خليفة خليفة الله تعالى هو خليفة الله عز وجل.

٣٨ - الدليل الثالث ونقضه:

يعرض شيخ الإسلام رحمه الله تعالى دليلا عقليا آخر مضمونه أن ذا السلطان والملك إما أن يكون عبدًا مطيعًا لله تعالى ولرسوله منفذًا لحكمه ناصرًا لدينه، وإما

(1) رواه أبو داود فى كتاب السنة فى باب ٨ ورواه الترمذى فى كتاب الفتن باب ٤٨ ح ٢٢٢٦ وقال حديث حسن ورواه أحمد فى المسند صفحة ٤ صفحة ٢٧٣.

وهذا صحيح إذ لا يستحق أن يكون خليفة لله تعالى من يعمل بخلاف أمره ويطبق غير شرعه.

ولكن أليس هذا إقرارًا ضمنيًا من شيخ الإسلام رحمه الله بأن المطيع لله الحاكم بشرعه تعالى مستحق أن يكون خليفة لله عز وجل؟!.

إن نفى إبن تيمية رحمه الله إستحقاق العاصى لهذا الوصف يتضمن إثبات إستحقاق المطيع لله عز وجل له، لأن النائب ملزم بطاعة من أنابه عنه، ولو لم يطعه وأطاع غيره فإنه يكون قد جعل نفسه نائبا لغيره، ومن ثم فمن أطاع الله تعالي، فإنه يكون قد جعل نفسه خليفة له، وبالرغم من وضوح هذا المعني، يرفض إبن تيمية رحمه الله، وصف المطيع بهذه الصفة، ويستطرد. فى حديثه فيصف ذوى السلطان المطيعين لله عز وجل بأنهم من: «عباد الله كالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين» عازفا عن وصفهم بأنهم خلفاء لله تعالى فى الأرض، ثم يقول: (فقد ظهر أنه لا وجه أن يُجعل واحد من هذين خليفة عن الله لا من يعبده ويطيعه، ولا من يشرك به ويعصيه).

والحق أن مقدمات قوله لا تؤدى إلى هذه النتيجة، بل تؤدى إلى نصف هذه النتيجة فقط.

وهى أنه إذا بطل وصف الحاكم الذى لا يحكم بما أنزل الله تعالى بأنه خليفة الله تعالى فى الأرض، فإن المقدمات لا تؤدى إلى إبطال تسمية أو وصف الحاكم الصالح المسلم بأنه خليفة الله تعالي.

والسبب فى هذا اللبس عنده هو عدم التمييز بين الخلافة فى مجال الأمر الكونى والخلافة فى مجال الأمر التشريعي.

ويكاد شيخ الإسلام يصل إلى هذه المسألة، لكنه لا يتوقف عندها ولا يفصلها. بدليل قوله بعد ذلك: (هذا من جهة القضاء والقدر والأمر الكونى فإن الله خالق كل شيء)[1] فإذا علمنا أن هذه العبارة وردت بعد كلامه عن انقسام ذوى السلطان

---

(١) راجع هذه العبارة فى سياقها ضمن أقول إبن تيمية فى الخلافة فى نقد أساس التقديس.

إلى عاصى ومطيع، لتبيَّن لنا أن فى السياق سقطًا والعبارة غير مستقيمة المعني، لأنه لم يكن يتحدث قبل هذه العبارة عن الأمر الكونى وانما كان يتحدث عن موقف ذوى السلطان من أمر الله الشرعى المتمثل فيما أنزله من أحكام لتطبيقها.

ومن ثم فإن الأرجح حدوث سقط فى المخطوط يجب إستكماله وتصحيح السياق ليصبح كالتالي:

(هذا من الأمر التشريعى أما من جهة القضاء والقدر والأمر الكوني) أن يتضمن السياق بعد ذلك الكلام عن أفعال الربوبية من الخلق والإحياء والتدبير وكلها فى مجال الأمر الكوني.

ثم يستطرد شيخ الإسلام فى هذا المجال ويتكلم عن خلق الله تعالى بالأسباب، ويبطل القول بأن الفاعل من الناس خالق لفعله أو محدث له، كما يبطل الاحداث والخلق، ومن ثم ينتهى إلى إبطال القول بخلافة الانسان أو السبب عن الله تعالى فى إحداث الأفعال والنتائج لأنه (لو جاز ذلك لكان كل مخلوق خليفة عن الله بل جميع خلقه مسخر بأمره مُصرَّف بمشيئته مدبر بقدرته منظم بحكمته) وشاهد الدليل عنده، أنه لو جاز القول بأن الإنسان خليفة عن الله تعالى لأنه فاعل، وأنه نائب عن الله فى إحداث الفعل، وخلقه، لكان كل مخلوق خليفة عنه عز وجل لأن لكل مخلوق فعله وتأثيره.

وهذا حق إذ لا خالق ولا محدث إلا الله تعالى كما أنه لا خلافة بالمعنى الكونى لله عز وجل، ولا نزاع فى هذا مطلقًا بين المسلمين بعامة وأهل السنة والجماعة منهم بخاصة.

لأن إفراد الله عز وجل بالخلق والتدبير وكل أفعال الربوبية هو جوهر التوحيد الاسلامي.

وإنما النزاع الذى أحدثه إبن تيمية فى إثبات خلافة الإنسان عن الله عز وجل فى مجال الأمر التشريعي. ولم ينازع جمهور المفسرون فى ذلك لا قبل إبن تيمية

رحمه الله تعالى ولا بعده إلا بعض تلاميذه وقد ذكرنا أن هذا قد يحدث منهم رحمهم الله تعالى ـ كرد فعل لاثبات ابن عربى والاتحادية خلافة الانسان الله تعالى فى مجال الأمر الكوني، أى فى ربوبية الله للخلق.

والصواب هو إبطال قول ابن عربى فقط.

٣٩- نقض الدليل الرابع :

يستدل إبن تيمية على رأيه بأن الخليفة لا يخلف المستخلف إلا لعجزه عن القيام بالأمر وحده فيتخذ من يخلفه كمعين له. والله تعالى هو الغني.

وهذا حق ولكنه دليل ضد من يقول بالخلافة فى الأمر الكونى دون الأمر التشريعى لأن خلافة الإنسان فى الأمر التشريعى يقوم على طاعة الانسان لربه وعبوديته له وهذا لا يفيد حاجته للانسان سبحانه، بل يؤكد حاجة الإنسان وفقره لله عز وجل. بخلاف القائل بخلافة الإنسان لله فى الأمر الكونى فإنه يجعل الانسان شريكًا لله عز وجل فى الخلق والتدبير، وهذا ينسب فقر وحاجة الله إلى معين له عز وجل عن ذلك فهو الغنى عن الشريك والمعين.

ويستطرد إبن تيمية رحمه الله تعالى فى هذا الدليل، ويذكر أن من يدعى خلافته لله تعالى فهو من الحكام الفاسقين المتألهين المتكبرين.

ولا شك أن هؤلاء من أمثال النمروذ وفرعون الذين جعلوا أنفسهم آلهة وأربابا صراحة وفلسفتهم فى ذلك الطغيان هى فلسفة الحلولية والاتحادية القائلة بأن الانسان خليفة الله تعالى فى الأمر الكوني. كما سنجد هذا عند ابن عربى الذى جعل الولى خالقًا حافظًا.

ولكن إبن تيمية رحمه الله تعالى لا يميز بين الخلافة فى الأمر التشريعى وهذا المعنى المرفوض فى الخلافة فبينما نجد أن معنى خلافة الله تعالى فى الأمر الكونى يتضمن نسبة الربوبية والالوهية لغير الله تعالى غير أن معنى خلافة الحاكم أو الانسان الله تعالى فى الأمر الشرعى يتضمن حتما وجوب تحقيق الإنسان لعبوديته

لله وحده بإفراده بالطاعة وهذا يوضح لنا خلط إبن تيمية بين المعنيين، بالرغم من أن بينهما فرقان عظيم.

لأن نائب الله عز وجل فى إقامة دينه وتنفيذ أمره الشرعى هو مطيع له والمطيع عابد لمن أطاعه. ومن ثم تتضمن الخلافة بهذا المعنى العبودية لله تعالى بعكس الخلافة بالمعنى الكونى فإنها تتضمن أو تقوم على رفض العبودية لله وإدعاء الربوبية أو التأله أو تحقيق العبودية لغير الله تعالي.

فالخلافة بالمعنى الشرعى مرتبطة بالتوحيد بينما هى بالمعنى الكونى مرتبطة ارتباطا وثيقًا بالكفر والشرك بل الأولى هى التوحيد، والثانية هى الشرك بعينه.

٤٠- الدليل الخامس وبيان مواضع اللبس فيه:

يقدم ابن تيمية دليلاً عقليا آخر لإبطال القول بخلافة الانسان الله بأى معني، فى حين لا يبطل الدليل إلا القول بخلافة الانسان الله تعالى فى مجال الأمر الكونى فقط.

ومضمون الدليل أن المستخلِف والخليفة كالموصى والوصى والموكل والوكيل، ومن ثم يكون هذا من جنس ذاك، وغالبا ما يفعل الوكيل من الأعمال ما لا يعلمه الموكل أو الموصي، ثم يقول إبن تيمية: (وكل هذا فى حق الله تعالى ممتنع وإعتقاد ذلك فى حق أحد هو من أعظم الشرك ومن باب إتخاذ البشر أربابا).

وهذا حق مادام المقصود به الخلافة فى مجال الأمر الكونى ولا نزاع فيه. ولكنه غير صحيح بالنسبة للقول بأن الانسان خليفة عن الله فى إقامة دينه وتحمل رسالته كما قال الله عز وجل: ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين**﴾[1] فأثبت سبحانه أنه وكل القوم الذين بعث فيهم نبيًا منهم بالرسالة المنزلة عليه وهذا معناه أنهم إذا تحملوها ونصروها وأقاموها فى واقع البشر صاروا خلفاء الله عز وجل لاختيار الله عز وجل لهم وكلاءًا له على رسالته.

---

(١) ٨٩/ الأنعام.

وحسب قول ابـن تيمية رحمـه الله أن الخليفـة من جنس الوكيـل فإن فى هذه الآية الكـريمة التى وكل الـله فيها الانسـان على أمره الشـرعى دليلاً واضحـا على صحة خلافة الانسان الـله تعالى فى أمره الشرعي، وأنه ليـس بالضرورة أن يكون الوكيل من جنس الموكل ولا الخليفة من جنس المستخلف.

ويمضى شـيخ الاسلام مسـتدلا على مـا يقول فى هـذا الدليل بـقوله تعـالي: **﴿أتخذوا أحـبارهم ورهبانـهم أربابا من دون اللـه والمسيح بن مـريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾**[1].

والآية الـكريمة تحدثـنا عن أتخـاذ أهل الكتـاب من اليهـود والنصارى الأحـبار والرهبان أربابا مـن دون الله تعالى بأعطائهـم حق التشريع حتى حرموا عـليهم ما أحل اللـه فحرموه، وأحـلوا لهم ما حـرم الله فأحلـوه. وهذا معنـاه أن الأحبار والرهبان لم يكونـوا خلفاء الله عز وجل فى أمره التشريـعي، إذ الخلافة عن الله عز وجل فى هذا الأمر معنـاها إقامة شرع الله تعالى وإتباعه والمحافـظة عليه ومنع التحريف فيه.

لكن الأحبار والرهبان قالوا لأتباعهم: إن من حقنا أن نغير من شرع الله ونبدل ونأتى بأحكام مخالفة لحكمه. وقال لهم الاتباع إذًا نتبع شرعكم وأمركم، حتى لو كان مخالفا لشرع الله تعالى وأمره.

وهذا معنـاه أن الأحبار والرهبان جعـلوا من أنفسهم خلـفاء الله تعالى بـالمعنى الكوني، أى شركاء له عز وجل، إذ أعطوا أنفسهم حق التشريع والتنظيم الذى هو حق لله وحده[2]، فجعلوا أنفسهم أربابا.

ثم إن طاعة النـاس لهم فى معصية اللـه عز وجل مع علمهم بذلـك تُعد عبادة لهم من دون الله واتخاذهم خلفاء لله تـعالى فى مجال الهدى والتشريع الذى هو من خصائص الربوبية، وهذا معناه أن اليهود والنصارى إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى بالتسليم لهم بحق التشريع.

---

(١) ٣١/ التوبة .

(٢) وهو من خصائص الربوبية.

روى الأمام أحمد والترمذى كما أورد ابن كثير فى تفسير الآية: «عن عدى ابن حاتم رضى الله تعالى عنه: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر فى الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم مَنّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبتهُ فى الاسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عديٌّ إلى المدينة، وكان رئيسا فى قومه طيء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال: فقلت أنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدى ما تقول؟ أيضرك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلها غير الله؟» ثم دعاه إلى الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق: فلقد رأيت وجهه أستبشر: ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون»)[1].

كما أن فى قول النصاري: عيسى إبن الله تعالى هو أيضًا من قبيل القول بأنه خليفة عن الله تعالى فى الأمر الكوني، لأنهم يفسرون بنوة عيسى لله - عز وجل وتعالى عن هذا الوصف علوا كبيرًا- بالحلول الالهى فى شخص عيس على مذاهب مختلفة فيما بينهم، وهو نفس قول الحلولية والإتحادية كما سنعرض لمذهبهم عند إبن عربى باذن الله تعالى.

ونتيجة هذا القول عند النصارى أنهم يصفون عيسى عليه السلام بصفات إلهية تخرجه عن بشريته وينسبون إليه من الأفعال فى الدنيا والآخرة مالا يجوز أن يُنسب إلا لله تعالى ولا يقدر عليه إلا الله عز وجل وحده. ومن ثم يكونوا قد إتخذوه ربا من دون الله تعالى وجعلوه خليفة عن الله عز وجل فى الأمر الكونى بإعتقادهم أنه ابن الله، جل وعلا عن ذلك علوا كبيرا.

(١) مسند الإمام أحمد. سنن الترمذي. تفسير ابن كثير.

قال تعالى ناهيـا عن ذلك بالنسبة لأى مخلوق نبيـا كان أم ملاكا: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتمْ مسلمون؟!﴾[1].

أى أن جعل أى مخلوق خليفة لله تعالى فى الأمر الكونى يعنى إتخاذه ربا من دونه تعالي.

ولكن هذا لا يـستتبع نفس الحـكم على القول بـخلافة الإنسان الله تـعالى فى الأمر الشرعي.

يؤكد هذا ما قرره شـيخ الاسلام رحمه الله تعالى بعد ذلـك من وصف للرسل بأنهم المبـلغون أوامر الله عز وجل، وبنـاء على هذا كانت طاعة الرسـل طاعة لله تعالي.

ثم يبـاعد شيخ الإسـلام بين الرسول (المـبلغ أمر غـيره) أى أمر ربه وبـين من يوصف بأنه نائب له وخليفة عنه يتصرف كما يتصرف الاله، ومن ثم ينتهى إلى أن بينهمـا فرقان عظيم والمقارنة الـتى أجراها شيخ الاسلام بين الرسـول والنبى وبين إنسان أو حاكم كافر يـدعى الربوبية ويتصرف بحسب هذا الإدعـاء الكاذب فيحكم بهواه، هذه المقارنة قائـمة على نفس الخلط بين الخلافة بالمعنـى التشريعى والخلافة بالمعنى الكوني.

والمباعدة بينـهما قائمة بل والمباينة والمخـالفه بينهما قائمة، بـالرغم من كون كل منهما خـليفة، فمن أطاع اللـه تعالى وبلغ أمره ونهـيه ونفذه فهو خليـفة الله عز وجل، ومن أطاع غـير الله عز وجل مثـل: نفسه أو شيطانـه أو أى طاغوت آخر فهو خليفة لمن أطاعه من دون الله. وكل ذلك فى مجال الأمر الشرعي.

وإذا سلمنا ببطلان وصف الحاكم الكافر بخلافة الله تعالى فى مجاليْ الأمرين: الكونى والشرعى معا؛ فما الذى يمنع أن يكـون الحاكم بما أنزل الله تعالى نائبا عن

---

(١) ٨٠/ آل عمران.

الله تعالى فى تنفيذ حكمه وإقامة شرعه، أى فى تنفيذ الأمر الشرعى وحده. بإعتبار أن الله تعالى جعله وكيلا عنه فى حمل الرسالة ونصرتها بنص الآية.

لقد أورد شيخ الإسلام رحمه الله حديثًا للرسولﷺ فيما رواه البخارى قال: (إنى والله لا أعطى أحدًا ولا أمنع أحدًا إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت)[١] وذلك بقصد إثبات الفرقان بين دور الرسل كمبلغين ومنفذين لأمر الله، وغيرهم من الحكام الكفرة الذين يحكمون بغير شريعة الله عز وجل، وهذا كله حق ولكنه لا يثبت بطلان وصف الرسل والحكام المسلمين بالخلافة عن الله تعالى فى تنفيذ الأمر الإلهى الشرعي، لأن دور الخليفة بهذا المعنى قاصر على تنفيذ شرع الله عز وجل، ومن ثم فهو يستحق أن يوصف بأنه نائب الله عز وجل فى هذا الأمر فقط، لأن النائب هو المنفذ لأمر من هو نائب له، والخليفة هو المنفذ لحكم من هو خليفة له، والوكيل هو القائم بأوامر موكله.

ولو نفذ حكم نفسه أو أمر غيره مخالفا حكم من أستخلفه أو أنابه عنه فقد خانه، وإنخلع عن خلافته له، وجعل نفسه خليفة لمن نفذ أمره وطبق حكمه وشرعه.

وكل هذا محصور فى تنفيذ الشرع فقط.

يؤكد هذا المعنى ما ختم به شيخ الاسلام فتواه فى هذه المسألة، إذ قال: (فأما من يتصرف فى عباد الله بمشيئته وهواه فيعطى من أحب ويولى من أحب بغير أمر الله ولا إذنه فهذا عدو لله جبار مختال من جنس فرعون...... فهل يكون هؤلاء نوابا عن الله خلفاء عنه وهم أعداؤه وعصاته كإبليس؟!) والإجابة بداهة بالنفي، فلا شك أن أمثال هؤلاء ليسوا خلفاء الله ولا نوابا له، لأنهم لم ينفذوا أمره ولم يقيموا حكمه، ولكن فى هذا الحكم على أمثال هؤلاء دليل ضمنى يثبت صحة وصف الرسل والحكام المؤمنين بأنهم خلفاء الله تعالي؟ إذ أن علة منع

---

(١) صحيح البخارى ك العلم باب ١٣ كما رواه مسلم كتاب الزكاة / ١٠٠.

وصف من لم يحكم بما أنزل الله تعالى بالخلافة لله عز وجل توجب وصف من يحكم بما أنزل الله تعالى بهذا الوصف.؟

ومع هذا نقول: حتى فرعون وأمثاله خلفاء لأن الله تعالى قال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ والجعل يفيد الجبر، فهؤلاء أيضا خلفاء، ولكن ليسوا خلفاء لله عز وجل، بل خلفاء لغيره: للطاغوت أو للشيطان أو لأنفسهم. أو لأى شيء من دون الله تعالي.

كما أن كل مولود من بنى آدم هو خليفة بمقتضى الخلقه والجبلة أى بمقتضى الآدمية، ولكن هو خليفة بالخلافة الفطرية القرينة والملازمة وجوداً وعدما لمقام أحسن تقويم الفطرى الذى خلقه الله تعالى فيه.

وهذه الخلافة الفطرية هى حالة محايدة وقوة ذاتية مجردة للانسان ليست خلافة عن الله تعالى وليست خلافة لغيره إذ لا تتحدد وجهتها إلا بالابتلاء وبالارادة الانسانية المختارة وهذا ما سنعرفه تفصيلاً فى الفصل القادم بإذن الله

٤١- أقوى الشبهات العقلية المانعة من القول بخلافة الله تعالى ومكمن اللبس فيها:

المشكلة الرئيسية التى منعت شيخ الاسلام رحمه الله تعالى من اثبات الخلافة بمعنى النيابة عن الله عز وجل فى تنفيذ الأمر الشرعى تكمن فى أن الآية تتضمن شمول الوصف لكل الناس ولكل الحكام بالخلافة.

فإذا صح القول بأن الرسل والأنبياء وصالحى الحكام والمؤمنين خلفاء الله عز وجل فى الأرض بالمعنى الذى أثبته الطبرى رحمه الله تعالي، فإن هذا لا يصح كوصف لبقية الحكام وبقية الناس من غير المؤمنين، وبخاصة أن أكثر الحكام فى تاريخ البشرية لم يحكموا بما أنزل الله تعالي، وتألهوا على أقوامهم وتجبروا فى الأرض بغير الحق.

ومن ثم يبطل بناء على هذا الاختلاف القائم بين هذا المفهوم لآية الخلافة وبين الواقع الانسانى والتاريخي، إثبات خلافة الناس كلهم لله تعالى فى الأرض.

ولقد ظَلَلْتُ بضع سنوات أفكر فى هذه القضية حتى هدانى الله عز وجل إلى حلها من خلال حقيقة الإبتلاء، إذ الفصل بين حقيقة الإستخلاف وحقيقة الابتلاء يستتبع اللبس الحادث فى هذه المسألة.

فحقيقة الإستخلاف جزء رئيسى من حقيقة الانسان ومن الكينونة البشرية، وحقيقة الابتلاء هى الحكمة التى من أجلها خلق الله عز وجل السماوات والأرض والانسان فاستخلاف الانسان فى الأرض إذًا يرتبط إرتباطًا وثيقًا بالإبتلاء.

واللبس الحادث فى هذه المسألة يكمن فى إغفال حقيقة الابتلاء عند تفسير الخلافة.

والاعتراض الذى عرضه شيخ الاسلام على إثبات صفة الخلافة لله عز وجل فى الأرض بالنسبة لتنفيذ الأمر الشرعى هو أقوى الإعتراضات ولا حل له إلا من خلال الربط بين الابتلاء والخلافة.

لذلك سنفرد لهذا الموضوع صفحات لبيانه وذلك بعد عرض القول الفصل فى هذه المسألة.

وينكشف لنا هذا اللبس إذا علمنا أن الله عز وجل خلق ويخلق الإنسان خليفة بمقتضى الفطرة، إذ يكون الطفل خليفة بالمعنى الفطرى أى بمقتضى الخلافة الفطرية، وحيث أن الفطرة التى فطر الله الناس عليها طبيعة أولية فى النفس الإنسانية دافعة للحنيفية، فإن الناس جميعًا فى مرحلة طفولتهم يكونوا خلفاء الله تعالى بمقتضى الخلافة الفطرية فإذا ما بلغ أفراد البشرية سن التكليف ودخلوا دنيا الابتلاء ومارسوا إختيارهم الحر، فإنهم يصبحوا ـ بعد تكرار الاختيارات وتراكم الأعمال الحرة المختارة ـ إما خلفاء الله تعالى وإما خلفاء الشيطان، كل حسب النجد الذى إختاره من النجدين الذين أمامه.

ومعنى هـذا أن كل إنسان قد جعـله الله تعالى خـليفة، أى أنه لا يسـتطيع أن يعيش فى الأرض إلا خـليفة، وذلك بمقتضى الجـعل الالهى الذى يفيد الـتصيير، والقدر الالـهى الجبري. لكن الخـلافة الفطريـة فى مرحلة الـطفولة تختـلف عن الخلافة الإختـيارية الإبتلائية فـى مرحلة التكـليف، إذ يكون الانسان فـى المرحلة الأولى خليفة الله تعالى بمقتضى الفطرة، لكـنها خلافة فطرية لا يُثاب عليها. بينما يكون فـى نهاية المـرحلة الابتلائـية إما خليـفة الله تـعالى بإختـياره، وإما خلـيفة الطاغوت بإختياره، وهو مُجازى على الأولى بخير وعلى الثانية بالعذاب.

والدليل علـى هذا أن آية الخلافة ﴿**إنى جاعل فى الأرض خـليفة**﴾ لم تتضمن بيانًا عن المخلوف أى الذى سيكون الانسان خليفة له. فالثابت منها أن الاستخلاف حقيقة رئيسية من حقائق النفس الانسانية.

أما لمن يكون الانسان خـليفة فى نهاية مرحلة الخلافة الإبتـلائية؟! فهذا متروك لإختـياره هو فـى مرحلـة الابتلاء، الأمـر الذى هـو ثابت وواضـح بآيات كـريمة ومحكمة الدلالة فى الـكتاب وبأحاديث صحيحة محكمة الـدلالة أيضًا فى السنة. وهذا ما سنراه بعد ذلك بشيء من التفصيل بإذن الله تعالي.

لكن عدم الإنتباه إلى العلاقة الوثيقة بـين حقيقة الاستخلاف وحقيقة الإبتلاء، وكذلك عدم التمـييز بين الخلافة الفطرية والخـلافة الابتلائية هما علة الـلبس لهذه الشبهة السابق ذكرها.

وليس الـدليل السابق لإبـن تيمية- يرحـمه الله تعـالى ـ سوى تعبيـرًا عن هذه الشبهة، وهو ليس دليلاً صحيحًا، وإن كان يـبدو كذلك لقيامه على لبس لا يرتفع إلا بالتمييز بين الخلافة الفطرية والخلافة الابتلائية، إذ ينقسم الناس ـ بمقتضى هذه الأخيرة ـ إلى خلفاء الرحمن وخلفاء الشيطان.

ومن ثم يبطل قول القائل: لا نقول خليـفة الله تعالى لأن أكثر الناس ـ حكاماً ومحكومين ـ كافرون وعصاة وأعداء لله عز وجل؟

إذ يكون الرد عليه بأن من أختار طاعة الله تعالى هو الذى جعل نفسه خليفة للرحمن ومن أطاع غير الله عز وجل وخالف دينه فقد جعل نفسه خليفة للشيطان.

ومن ثم تبطل هذه الحجة بالرغم من إثبات الخلافة الفطرية لجميع الناس بمقتضى الجبلّه والفطرة قبل تبديلها أو تغييرها.

وإذا يكون الجعل التَّصْيِير الذى تنص عليه آية الخلافة: ﴿إنى جاعل﴾ منصبا على كون الإنسان خليفة وفقط أما كونه خليفة لله تعالى أو خليفة للطاغوت فهذا موكول لإختياره. فلا تعارض إذن بين الآية الكريمة وبين واقع البشر بعامة والحكام بخاصة.

الفصل الثانى عشر

مفهوم الخلافة فى العقائد الشّركيّة

تمهيد

٤٢ - انحراف مفهوم الخلافة فى العقائد الشّركية .

٤٣ - تفسير ابن عربى للوجود وعقيدته فى الالوهية .

٤٤ - مذهب ابن عربى فى الخلافة .

٤٥ - مفهوم الخلافة عند ابن عربى وشروط إستحقاقها .

٤٦ - الخلافة عند إبن عربى هى النيابة عن الله تعالى فى أسماء ذاته وفى ألوهيته .

٤٧ - الخلافة عند ابن عربى بمعنى النيابة عن الله تعالى فى خصائص الربوبية ومنها الخلق والحفظ .



خصائص الربوبية، ومنها الخلق والحفظ.

تمهـــيد:-

تبين لنـا فى الفصل السابـق أن إثبات خلافة الإنسـان لله تعالى فى إقـامة دينه ونصرة شريعته وتـنفيذ أمره لا يتعارض مع مباديء التوحـيد الإسلامي، كما دلت عليه السنـة الشريفة بقول صريح محـكم الدلالة. وبدليل إتفاق جمـهور المفسرين على جواز هذا القول فى تفسير الاستـخلاف، واعتباره أحد الاحتمالات التى يدل عليها منطوق آيات الخلافة فى ظل سياقها.

وبالرغم من مخالفة شيخ الإسلام إبن تيمية يرحمه الله تعالى ـ أكثر المفسرين ـ كما ثبت لنـا هذا بوضوح ـ فإن ثمة لبسا فـى تعبير: «نيابة الإنسان عـن الله تعالى فى الأرض» ـ كتفسير للخلافة ـ ناجم عن الخلط بين تفسير الخلافة بالنيابة عن الله تعالى فى مـجالات الأمر الكونى الذى هو شـرك بالله عز وجل فى ربوبـيته وبين تفسيرها بنيابة المؤمنين عن الله سبحـانه وتعالى فى تنفيذ أمره الشرعى ونصرة دينه وإعلاء كلمته فى الأرض، بـيد أن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى كـان محقًا فيما ذهب إليه من تشدد فى رفض القول بخـلافة الله عز وجل، وذلك حسب مفهوم مُحدد يـقصده من الخـلافة إذ قصد ـ رحمـه الله ـ من الحكـم بالشرك عـلى هذا التعـبير مالا نقـصده من خلافه الإنـسان لله تـعالى فى إقامـة الدين وتنفـيذ الأمر الشرعـي، بل قصد خلافة الإنـسان عن الله تـعالى فى الأوامر الكـونية[1]، هذا المذهب الذى ذهب إليه محى الدين ابن عربـى صاحب وحـدة الوجود فـى تفسير الخلافـة بهذا المعـنى وقد تـبعه فـى تفسيـره هذا للـخـلافـة كثير مــن مــلاحدة الصـوفية.

ومعلوم أن الفضل لله عز وجل ثم لـشيوخ الإسلام وأئمة الدين وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابـن تيمية رحمهـم الله تعالى فـى فضح عناصر الإلحاد فـى عقيدة الحلولية وأصحاب وحدة الوجود وعلى رأسهم إبن عربي.

---

(١) وليس هذا خطأ عنده بل الخطأ هو تحريم القول مطلقًا وبأى معنى بخلافة الإنسان عن الله تعالى .

ويعتبر مذهب إبن عربى فى الخلافة، أو تفسيره لحقيقة الإستخلاف أحد أوجه الضلال والإلحاد فى عقيدته، كما بين ذلك إبن تيمية رحمه الله.

ومن ثم فإن معارضة ابن تيمية لفكرة خلافة الإنسان عن الله تعالى فى أرضه ـ تلك المعارضة التى إنفرد بها عن المفسرين كما ذكرنا ـ لا يمكن فهمها على حقيقتها ومعرفة حقيقة قوله وأسباب معارضته إلا من خلال محاولته القوية الصارمة والناجحة أيضًا لدحض مذهب إبن عربى فى وحدة الوجود بعامة، ورفض مذهبه فى خلافة الانسان لله فى الأرض بخاصة.

لذا سنعرض لمذهب إبن عربى فى الخلافة بعد عرض موجز لعقيدته فى الالوهية، حتى يتبين لنا بوضوح العلاقة الوثيقة بين الاستخلاف والتوحيد وحتى يثبت لنا بجلاء أنه لا يصح عند المرء مفهوم الاستخلاف إلا إذا كان توحيده صحيحا خالصا والعكس فى ذلك صحيح كما سبق أن ذكرنا من قبل.

٤٢- إنحراف مفهوم الخلافة فى العقائد الشركيَّة:

يرتبط مفهوم الخلافة بعقيدة صاحب هذا المفهوم وينبثق منها.

فمن كان التوحيد الخالص عقيدته، كان مفهومه لحقيقة الاستخلاف صحيحًا.

ومن إنحرفت عقيدته عن التوحيد الخالص انحرف مفهومه عن حقيقة الاستخلاف بنفس مقدار زاوية إنحرافه عن التوحيد الخالص.

ومن ثم فعقائد الشرك والكفر والالحاد ينبثق عنها بالضرورة مفاهيم للإستخلاف متوافقة معها، هى فى الحقيقة ـ نتائج لهذه العقائد وليست مقدمات لها.

وعلة ذلك أن التوحيد الإسلامى هو الاعتقاد الصحيح فى الخالق عز وجل.

والشرك بعقائده المختلفة هو إعتقادات باطلة ومنحرفة للمشركين فى الألوهية

والربوبية. وحيث أن الخلافة هى التعبير القرآنى الدقيق عن مجمل العلاقة بين الخالق عز وجل وبين المخلوقات بعامة، وعن مجمل العلاقة بينه سبحانه وتعالى وبين الإنسان بخاصة، فإن مفهوم هذه العلاقة لا بد أن يختلف فى عقيدة التوحيد عن عقائد الشرك.

والشرك هو الأعتقاد الخاطيء والمنحرف والباطل فى الخالق عز وجل، وهو يقوم على منع أو تعطيل نسبة الكمالات الالهية المطلقة عن الخالق سبحانه من ناحية، أو وصفه تعالى بما لا يليق به من صفات وبما لا ينبغى له من أفعال تلحق به النقص والعيب والعجز الذى يجب تنزيهه عنه عز وجل من ناحية أخري.

فمنع وصفه سبحانه بصفات الكمال التى تخصه وحده، تلك الصفات التى أساسها الفكري: أنه وحده المتفرد بالخالقية، هذا المنع هو جوهر الشرك، وكذلك يعتبر وصفه ببعض صفات وأحوال وأفعال المخلوقين شركًا، من حيث أن كل ما سواه مخلوق ومتصف بالمخلوقية، وما يتبعها من عجز ونقص ومحدودية وفقر. وهو سبحانه منزه عن هذا كله لتفرده عز وجل بالخالقية.

كذلك يكون المرأ مشركًا ـ إعتقادًا ـ إذا وصف غير الله عز وجل ببعض كمالات الألوهية، أو بعض أفعال الربوبية، التى تخصه وحده سبحانه ويكون هذا المرأ ـ تبعا لذلك ولزوما عنه ـ مشركًا ـ سلوكًا وأفعالا ـ بعبادة غير الله عز وجل بناء على الشرك الاعتقادى السابق ذكره.

وخلاصه ما سبق، أن الشرك هو: إما وصف الله عز وجل بصفات المخلوقين، وإما وصف بعض المخلوقين ببعض صفاته سبحانه وكمالاته وأفعاله التى لا يشاركه فيهاغيره.

وهذان النوعان هما أكثر ما تقع فيه الأمم المشركة، وغالبا ما يجتمعان فى عقيدة واحدة. بل أن الوقوع فى أحدهما يستتبع الوقوع فى الآخر.

إن أحد أسس التوحيد الإسلامى الرئيسية هو الاعتقاد بتفرد الله تعالى بالخالقية، وهذا الاعتقاد بتفرد الله تعالى بالخالقية، يعنى ـ من وجه آخر ـ

(١) يوسف/ ١٠٦ .

الإعتقاد بإن كل ما سوى الله عز وجل موصوف بالمخلوقية، ومن ثم يستحيل عقلا - بناء على هذا الاساس - أن يوصف غير الله عز وجل بالخالقية.

وينبني على هذا الأساس أيضًا تفرد الله تعالى بالكمالات المطلقة التى لا يشاركه فيها غيره ولا يتصف بها سواه.

كما ينبني عليه أيضًا ضرورة الاعتقاد بتنزه الله سبحانه وتعالى عن كل ما تتصف به المخلوقات من صفات نابعة من مخلوقيتها، لأن هذه الصفات هى صفات نقص وعيب وسوء ونسبة بعضها إليه عز وجل تجعله مخلوقا أو موصوفا بصفات المخلوقين وهذا متعارض مع الأساس الأول للتوحيد وهو تفرد الله تعالى بالخالقية.

ومن ثم يكون هذا شركًا صريحًا وكفرًا بواحًا لأن وصفه بما لا يليق به من صفات وأحوال المخلوقين يجعلهم شركاء له فى هذه الصفات والأحوال، وينفى عنه كمالاته المطلقة التى لا يتم التوحيد إلا بالاعتقاد بأنه متفرد بها وحده.

أما وصف غير الله عز وجل ببعض خصائص الخالقية أو نسبة الكمالات الآلهية - كلها أو بعضها - لغيره عز وجل فهو شرك أيضًا، لأن هذا يجعل الموصوف بهذه الكمالات شريكا لله عز وجل فيها ويستتبع هذا جعله شريكًا لأفعاله تعالي، أى فى خصائص الربوبية، ويصبح هذا المخلوق ربا من دون الله تعالى عند هؤلاء المشركين، عند ذلك يصبح هذا الخلوق الموصوف ببعض خصائص الربوبية عند هؤلاء المشركين خليفة لله تعالى فى هذه الخصائص، وما يتم بها من أمور كونية تخص الله وحده ولا يجوز أن يكون له فيها نائبا أو خليفة.

إن المشرك مؤمن بالله عز وجل على سبيل الشرك وليس على سبيل التوحيد: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[1] ومن ثم تصبح القضية التى يحاول مفكرو وفلاسفة ومنظرو العقائد الشركية إثباتها هي:

---

(١) يوسف/ ١٠٦ .

نسبة الخـالقية لله تعـالى وحده مع التوفيق بـين هذا الاعتقاد وبين نسـبة بعض خصائص الربوبية لغيره. وكل التوفيق الذى توصلوا جميعا إليه على مر العصور، وفى كل العقائد الجاهـلية، قائم على إعتبار هذا الشريك المـزعوم الموصوف ببعض خصائص الربوبية نائبا عن الله تـعالى فى مجالات أَفْعَال هذه الخصائص، ومن ثم يتخذونه خلـيفة وشفيعا ووسيطا إلى الـله تعالى فيها. وهذا هو مـعنى إتخاذ هذا الشفيع أو الوسيط خـليفة لله تعالى فى الأمور الكونيـة. وذلك هو جوهر الشرك وحقيقته.

وليس فى عقائد الشرك التى ظهـرت على وجه الأرض ولا فى العقائد المعاصرة عقيدة واحدة ـ مهما ضل أصحابها ـ تنسب الخالقية المطلقة لغير الله تعالي، إذ كل عقائد الشرك والكفر والجاهلية تفرد الله تعالى بالخالقية، وإن كانت تشرك به غيره فى غير الخالقيـة من خصائص الربوبية الأخرى كالإحياء والإمـاتة والرزق والتدبير والنصر وغير ذلك، وذلك على إختلاف فيما بين هذه العقائد وفى عدد الخصائص المنسوبة فى كل عقيدة لغير الله تعالي.

والمعبودون مـن دون الله تعالي، الـذين يعتقد المـشركون أن كلا منهـم يحمل بعض خصائص الربوبـية، هم شفعاء فى نظرهم يتقربون بـهم إلى الله تعالى ، وعبادتهم لهم لهذا الغرض فقط.

ومن ثم فالمشركون يعـتقدون أنهم خلفاء الله تعالى ونوابـا عنه فى بعض أفعال الربوبية وخصائص الألوهية إذ يتوجه المشرك إلى هذه الارباب الباطلة بالعبادة لها، ليضمن إستجابة الله عز وجل له، حسب زعمه الباطل.

ويدل هذا الاعتقاد علـى أن الشفيع الباطل هذا، له قدرته الخـاصة التى يضمن بها إستجابة المولى عز وجل له.

وفى هذا نسبة مالا يليق بالخالق تعـالى من خضوع لغيره لا يجوز أن يوصف به الله سبحانه، ويجب أن ينزهه الموحِّد عنه كما أن فيه نسبة بعض خصائص الربوبية

وكمالات الألوهية التى لله وحده لهذا الشفيع. أو ذاك المعبود بالباطل.

ومن ثم فالقول بالشفيع الذى يشفع بغير إذن الله تعالى هو نفس القول بخليفة الله تـعالى فى الأمور الكـونية التى هى مـن أفعال الربوبيـة. وكلاهما تعبـير عن الشرك الواضح والكفر البواح.

وخلاصة القول أن من يصف غير الله تعالى ببعض صفات وخصائص الربوبية وينسب بعض عطايـا الربوبية لسواه يكون قد جعل هذا الغيـر وذلك السوى خليفة الله تعالى فى الأمور والأفعال الكونية.

وهذا هو المفهوم الباطل للخلافة الذى هو حقيقة الشرك بعينه.

فمن جعل لـله تعالى نائبا فى مـجال الأمر الكونى فهو مشـرك صريح الشرك وهو على الشرك الأكبر لأنـه جعل النائب أو الخليفة بهذا المعنى شـريكا لله تعالى فى الملك والتدبير والرزق ودفع الضر وغير ذلك من أفعال الربوبية وعطاياها ومثل هذا العبد قد جعـل لله تعالى ندًا أو أندادًا من دونه إن لم يكـن فى كل خصائص الربوبية ففى بعضها.

كما أن من يصف الـله عز وجل ببعض صفات المخلوقين أو بـبعض خصائص المخلوقية. يكون قد ألحق بالخالق ما بـالمخلوق من ضعف ونقص وعجز، ومن ثم يكون قد ساوى بين الخالق والمخلوق فى بعض الخصائص التى من شأنها أن تجعل لله عز وجل أندادا من دونه .

وهذا شأن النصارى وكل من زعم أن لله تعالى ولدا، إذ وصفوا الله عز وجل بصفة من صـفات المخلوقين وهى الحاجة لـلصاحبة والولد، ومن ثـم يكون الولد المنســوب له تعالـي، زورا وباطلاً، بمثـابة الخليـفة أو النائـب له فى بعـض أفعال الربوبيـة وبعض خصائص الألوهـية. هذا هو إعتقـاد النصارى الباطل فـى المسيح عليه السلام.

وفى نفس الوقت وصفوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام ببعض صفات الخالق

جل وعلا وجعلوه خليفة أى نائبا عن الله فى تخليص البشرية مما وقعت فيه من آثام ـ بالتضحية بنفسه ـ وهو ابن الاله عندهم ـ على الصليب.

وهذا يدل على أن نوعى الشرك المذكورين آنفا، أى الشرك الناتج عن وصف الله تعالى بصفات المخلوقين، والآخر الناتج والمتمثل فى وصف المخلوق ببعض صفات الربوبية والإلوهية يؤديان إلى نتيجة واحدة فى مفهوم الخلافة، إذ يجعلان لله تعالى خليفة أو خلفاء فى الأمور والأفعال الكونية، ومن ثم يكون هؤلاء الخلفاء أربابا من دون الله تعالى عند أصحاب هذه العقائد الشركية.

هذان النوعان من الشرك يميزان بين وجود الخالق عز وجل من ناحية ووجود المخلوق أو العالم أو الكون الحادث من ناحية أخري، فهما يثبتان للخالق سبحانه مغايرة وإختلافا وتمايزا عن المخلوقين جميعا أو عن العالم أو الوجود الحادث إذ ينحصر إنحرافهما أو جوهر الشرك فيهما على وصف المخلوقين ببعض صفات الخالق وأفعاله، أو وصف الخالق ببعض خصائص وأحوال المخلوقين. أو الجمع بين الجريمتين، وهذا هو حال أكثر المذاهب والأديان والملل الشركية.

أما النوع الثالث من أنواع الشرك، فهو القول بأن الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق ، أى أنه كفر أصحاب وحدة الوجود.

وهؤلاء لا ينطبق عليهم لفظ الشرك، كما ينطبق على النوعين السابقين، إذ الشرك هو إتخاذ أرباب أو آلهة من دون الله تعالي، مع الإقرار بالوهيته وربوبيته.

أما عقيدة وحدة الوجود، فهى إلحاد وكفر أكثر من كونها شركا لأنها تقوم على إثبات وجود واحد فى الكون هو وجود هذا العالم الذى ندركه ونعيش فيه، ثم يزعم أصحاب هذه العقيدة أن هذا العالم أو الكون أو الوجود الواحد هو الاله، وهو العالم أو الكون أو الخلق فى آن واحد.

وحسب تعبير صاحب أشهر عقيدة وحدة وجود فى تاريخ الحضاره الاسلامية

وكيف يكون الانسان خليفة؟

ومن هو الخليفة ومن هو المستخلف فى مثل هذه العقيدة الإلحادية؟!

للإجابة على هذه الاسئلة يلزم أن نفرض لعقيدته قدراً مناسبا من التفصيل؟

٤٣- تفسير إبن عربى للوجود وعقيدته فى الألوهية :

الوجود عند ابن عربي هو الاله والاله هو الوجود فالوجود عنده واحد، ويطلق عليه الحق من وجه، كما يطلق عليه الخلق من وجه آخر، وصفات الاله عنده هى ذاته، والموجودات الموجودة فى العالم، ليست سوى تجليات الاسماء الالهية، أى أن هذه الموجودات هى ما يظهر من الصفات الإلهية كما أن حقيقة العالم غير الظاهرة، أى الباطنة، هى ما يخفى من الذات الالهية.

وهذا يؤدى إلى أن يكون الإله هو العالم والعالم هو الاله.

وليس هذا القول مستنبطًا من مذهب إبن عربى فى الصفات، بل هو يصرح به ويقرره، ويكرر القول بأن الوجود واحد، هو الاله وهو العالم، أى الحق والخلق، حسب تعبيره. فالعالم الذى ليس سوى مجموع الأشياء هو الخلق من وجه وهو صورة منعكسة للإله، فهو الحق من وجه آخر.

أى أن ما نسميه نحن الكون المخلوق، هو عنده مرآة الإله يرى فيها نفسه. فالعالم إنعكاس لأسماء الاله، وهذا هو التشبيه الذى يستخدمه إبن عربى بكثرة فى كتابه فصوص الحكم وغيره، للتعبير عن مذهبه.

فهو يقول: (لَمَّا شاء الحق سبحانه من حيث أسمائه الحسنى التى لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها ـ وإن شئت قلت: يرى عينه فى كونٍ جامع يحصر الأمر كله لكونه متصفًا بالوجود، ويظهر به سره إليه، فإن رؤيته نفسه فى أمر آخر، يكون له كالمرآة)[1].

وصعوبة التعبير عن مذاهب وحدة الوجود بعامة، ومنها مذهب إبن عربي،

---

(١) محى الدين بن عربي/ فصوص الحكم صفحة ٤٨، ٤٩ تحقيق وتعليق د. أبو العلا عفيفى ـ نشر دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان ـ بدون تاريخ وبدون رقم الطبعة.

تكمن فى أن هذه المذاهب تقوم عند أصحابهـا على أنقاض قوانين العقل الصحيح والمنطق القويم، وأعـنى بهما قانونى الذاتية وعـدم التناقض وما ينبنى عـليهما من أحكام ومسلمات.

فالأول يثـبت لكل شيء ذاتًا خـاصة به تختـلف عن غيرها مـن ذوات الأشياء الأخرى ويعبرون عنه بأن أ هو أ دائما ولا يمكن أن يكون لا أ.

ويخالف إبن عـربى هذا القانون البديهـى بمحاولات متكررة فاشلـة إذ يثبت فى كتـبه كلهـا أن ذات الخالق عـز وجل هى مجـموع ذوات المخلـوقين، وهو يعـمد لتحقيق هـدفه المستحيل هذا إلى التشبـيه. فيقدم تشبيهات باطـلة، لأنه فى الوقت الذى يقرر فيه أن الاله هو الكل الحاصل بمجـموع الاشياء، يحاول أن يشبهه بآحاد الأشياء، أى أنه يشبه الكل* بالجزء، ولا شك أن الجـزء لا يمكن أن يكون شبـيها بالكل، ومن ثم يفشل فى توضيح مذهبه حتى ولو بالتشبيه.

كما أن مذهبه متناقض ـ كما هـى مذاهب وحدة الوجود ـ فهو يقرر أن الوجود واحد لا ثنائيـة فيه، ومع ذلك فهو يتحـدث دائما عن شيئين ووجودين مـختلفين يسمى أحـدهما الحق والإله والمجمـوع والكل، ويسى الآخر الخـلق والموجودات وآحاد الموجودات، كـما أنه يميز بين الحـق وبين آحاد الموجودات بفـروق ومميزات تجعل الحق غـير الخلق، ثم يصر فى نـفس الوقت على أنهمـا شيء واحد. وهذا تناقض واضح يتخلل صفحات كتبه ومبادئه وأصوله وأفكاره جميعًا.

كما أنه يجعل حقـيقة الألوهية خاصة بالعالم ككل وكوحـدة، ثم يعود فينسب لكل موجود ألـوهية تخصه، فيجعل الحـق خلقًا، ويجعل الخلق حقًـا. فهو يُصِر على القـول بأن المخلوق هو الخالق وأن الخـالق والمخلوق شيء واحد فـهو خالق ومخلوق فى آن واحد.

ومن المعلوم بداهة أن المخلوق لا يمكن أن يكون خـالقا، كما يستحيل عقلا أن يكون الخالـق مخلوقًا، وإلا لاقتضـى ذلك سلسلة لا مـتناهية من الخالـقين الذين يكونوا مـخلوقين، وهذا يعنـى إستحالة وجود العـالم، فلما كان العـالم موجودًا

---

* حسب مذهبه وعقيد ته.

مخلوقا لزم عقلاً ـ بمقتضى قوانين المنـطق القويم وبداثه العقول ـ أن يكون للعالم المخلوق خالقًا غيره ليس مخلوقًا . .

لكن إبن عربى خرق بمذهبه قانون عدم التناقض، كما خرق قانون الذاتية .

وهو يستخدم لتفسير وجود الاشياء أو العالم أفكارًا أفلاطونية وأرسطيه ورواقية ومباديء صوفية هندية ويحرف فى كلام الله تعالى ويفسره تفسيرات باطنية مخالفة للغة العرب، ومناقضة للمعقول، وهادمـة للمنقول، فلا هو إحترم قوانين العقل، كما يحاول الفلاسفة ولا هو إِتَّبَعَ منهج المتكـلِّمين الذين تمسكوا بالنصوث الشرعية مع اعطائها مـفاهيمهم الخاصة وآرائهم المسبقة، ولا هو إتبع منهج الـسلف الذين التزمـوا فيه بالـقرآن الكريم وبـالمنقول عن رسـول الله ﷺ والصـحابة والتـابعين والمحدثين الـذى هو موافق فى ذاته لـصريح المعقـول، ولا يخالف بداثه الـعقول والمنطق القويم.

وبالرغم من تعدد مـحاولاته فى الشرح والتوضيح بالتشبـيه وضرب الأمثلة فإن مذهبـه غامض أشد الـغموض، وتلك عـلامة على بطـلانه لأن ما كان حـقا كان واضحا جـليا بذاتـه، وما كان غيـر ذلك كان باطـلا، كما أن الحق واضـح جلى والباطل مضطرب ملتوي.

وبمقدار مـا يحتوى المذهـب على البطـلان يكون غموضـه لما يتضـمـنه من آراء مصطدمة مع قوانين المنطق وبداثه المعقول والفطرة السوية.

وهذا ما سنلمسه من عرض مذهبه فى وحدة الوجود بإختصار من خلال بعض أقواله.

كيف يكون الحق قديمـاً أزليًا والموجودات حادثة وهو هى ليس شيـئًا آخر غيرها مجتمعة فى وحدة واحدة؟ .

يصرح إبـن عربى لتـفسير وجود المـوجودات وحدوثهـا بقوله (الالـه هو الذى أعطى الوجود بذاته لهـذا الحادث فإنتسب إليه)[1] فهو ليس شيئـا سوى هذا العالم الحادث والعالم ليس شيئًا آخر غيره بل هو فى مجموعه الإله.

---

(١) ابن عربي/ نصوص الحكم / صفحة ٥٣.

وبقول أيضًا محاولا التوضيح، ولكن بما يزيد الأمر غموضًا: (فلما علمناه بنا ومنا نسبنا إليه كل ما نسبناه إلينا. . . . . . فإذا شهدناه شهدنا نفوسنا وإذا شهدنا شهد نفسه)[1].

ويقول: (ولولا سريان الحق فى الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود)[2].

فمن تشبيهاته للتعبير عن العلاقة بين الاله والموجودات أنه متخلل فيها كما يتخلل ماء الزهرة ورائحتها فى أوراقها ومن ثم هو يستخدم كلمة «سريان» بهذا المعني.

ويؤكد هذا المفهوم عنده قوله: (وهكذا هو فى كل موجود فى العالم بقدر ما تطلبه حقيقة ذلك الموجود)[3].

وليس هذا الكلام عنده من قبيل المجاز الذى يريد به أن يوضح به سريان قدرة الله تعالى وهيمنته ونعمته على كل الموجودات، بل إنه يصر على أن السريان فى الموجودات هو سريان الذات الالهية بحيث تكون ذاته فى النهاية هى مجموع الموجودات، والموجودات ككل هى ذاته.

وهذا هو ما قرره الدكتور أبو العلا عفيفى شارح فصوص الحكم بقوله: (ماذا تكون العطايا والمنح التى يهبها الله للعالم فى مذهب يقول بوحدة الوجود سوى الذات الالهية وصفاتها؟!.

فذاته تعالى سارية فى ذوات جميع الموجودات وصفاته هى الصور الأولى المتعينة فى صفات العالم الخارجي)[4].

وهذا يعنى أن ذات الاله عند ابن عربى هى مجموع ذوات الأشياء، وأن صفات الاله ما هى إلا مجموع الصور المتعينة والظاهرة لنا من الأشياء، فليست هذه

---

(١) ابن عربي/ فصوص الحكم / صفحة ٥٣.
(٢) ابن عربي/ فصوص الحكم / صفحة ٥٥.
(٣) ابن عربي/ فصوص الحكم / صفحة ٥٥.
(٤) د. أبو العلا عفيفي/ شرح فصوص الحكم لابن عربي/ صفحة ٢٠، ٢٦.

الصور المتعينة والظاهرة لنا من الاشياء، مجلى الصفات أو الأسماء أو دلائلها، بل هى الصفات الالهية بعينها، وهذا قول نهائى وصريح فى أن الاله هو العالم، والعالم هو الاله.

هذا المذهب الإلحادي، أو تلك العقيدة المنحرفة الفاسدة، يترتب عليها شناعات كثيرة تفوق ما عند اليهود والنصارى من شناعات التشبيه والتثليث والحلول، لأن وحدة الوجود فى حقيقتها ليست سوى إنكاراً للألوهية، وإن صرح أصحابها بغير ذلك.

ولسنا بصدد مناقشة هذه العقيدة، وبيان أوجه الباطل فيها، وسوق الادلة على فسادها، فليس هذا هو المجال الذى يسمح بذلك.

وإنما ذكرنا هذا المذهب بإيجاز لكى نعرف من خلاله تفسير صاحبه للخلافة. ومفهومه للانسانية، والموقف الوجودى للإنسان، كتعبير عن حقيقة الإستخلاف.

٤٤- مذهب إبن عربى فى الخلافة :

ينتهى أصحاب وحدة الوجود إلى أن كل شيء إلهي، ومن ثم فكل شيء عندهم يجوز عبادته فليس عندهم ثمة خطأ أو وزر فى أن يعبد الإنسان الحجر والشجر والدواب والأجرام السماوية، يقول إبن عربى مؤكدا هذه النتيجة لمذهبه، مدافعًا عن عبادة الأوثان، وعبادة كل شيء عبده الانسان من دون الله تعالي: (فما عُبد غير الله فى كل معبود)[١] أى أن المشرك موحد عنده ومن ثم فهو يدافع عن قوم نوح الذين عبدوا الاصنام مقرراً ـ حسب مذهبه الفاسد ـ أنهم كانوا أصح وأكمل توحيداً من نوح عليه السلام، لأن نوح نزه الله فقط ولم يرق إلى مستوى توحيدهم، حيث التوحيد الحق عنده يقتضى التنزيه والتشبيه[٢] معا، وقوم نوح شبهوا ونزهوا، أما هو ـ أى نوح ـ فقد إقتصرت معرفته بالله تعالى على التنزيه فقط، ومن ثم يقرر أن معرفتهم بالله تعالى أتم وأصح من معرفته.

---

(١) ابن عربى / فصوص الحكم / صفحة ٧٧.

(٢) وهذا تناقض آخر فيما زعم أنه توحيد.

ثم أنه يتأول الآيات القرآنية الكريمة الخاصة بإغراق قومه وإدخالهم النار تأويلاً باطنيا بقوله: (مما خطيئاتهم أُغرقوا) فهى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله، وهو الحيرة: «فادخلوا نارًا» فى عين الماء فى المحمديين، «فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الابد»(١).

وذلك لأن من لوازم عقيدة وحدة الوجود الفاسدة، ونتائجها الباطلة، وحدة المصير الأخروى للناس: مؤمنين وكافرين على حد سواء. ومن ثم فهو يفسر عذاب النار بأنه من العذوبة لعبا بالألفاظ وبالمعاني.

والسؤال الذى يهمنا لمعرفة مذهبه فى الخلافة هو:

إذا كان كل شيء إلهى كما يقول، فمن يكون الكائن الأعلى مكانةً بين الأشياء؟

حسب مذهبه ليس الإله، لأن الإله هو كل شيء، أى أنه الأعلى والادني، ولهذا يجيب إبن عربى على هذا بقوله: (ومن أعجب الأمور كون الإنسان أعلى الموجودات، أعنى الإنسان الكامل، وما نسب إليه العلو إلاَّ بالتبعية، إما إلى المكان وإما إلى المكانة)(٢).

وتلك نتيجة لازمة من لوازم عقيدة وحدة الوجود، يقول بها إبن عربى بصراحة.

فالانسان هو الكائن الأعلى بين الكائنات ولا يعلو عليه غيره ولا حتى ما يعتبره الإله إلا بإعتبار أن الاله عنده هو الكل المتضمن لكل شيء بما فيه الإنسان، فالإنسان أعلى الموجودات وليس فقط أعلى المخلوقات، ولكن بالنظر إلى الموجودات الجزئية، أو أنواع الموجودات الجزئية، أو أنواع الموجودات، فإن الانسان هو الاعلى منزلة ومكانة ودرجة وجودية، ودليل إبن عربى على هذا هو قوله تعالي: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾.

---

(١) المصدر السابق / صفحة ٧٥. (٢) المصدر السابق / صفحه ٧٦.

قال إبن عربى بعد ذكر هذه الآية الكريمة (فهذا علو المكانة)[1].

بيد أن سؤالا هامًا عن تفسير ابن عربى للخلافة يفرض نفسه علينا، إذ أن عقيدته تمنع وجود إله مباين ومخالف للإنسان وللعالم والاستخلاف يقتضى إثبات ذاتين متباينتين ومتغايرتين يستخلف فيهما الأعلى الأدني، ليكون نائبا عنه أو وكيلاً أو وليا ونصيرا لأمره وتشريعه، وهذا يعنى أن الأعلى يكلف الأدنى، ويترتب على الإستخلاف والتكليف المحاسبة والجزاء، فما معنى أن يكون الإنسان عنده خليفة للإله فى ظل عقيدته، التى ليس الإله فيها إلا العالم الذى يُعتبر الإنسان أحد كائناته؟!

سبق أن ذكرنا أن الإله ـ عنده ـ متخلل فى كل شيء أو هو كل شيء، لكن وجود الاله أو سريانه فى النوع الواحد أو فى الشيء الواحد، ليس مساويا لوجوده فى الأنواع الأخري، أو فى الآحاد الأخرى لكل نوع، يقول ابن عربي: (وهكذا هو فى كل موجود فى العالم بقدر ما تطلبه حقيقة ذلك الموجود)[2]. فحقائق الموجودات إذًا مختلفة فى القدر الذى تتطلب وجود الإله فيها، ومن ثم تختلف مراتب الموجودات وتتدرج فى المكانة تبعًا لاختلاف قدر وجود الإله وسريانه فيها، وذلك حسب حقيقة كل منها.

فهل معنى هذا أن حقيقة الإنسان تتضمن أكبر قدر من الألوهية بين حقائق الموجودات!؟

إن الإجابة على هذا السؤال عنده بالإيجاب، وهو يصرح به، لكنه لا يكتفى بهذا، إذ أن القول بأن الموجودات متدرجة فى المراتب الوجودية بحسب نصيب كل منها من الألوهية السارية فيها، لا يفسر معنى خلافة الإنسان ونيابته للاله فى الأرض، بل يتعارض معه، لأن معنى الاستخلاف يستلزم أن يكون الانسان الذى هو الخليفة نائبا لمن إستخلفه، وفى معنى النيابة خضوع وطاعة لازمة ودرجة وجودية أدني، ومن ثم يكون الإله هو الكائن الأعلى المتفرد بالألوهية، وهذا

(١، ٢) المصدر السابق/ صفحة ٧٦.

مالم يثبته إبن عربي، كما أن مذهبه فى وحدة الوجود يأبى إثباته، ويلزم بأن يكون الإنسان هـو الكائن الأعلي، كـما أثبت هو هـذا صراحة. وهذا تناقـض آخر فى عقيدته وعلى فرض أن هذا المعنى جائز فى فـلسفته وتسمح به أصول عقيدته، فإن الإنسان عـندما يكون نائـبا وخليفة عـن الإله، فإنه يكـون خليفة عن الـعالم، أو الكون فى حين أنه أحد مفرداته وجزء منه.

فكيف يكون هذا الإستخلاف؟!.

لا شك أن مذهبه فى وحدة الوجود، لا يحتمل المعنى الإسلامى للخلافة الذى وجدناه عند المفسرين، إذ أن من نتائجه اللازمة إبطال التكليف، وإعتبار كل معتقد صحيح، حتى الشرك والكفر، وإعتبار كـل فعل خير حتى الكبائر وعبادة الأوثان، ومن ثم فـإن هذا المذهب الـفاسد لابد أن يـفرز مفهومًـا باطلاً للـخلافة يخـتلف جذريا عن مفهوم الخلافة الإسلامي.

يقول إبن عربي: (إن الانسان لا يتميز عن الموجودات الأخرى بكونه مستحوذًا فى ذاته على أكبر قدر مـن الإلوهية أو بسريان الذات الإلهية فى حقيـقته وما هيته فحسب، بـل إن الانسان الكامل يتمـيز أيضًا بأن حقيـقته صورة منعكسـة مصغرة للكون كله، أى أن الأنسان هو صورة مصغرة للإله.

فإذا كان الوجود كـله هو الإله، فإن الانسان هو صورة هـذا الوجود كله، أى هو وجود إلهى مـصغر، أو هو كون مصغر، ومن ثـم فهو بهذا المعنى خـليفة عن الإله، أى عن الوجود أو الكـون فكل ما يشتمل عليه الـكون الأكبر الجامع، أى الإلـه، عنـده موجود فى الحقيقة الإنسانـية وينفرد الإنسان من بين الأشيـاء جميعا بهذه الحقيقة الجامعة لعناصر الكون وصور الموجودات جميعًا.

أى أن هذا الإنسان يجتمع فيه ما هو مـتفرق فى الموجودات جميعًا، وحيث أن الموجودات جميـعًا فى مجموعها هـى الإله، فإن هذا معناه أن الانسـان هو الكائن

الذى هو صورة منعكسة للإله، وليس فى الكائنات غيره يعتبر كذلك، يقول ابن عربي: (ولكن ليس لأحد مجموع ما للخليفة فما فاز إلا بالمجموع)[1].

أى أنه إذا كان وجود الإله ساريًا فى كل شيء، وبذاته وبصفاته، فإن ذاته وصفاته لا يوجدان فى أى موجود كما يوجدان فى الإنسان.

وإنما يكتملان فى الكون الجامع الكبير أى العالم، ثم فى الكون الجامع الصغير الذى هو الإنسان، لذا فهو خليفة عن الكون الجامع الكبير أى الإله بهذا المعني، والإنسان على صورة الإله بهذا المعنى فالذى تجمع فيه الذات الإلهية من وجه والصفات الإلهية كاملة من وجه آخر هو الإنسان الكامل، تماما مثل كون الذات هى باطن وحقيقة كل شيء، والأسماء هى مظهر وصورة كل شيء، من هنا شاع فى كتبه قوله: الإنسان كون صغير جامع، مقابل الكون الكبير الجامع الذى هو الإله فى مذهبه.

والكون الأصغر هو خليفة الكون الأكبر يقول إبن عربي: (فقد علمت حكمة نشأة آدم أعنى صورته الظاهرة، وقد علمت نشأة روح آدم أعنى صورته الباطنة، فهو الحق الخلق[2]، وقد علمت نشأة رتبته، أعنى المجموع الذى إستحق به الخلافة، فآدم هو النفس الواحدة التى خلق منها هذا النوع الإنساني)[3].

أى أنه الحقيقة المعقولة للإنسان، فهو النموذج الأمثل للإنسان الكامل، ليس كحقيقة متعينة، بل كمثال عقلى مجرد. فهو الصورة العقلية أو حسب تعبيره العين الثابتة الأزلية للكون الصغير الجامع الذى هو صورة منعكسة للكون الأكبر الجامع الذى هو عنده الاله.

وهذا هو معنى الخلافة عنده، ومن ثم فهو يكرر مرات كثيرة فى فصوص الحكم وفى سائر كتبه ما يزعم أنه حديث للرسول ﷺ وهو قوله: «من عرف

---

(١) فصوص الحكم / صفحة ٥٥.

(٢) لاحظ التناقض فى قوله عن آدم أنه «الحق الخلق» أى الاله العبد أو الخالق المخلوق.

(٣) فصوص الحكم/ صفحة ٥٥.

نفسه فقد عرف ربه»[1]. وهو يعنى من هذا أن من عرف حقيقة الإنسانية، فقد عرف حقيقة الإلاهية، لأن الإنسانية عنده ألوهية كاملة، وإن كانت وجودًا إلهيا مصغرًا.

يقول الدكتور أبو العلا عفيفى شارح الفصوص: (أن المراد بآدم هو الصورة الإلهية الجامعة لكل حقائق الوجود، وإن الحق سبحانه لما أراد أن يُعرف تجلى لنفسه فى نفسه فى هذه الصورة، التى كانت بمثابة المرآة، ورأى جميع كمالاته فيها فجعلها الغاية من الوجود وخلق العالم الأكبر* من أجلها.

فالإنسان بهذا المعنى هو الحق، متجليا بصورة العالم المعقول وحاويا فى نفسه جميع صفات عالم الممكنات)[2].

٤٥- حقيقة الخلافة عند ابن عربى وشروط استحقاقها:

تبين لنا مما سبق محاولة إبن عربى الوصول لمفهوم للخلافة يتوافق مع وحدة الوجود فقال إن الإنسان الخليفة عالم او كون مصغر لأنه جاء فى صورة الإله أى الكون.

ولكن إذا تأملنا هذا المفهوم لتبين لنا أنه يتعارض فى الحقيقة مع أصول مذهبه فى وحدة الوجود.

ولعله شعر بذلك، إذ تقتضى وحدة الوجود نفى الثنائية فى الكون من أى نوع، بينما تقتضى حقيقة الخلافة ـ بأى مفهوم ـ اثباتها.

فإذا كان الوجود عنده واحدا بالعدد: هو الإله أى (الحق) وهو فى نفس الوقت متجلى فى الكثرة: العبيد أى (الخلق)، فإن هذا مناقض بالضرورة مع أى مفهوم للاستخلاف بما فى ذلك تفسيره المذكور، لأن من عناصر الخلافة الرئيسية

---

(١) لا يعرف لهذا القول سند إلى رسول الله ﷺ وإنما هو شائع فى كتب ملاحدة الصوفية. كما ينسب معناه إلى سقراط. إذ اتخذ سقراط شعاره اعرف نفسك كمبدأ لمعرفة اى شيء.

* هذا التعبير من الدكتور أبو العلا عفيفى غير دقيق ومخالف لمذهب ابن عربى لأن العالم الأكبر عند ابن عربى هو الكون أى الاله ذاته وهو غير مخلوق فكيف يقول «خلق العالم الأكبر».؟ اى كيف يكون هو الإله ومخلوق؟

(٢) د. أبو العلا عفيفي/ شرح فصوص الحكم صفحة ٢١ من الشرح.

اثبات كائن أعلى وكائن أدنى يستخلف فيه الأعلى الأدني، وهذا يقتضى بالضرورة الثنائية الوجودية والمغايرة والمخالفة بين الإله المستخلِف (بكسر اللام) وبين الإنسان المستخلَف (بفتح اللام).

بل تقتضى حقيقة الخلافة الكثرة بالضرورة لوجود المستخلِف، فيهم كحقيقة وجودية مغايرة للمستخلف والخليفة.

ولا شك فى أن القول بأن الإنسان الكامل صورة الهية وكونية للوجود بمعنى أنه وجود كامل مصغر لأنه على صورة الوجود الحقيقى (الاله ـ الكون).

نقول: لا شك أن هذا اثبات للثنائية الوجودية وإن كان الوجود الإنسانى (الخليفة) يعتبر تكرارا للوجود الأول (الاله ـ الكون) المستخلف لكنه يعد ثنائية وجودية على أى حال.

ولعل ابن عربى شعر بهذا التناقض مع أصول مذهبه فحاول أن يتوصل إلى مفهوم آخر للاستخلاف يتماشى فيه هذا التناقض ويتخلص فيه من هذه الثنائية الوجودية بل الكثرة والتعدد، فقال إن الخلافة هى نيابة الإنسان الحيوان فى الذات الإنسانية عن الإنسان الكامل فيها.

وهذا قول يحتاج إلى توضيح لما فيه من لبس حتى يمكن كشف هذا اللبس. لذلك سنتناول تفسيره للخلافة بشيء من التفصيل.

قال ابن عربي: (بعد ما خلق الله العالم قال للملائكة: **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾** وتلك الخلافة رتبة لا يستحقها إلا من خلق على الصورتين: الإلهية والكونية أى من جمع فى ذاته جميع حقائق الحق والعالم، وهو الإنسان الكامل)[1] *.

* هذه العبارة من صاحبة المعجم الصوفى تخالف أصول المذهب عند ابن عربى إذ تتضمن ثنائية متمثلة فى الصورة الإلهية والصورة الكونية مع أنهما وجود واحد عنده وذلك فى قولها (على الصورتين: الإلهية والكونية) لكن العبارة لابن عربى كما ستأتي.

(١) المعجم الصوفى / د. سعاد الحكيم صفحة ٤١٤.

ويربط إبـن عربى بين الخـلافة وبين خلـق الله سبـحانه آدم علـى صورته، إذ يجعل هذه الصورة هى مؤهل الخلافة الذى إنفرد به آدم.

ويفـسر إبن عـربى حديث الـصورة علـى غير الـتفسير الذى فسـره به علـماء الإسلام، إذ فسره تفسيراً نابعا من مذهبه فى وحدة الوجود.

يدل على هذا قوله: (إنما كانت الخلافة لآدم عليه السلام دون غيره من أجناس العالم لكون الله تعالى خلقه على صورته)[1].

ومعنى أن الله خلقه على صورته أى جعـله كونا أو عالما صغيراً جامعًا، كما أن الإله هو الكون أو العالـم الكبير الجامع، فهو صورة له من هـذا الوجه إذ اجتمع فى الانسان كل ما فى الكون الكبيـر الجامع أى الإله، وليس هذا إلا للانسان ومن ثم إنفرد الإنسان بحيازته على صورة الإله دون سائر الموجودات جميعا.

ولذلك يرادف ابن عربى بـين ما يسميه بيت الحق أى العبد وبـين بيت الله من حيث أن الانـسان هو مظـهر التجـلى الوجودى بقـبوله الصـورة الالهية فـيقول: (حكمة الحـق حكمتي... لا تقل باتحـادنا... فتكذبك نشأتـي... انا إن كنتُ بيتَه.... فهو بالشرع قبلتي)[2].

وهذا ما يعبر عنه ابن عربى فى مواضع كثيرة من الفصوص وغيرها بأن الانسان اجتمـع فيه وله جمـيع حقائـق العالم وتجلـى فيه وله فى الاسـماء كلهـا (مخازن الحقيقة الانسانية: الصورة الإلهية والصورة الكونية)[3] *.

أى أجتمعـت له الحقيقة الكونـية الباطنية (الصـورة الإلهية) والحقيقة الـكونية

(١) ابن عربى / الفتوحات المكية (٠/٢٦٣) عن المعجم صفحة ٤١٤

(٢) ابن عربى / الفتوحات المكية (٤/٣٨٧) عن المعجم صفحة ٤١٤

(٣) ابن عربى / الفتوحات ٢ / ٤٦٨.

* هذه العبارة لابـن عربى أفصح شاهد علـى تناقضه وعلى فشـله فى تحقيق ما زعمـه من وحدة الوجود إذ يضطره الحق إلى الإذعان لـه فى كثير من المواضع ومنها هذا المـوضوع الذى اثبت فيه حقيقة الهـية وحقيقة كونية.

الظـاهرة (الصورة الـكونيـة) المتمثـلة فى الاسـماء أى الذات الالـهية والاسـمـاء الالهية.

ومن ثم يكون الإنسان هو الظاهر وهو البـاطن كما أن الاله هو الظاهر والباطن وهو ومن ثـم صار إلها أصغر وبـهذا المعنى هـو نائب عن الاله الأكبـر أى الكون الجامع أو الحق.

ومجـموع الأسمـاء الالهيـة التى تجـتمع فـى الانسان دون غـيره هى الانـسان الحيوان، وهو الصورة الظاهرة، وهذه الصورة الظاهرة هى التى بها الإنسان خليفة للانسان الكامل، وهذا الآخير هو (الذى أضاف إلى جمعية حقائق العالم المتحققة بالـصورة الظـاهرة «التـى هى الانسـان الحيـوان» حقائـق الحق التـى بها صـحت الخلافة)[1]. أى أن الانسان أصبح خلـيفة بما أجتمع فيه من حقـائق الذات الالهية لا بما اجتمع فيه من خصائص الأسماء الظاهرة. فيقرر أن ما أطلق عليه هو إسم: الانسان الحيوان فى الذات الإنـسانية هو الخليفة والنائب للانـسان الكامل فى هذه الذات أى الحق عنده.

وهكذا يصـر ابن عربى دائما على أن يـجعل الذاتين المختلفـين ذاتا واحدة: ما يسميه الخلق المتمثل فى الكون الظاهر ككل، وما يسميه الحق الذى هو حقيقة هذا الكون وباطنه وهو هنا يجعل الإنسان أيضًا خلقا وحقا كما أن الكون خلق وحق.

وكما أن الخلق الذى هو مَجْلَى أسماء الذات خـليفة عن الحق الذى هو حقيقة الذات الباطنـة المتخللة فى كل شـيء فى الوجود، فإن الإنسان أيضًـا بما هو جسد حيوانى ظـاهر متعين وتجتـمع فيه جميـع ما للموجودات مـن عناصر، هو خلـيفة ونائب أيضًا لحقيقة الإنسانية أى للانسان الكامل.

ومن ثم يـكون الانسان ظـاهرا وباطنـا صورة من الكـون (الخلق والحق) مـعا ظاهره وباطنه أيضًا.

وهذا تفسير إبن عربى لحديث الصورة وتفسيره للخلافة أيضًا.

---

(١) ابن عربى / فتوحات مجلد ٣ / صفحة ٤٣٧.

يدل عليهما قوله: (إن الإنسان هو العين لـله من العالم. وأنه الخليفة حقا وأنه محل ظهور الاسماء الالهية وهو الجامع لحقائق العالم كله)[١].

ويتمثـل الإنسان الكامل هذا عنـد ابن عربى فى الرسل والانبـياء والأولياء، إذ تتحقق فيهم شروط الخلافة كأكمل ما تكون.

والخلافة عـند الولى تتمـثل فى مقام قـرب النوافل الذى يـتحقق فيه الـعبد أن يكون الحق سمعه وبصره وكل قواه[٢].

يقول ابن عربي: (فالخليفة لابد أن يظهر فيمـا استخلف عليه بصورة مستخلفه «أى بصورة الاله الـذى هو الكون الجامع» والا فـليس بخليـفة له فيهم، فـأعطاه الأمر والنهى وسماه بالخليفة)[٣].

٤٦- الخــلافة عند إبن عربى نيابة عن الله تعالى فى خصائص الالوهية:-

حسب المفهوم السـابق للخلافة وحسب ما ذكرناه عن درجـة الانسان الوجودية عنـد ابن عربى حـيث وجدنا أن الإنــسانية تـرقى لتـكون هى الأعلـى مطلقًـا بين الموجودات جميعًـا لتحتل الانسانية مكانـة الالوهية، فلا يوجد عنده معـنى لحقيقة الالوهية قائما فى الوجود سوى الانسانية.

وقد أكد هذه النتيجة مفهومه للخـليفة الذى ذكرناه آنفا إذ جعله صورة الاله أو الكون وبما أن الانسان هو الاعلى مكانة بين المخلوقات فهو ربها وإلهها أيضًا.

ويحاول ابن عربى أن يجمع بين وصف الانسان بـالعبودية وبين وصفه بالربوبية وذلك من خلال حقيقة الخليفة. فالخليفة عنده (رب بالنسبة للعالم، ولذلك جعله خليفة وأبناءه خلفاء. . .)[٤] *.

---

(١) ابن عربى / فتوحات / مجلد ١/ صفحة ١٢٥/ عن المعجم صفحة ٤١٤.
(٢) المعجم الصوفى / د. سعاد الحكيم / صفحة ٤١٤.
(٣) ابن عربى / فتوحات / مجلد ١/ صفحة ٢١٣ عن المعجم ٤١٤.
(٤) ابن عربي/ نفس النصوص صفحة ٢ / عن المعجم الصوفى صفحة ٤١٥.
* لاحظ التناقض مرة أخرى إذ جعل الخليفة رب للعالم مع أن العالم ليس شيئا سوى الإله.

وهذه هى الخلافة العامة التى يكون بها كل عبد خليفة، أما خلافة التشريع فهى خلافة خاصة لانها تخص الرسل والانبياء وآخر الخلفاء بهذا المعنى هو خاتم النبيين ﷺ، ومن جاء بعده فهم خلفاؤه بهذا المعنى وليسوا خلفاء الله تعالى. وإن كانوا خلفاء لله تعالى حسب المعنى العام للخلافة.

ومن ثم يقرر ابن عربى أن خلافة الإنسان فى الأرض هى خلافة عن الله تعالى بقوله: (فعلموا «أى الملائكة» أنه خليفة عن الله لا خليفة عن سلف ثم مازال يتلقاها كامل عن كامل «أى الانبياء والرسل» حتى أنتهت إلى السيد الأكبر المشهود له بالكمال محمد ﷺ. . . فكان أعظم خليفة وأكبر إمام. . .)[1].

لكن ـ حسب مذهب وحدة الوجود ـ تكون خلافة الإنسان عن الله محدودة بمفهوم الألوهية عنده الذى يتحدد فى الكون وينحصر فى الوجود الباطن والظاهر معا.

وحسب نظرية الإنسان الكامل عند ابن عربى الذى هو ظاهر بالصورة لالهية (لم يعطه الله هذا الكمال إلا ليكون بدلا من الحق. . . ولهذا سماه خليفة)[2].

فالانسان الكامل أو الخليفة الأعظم محمد ﷺ هو بدل عن الحق ونائب عن الله عز وجل فى الأرض ليس بمعنى النيابة الشرعية ولكن بمعنى النيابة الكونية التى أصبح بها خليفة عن الله فى ربوبيته وألوهيته معا، أى بدلا منه.

وهو ﷺ وحده خليفة عن الحق ومن سواه من الانبياء والاولياء خلفاء له (وما بعده من أمثاله خلفاء له فالاول وحده خليفة الحق وما ظهر عنه من أمثاله فى عالم الاجسام فهم خلفاء هذا الخليفة وبدل منه وكل أمر يصح أن يكون له. . .)[3].

---

(١) ابن عربى / فتوحات / مجلد ٣/ صفحة ٤٠٠ / عن المعجم الصوفى صفحة ٤٢٠.

(٢) ابن عربي/ الفتوحات المكبة / المجلد ٣/ صفحة ٢٨٠/ عن المعجم صفحة ٤٢٠.

(٣) ابن عربي/ الفتوحات المكية / المجلد ٣/ صفحة ٢٨٠/ عن المعجم صفحة ٤٢٠.

أما الخلافة العامة فهى عنده جزء جوهرى من معنى الانسانية وحقيقتها، ولذلك فكل إنسان خليفة بالمعنى العـام، لأن الله تعالى خلق آدم (الانسان) على صورته، فالنوع الانسانى بدل عن الله فى ربوبيته وألوهيته (فلابد للخليفة من أن يظهر بكل صورة يظهر بها من إستخلفه، فلابد من إحـاطة الخليفة بجميع الأسماء والصفات الالهية التى يطلبها العالم)(١).

وهذه الخلافة هى للإنســان الكامل أى للأولياء والانبياء. وتطبيـقا لهذا المفهوم قال ابن عربى عـن ابى يزيد البسطامـي: (قيل لابى يزيد حين خلـع (الحق) عليه خلع النيابة أخرج إلى خلقى بصفتى فمن رآك رآني. . .)(٢).

فالخليفـة المتمثل فى الانسان الكـامل ـ أى الولى ـ هو بَدَلٌ عن اللـه تعالى فى أسماء الألوهية وأسمـاء الربوبية، يؤكد هذا المعنى عنده قولـه عن آدم عليه السلام (وإذا كانت الخلافة لآدم عـليه السلام دون غيره من أجناس الـعالـم (أى الانسان) لكون الله تعالى خلقه على صورته)(٣).

ومن ثم يكون معنى خلق الإنسان على صـورة الرحمن عنده هو أنه جعله إلها وربا ليس على سبيل الأصالة لأن المجعـول لا يكون إلها وربا على الاصالة ولكن على سبيل النيابة أو البدلية، لكنه إله ورب.

والألوهية والربوبـية التى صار بها الإنسان خلـيفة عن الله بمقتضى خـلقه على صورته هى إستحقاق الإنسان للاسماء الالهية (فلا يكون خليفة إلا من له الأسماء الالهية بطـريق الاستحقاق، إذ هو على تـركيب خاص يقبلها، أى مـا كل تركيب يقبلها)(٤).

٤٧- الاستخلاف عند ابن عربى نيابة عن الـله تعالى فى خصائص الربوبية ومنها الخلق والحفظ :

تبين لنا مما سبـق أن معنى الاستخلاف عند ابن عربى يكمـن فى إثبات الألوهية

---

(١) ابن عربى / فتحوحات/ مجلد ٤ / صفحة ٣ / عن المعجم صفحة ٤١٨.

(٢) ابن عربي/ فتوحات/ مجلد ١/ صفحة ١٦٧/ عن المعجم صفحة ٤١٥.

(٣) ابن عربى / الفتوحات / مجلد ١/ صفحة ٢٦٣.

(٤) ابن عربي/ الفتوحات / مجلد ٢/ صفحة ٤٤١.

للإنسان، وليس بمعنى كونه نائبا عن الله عز وجل فى تنفيذ أمره التشريعي، أو وكيلاً عنه فى حمل رسالته، بل بمعنى أنه إله أصغر باعتبار أنه الكون الجامع الأصغر بإزاء الإله الذى هو الكون الجامع الأكبر، فهو صورته ومن ثم حمل الإنسان صفاته التى هو بها إله فصار الانسان بها إلها والمتأمل فى عقيدة هذا الرجل، يدرك بجلاء أنه ينتهى به إلى تأليه الإنسان، سواء كنتيجة ضرورية لمقدماته وأصوله، أم بمقتضى عباراته وأقواله الصريحة.

فالكون الجامع الأكبر أو الاله، لا مجال لعلوه وتفضيله على الاشياء الجزئية فيه بإعتبار أنه هو هذه الاشياء جميعا، الأعلى فيها والأدني، وليس ثمة مجال للتفاضل بين الشيء ككل ومكوناته. وبالتالى لا يكون لألوهيته معنى من حيث أن أخص خصائص الألوهية - كما يفرضها العقل - هو كون الاله أعلى من كل ما سواه ومن سواه. ولما كان الكون بكل ما يتضمنه من موجودات عليا ودنيا هو الحق حسب مذهبه، فعلى من يا ترى يكون الحق إلها؟! ومن الذى يكون عليه متألها أو من الذى يكون عبدًا له، مادام أصل المذهب لا يثبت إلا وجودًا واحدًا هو «الاله - الكون»، فليس يوجد مَا أَوْ مَنْ سواه ليكون أدنَى منه، ويكون ما يسميه إبن عربى «الحق» إلهًا عليه، إذ الخلق عنده هو أسماؤه وحسب عقيدته المتضاربة الأصول والمباديء، فإنه لا يكون ثمة تفاضل وتعالى إلا بين الموجودات أو الأنواع، فحيث الاله ليس مباينًا ولا مغايرًا للأعيان القائمة، لا يكون ثمة كائن فى الوجود أعلى من الانسان، ومن ثم يكون هو الاله عنده، إذ أن أخص معنى للألوهية هو العلو المطلق للأله على ما سواه، ولا يتصف بهذا الوصف فى عقيدته إلا الإنسان، كما صرح بذلك إبن عربى نفسه.

فمن المعلوم أن جميع العقائد الإلحادية المنكرة صراحة للألوهية، أو المنكرة ضمناً، كعقيدة إبن عربي، يكون الإنسان فيها هو الكائن الأعلي، ومن ثم يكون قوله عن الإنسان بأنه خليفة عن الأله، ليست بمعنى النيابة فى مجال تنفيذ الأمر الشرعى أو الوكالة فى حمل الرسالة وإقامة الدين، وإنما بمعنى البدلية عنه فى أسمائه وصفاته التى منها خصائص الألوهية.

وحيث أن خصائص الألوهية مبنية فى أعتقاد المؤمن على خصائص الربوبية، فلا يصح أن يكون إلها إلا الخالق، فإن إبن عربى لم يتردد عن نسبة خصائص الربوبية أيضًا للانسان، فبدلية الانسان عن الاله فى الصورة والأسماء تعنى ذلك، حيث يكون الإنسان خليفة للإله بالمعنى الكوني، وليس بالمعنى التشريعي، ونقصد بالخلافة الكونية التى قال بها ابن عربى نسبة الربوبية للانسان كما نسب إليه الإلوهية.

وإذا كان الخلق والإيجاد أخص أفعال الربوبية، فإن الانسان عند إبن عربى خالق أيضًا.

فالقدرة على الخلق موجودة عند كل فرد من أفراد الإنسانية، لكنها لا تكون خلقا بمعنى الإيجاد والإحداث إلا عند أعلى الناس مرتبة فى الخلافة، وهم الأولياء يقول إبن عربي: (بالوهم يخلق كل إنسان فى قوة خياله مالا وجود له إلا فيها، وهذا هو الأمر العام)[1].

أى أن هذه قدرة، الإنسان العادي، أو أقل الناس مرتبة فى الخلق وبالتالى فى درجة الاستخلاف، ثم قال: (والعارف يخلق بالهمة ما يكون له وجود من خارج محل الهمة، ولكن لا تزال الهمة تحفظه ولا يئودها حفظه، فمتى طرأ على العارف غفلة عن حفظ ما خلق، عُدِمَ ذلك المخلوق)[2].

ويشرح الدكتور أبو العلا عفيفى هذه القوة الخالقة عند الإنسان فى فلسفة إبن عربى بقوله: (من وظيفة القوة المتخيلة الخلق والابتكار، فهى تخلق من الأشياء مالا وجود له، إلا فيها، وهذا أمر عام يدركه كل إنسان من نفسه، ولكن إبن عربى يتكلم عن قوة أخرى لا وجود لها إلا فى العارف، يسميها الهمة تستطيع أن تخلق أمورًا وجودية خارجة عن محلها، أى أن العارف يستطيع أن يخلق أشياء لا

---

(١) فصوص الحكم / صفحة ٨٨.

(٢) فصوص الحكم/ صفحة ٨٨.

فى خيالـه، ولا فى خيال غيره ـ كـما يفعل السـحرة والمشعوذون ـ بل فـى العالم الخارجي)[1].

ويصنف إبن عربى مراتب القدرة على الخلق حسب مرتبة كل إنسان فى الخلافة فيقرر أن الإنسان العـادى يخلق بقوة إسمها الإخلاص، والصوفـى يخلق بما سماه الحضور، أما الـعارفون من أمثالـه فيخلقون بالـهمة، وهذه الأخيرة أعـلى مراتب الخلافة[2].

لإنه إذا إرتقى الصوفى إلى درجة العارف، يصل إلى حال الفناء الذى يفنى فيه عن صفاته البشرية، ويبقى بخصائص الربوبية ويتحقق بها، فيخلق إذ ذاك بالهمة، بل ويحفظ ما يخلق أيضًا، مالم تغفل همته عنه.

ولا يستخـدم ابن عربى لفظ «الخلق» أو «الحـفظ» بالهمة بالمعـنى المجازي، بل هو يستخدمـه بالمعنى الحقيقى للـخلق، الذى هو إيجاد وإحياء، كمـا أنه يعبر عن حفظ العارف لما يـخلقه بنفس تعبير الـقرآن الكريم عن حفظ الله تعـالى للسموات والأرض وما بينهما فى قوله تعالي: ﴿**وسع كرسيه الـسموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم**﴾.

قال إبن عربى عن الـعارف: (ولا تزال الهمة تحفظه ولا يئـودها حفظه)[3] أى الشيء الذى تخلقه فى زعمه.

ثم هو يؤكد أن خلق العـارف وإحيائه بالهمة حقيقيان وليسـا مجازيَّيْنِ بقوله فى الفصـل الخامس عشر: (وهـذه مسألة لا يمكن أن تـعرف إلا ذوقا كأبى يـزيد حين نفخ فى النملة التى قتلها فَحِييَتْ فعلم عند ذلك بمن ينفخ فنفخ)[4].

وليس قولـه بالخلق قاصرًا على مـوجودات الأرض فقط، بل يفعـل العارف ما

---

(١) فصوص الحكم/ صفحة ٨٨، ٨٩.

(٢) د. أبو العلا عفيفى / شرح الفصوص / صفحة٨٨،٨٩

(٣) ابن عربى / الفتوحات المكية/ مجلد ١ / صفحة ٧٧.

(٤) ابن عربى / نصوص الحكم / صفحة ٨٨,٨٩

يريد من إحداث وتغيير فى أجرام السماء، ومعنى هذا أن الخلافة أو ربوبية الإنسان ليست قاصرة على الأرض وما فيها.

قال إبن عربي: (إنما قلنا ذلك لأنا نعرف أن أجرام العالم تنفعل بهمم النفوس، إذا أقيمت فى مقام الجمعية، وقد عاينا ذلك فى هذا الطريق)[1].

أى أنه أخبر عن نفسه أنه بلغ بهمته هذا التأثير فى أجرام العالم$.

ومن ثم فالنتيجة المؤكدة من هذا كله أن مفهوم الخلافة عند إبن عربي يأخذ بعداً آخر تماماً - ليس فقط نتيجة لآرائه فى الخلافة والهمة الخالقة، وإنما كل ذلك إنما هو نتيجة لازمة تؤدى إليها أصول مذهبه ومباديء عقيدته، وذلك إذ

---

(١) نفس المصدر والصفحة

$ يبطل هذا القول وينقضه ويتقضه التوحيد الاسلامى : المحور الرئيسى له والمبادىء والأسس واكثر آيات القرن الكريم وأحاديث الرسولﷺ ونكتفى هنا بآيتين اثنتين من كتاب الله تباشران ابطال هذا القول:

الاولى : قوله تعالى﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فُضّلوا برادّى رزقهم على ماملكت ايمانهم فهم فيه سوآء﴾ ٧١/ النحل والشاهد ان السيد لايجعل العبد شريكاً ومساويا له فيما يملك وكذلك الخالق عزوجل لايجعل المخلوق شريكا له فى الربوبية والخلق.

الثانية: قوله تعالى﴿ضرب لكم مثلامن انفسكم، هل لكم من ماملكت ايمانكم من شركاء فى مارزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ ٢٨/ الروم/ والشاهد من هذه الآية ان الخالق عزوجل أو الحق عند ابن عربي لو ترك العارفين به يعملون بالهمة مايسميه خلقا وتاثيرا فى الارض والسماء، لأصابه سبحانه الخوف من إن يؤدى تأثيرهم إلى إفساد السماوات والأرض نتيجة الخطأ فى التأثير ولما إستقام امر السماوات والأرض ولفسد بدليل قوله تعالى ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾ ٧١/ المؤمنون.

إن هذا القول يعنى ان من يفعل ذلك بالهمة اوبغيرها فى السماء والأرض هو إله لانه يُصبح خالقا ومدبرا وشريكيا للخالق فى الفعل والتدبير والحفظ ولو كان فى الكون ولما قام ولما أستمرت السماوات والأرض لهذا النظام الكونى المحكم الدقيق قال تعالى:﴿لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا﴾٢٢/ الانبياء لانه إذا كان لكل عارف من الهمة ماتوثر به فى أجرام العالم فى مقام الجمعية كما قال ابن عربى وكما ذكر عن نفسه أنه عاين ذلك، فإن هذه التأثيرات لهؤلاء العارفين اما إن تكون موافقة للنظام الكونى العام لهذه الأجرام ومن ثم فلا تأثير ولا لزوم ولاداعى لها، وإما ان تكون مخالفة ومن ثم يُصبح تأثيرها مغير لنظام الكون وهو فساد.

وحيث أن نظام الكون يسير كما أراده خالقه سبحانه، فإن هذا الذى يقوله ابن عربى هراء ولاأصل ولاحقيقة له.

جعل خلافة الإنسان بالمعنى الكونى الذى يكون للانسان فيه مشيئة كونية وقدرة خالقة وربوبية فى الكون.

وإن كان يثبت هذا للإنسان الكامل أى العارف ويثبته بدرجات أقل لمن هم دونه.

فلا معنى على الإطلاق فى عقيدة وحدة الوجود لخلافة الإنسان فى الأرض عن الله عز وجل فى الأمر التشريعى التكليفي، وفى إقامة دينه ونصرته.

كما نص على ذلك من أثبت خلافة الإنسان لله فى الأرض من المفسرين.

كذلك مما يجدر ذكره أن إبن عربى لم يصبح ملحداً ومشركًا نتيجة قوله بمذهبه فى الخلافة.

بل هو ملحد وكافر ومشرك بعقيدته الفاسدة فى الالوهية والعالم والانسان، فتفسيره للخلافة نتيجة لالحاده، وليس الحادة او شركه نتيجة لمذهبه فى الاستخلاف.

وهذا القول فى الخلافة نقيض قول أهل السنة والجماعة أو بالأحرى نقيض قول جمهور المفسرين الذين أجازوا القول بخلافة الإنسان عن الله تعالى فى الأرض فى أقامة حكمه وتنفيذ شرعه، أو على الأقل لم يمنعوا هذا القول، ولم يحكموا على قائله بمخالفة أصول الدين وعقيدة التوحيد، وذلك لأن القول بخلافة الانسان عن الله تعالى فى الأرض فى أمره الشرعى وفى إقامة حكمه ونصرة دينه، هذا المعنى للاستخلاف، يتضمن بالضرورة إثبات عبودية الانسان لله عز وجل كما يتضمن إفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية والحاكمية.

ومن ثم لا يتضمن هذا التفسير الشرعى للخلافة نسبة أى معنى من معانى الربوبية الكونية للإنسان، كما ينفى الألوهية عن الإنسان بإعتباره مكلفا بتنفيذ شرع الله تعالى وبالحياة وفق منهجه عز وجل.

ومن ثم يمكن القول أن مذهب إبن عربى فى وحدة الوجود قد أدى به إلى إنكار وجود رب خالق مباين للمخلوقات، واستلزم هذا منه بالتالى إنكار وجود إله مستحق أن تعبده الكائنات، لأنه جعل الرب هو المربوب والعبيد هم الاله. فلما أنكر الربوبية والإلوهية وأثبت العالم أو الكون وأطلق عليه الرب والاله متناقضا مع نفسه، أدى هذا به إلى إعتبار الإنسان أعلى الكائنات فنسب إليه صراحة الربوبية والألوهية تحت أسم الخلافة.

فأصبح مفعوم الخلافة عنده الحاديا أيضًا، وقد تبين لنا أن مفهوم الخلافة الصحيح يقوم على إثبات الربوبية والالوهية لله عز وجل وحده واثبات العبودية للانسان ولكل شيء سوى الله عز وجل، ومن ثم ينفرد الانسان بين المخلوقات بأنه - مع ثبوت عبوديته لله تعالى فإنه خليفة عن الله عز وجل فى إقامة حكمه وتنفيذ شرعه ولا يكون هذا إلا بطاعة الإنسان لربه - فالثنائية المتمثلة فى الإلوهية والعبودية، متمثلة أيضًا فى حقيقة الإستخلاف بإثبات الاله الرب المستخلِف المكلِّف وإثبات الإنسان العبدُ الخليفة، وبأنكار الثنائية الوجودية تنتفى الخلافة.



الفصل الثالث عشر

الخلافــــة والتوحيــد

أو

الخلافة والجانب الإلهى

من التوحيد الإسلامى

٤٨- توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية والحلقة الوسطى الرابطة بينهما فى قلب المُوَحِّد .

٤٩- الخلافة وخصائص الربوبية الرئيسية فى آيات الاستواء .

٥٠- إفراد الله تعالى بالحاكمية هو الأساس الإعتقادي لإقامة خلافة الله تعالى فى الأرض .



٤٨- توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية والحلقة الوسطى بينهما فى قلب المُوَحِّد:-

ذكرنا فيما سبق أنواع الكفر الثلاثة وآخرها الحاد وحدة الوجود.

هذه الأنواع تقوم كلها عند المشركين على نسبة خصائص الربوبية التى هى لله وحده لغيره، إما نسبة بعضها كما هو الحال فى النوعين الأول والثاني، وأما نسبتها كلها كما هو الحال عند أصحاب وحدة الوجود.

وفى النوعين الأول والثانى وجدنا الشركاء المزعومين شفعاء ووسطاء من دون الله تعالى بينه وبين خلقه حسب زعم المشركين الباطل. فهم عندهم خلفاء ونواب عن الله تعالى فى أفعال الربوبية وعطاياها، فهم أرباب من دونه عندهم.

أما النوع الثالث: وحدة الوجود، فهو إنكار للألوهية وإثبات للعالم أو إثبات للالوهية والربوبية تحت إسم العالم أو الكون أو الخلق والفرق بين هذا الاثبات وذاك الإنكار شكلى وهو فى التعبير فقط ولكن حقيقتهما واحدة.

لذلك لا يتم الايمان بالله عز وجل إلا على أساس اثبات المغايرة والمباينة والمخالفة بين حقيقة الخالق سبحانه وحقيقة الخلق. فلابد من أثبات التمايز والمغايرة المطلقة بين الخالق سبحانه وبين كل ما سواه اذ كل ما سواه مخلوق.

وهذا الأساس القويم للإيمان بالله تعالى ـ وإن كان فطريا بدهيا لا يحتاج إلى دليل أو برهان؟! ـ إلا أن القرآن الكريم قد قرره فى سبع آيات كريمات فى سبع مواضع من الذكر الحكيم والحق المبين،هى آيات إثبات إستواء الله تعالى على عرشه وتتضمن هذه الآيات الكريمة ثلاثة مباديء رئيسية من مباديء التوحيد.

الأول: إثبات إستواء الله تعالى على عرشه بعد خلق السموات والأرض بما يفيد علوه سبحانه على عرشه الذى يعلو كل مخلوق كما يفيد بالضرورة المباينة بينه عز وجل وبين خلقه جميعًا، كذلك يفيد المغايرة المطلقة بين الله تعالى وبين ما سواه.

الأمر الذى ينفى عنه تمامًا حلوله فى شيء من خلقه أو إتحاده به كما يبطل

وحدة الوجود وينزه الخالق سبحانه عن أن يكون هو الخلق، أو هو فى شيء من الخلق أو فيه شيء من الخلق.

الثاني: نفى وجود خلفاء لله تعالى فى الأمور الكونية أى الوسطاء والشفعاء مما عبد المشركون ليقربوهم إلى الله زلفي، الشمس والقمر والكواكب ،والنجوم والانهار والصالحين وسائر الأسباب التى شاء الله تعالى أن يرزق العباد ويحييهم ويميتهم بها.

مع اثبات تسخير الله تعالى لكل هذه المخلوقات وتأثيراتها وخضوعها لأمره وحده مما ينفى عنها فاعلية خاصة بها مستقلة ذات تأثير فى الأمور الكونية.

الثالث: إفراد الله تعالى بالربوبية فى الكون خلقا وتدبيراً وحكما كونيا قدريا فلا يتم شيء إلا بمشيئته وفاعليته.

وتفرده سبحانه بالحكم الكونى والأمر القدرى النافذ يستلزم منهم إفراده بالألوهية.

فتوحيد الربوبية إعتقاد قلبى يصدق الموحد به بقلبه ويقربه بلسانه، فإذا أفرد الله تعالى بالطاعة وعبده وحده فعلا وسلوكا فذاك توحيد الالوهية إنبنى على توحيد الربوبية وقام عليه.

والحلقة الوسطى بين الاثنين أى بين توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية هى إفراد الله تعالى بالحكم الشرعي.

أو بتعبير آخر أكثر دقة نقول: أن الحلقة الوسطى التى تربط بين الاعتقاد القلبى الصحيح فى الخالق عز وجل وبين السلوك العملى الواجب على المسلم إتباعه هي: الاعتقاد بوجوب إفراد الله عز وجل بالحكم الشرعى أى بالحاكمية فى شتى مناحى الحياة بناء على الاعتقاد بتفرده عز وجل بالحكم الكوني.

وهذا الاعتقاد وهو: وجوب إثبات خاصية رئيسية من خصائص الربوبية لله وحده لا يتم توحيد الربوبية إلا بها، ألا وهى إفراد الله تعالى بالحاكمية الشرعية

فى حياة البشر، لأنه ليس موحداً من يفرد الله تعالى بالخالقية، ثم لا يفرده بالحاكمية الكونية، إذ يكون من مشركى الربوبية كذلك، وبالتالي، ليس موحدا من يفرد الله عز وجل بالحاكمية الكونية التى يدبر بها الله تعالى وينظم ويسيِّر أمر الخلائق الكبرى كالنجوم والكواكب والشمس والقمر والأرض وما فيها، ثم هو لا يفرد الله عز وجل بوجوب تفرده بالحاكمية الشرعية التى تنتظم بها حياة الإنسان الفردية والإجتماعية والإنسانية، لأنه سبحانه رب النجوم والكواكب والشمس والقمر والسحاب والمطر كما أنه رب الناس.

وتعتبر هذه الحلقة الرابطة بين توحيد الربوبية وتوحيد الالوهية من وجه آخر هى الأساس العملى والتنفيذى لسلوك العبد الموافق لطاعة الله وحده.

فهى من ناحية إعتقاد قلبى بوجوب إفراد الله تعالى بالطاعة فى الجانب التشريعى من الحياة ومن ناحية أخرى لا تتم الطاعة ولا يمكن أن يقوم شرع الله تعالى فى حياة الانسان إلا بناءاً على هذا الإعتقاد، حيث تأتى طاعة الناس لحكمه الشرعى سبحانه على مستوى الحياة الفردية والاجتماعية والانسانية تحقيقا لتوحيد الألوهية، إذ لا معنى لتوحيد الالوهية إلا بطاعته على هذه المستويات الثلاث من حياة الإنسان.

فالتوحيد الإسلامى هو إفراد الله تعالى بالربوبية وبالالوهية معا وهما عملان يقوم بهما الإنسان بفعل واحد لا ينفصلان فى واقع التنفيذ ولا فى الحس والشعور وإن كانا يتمايزان فى مجال المعرفة، إذ لا فرق بين الاعتقاد والسلوك بالنسبة للانسان من حيث كون كل منهما يتم بفاعليته.

بيد أن ثمة تفصيلات فى خصائص الربوبية وخصائص الإلوهية تجمعها صفات الله عز وجل العليا وأسماؤه الحسنى وأفعاله الحكيمة المحكمة كما وردت جميعا فى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

لأن التوحيد الإسلامى هو معرفة الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا

كما وردت فى القرآن الكريم والسنه. وتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به ولا ينبغى له من صفات وأحوال وأفعال نفاها عن نفسه فى القرآن الكريم ونفاها عنه رسوله ﷺ فى السنة الشريفة المطهرة. وفى الصفحات التالية سنحاول أن نعرف بحول الله وقوته من خصائص الربوبية الرئيسية ومن صفاته العليا وأسمائه الحسنى عز وجل وأفعاله الحكيمة المحكمة ما يعيننا على معرفة علاقة التوحيد بالخلافة، تلك العلاقة التى تبدو بوضوح وجلاء فى الحلقة الوسطى المذكورة آنفا.

إن أفراد الله تعالى بالحاكمية الشرعية فى حياة الإنسان بناء على تفرده فى الكون بالحاكمية الكونية القدرية هو لب قضية الخلافة.

لأن الانسان لا يخلف ربه إلا فى تنفيذ الحكم الشرعى أى يخلفه فى نصرة دينه وإقامة شرعه. ولا يتم توحيد الله عزوجل إلا بذلك. فلا خلافة لله تعالى بدون النيابة عنه فى تنفيذ حكمه الشرعى، ولا حكم شرعى إسلامى إلا بمفهوم خلافة الإنسان بعامة والحاكم أو الدولة بخاصة عن الله تعالى فى إقامة حكمه وتطبيق شرعه ونشر هديه ونصرة دينه.

ولا توحيد إلا بهذا وذاك.

ومن ثم كان السلطان (الدولة الإسلامية) ظل الله تعالى فى الأرض كما سبق لنا شرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى لهذا الحديث الشريف.

٤٩- الخلافة وخصائص الربوبية الرئيسية فى آيات الاستواء :

قال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة:

(رب: الراء والباء يدل على أصول ثلاثة: الأول إصلاح الشيء والقيام عليه)[1].

وتبعًا لهذا الأصل قال الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن: (الرب فى

(١) إبن فارس / معجم مقاييس اللغة/ المجلد ٢ / صفحة ٣٨١.

الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، يقال: ربه ورباه وربَّبه)[1].

أما الأصل الثانى عن ابن فارس فهو: (لزوم الشيء والإقامة عليه، وهو مناسب للأصل الأول، يقال أربت السحابة بهذه البلدة إذا دامت)

أما الأصل الثالث عنده فهو: (ضم الشيء للشيء، وهو مناسب لما قبله)[2].

ثم يقول ابن فارس معلقًا على هذه الأصول الثلاثة: (ومتى أنعم النظر، كان الباب كله قياسا واحدًا، ومن هذا الباب الرِّبَابَةَ، وهو العهد، وسمى العهد ربابة لأنه يجمع ويؤلف)[3].

(فالرب مصدر مستعار للفاعل ولا يقال الرب مطلقًا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات)[4].

ومن ثم تكون الربوبية - كوصف لله عز وجل - هى من الأصل الأول، لأنه خالق كل شيء وحافظ كل شيء وقيوم السماوات والأرض وكل ما فيهما.

ولذلك أثبت الله تعالى الربوبية المطلقة له وحده لأنه خالق كل شيء وحافظ كل شيء ومدبر شئون العالمين.

فالربوبية تتضمن أفعالاً متعددة لله عز وجل فى مربوبيه، وكل ما فى الكون مربوب له عز وجل وتتضمن أيضًا خصائص وصفات ينفرد الله عز وجل بها.

ويمكننا أن نتعرف على خصائص الربوبية الرئيسية فى سبعة مواضع للقرآن الكريم تتضمن جميعا إثبات الاستواء لله تعالى وتنص على هذه الخصائص مجملة فى بعض منها ومفصلة فى البعض الآخر:

---

(١) الرراغب الاصفهاني/ مفردات القرآن / صفحة ١٨٤.

(٢) ابن فارس/ معجم مقاييس اللغة / مجلد ٢ / صفحة ٣٨٢

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) ابن فارس / معجم / حـ ٢ ص ٣٨٢.

(أ) الموضع الأول:

قوله تـعالي: ﴿إن ربكم الـله الذى خلق السـموات والأرض فى ستـة أيام ثم استوى علـى العرش يغشى الـليل النهار يطـلبه حثيثا والشمس والقمـر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[1].

وتتضمن هذه الآية الكريمة من خصائص الربوبية ما يلى بيانه:

فبعد أن أثبت الله تعالى ربوبيتـه عز وجل وحده للناس، فى قوله تعالي: ﴿إن ربكم الله﴾ عرف نفسه كرب للعالمين بنسبة أهم خصائص الربوبية له وحده بقوله: ﴿الـذى خلـق السـموات والأرض﴾ إلـى آخر الآيـة، ومن ثـم يمكـن ذكر هـذه الخصائص فيما يلي:

١- خلق السموات والأرض فى ستة أيام فهـو الخالق وحده للعالمين، وما سواه مخلوق. ويستتبع هذا أنه هو الرب وحده وما سواه مربوب.

٢- إثبات إستواء اللـه عز وجل على عرشه بعد خلق السـموات والأرض ينفى عنه سبحانه أنه حَالٌ فى شيء من خلـقه أو متحدٌ به، وينزهه عز وجل عن الحلول والإتحاد ووحدة الوجـود، وهذا يثبت له العلو المطـلق على كل ما سواه، ويثبت أنه بائن عن جميع مخلوقاته، ويفرده بالالوهية الحقة ويجعل كل ما سواه عبدا له سبحانه.

٣- الخاصية الثالثة أنه تعالى مدبر الأمر فى السماوات والأرض ولا يشاركه فى تدبير شئون الخلائق غيره، وهذه الخاصية قائمة على الخاصية السابقة ومبنية عليها مـن الناحية العقليـة، لأن القو ل بأن الله تعالـى هو الخالق وحده، وأنه بائـن عن جميع خلـقه ليس حالا فى شـيء من مخلوقاتـه أو أحد من خلقه، ولا متحداً بخلقه ككل على سبيل وحدة الوجود، فإن هذا معناه أن كل ما سواه تعالى مخلوق له وعبد له ومسخر لأمره وعلى هذا يكون الأمر فى الكون له وحده مادام كل ما سواه عبيداً مسخرين له وحده.

---

(١) ٥٤ / الأعراف .

لذا قال تعالي: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ فلو كان الخلق له تـعالى والأمر لغيره، كما يظن مشركو الربوبية الذين ينسـبون للشمس والقمر والنجوم وحركات الأفلاك وتقلب الليل والـنهار دورا خاصا لكل منها فى حدوث الأشيـاء والأحياء، وفاعلية مستقلـة فى تدبير شئون المخلوقات وحـفظ حياة الأحياء، لما قال نفيـا لأى فاعليه مستقلة لهذه المخلوقات ﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين﴾ .

فالأمر من خصائص الربوبية وأفعال الربوبية كالخلق سواء بسواء.

والذين عبدوا الشمس والقمر والنجوم والدهر ناسبين إليها تقلب الليل والنهار، نسبوا لهذه المخلـوقات من أفعال الربوبية مالا يجوز إلا لـله وحده، لأنه عز وجل رب العـالمين تبارك وتـعالي، وبمـا أن كل شيء سواه مـربوب له، فـهو مسخـر له وبأمره، ومن ثم يكون الأمر فى الكون كله له وحده، وكل ذلك قائم على أساس أول: هو أنه وحده خالق كـل شيء. فبناء على أنه له عز وجل الخـلق كله فإن له تعالى الأمر كله.

والشمس والقمـر والنجوم والدهر (تقلب اللـيل والنهار) كلها مخلـوقة لله عز وجل ومسخرة له ومن ثم فليس لها من الأمر شيء وليس لها جميعًا فاعلية مستقلة أو تأثير فى أى شيء خارج عن أمره سبحانه.

فناسب قوله تعالى فى أول الآية: ﴿إن ربكم الله﴾ نفيه عن الأجرام السماوية الفاعلية المـستقلة والتأثير إلا بأمره فـى وسط الآية ثم ربوبيته سبحانـه للعالمين فى آخرها: ﴿تبارك الله رب العالمين﴾.

وبناء علـى هذا كله يمكن الـقول أن الآية الكريمة تثـبت من خصائص الـربوبية خاصتىْ الخلق والأمر بالإضافة إلى إستواء الله تـعالى على عرشه الذى يفيد العلو والبينونـة بذاته عنهم وينفـى عنه حلوله أو إتحاده بهـم، وبهذا تتميز الربـوبية عن العبودية فى قلب وعقل المسلم*.

---

* وفى هذا التمييز بينهما إبطال لعقيدة وحدة الوجود التى تخلط بينهما وتجعلها شيئًا واحدًا.

ومن مشركى الربوبيــة الصابئة عبدة الكواكب الذين نسبوا لــها مشاركة الله عز وجل فى الأمـر الكونى وجعلـوها خلفاء للـه تعالى فى الـفعل والتأثيـر والإحياء والإماتة على الأرض.

وهذا يعنى أن الإنحراف فى عقيدة توحيد الربوبية يؤدى بالضرورة إلى إنحراف فى مفهوم الخـلافة إذ يصبح المخلوق الذى ينْـسِبُون إليه إحدى خصائـص الربوبية خليفة لله تعالى فى بعض الأمور الكونية، وهو كما سبق ذكره، شرك صريح بالله تعالى الذى لا خالق ولا مدبر غيره.

فعبدة الكواكب والأجرام السماوية ينسبون لـها الأمر والتدبير فى الكون بفاعلية مستقلة بالرغم من إقرارهم بإفراد الله تعالى بالخلق.

ولا شك أن الخلـق، أى الانشاء والايجاد لـلكون بعـد العدم مناسـب للأصل الأول لكلمة «رب» فى اللغة، كما أنه من المؤكد أيضًا أن الأمر الكونى أى التدبير والقدر الكونى مناسب للأصل الثانى لـها وهو «لزوم الشيء والإقامة عليه». فمن نسب التدبير والأمر الكونى لغير الله تعالى فقد نسب لهذا الغير الربوبية وصار من مشركى الربوبية.

(ب) الموضع الثاني:

هو قوله تعالي: ﴿إن ربكم الله الـذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم إستوى عـلى العرش يدبـر الأمر ما من شفـيع إلا من بعـد إذنه ذلكم اللـه ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾[1].

فقرن سبحانه فى هذه الآية مثل السابقـة إفراده تعالى بالربوبية بإفراده عز وجل بخلق السـموات والأرض، وتدبير الأمر من فوق عـرشه بغير حلوله سـبحانه فى شيء أو أحد من خلقه وفى الكون كله.

---

(١) ٣/ يونس.

ولما كان التدبير كله لله وحده كما أن الخلق كله والأمر كله له وحده، فإنه ليس لأحد أو لشيء من دونه شفاعة عنده، كما ليس لأحد من دونه حق عليه يوجب عليه عز وجل مالا يريده فى الكون أو مالا يأمر به بمشيئته، إلا إذا أذن سبحانه لأحد فى شفاعة مخصوصة أو أمر محدود.

فخاصية الربوبية الأولى، وهى خلق الله عز وجل لكل ما سواه، تنبنى عليها فكريا، خاصية انفراده عز وجل بالأمر الكونى القدري، الذى ينبنى عليهما أيضًا إنفراده عز وجل بتدبير شئون الخلائق.

ومن ثم ينبنى على هذه الخصائص الثلاث السابقة نفى وجود شفعاء من دونه يملكون إحداث شيء كونى إلا أن تكون شفاعة أذن الله تعالى بها لا حد من خلقه فى أمر محدد.

أما المشركون فَيَسْتَشْفِعُون ويتقربون إلى الله عز وجل ببعض مخلوقاته التى لم يأذن لها تعالى بالشفاعة، معتقدين أن الخالق سبحانه قد وكل هؤلاء الشفعاء وفوض إليهم تدبير شئون الخلائق والأحياء على الأرض مما يجعلهم قادرين على النفع والضر من دون أمر الله تعالى ويجعلهم شركاء لله تعالى أو وكلاء عنه فى التدبير. أى أنهم يعتقدون أنهم خلفاء لله تعالى بالمعنى الكوني. ومن ثم كان التشفع بمن لم يأذن الله لهم فى أمور كونية، لا يجوز نسبتها لغير الله تعالي، شركًا صريحا، بالرغم من أن المشرك عندما يستشفع بمخلوق لله عز وجل يتضمن فعله هذا إقرارًا بإفراد الله تعالى بالخلق والأمر، بيد أن شركه يكمن فى إشراك الشفيع مع الله تعالى فى التدبير.

ومن ثم يكون الشفيع هذا فى عقيدة المشرك معينا لله - عز وجل وتعالى الله عن حاجته للشريك والمعين - أى يكون نائبا لله تعالى فى إنجاز ما يطلبه المشرك من الشفيع أو فى إتمام الحاجة التى من أجلها تشفع بالشفيع. وهذا معناه إتخاذ المشرك هذا الشفيع خليفة عن الله عز وجل فى تدبير شئون الخلافة وهى من الأمور

الكونية، وهـذا هو جوهر الشرك فى إتخاذ الـشفعاء من دون الله تعـالي، وبغير إذن منه جل وعلا.

وبامعان النظر ندرك أن الفرق بين الأمر الذى الحقـه الله تعالى بالخلق ونسبهما لنفسه فى الآية الأولـى بقوله: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ وبين فعل التـدبير مع نفى الشفعاء إلا من بعد إذنه فى الآية الثانية بـقوله تعالي: (يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه). أقـول بإمعان النظر نجد أن الأمـر فى الآية الأولي[1] جاء بعد إثبات تَسْخِير الشمس والقمر والنجوم والليـل والنهار بإذن الله تعالي، بعد أن خلق الله هذه الاجرام وكل شيء فى السموات والأرض مما هو كائن إلى قيام الساعة، فكأن الأمر هنا إشارة إلى السنن الكونية والطبيعية التى يسير بحسبها كل شيء فى الكون حسب ما أراد الـله تعالى له أن يسـير ويؤثر فى غيره ويـتأثر بغيره حسـب أمر الله القدرى الكونى الملزم لكل كائن كبيرا كان أم صغيرا. ومن ثم الحق الامر بالخلق ونسبهما إلى نفـسه عز وجل وحده معقبا بقوله تعالـي: ﴿تبارك الله رب العالمين﴾ فربوبيته لكل شيء ليست لأنه خالق كل شيء فقط بل لأنه قائم على كل شيء ومسير كل شيء بمشيئته وأمره فالخلق والأمر هما خاصيتا الربـوبية الأولى والثانية على التوالي.

أما التدبير فى الآيـة الثانية فجاء فى معرض نفى أن يكـون فى الكون شفعاء أو وسطاء فوضهم الله تعالى فترك لهم الأمر والتدبير لأمور الخلائق، حاشا لله تعالى فالأمر المدبر فى الآية الثانية[2] هو الذى يعتقد المشركون أنه لا يتم إلا من خلال وسائط يفعل بها الاله الخالق ولا يستطيع أن يفعل بغيرها سواء أكانت أجرامًا سماوية كالشمس والقمر، أم كانت ملائكـة يتشفعون بهم، أم صالحين من البشر، أم أصناما [3] ؛ ومن ثم يمكن أن نفهم معنى الأمر فى الموضع الأول فى آية

---

(١) آية الأعراف.

(٢) هى آية سورة يونس. قوله تعالى ﴿يدبر الامر ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾.

(٣) من المعلوم أن الاصنام التى عبدها المشركون لم تكن سوى رموزا لاجرام سماوية أو لبعض صالحى البشر.

الأعراف علـى أنه إشارة إلى السـنن الكونية الـعامة التى أراد الـله تعالى أن يـسير الكون بحـسبها، أما تدبـير الأمر فى الآية الثـانية فهو تدبـير شئون الخلائق بـعامة والانسان بخاصة لأن طلب الشفاعة الباطـلة لا يحدُث إلا من الانسان بقصد تدبير حاجاته، ومن ثـم يكون تدبير شئون الناس لاستمرار حياتهم هو الخاصيـة الثالثة للربوبية.

ولكى يكـون العبد موحداً لـله ومفرداً إياه تعـالى بالربوبيـة فإنه يتوجب عـليه إفراده بالخلق وبالأمر وبالتدبير جميعًا.

ثم قال سبحانه: ﴿**ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون**﴾ أى أنه إذا كان الله تعالى متفردًا فى الـكون بالربوبية لا يشاركه فى عطاياه من خـلق وأمر وتدبير غيره فإنه يلزم من هذا ألاَّ يستحق العبادة سواه، وليس من إله غيره، وهذا يدل على أن إفراد اللـه تعالى بـالعبادة الـذى هو توحيد الألـوهية مبـنى على تـوحيد الربـوبية ومترتب عليه.

(جـ) الموضع الثالث:

ولعل الذى يؤدى بـكثير من الناس إلى إشراك غـير الله تعالى معه فـى ربوبيته المطلقـة للكون ولكل شيء هو تـأثير العلة فى المـعلول أو السبب فى النـتيجة، إذ يرتبون تـأثير الأسباب، إبتـداء من الأسباب والعلل الجـزئية فى العنـاصر والأشياء المتعيـنة المحسوسة، إلى أن يـصعدوا بها إلى علـل عامة وكلية، كـالأرض والليل والنهـار والمطر والنوء والنـهر والبحر والـنبات والحيوان، ثـم إلى علل أكثر كـلية وعمومية كالشمس والقمر والكواكب والنجوم، وغيرها مما عبده المشركون من دون الله تعالي، متوهمين لها فاعلية خاصة، ذات تأثير مستقل عن أمر الله عز وجل.

ومن ثم قال تعالى مبينا أنه خالق هذه الأسباب وتأثيراتها معاً: ﴿**الله الذى رفع السموات بـغير عمد ترونهـا ثم أستوى على الـعرش وسخر الشمس والـقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات، لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾(١).

---

(١) ٢/ الرعد.

والآية الكريمة تتضمن خصائص الربوبيـة التى وردت فى الآيتين السابقتين لكنها تتميز بإشارة واضحة إلى قضية الأسباب والنـتائج أو العلل والمعلولات كسنة كونية عامة قائمة بإذنه عز وجل. فالمشركون مـن عبدة الأجرام السماوية، الذين ينسبون لها تدبيـرًا لشئون الخلائق ـ فى الأرض بعـامة، وفى حياة الإنسان بخـاصة ـ على سبيل الاستقلال بإعتبار أنها العلل القصوى أو العليا التى تنتهى إليها سلسلة العلل والتأثـيرات، وكذلك الذين يـجعلونها خـلفاء لله عز وجـل ونوابا عنه فى الـفعل والتدبير، نقول: إن هؤلاء المشركين يجهلون أن سلسلة العلل تنقطع بهذه الأجرام السماوية، فلا يستطيعون التسلسل بها إذ يعجزون عن معرفة العلة المادية لتعلق هذه الأجرام فى الفضاء حيث هى معلقة بلا أعمدة ولا يستطيعون إيجاد التفسير العلمى الصحيح ـ حسب زعمهم ومنهجهم ـ لدورانها فى أفلاكها بلا توقف.

لذلك قال تعالي: **﴿الله الذى رفع السموات بغير عـمد ترونها ثم إستوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمي﴾**[1] .

فرفع السموات وما فيها من أجرام بغير عمد نراها وترتكز عليها مخالف لقانون العِلّيه الذى يحكم علاقات الأشياء وتأثيراتها فى الأرض والسماء.

كذلك دوران هذه الأجرام الهائلة فى أفلاكها بـغير سبب مادى ظاهر للبشر هو أيضًا مخالف لقانون العلية إذ لا يتحرك متحرك مادى إلا بمحرك.

ولكن رفع السماوات بغير عمد يراها الناس لا يعنى أنه ليس لها ما أومن يرفعها إذ لابد من رافع لها أقـوى منها وأكبر وأعظم وكذلك جريـان الأجرام فى أفلاكها بدون محرك أو دافع لا يعنى أنه من الممكـن أن يكون جريانها بدون دافع ومُسيِّر، واذ تنقطـع أمام البشر وحسـب علمهم الأسبـاب المادية لرفع السـماوات والأجرام ودفعها ودورانها وتسييرها، فإن الله عز وجل هو الذى رفعها بغير عمد وهو الذى دفعها لـتجرى فى أفلاكهـا إلى مستقر لهـا، فهو ـ من ثم ـ وحده مـدبر كل شيء صاحب الأمر، كما أنه وحده خالق كل شيء، فناسب فى هذا الموضوع بيان رفعه

---

(١) ٢/ الرعد.

للسماوات وتسخير الشمس والقمر ليجرى كل منهما لأجل مسمى ويحدث من كل منهما أثره على الأرض بخلق الله تعالى لهذا الأثر فلا خالق ولا مدبر لحياة البشر وغيرهم من الأحياء غيرهُ قال تعالي: ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ فأثبت إنقطاع الأسباب المادية والانتهاء إلى التسليم ببقاء السموات وما فيها بقدرته وقيوميته عليها سبحانه ﴿ثم استوى على العرش﴾ فنفى عن نفسه حلوله فى السموات إذ يتبادر إلى ذهن السامع أن رفعه للأجرام ربما يقتضى - حسب تصور الإنسان القاصر للقدرة الالهية وقياسها على الاستطاعة البشرية - أن يكون الرب حالاً فى السماوات حتى يقدر على رفعها فنفى على الفور هذا التصور الباطل أو الخاطر المنحرف عن قُدْرة الحى القيوم فأثبت أنه رافعها عز وجل جميعا بغير عمد مرئية دون حلول فيها أو إتحاد معها لأنه سبحانه بعد خلقها إستوى على عرشه كما يليق بجلاله، فبائن سبحانه عنها وهو الحافظ لها ومن ثم تضيف الآية الكريمة خاصية حفظ الله تعالى للسماوات والأرض.

ثم أثبت بعد ذلك تسخيره للشمس والقمر ليجريان - ككل جرم فى السماء - إلى أجل حدده لهما عز وجل ولكل جرم.

ثم عقب بعد ذلك بقوله أنه هو الذى يدبر أمر خلقه جميعًا وهو عز وجل فوق عرشه لا يعوزه سبحانه - لكى يحكم تدبير كل شيء، حسب مشيئته - أن يكون حالا فى السموات أو فى الأرض أو متَّحداً بها لإنه قادر على كل شيء مهيمن على الكون المخلوق كله وهو مستوٍ على عرشه ليس شيئًا منها بعيداً عن سلطانه أو تصريفه أو تدبيره، بالإضافة إلى حفظه للسموات ورفعها فلا تقع ولا تنهدم ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا...﴾ .

ثم بين سبحانه أن هذا تفصيل للناس وبيان لهم لعلهم يتفكرون.

فتقوم الحجة بذلك على من يعبدون الشمس والقمر أو على كل ما ينسب للعلل المادية فى الأرض كالمطر والنوء والنهر وخلافه فاعلية مستقلة عن الخالق عز وجل.

ومن ثم لا يكون فى الكون خالق ولا مدبر ولا مصرف ولا قائم على السماوات والأرض وحافظ لهما إلا الله تعالى رب العالمين سبحانه.

فالخلق والأمر والتدبير والحفظ أربع من خصائص الربوبية الرئيسية.

كذلك نَاسَبَ قوله تعالى بعد قوله: ﴿**يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾. قوله تعالى مفصلا تدبيره سبحانه لأرزاق البشر - باعتبار أن أرزاقهم أهم لديهم من غيرها ﴿**وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾.

فلا يعبدون الأرض أو الجبل أو النهر أو النبات أو الثمار ولا يعبدون الدهر زاعمين أنه يقلب الليل والنهار، وعبادتهم لكل ذلك إنما تكون - كما يدل على ذلك تاريخ البشرية والعقائد الوثنية - بنسبة النفع والضر والخير والشر لهذه المخلوقات عن طريق تسلسل العلل ونسبة إحداث المعلول للعلة إبتداء بالأرض والمطر والنهر وإنتهاء بالشمس والقمر.

فكل هذه الأشياء هى من خلقه ومملوكة له وفعلها وتأثيرها هو من خلق الله عز وجل ولا يتم إلا بأمره - تعالى - وتدبيره.

فالعلل ومعلولاتها من خلقه سبحانه وهو مهيمن ومسيطر على كل شيء فلا يصدر أثر الشيء منه إلا بالأمر الالهى الكونى وبحسب تدبيره المحكم عز وجل، وبخلقه سبحانه لهذا الأثر كخلقه للمؤثر سواء بسواء.

وهذا يعنى بالضرورة أن هيمنته سبحانه وتملكه لكل شيء تملكًا حقيقيًا خلقًا وإفناء أو خلقا وحفظا من خصائص ربوبيته للعالمين أيضًا. وهذه الخاصية أى ملكه لكل شيء هى ما نعلمها من الموضع الرابع.

(د) الموضع الرابع:

قال تعالي: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى الرحمن على العرش إستوى له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسني﴾ [1] .

تثبت هذه الآيات الكريمة الخاصية الخامسة لربوبيَّة الله عز وجل المطلقة للكون. وهى الملك والملكوت. كما تتضمن خاصية أخري[2] أيضا ليس على سبيل الإشارة الضمنية بل على سبيل التصريح وهى خاصية الهدى الربانى المنزل من السماء إلى الأرض متمثلا فى التشريع الالهى للرسل بعامة وفى القرآن والسنة بخاصة.

أما بالنسبة لخاصية الملك والملكوت. فقد جاءت بعد إثبات الاستواء لله عز وجل على عرشه كما يليق بجلاله سبحانه.

أما الملك ففى قوله تعالي: ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ فكل ذلك له عز وجل، وحيث أن كل مخلوق إما أن يكون فى السموات أو فى الأرض أو بينهما أو تحت الثري، فكل ما سواه سبحانه مملوك له لأن من معانى رب العالمين مالك العالمين كذلك ناسب إثبات مملوكية كل شيء سواه له جل وعلا فى معرض اثبات استوائه عز وجل على عرشه كما يليق بجلاله سبحانه إذ يتبادر إلى ذهن الإنسان القاصر أيضا أن استواءه فوق عرشه قد يعنى أو يستتبع عدم تملكه لكل شيء، وفقد هيمنته على كل شيء فى السماء والأرض، وذلك من ضلالات قياس القدره الالهه على الاستطاعة البشرية القاصرة المحدودة فجاء أثبات ملكيته لكل ما سواه مع كونه عز وجل استوى على عرشه نفيا للحلول ووحدة الوجود مع نسبة كل ما سواه له على سبيل التملك: هيمنة وسيطرة وتحكما وتصرفا.

---

(١) ١- ٨ / طه .

(٢) هى الخاصية السابقة

وكذلك تتضمن الآيات هيمنته وسيطرته تعالى وتملكه لكل ما سواه فى الكون مع إثبات إستوائه على عرشه، إذ لا يلزم فى حقه تعالى لكى يكون مالكا لكل ما سواه فى السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى أن يكون الله عز وجل حالاً فى السماوات أو فى الأرض أو تحت الثرى تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرًا، ومن ثم أثبت سبحانه فى الآية علوه على عرشه وتملكه وهيمنته على كل شيء أما الملكوت فقد جاءت الاشارة إليه فى الآية بقوله تعالي: **﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفي﴾** ذلك أن هيمنته سبحانه وتملكه لكل شيء ليس قاصرًا على ظواهر الأشياء فقط بل أن سلطانه وهيمنته على حقائق الأشياء وبواطنها ، وعلى نفوس الأحياء وقلوب البشر، فهو عز وجل يعلم ما توسوس به نفس العبد فى الأرض وأخفى من ذلك، وهو عز وجل فوق عرشه.

فلا إله غيره ولا يتصف بكمالاته عز وجل غيره **﴿الله لا إله إلا هو له الاسماء الحسني﴾** .

ومن أسمائه الحسنى سبحانه الملك فهو مالك كل شيء.

فإذا كان الخلق والأمر والتدبير والحفظ والملك له وحده، فلا يجوز التوكل إلا عليه، وحيث أن توكل الانسان على ربه عز وجل لا يكون إلا فى الأمور الكونية، لذا فإن التوكل على غيره شرك لأنه يدل على فساد فى إعتقاد المتوكل على غير الله إذ ينسب لغير الله من الأمر الكونى والتدبير والملك ما ليس إلا لله وحده، وبذلك يكون قد جعل لله تعالى خليفة فى الأمر الكوني. ومثله من يتخذ من دونه تعالى ولياً أو نصيراً أشرك لأنه جعل له خليفة فى الأمر الكونى.

(هـ) الموضع الخامس:

لذا جاء قول الله تعالى فى الموضع الخامس مناسبًا لافراده تعالى بالملك والملكوت آمرا رسوله ﷺ بالتوكل عليه وحده **﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا الذى خلق السموات والأرض فى ستة**

أيام ثم إستوى على العرش الرحمن فسئل به خبيراً وإذا قيل لهم إسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا تبارك الذى جعل فى السماء بروجًا وجعل فيها سراجًا وقمراً منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾[1] .

فبروج الفلك وحركات بعضها واختلاف مواقعها بازاء بعضها البعض من الأمور التى ضل بسببها الإنسان وأشرك بربه نتيجة وهم خاطيء ربط من خلاله بين وقوع الأحداث على الأرض والتغيرات الطبيعية فيها وبين هذه البروج ومواقع الأفلاك، مما جعل هؤلاء المشركين يتوهمون أن تقارب بعض الكواكب والشمس والقمر فى مسارات متقاربة أو برج واحد يؤدى إلى حدوث الأحداث الصغيرة والجسيمة على الأرض ونسبوا ـ من ثم لهذه البروج ـ فاعلية مستقلة فى التأثير والتدبير مما يخدع به المنجمون المشركين والجهال.

ومن ثم أمر الله فى الآية الأولى من هذا الموضع رسوله ﷺ بالتوكل على الله تعالى الحى القيوم الذى لا يموت ونهاه عن التوكل على غيره عز وجل بقوله مخبراً أمره لبنى إسرائيل: **﴿ألاَّ تتخذوا من دونى وكيلاً﴾**.

لأن إفراد أفراد الله تعالى بالخلق والأمر والتدبير والحفظ والملك والملكوت يترتب عليه إفراده بالوكالة، فالتوكل على الله تعالى وحده هو من توحيد الالوهية المبنى على توحيد الربوبية الذى هو إفراد لله تعالى بالخلق والأمر الكونى والتدبير والملك والحفظ، فلا ينسب شيء من الأمور الكونية لغيره تعالي، لذلك قرر فى هذا الموضع سبحانه أنه هو الذى جعل فى السماء بروجًا بأمره فما يصدر عنها من تأثير ـ إن كان ثمَّ تأثير ـ هو من خلقه وفعله بمشيئته، كذلك نبه إلى أنه جعل فى السماء الشمس سراجًا منيراً والقمر نوراً وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه وجعل هذا النظام الذى أراده الله تعالى للشمس والقمر والأرض بحيث ينتج عن

---

(١) ٥٨ : ٦٢ / الفرقان.

دورانها جميعا فى أفلاكها بنظام خاص ـ شاءه سبحانه ـ كل ما يريده الله تعالى من ظواهر حيوية على الأرض، فهى جميعًا مسخرة بأمره لا تملك من أمرها شيئًا ومن ثم لا يجوز طلب النفع أو طلب دفع الضر إلا منه سبحانه كما لا يجوز السجود إلا له وحده لا شريك له.

هذا كله مع إثبات إستوائه على عرشه وبينونته عز وجل عن خلقه إذ لا ربوبية إلا بإثبات بينونة الرب عز وجل عن كل ما سواه، وهذا معناه نفى الحلول ووحدة الوجود والاتحاد عنه سبحانه، وإثبات علوه على عرشه وعلى كل خلقه، لأن الرب غير المربوب كما أن الخالق غير المخلوق، وهو سبحانه يخلق ويدبر ويملك كل شيء وهو سبحانه فوق عرشه.

يدل على هذا إثبات خصائص الربوبية فى المواضع كلها مقرونة بإثبات استوائه عز وجل على عرشه.

(و) الموضع السادس:

قال تعالي: **﴿ألم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون إفتراه؟! بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم إستوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون. ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين﴾**[1].

فقرن سبحانه بين تنزيل الكتاب وبين ربوبيته المطلقة لكل شيء فى قوله تعالي: **﴿ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾**.

---

(١) ١: ٧ / السجدة.

ثم جمع فى الآيات الخمس التاليات كل خصائص الربوبية التى سبق ذكرها فى المواضع السابقة، والشاهد أن هذا الموضوع السادس أضاف خاصية من خصائص الربوبية وهى تنزيل الهدى الالهى من عنده تعالى للناس - وإن كان قد سبق ذكر هذا الفعل لله تعالى كعطاء رئيسى من عطايا الربوبية فى الموضع الرابع (الايات الأولى من سورة طه).

فإنزال الكتب على الرسل هداية للناس من أهم وأعظم نعم وعطايا الرب جل وعلا لهم.

ويمكن إجمال الخصائص والعطايا الربانية من الله عز وجل لخلقه بعامة وللانسان بخاصة كما وردت فى هذا الموضع (سورة السجدة) كما يلي:

١- تنزيل الكتاب الذى لا ريب فيه وليس فيه سوى الحق (عقيدة) والخير والعدل (شريعة) فهو هدى للناس.

٢- خلق السماوات والأرض.

٣- إستواؤه عز وجل على عرشه بما يفيد علوه على خلقه جميعا ونفى الحلول ووحدة الوجود.

٤- تدبير الله تعالى أمور الخلائق جميعا بعامة والناس بخاصة، من السماء إلى الأرض، وهذا يؤكد علوه عز وجل ثم عروج نتائج هذا الأمر إليه سبحانه فى يوم كان مقدار ألف سنة من سنين الأرض، (مما تعدون).

٥- خلق كل شيء بإحسان وإتقان فجاء كل شيء مناسبا للحكمة من خلقه ومحققا للهدف من وجوده.

٦- خلق الإنسان من طين لحكمة تخص الوجود الإنساني.

٧- يترتب على هذا كله ثبوت الربوبية لله تعالى وحده ونفى الربوبية أو أى خاصية من خصائصها عن غيره عز وجل لأن اثبات خاصية من خصائص

الربوبية أو أى فعل من أفعاله أو عطاء من عطاياه لغير الله تعالى يودي إلى الشرك، بل إن نسبة أى فعل من أفعال الله عز وجل الكونية لغيره شرك صريح، ولأن هذه النسبة شرك إعتقادي، أى شرك ربوبية، إذ يعتقد صاحبه أن ثمة مخلوق أو مخلوقات لله عَز وجل تشاركه فى الأمر والتدبير والملك، ومن ثم يعبده على سبيل أنه ولى أو شفيع من دون الله عز وجل فينسب له النيابة أى الخلافة عن الله تعالى فى الأمور الكونية، ويجعل المشركون هؤلاء المخلوقين خلفاء الله تعالى فى الأمر والملك والتدبير. ويتخذونهم أربابا من دون الله تعالى بالرغم من إقرارهم بإنفراد الله تعالى بالخلق، وبأن هؤلاء الأرباب من دونه مخلوقون لله تعالى ككل شيء.

أى أن المشركين على إختلاف عقائدهم الباطلة إعتقدوا أن لله عز وجل شركاء فى الأمر والتدبير والنفع والضر والرزق لكنهم جميعا لم يجعلوا له شركاء فى الخلق ومن ثم كان كل ما إتخذوهم لله شركاء هم مجرد شفعاء ووسطاء وأولياء وخلفاء لله تعالى فى الأمر الكونى والتدبير والملك. سواء كان هؤلاء الشركاء أجراما سماوية أم افراداً من البشر أم أشياء أرضية أم ملائكة.

فكل الموجودات فى السموات والأرض عبيد لله ومملوكون له عز وجل ومن ثم يَنْعدِم أن يكون لبعضهم ولاية كونية أو أمر كونى أو تملكا حقيقيا أو شفاعة لأحد إلا بأذنه سبحانه وتعالي.

وهذا ما تدل عليه آيات الموضع السابع التالى الذى تعددت فيه كل خصائص الربوبية.

(ز) الموضع السابع :

قال تعالى: (سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، هو الذى خلق السماوات والأرض فى

ستة أيام، ثم إستوى على العرش، يعلم ما يلج فى الأرض، وما يخرج منها، وماينزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو معكم إين ما كنتم، والله بما تعملون بصير له ملك السماوات والأرض، وإلى الله تُرجع الأمور، يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، وهو عليم بذات الصدور، آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير، ما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم، وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين؟! هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وإن الله بكم لرؤوف رحيم. وما لكم لا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض؟! لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسني، والله بما تعملون خبير، من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بشراكم اليوم جنات، تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾[1].

تتضمن هذه الآيات الكريمة إثبات دعوة الرسول ﷺ للناس كافة إلى الإيمان بالله ورسوله فى قوله تعالي: ﴿آمنوا بالله ورسوله...﴾[2] ثم يلى هذه الدعوة سؤال تعجبى هو: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين؟﴾[3] فتضمن السؤال دعوة الرسول إلى الإيمان بالله عز وجل وإفراده بالربوبية وتذكيره بالميثاق الذى أخذه الله تعالى على كل بنى آدم فى عالم الذر بقوله: ﴿ألست بربكم ؟ قالوا: بلى ، شهدنا﴾[4] وهذا يعنى أن الشرك إنما يبدأ بوقوع العبد فى شرك الربوبية أول الأمر الذى يتبعه بالضرورة شرك الالوهية، والآيات الأولى من سورة الحديد تمهد لهذه الحقيقة الكونية التى يقر بها

---

(١) ١ ـ ١٢/ الحديد (٢) ٧/ الحديد

(٣) ٨/ الحديد. (٤) ١٧٢/الأعراف.

كل شىء فى الكون ، وهى أنه لا رب إلا الله عز وجل إذ تثبت الآيات تسبيح كل شىء لله سبحانه وتعالى، ثم تقرر أن كل شىء مملوك له وحده، وأنه تعالى الذى يحى كل حى ويميت كل ما أو من يموت وأنه سبحانه على كل شىء قدير وأنه تبارك وتعالى الأول فلا شىء قبله والآخر فلا شىء بعده، ومن ثم فهو رب كل شىء فى الزمان ورب الزمان.

وأنه الظاهر فلا شىء فوقه، وأنه الباطن فلا شىء دونه، ومن ثم فهو رب كل شىء فى المكان ورب المكان.

وعلمه محيط بكل شىء سواه فى الزمان والمكان[1].

وهو عز وجل كما أخبر عن نفسه فى علاه إستوى على عرشه، ويعلم كل ما يحدث من حوادث ومتغيرات فى السماوات والأرض، ما ينزل من السماء إلى الأرض وما يعرج من الأرض إلى السماء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ويملك كل شىء ويهيمن عليه دون أن يكون حالا فى شىء أو متحدا به[2].

ومن المعلوم أن اسباب الحياة ومؤثرات استمرارها لا تكون إلا بتعاقب الليل والنهار حسب سنن إلهية شاء سبحانه ألاَّ تتبدل إلا بإذنه وقضائه دون أحد سواه.

واستمرار هذه السنن هو الذى ضل بسببه كثير من الناس، ووقعوا فى الشرك وعبدوا الشمس ظنًا منهم أنها صانعة النهار على الحقيقة وعبدوا القمر ظنا منهم أنه صانع الليل فأشركوا بهذا الظن شرك الربوبية إذ جعلوا لله تعالى أندادًا فى الإحياء والإماتة والنفع والضر، وهو شرك إعتقادى قلبى.

يدل على ذلك أن الله تعالى بعد أن نسب لنفسه وحده إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل قال تعالى: ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾[3] أى بما فى الصدور من قلوب موحدة سليمة أو من قلوب مشركة بربها إتخذت من الافلاك أربابا بنسبة الإحياء والإماتة والنفع والضر لها.

---

(١) الآية الثالثة من السياق.

(٢) الآية الرابعة من السياق.

(٣) الآية السادسة. من السياق.

ثم جاء بعد ذلك فى الآية السابقة أمر الله تعالى بالإيمان بالله ورسوله وبعد الأمر بالإنفاق مما جعلهم مستخلفين فيه.

ثم تضمنت الآية الثامنة من السياق سؤالا تعجبيا تقريريا عن سبب عدم إيمانهم بربهم وعدم إفراده تعالى بالربوبية وحده، وهو الذى أنشأهم أول مرة، وخلقهم على الفطرة الموحدة، وقد أخذ عليهم العهد والميثاق على ذلك.

فتوحيد الربوبية - إذًا - أمر فطرى، والذى يكفر ويشرك بالله تعالى إنما هو الذى يحرف هذه الفطرة ويتحول عنها من توحيد الربوبية إلى شرك الربوبية، وتوحيد الربوبية هو إفراد الله بكل خصائصها ومن خصائص الربوبية التى لا يتم التوحيد إلا بها إفراد الله تعالى بالتشريع، لأن الاعتقاد بأن الله تعالى رؤوف رحيم بعباده يستلزم الإيمان بأنه لا يتركهم سُدًى بلا هدى ينزل عليهم ليخرجهم به من الظلمات إلى النور. فمن أعرضوا عن آيات الله المنزلة، ولم يتخذوها شرعة ومنهاجًا ونظامًا لحياتهم، وإتخذوا غيرها من قوانين الناس أو الطاغوت شرعا لهم ومنهاجا لحياتهم فهؤلاء إتخذوا من دون الله تعالى أربابا[1].

والعجب أن لا ينفق الناس فى سبيل الله تعالى وهو الذى أورثهم الأرض وملكهم إياها ملكية إستخلاف وليست ملكية حقيقية إذ سرعان ما يترك الانسان كل ما إستخلفه الله فيه من أموال ويعود إلى ربه خاوى اليدين، وبقيام الساعة يرث الله تعالى الأرض ومن عليها من الناس، كما أورثهم إياها ليحاسبهم على أعمالهم وتصرفاتهم حيال ما إستخلفهم عليه[2].

وتتضمن الآية العاشرة مقارنة بين الذين سبقوا بالجهاد والنفقة وبين الذين شاركوا فيها بعد الفتح ليثبت الدرجات العلى فى الجنة للسابقين ويثبت الحسنى أيضًا للآخرين إذ يخلدون جميعًا عند ربهم فى جنة تجرى من تحتها الأنهار.

(ح) خصائص الربوبية الرئيسية السبع:

وبناء على ما سبق يمكن ذكر أهم خصائص الربوبية كما وردت فى آيات الإستواء وما حولها من الذكر الحكيم فيما يلى:

١- خلق الله تعالى السماوات والأرض فى ستة أيام.

٢- إستواؤه عز وجل على عرشه بعد خلق السماوات والأرض فعل من أفعال

---

(١) الآية الثامنة من السياق.. (٢) من العاشرة من السياق.

ذاته سبحانه وتعالى، ينفى عنه حلوله فى بعض خلقه أو فى كل خلقه، أو اتحاده بهم، وينزهه عن أن يكون هو والخلق شيئا واحداً ويثبت له العلو المطلق على كل ما سواه، علوه بذاته سبحانه، ومن ثم بينونته عن خلقه ومغايرته لكل ما سواه، وهذه صفة ذاتية لازمة لله تعالى، إذ لا تثبت له الربوبية لكل ما سواه إلاً بها، لأن الرب بائن عن المربوب ومغاير له بالضرورة.

٣- لم يخلق الله تعالى الكون ثم تركه ليسير وفق ناموس يحكم حركته بفاعلية داخلية مستقلة فى أجزائه، كما يفعل صانع الساعة، ولله المثل الأعلى، وإنما أخبر الله تعالى أنّه القائم على الكون وعلى كل شىء يسيره بأمره الكونى فله الأمر كما أن له الخلق.

٤- تسخير الله عز وجل لكل شىء سواه كالملائكة والأجرام السماوية وكل ما جعله الله تعالى من أسباب الحياة والموت والنفع والضر ونسبة تأثيراتها وما يصدر عنها من نتائج ومعلولات وتغيرات كونية لله وحده خلقا وفعلا وتغييرا فليس فى الكون قضاء إلا قضاؤه ولا تدبير إلا تدبيره، ومن ثم نهى الله تعالى عن إتخاذ الولى والوكيل من دونه وعن إتخاذ الشفيع إلا من بعد إذنه.

٥- إن الله عز وجل على عرشه بذاته وهو سبحانه معنا بعلمه ونصرته وتدبيره وهيمنته وسلطانه على كل شىء مخلوق، أى أنه فى كل مكان بفاعليته وربوبيته. مع أنه منزه عن الحلول فى المكان بذاته.

٦- تفرد سبحانه بالملك الحق، أى الملكوت للسماوات والأرض وما بينهما وتفرده عز وجل بالملك هو من لوازم تفرده بالربوبية. فلا معنى للربوبية بدون الملك، وكما أن ربوبيته جل وعلا مطلقة وشاملة لكل ما سواه، وهذا معنى «رب العالمين» فإن ملكه سبحانه مطلق وشامل لكل ما سواه أيضًا.

ولا يمنع كونه عز وجل مالكاً لكل ما سواه أن يورث بعض ملكه لمن يشاء من عباده كما أورث الانسان الأرض بملكية إستخلافية وليس تمليكا من جنس ملكيته عز وجل لكل شىء، لذلك ورد ذكر إستخلاف الإنسان على

ما ملكه الله تـعالى فى الأرض، وسيرث الله تعالى أرضه ومـن عليها من الناس بـقيام السـاعة، وفى هذا بـيان لعلاقـة الإنسان بالأرض مـن خلال حقيقة الإستخلاف الإبتلائية.

ونعنى به قوله تعالي﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾.

٧- إستخلاف الله عز وجل الإنسان فى الأرض وتمليكها له أو توريثها له على سبيل الابتلاء يستتبع حاجة الإنسان الماسة إلى الهدى الربانى الذى يعرف به الحق من الباطل، والحلال من الحرام وهذا كـله من خصائص الربوبية لأن التربية عـلى الحق والإيمان والطاعة للـه تعالى هى من خصائـص الربوبية وعطاياها.

ومن ثم أنزل اللـه تعالى الهدى الربانى والـكتاب بالحق والميزان ليـحكم الناس بالقسط ويعيشوا بالصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿رفيع الدرجات.ذو العرش يلقى الروح من أمره على مـن يشاء من عباده لينذر يوم التلاق، يـوم هم بارزون لا يخفى على الله مـنهم شىء، لمن الملك اليوم، لـله الواحد القهار، اليوم تجـزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب.﴾[1].

فالاقرار بـخاصية الخـلق أولى خصـائص الربوبـية لا ينكـرها أحد من الـبشر مؤمنهم وكافرهم وملحـدهم وهو يستلزم بالضرورة* الاقرار بالخاصية الـثانية وهى الأمر الكونى، فإذا سلمنا أن لا خالق إلا الله تعالـى فيلزم عقلا التسليم بأنه ليس لأحد فى الكون من أمر كونى ولا قدر نافذ إلا أمره وقدره.

وهذا الأخير يـستلزم التسليـم أيضا بأنه لا مدبر لشـئون الخلائق جميعًا كـبيرها وصغيرها وعظيمها وحقيرها إلا الله وحده سبحانه وتعالى.

ويستتبع ذلك كله علمه بكل شىء وكـل حادث وكل متغير وكل صغير وكبير. ومعنى ذلك كله أنه لا مالك إلا هو جل وعلا.

ومن ثم فالحكم الكونى لله وحده لا شريك له فى ذلك.

وإذا كان الحكم الكونى له وحده، فإنه يلزم للعاقل أن يسلم أن الحكم الشرعى

---

(١) ١٥ - ١٧ غافر.

* هو لزوم عقلى فقط. وهذا الأمر مفصل فى كتاب للمؤلف بعنوان محاضرات فى العقيدة الإسلامية. نشر دار الدعوة بالاسكندرية.

يجب أن يكون له وحده سبحانه لا شريك له فيه، هذا الحكم الذى به تنتظم حياة الناس ويقوم العدل والقسط فيهم ويتحقق به لهم الخير وسعادة الدارين وتلك هى الخاصية السابعة من خصائص الربوبية التى يتوقف توحيد العبد عليها هى وسائر الخصائص السابقة.

فمن وصف غير الله تعالى بواحدة أو بأكثر من هذه الخصائص، أو من جعل لغير الله تعالى الحق فى التشريع وأخذ منهج حياته من هذا الغير، فهو من مشركى الربوبية، وإن صرح بأن الله تعالى خالقه وربه. ومن ثم فهو عابد لغير الله تعالى ومن مشركى الألوهية بالتالى، وإن قال: لا إله إلا الله.

والخلاصة أن من نسب خاصية من خصائص الربوبية لغير الله تعالى فهو من مشركى الربوبية الأمر الذى يؤدى به أن يشرك مع الله غيره فى عبادته، أى فى الألوهية.

كما أن المشركين، على إختلاف عقائدهم، يقرون بالخالقية لله وحده، ولا يشركون معه غيره فى الخلق، إلا أنهم ينسبون، لغير الله تعالى التدبير والأمر والحفظ، وغير ذلك، ليس على سبيل أصالة الشريك فى فاعليته لهذه الأمور، ولكن على سبيل الوساطة والشفاعة أى النيابة والخلافة عن الرب سبحانه وتعالى.

ومن ثم يرتبط التفسير الصحيح للإستخلاف بعقيدة التوحيد كما ثبت إرتباط التفسير المنحرف للاستخلاف بعقائد الشرك والالحاد، ويمكن تلخيص ما سبق فى هذا الفصل عن العلاقة بين التوحيد والخلافة فيما يلى:

أولاً : التوحيد هو إفراد الله تعالى بالربوبية والالوهية وهذا لا يتم إلا بإثبات العبودية لكل ما سواه عز وجل.

ثانيا: خلافة الانسان الله تعالى فى الأرض تتضمن الأقرار بعبودية الانسان لله عز وجل، وضياع عبودية الإنسان لله تعالى بصرفها لغيره تعنى ضياع الخلافة منه.

ثالثا: إتخاذ الأرباب من دون الله تعالى شفعاءاً أووسطاءاً بالضرورة إلى تبديد مركز الخلافة من الانسان وجعل هؤلاء الأرباب المزعومين خلفاء لله تعالى على

المشركين فى الأمور الكونية والشرعية. فحقيقة الخلافة - كحقيقة إنسانية - لا تقوم إلا بالتوحيد، وتنهدم بالشرك.

رابعًا: خلافة الإنسان الله تعالى فى الأرض ترتبط بالتوحيد برباط وثيق هو مبدأ وجوب إفراد الله تعالى بالحاكمية فى حياة الناس كخاصية رئيسية للربوبية لا يتم توحيد الربوبية إلا به ومن ثم يعتبر هذا المبدأ الأساس الاعتقادى المباشر لتوحيد الالوهية.

خامسًا: خلافة الانسان الله تعالى فى الأرض هى النيابة عنه سبحانه فى إقامة دينه وتنفيذ شرعه ونصرة كلمته. وهو التنفيذ العملى الواقعى لمبدأ إفراد الله تعالى بالحاكمية، وهو أمر قد جعله الله تعالى إختياريا فى حياة البشر ليبتليهم، فالانسان مخيَّر بين أن يفرد الله تعالى بالحاكمية فلا يقيم إلا حكمه ودينه وبين أن يقيم حكم الطاغوت فيكون كافرا بالله ومشركا معه فى ربوبيته وألوهيته غيره، وهذا هو حال المجتمع الذى يعيش فى ظل القوانين البشرية الوضعية مبايعا لحكامه راضيا عنهم ومدافعا عن نظامهم. ولا ينجو من هذا الحكم من افراد هذا المجتمع إلا من كان منكرا لهذا النظام مجاهدا لتغييره بالحكمة والموعظة الحسنة وبكل الوسائل المشروعة، ويعذر الجاهل فى هذا الأمر بجهله.

سادسا: حيث أنه لا توحيد إلا بإفراد الله تعالى بالحاكمية الشرعية إعتقادا وعملا، وحيث أنه لا تقوم الخلافة لله تعالى فى الأرض إلا بصياغة الحياة البشرية على مستوى الامة والمستوى الدولى وفق شرع الله تعالى ومنهاجه. فإنه يكون من الواضح الجلى أنه لا توحيد فى الوجود الاسلامى على مستوى الامة والمجتمع أو الشعب إلا بتحقيق خلافتهم لله تعالى فى الأرض باقامة دينه وتطبيق شرعه والجهاد لاعلاء كلمته سبحانه فى الأرض كلها. أى بخلافة الله تعالى فى تنفيذ حكمه التشريعى.

٥٠- إفراد الله تعالى بالحاكمية هو الاساس الإعتقادى لخلافته فى الأرض :

لقد رأينا فيما سبق أن ربوبية الله عز وجل المطلقة لكل شىء تتمثل أعظم ما تتمثل وتظهر أجلى ما تكون للمؤمن والكافر على حد سواء فى الخلق والإبداع والإنشاء والصنع والإيجاد لكل شىء بعد أن لم يكن شيئا.

وهذا ما أقر به كل الناس مؤمنهم وكافرهم وموحدهم ومشركهم.

فالخالقية خاصية الربوبية الأولى التى لم ينسبها أحد لغير الله عز وجل حتى مشركو العرب وغير العرب من المشركين والكافرين فى كل زمان ومكان.

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءًا، وأنزل من السماء ماءًا فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم، فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾(١).

أى أن كل الناس يعلمون أنه ليس لله ندا بناء على معرفتهم بأنه وحده الذى خلقهم وخلق كل شىء بما فى ذلك الثمار التى يتوقف عليها إستمرار حياتهم.

فإذا كان المشركون والكافرون يقرون بخاصية الخلق لله وحده ويفردونه بها، ففى أى خصائص الربوبية الباقية يشركون مع الله أربابا آخرين؟!..

إن القرآن الكريم يتضمن إثبات إقرار المشركين بأن الله تعالى هو خالق كل شىء، بل إثبات إقرارهم بافراده بالخلق والملك كخاصيتين رئيسيتين للربوبية.

قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾(٢).

فالمشركون الموجه لهم الأسئلة هنا يقرون بإفراد الله تعالى بخلق السموات والأرض أى بخاصية الخلق ثم بافراده بتدبير شئون الخلائق ونفى الفاعلية المستقلة عن الشمس والقمر كمؤثرات فى حركة الكون والفساد فى الأرض، ومن ثَمَّ يكون هذا إقراراً منهم، إذ اثبتوا تسخير الشمس والقمر بأمر الله وقدرته وتقديره عز وجل - بافراد الله عز وجل بالاحياء والإماتة وتدبير كل شىء.

يؤكد هذا أن ظاهرة نزول المطر التى يتوقف عليها - كسبب - الاحياء والإماتة فى الوجود البشرى على الأرض هى منسوبة لله وحده لا فاعل لها سواه. ولا رازق للناس ولكل الاحياء غيره سبحانه وتعالى.

---

(١) ٢١، ٢٢/البقرة. (٢) ٦١ : ٦٣ / العنكبوت.

قال تعالى مسجلاً إقرارهم بإفراد الله عز وجل بالرزق والاحياء والإماتة والتدبير وكلها من خصائص الربوبية:

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر؟! فسيقولون الله فقل أفلا تتقون؟﴾[١].

كما قال تعالى أيضًا مسجلاً إقرار المشركين بافراد الله عز وجل بملكية الأرض وما فيها وربوبيته سبحانه للسموات والأرض والعرش وهيمنته وسلطانه على كل شىء فى الكون: **﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله! قل أفلا تذكرون؟ قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون لله. قل أفلا تتقون؟ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يُجير ولا يُجار عليه، إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله! قل فأنى تسحرون؟﴾**[٢].

ومعنى هذا بوضوح إقرار المشركين والكافرين بإنفراد الله تعالى بالملك. والملكوت لكل شىء.

هذه الآيات الكريمة آنفة الذكر تثبت إقرار المشركين الاضطرارى بإثبات خصائص الربوبية الرئيسية لله وحده وهى الخلق والأمر والتدبير والملك.

ومصداقية هذا أن كل الأديان والمذاهب الفلسفية تتضمن إثبات الربوبية بهذه الخصائص المذكورة آنفا لكائن أول سابق لكل شىء أزلى ذى قوة غير محدودة وإرادة على وشامل وفاعلية مطلقة ينسبون له خلق كل شىء وفعل كل شىء إبتداءاً وانتهاءاً.

وهذا هو القَدْرُ الذى يجد المفكر فيه نفسه - إذ يحاول تفسير وجود الكون ونشأة الحياة - مضطرًا للإقراربه واثباته حتى يمكن أن يقدم تفسيرا أو مذهبًا أو فلسفة أو عقيدة يؤبه بها أو يُستمع لها من الغير وحتى يستطيع أن يخدع ويضل بها بعض الناس، ومصداق ذلك أن منكرى الالوهية كالدهريين والطبيعيين والماديين (الماركسيين) وغيرهم يقرون بالكائن الأزلى السابق وجوده على وجود كل شىء

---

(١) ٣١ / يونس (٢) ٨٤ : ٨٩ / المؤمنون.

سواه، وينسبون له تكوين العالم سواء بالإيجاد من عدم أم بتطوير ذاته أم بإحداث التغيير فى ذاته ليكون هو كل شىء بالتطور.

فالناس يتفقون جميعًا فى حقيقتين، هما بديهيتان إنسانيتان لا يختلف حولهما عاقلان من البشر. هاتان الحقيقتان هما:

١- إثبات موجود أول سابق لكل شىء أى أزلى، ومستمر مع كل شىء موجود أى أبدى فلاشىء بعده.

٢- عزوهم وجود العالم والاشياء إليه، (خلقا أو إحداثا أو تغييرا أو تطويرًا).

فهاتان الحقيقتان هما القدر المعرفى المشترك بين جميع الأديان والمذاهب الإيمانية والالحادية عند بنى البشر. لأنهما من المعرفة الاضطرارية الفطرية التى لا يمكن لبشر عاقل إلا أن يسلم بهما.

وإنما يبدأ الاختلاف بين عقيدة الإسلام وبينهم جميعًا فيما سوى ذلك من أسماء وخصائص وصفات الموجود الأزلى.

وهاتان الحقيقتان تتضمنان بالضرورة ورغم أنف المنكرين وإقرارهم بأن الخلق أو الصنع أو الايجاد أو التطوير أو الإحداث يرجع إلى هذا الكائن الأول وأن التدبير والملك له فى الكون وحده.

ولا يستثنى من ذلك عقيدة واحدة حتى ولا عقيدة الماركسيين الذين يسمون الكائن الاول المادة وجعلوها سابقة على كل شىء ونسبوا لها التدبير والتطوير للأشياء من داخلها حسب قوانين محددة.

أما فى عقيدة الإسلام فإن الله عز وجل هو الموجود الأول الموصوف بالفاعلية المطلقة والارادة الشاملة ويعزى إليه وجود كل شىء سواه خلقا بمشيئته وعلمه وحكمته فهو الله الذى لا إله إلا هو له الاسماء الحسنى وموصوف بصفاته العليا التى علمناها من القرآن والسنة. وهو وحده الموصوف بالربوبية المطلقة فى الكون والمتفرد بخاصية الخلق والأمر والتدبير والملك والهداية وجميع عطاءات الربوبية فى الدنيا والآخرة.

أما عن المذاهب والاديان الأخرى فهى تثبت الخالقية لله عز وجل وتفرده بها إلا أن الشرك والوثنية والالحاد فيها يكمن فى إنكار بعض خصائص الربوبية والالوهية غير خاصيةّ الخلق.

ومن ثم يكون كفر الكافر وشرك المشرك والحاد الملحد كامنا فى فساد عقيدته فى أسماء الله عز وجل الحسنى وصفاته العليا.

فالدهرى - يعزو كل ما يحدث من إحياء وإماتة وكون وفساد، إلى ما أسماه الدهر لأن الدهر فى تصوره هو القوة العليا أو الكائن الأعلى الذى يقلب الليل والنهار أزلا أبدًا، ومن ثم إذا حدث له ما يضره أو يؤلمه من مصائب فإنه يعزوه إلى الدهر ويسب الدهر فقال تعالى فى الحديث القدس: ﴿يؤذينى إبن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار﴾[1].

وليس الدهر إسما من أسمائه عز وجل فلا يجوز لنا أن ندعوه به، وإنما المعنى هنا أن ما يسمونه الدهر ويعزون إليه حدوث هذه الأحداث هو الله عز وجل، لأنه لا رب سوله ولا محدث ولا مدبر ولا فاعل فى الكون لهذه الأقدار غيره.

فإذا سب الإنسان الدهر بهذا الإعتبار، أو إذا سبه وهو يقصد سب من هذه خصائصه، فإن السب يكون لله عز وجل، لأن هذه الخصائص والافعال ليست لغيره سبحانه وتعالى، ومن ثم قال تعالى فى الحديث القدسى ﴿يسب الدهر وأنا الدهر﴾ لأنه هو الذى يقلب الليل والنهار ويحدث الأحداث التى من أجلها سب الإنسان الدهر، فالأمر كله بيده تعالى، وليس بيد غيره، فإن نسبوه إلى موجود إسمه الدهر فهو الله.

ومن ثم يكون ما يقصدون به الدهر هو الله عز وجل وبذلك ينصرف سبهم للدهر إليه جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته، وتعالى عن كل عيب علوا كبيرًا.

فإختلاف التسمية لم يمنع أن يكون سبهم للدهر هو سب لله عز وجل بالرغم من أن الذى يفعل ذلك قد يزعم أنه يؤمن بالله تعالى وأنه لا يسبه وإنما يسب الدهر أو الزمن أو الظروف أو القدر أو الأحداث التى أدت إلى ما جعله يسبها وهذا غير صحيح لأن هذه جميعها ليس لها فاعلية مستقلة، وإنما الفاعلية والخلق والأمر لله عز وجل وحده، فسبه للفاعل تحت أى أسم يعود على الله تعالى لأنه ليس مالكًا للأمر غيره، وليس مدبرا غيره وليس خالقا غيره.

ومن ثم لا يكون السبّ فى هذه الحالة إلا له بالرغم من إختلاف الأسماء،

---

(١) صحيح البخارى ك التفسير باب سورة الجاثيه حديث رقم ٤٦٣٤.

ولأنهم أيضًا يصفون الدهر بالأزلية والأبدية وهى صفات ليست إلا لله سبحانه وتعالى.

ومن ثم فإن ما يصفونه بالأزلية والأبدية ويعزون إليه الإحياء والإماتة ليس سوى الله جل وعلا لأنه هو الرب الحق وإن أطلقوا عليه إسما آخر كالدهر.

والمادى (الماركسى) عندما ينكر الاله فى أول جملة من مذهبه ويقول «لا إله» فإنه يعود فيثبت الرب فى الجملة الثانية من مذهبه عندما يقول: والمادة سابقه أزلية ابدية متطورة فما دام قد أعطى أهم خصائص الربوبية لشىء ما فهو ربه وإن سماه مادة لأنه يفسر حدوث كل شىء بها.

وكذلك الطبيعي يفعل نفس الفعل عندما يفسر كل تغير فى الكون بالطبيعة وحدوث كل حياة وكل موت بالطبيعة ويجعلها أزلية أبدية. ومن قال بالمطلق (هيجل) كذلك يفعل، وكل تفسير إنما هو بالضرورة إقرار بالربوبية لكائن أول وأعلى، تماما كإقرار أهل الإسلام لله عز وجل بالربوبية، إلا أن هذه التفسيرات الإلحادية جميعا تختلف فى الأسماء والصفات فيسمى الماديون الرب المادة ويسميه غيرهم الطبيعة ويسميه آخرون المطلق وغيرهم الدهر والفلاسفة الاقدمون العلة الأولى أو المحرك الأول أو العقل الكلى وهكذا.

كما يختلفون عن عقيدة الإسلام فى الصفات التى ينسبونها للموجود الأول إذ تتميز عقيدة التوحيد الخالصة بوصفه بالكمال المطلق اللائق به وتنزهه عن كل عيب ونقص بينما العقائد الأخرى تناقضها فى ذلك.

أى أنهم جميعًا يتفقون فى حقيقتى إثبات الموجود الأول الأزلى الابدى، وعزو كل شىء له، ثم يختلفون فيما سوى ذلك من أسماء وصفات وأفعال الكائن الأول الأعلى.

ومن ثم ومن هذا الإختلاف يبدأ الشرك والكفر والإلحاد.

فإذا عدنا إلى إثبات الله عز وجل إقرار المشركين لهاتين الحقيقتين فيما أوردناه من آيات تضمنت إقرارهم بإفراد الله تعالى (الموجود الأول الأزلى عندهم) بالخلق

---

(١) ١-٨ / طه.

والتـدبير والملـك. فى مثـل قوله تعـالى: ﴿ولئـن سألتـهم من خـلق السـماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾(١)*.

فإن السياق الذى وردت فـيه هذه الآية الكريمة تَضمَّن مـن الآيات التى تصرح بانكار المشركيـن لخصائص الربوبية الأخرى ذلك أنهم مع إقـرارهم بالخلق والملك والتدبـير لله وحده فإنـهم يجعلون مـعه شركاء من دون اللـه سبحانه وتعـالى فى الحكم والتشريع والهدى.

مع أن تسليمهم بإنفراده عز وجل بـالخلق والأمر والملك لكل شىء أى بالحكم الكونى، يقـتضى منهم، بالضرورة التـسليم له وحده عز وجل بالحـكم الشرعى. الأمر الذى لم يحدث منهم، إذ أشركوا غيره معه فيه، ومن ثم صاروا مشركين.

ويتضمن السياق وصف المشركين غير الله تعالى بخصائص الربوبية الرئيسية عدا ـ الخلق والأمـر والملك ـ كذلك نجد أنـه يتضمن دليـلاً على إنفراد اللـه عز وجل بجميع خصائص الربوبية ونفى الشركاء عنه فيها جميعًا، وذلك رد على المشركين.

والبرهان الجلى الذى يقدمه السياق لاثبات ذلك فى خطابه للمشركين يقوم على الحقيقة أو المسلمة التى يسلمون بها، وهى إقرارهم بأن الله تعالى هو وحده خالق السماوات والأرض وكل شىء ومالك كل شىء، الأمر الـذى ينبنى عليه بالضرورة إنفراده تعالى بالهيمنة وبالأمر والتدبير والحكم تشريعيا.

وكذلك التأكيد على نفى الأمر والفاعلـية الكونية، والحكم الشرعى عن كل ما سواه مما عبده المشركون كالشمس والقـمر والنجوم والملائكة والأولياء، وأتخذوهم شفعاءاً بناء عـلى اعتقاد فاسد بحيازتهم لـبعض خصائص الربوبية ومشـاركتهم لله تعالى فيها.

---

(١) ٢٥ / لقمان.

* هذا الاقرار من مشـركى العرب بنسبة خـلق السموات والأرض لله تعالـى ليس مقصورًا عليـهم لأن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب إذ يقربه كل البشر حتى الملاحدة فى كل زمان ومكان، وهذا الإقرار يتمثل فى الحقيقتين المذكورتين آنفا وهمـا مسلمتان بوجود محدث للسموات والأرض والانسان وهو نفس الإقرار الثابت فى الآية الكريمـة. وهذا اقرار بإثبات الخالقية والملك والتدبير وليس كـما يتوهم البعض إقرارا بتوحيد الـربوبية، لأن الربوبية ليـست قاصرة على هذه الخصـائص فحسب بل هى عز وكل خـلق وتدبير وهدى ونفع وضر للـه تعالى وحده. كما أن اتخاذ شفـعاء من دون الله تعالى يقربـوهم إلى الله زلفى هو اشراك هؤلاء الشفعاء مع الله فى التدبير والنفع والضر وليس فى الخلق والملك.

قال تعالى: ﴿ألم تـروا أن اللـه سخر لـكم مـا فى السـموات ومـا فى الأرض وأسبغ عـليكم نعمـه ظاهرة وباطنة ومـن الناس من يجـادل فى الله بغيـر علم ولا هدى ولا كتاب منير

وإذا قيل لهـم اتبعوا ما أنزل اللـه قالوا بل نتبـع ما وجدنا عليه آبـاءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟!

ومن يسلم وجهه إلى الـله وهو محسن فقد إستمسك بالعـروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور

ومن كفر فلا يحزنك كفـره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عمـلوا إن الله عليم بذات الصدور

نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ.

ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون

لله ما فى السماوات والأرض إن الله هو الغنى الحميد.

ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم.

ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير

ألم تـر أن الله يولـج الليل فـى النهار ويـولج النهـار فى الليـل وسخر الشـمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير.

ذلك بـأن الله هو الحـق وأن ما يـدعون من دونـه البـاطل وأن الـله هـو العـلى الكبير[1].﴾

فالآية الأولى تحدثنا عن تسخير الـله عز وجل ما فى السماوات وما فى الأرض للإنسـان وهذا يعنى نـفى مشاركة أى كائـن من كائنات الـسماوات والأرض ـ أى كائن على الإطلاق ـ لله عز وجل فى أى خاصية من خصائص ربوبيته.

---

(١) ٢٠ : ٣٠/ لقمان.

ومن ثم تُدين المشركين وتصفهم بالجهل والجدال بلا علم وبلا كتاب منير[1].

وما دام الخلق له وحده وكل ما سواه عز وجل مخلوق له ومسخر بأمره فلابد أن يكون الأمر الكونى له وحده أيضًا.

وإذا كان الأمر الالهى الكونى الذى سخر الله به كل شىء للإنسان له وحده فإنه من لوازم ذلك بالضرورة أن يكون الأمر التشريعى له سبحانه وحده. إذ كيف يكون الأمر الكونى أو الحكم الكونى له وحده باقرار كل الناس، ثم إذا بكثير منهم يجعل له شركاء فى الحكم الشرعى ولا يأخذ هديه ونظام حياته وتشريعه منه وحده؟!.

لإنه إذا كان الله تعالى هو نور السموات والأرض وكل شىء قائم وسائر ومؤثر بمشيئته وقدرته وأمره وتسخيره وتنظيمه سبحانه وتعالى، فإنه يكون من التناقض ومن المنكر والباطل، بل من الأمور المثيرة للدهشة والعجب، والمنافية لأبسط قواعد العقل والتفكير الصحيح أن يكون الأمر الشرعى والمنهج المنظم لحياة الناس لغيره.

ومن ثم يكون من الضلال والباطل أن يأخذ الإنسان هديه وتشريعه من غير الله تعالى حتى لو كان من الآباء والأجداد مادام دين الآباء وشرعهم مخالف لشرع الله تعالى ومادام حكمهم القانونى مناف لحكم الله الشرعى عز وجل[2].

ولا شك أن هذا الأمر هو من أخطر الأمور التى ينسب بها المشركون الربوبية لغير الله أو هى على الأقل أهم خاصية من خصائص الربوبية ينسبونها لغير الله عز وجل بالرغم من إقرارهم بنسبة الخلق والملك لله وحده، وذلك إذ يهملون أمر الله الشرعى ويعيشون بمنهج غير الله تعالى، طاعة للشيطان، بالرغم من إقرارهم بأن كل شىء حتى الشيطان مخلوق لله عز وجل وحده، و بأن كل شىء ملك له

---

(١) الآية ﴿الم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾. [٢٠-لقمان].

(٢) الاية الثانية فى السياق التى تثبت هذا المعنى ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾. [٢١-لقمان].

وكائن بـأمره الكونـى أيضًا، فهم بـذلك مشركـو ربوبية قبـل أن يكونوا مـشركى ألوهية.

ومن ثم جاءت الآية الثالـثة لتبين أن الدين الحق والعروة الوثـقى هى فى إتباع شرع الله عز وجل المنزل على رسله وخاتمهم محمد صلى الله عليهم جميعًا. وفى إسلام الارادة والوجه لـه مع الإحسان فى العمـل، فلا يكفى الاقرار للـه ببعض خصائص الربوبية دون البعض.

وحيال هذا الأمر الشرعى لا يستجيب كل الناس، لأنه أمر إبتلائى تخييرى، إذ ثمَّ من يكفر به ويخـالفه معرضا نفسه للعذاب، كما تدل عـلى ذلك الآيات الثالثة والرابعة والخامسة[1]. فهؤلاء الكافرون، وإن كانوا أحرارًا يـفعلون ما يشاءون فى الدنيا بإزاء الأمر الشرعى أو الدين المنزل، إلا أنـهم محاسبون ومعذبون على ذلك يوم القيامة.

ويواسى الله عز وجل فى الآيتيـن الرابعة والخامسـة رسوله ويخفف عـنه من حزنه الذى يصيبه بسبب كفر الكافرين من قومه ويبين له أن الله تعالى يُمَتِّعُهم فى الدنيا قليلا ثم لهم فى الآخرة عذاب الجحيم[2].

أما الآية السادسة فهى واسطة العقد بالنسبة لهذا السياق القرآنى الكريم، إذ ذكر الله تعالى إقرار المشركين بخـلق الله تعالى للسماوات والأرض، هذا الاقرار الذى ينبنى عليه ـ كمسلمة أساسيـة ـ كل خصائص الربوبية الأخرى ومن أهمها وجوب أن يكون الحكم الشرعى لله تعالى، كما أن الحكم الكونى له وحده[3].

ذلك لإن الاقـرار بخـصائـص الربـوبية الأولـي كالخلق والامـر والملـك أمر إضطرارى، كما سبق أن ذكرنا، والإنسان ليس مخيَّراً فيه.

أما هذه الخاصية ونعنى بها إفراد الله تعالى بالحكم الشرعى التخييرى، فالإنسان مخير حيالها، ومن ثم كان توحيد العبد متوقفا على إقراره بخاصية الحكم الشرعى

---

(١) ،(٢): الآيات الثالثة والرابعة والخـامسة هى قوله تعالى: ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ولله عـاقبة الأمور. ومن كفر فلا يحزنك كفـره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور. نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾. [٢٢ : ٢٤-لقمان].

(٣) هى قوله تعالى: ﴿لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد﴾ [٢٦-لقمان].

كخاصية رئيسية للربوبية، إذ هو مقر بخاصية الملك والخلق إضطرارًا، لكنه بالنسبة لقضية إفراد الله تعالى بالحكم الشرعى فهو مخير حيالها أى أن الانسان مضطر للاقرار بإفراد الله تعالى بالحكم الكونى، ولكنه مخير بين إفراده بالحكم الشرعى أو اشراك غيره معه فيه أو الكفر بحكم الله الشرعى البتة.

وهذا هو جوهر الإبتلاء بالاستخلاف، وكذلك يعتبر الإ قرار الاضطرارى من توحيد الربوبية الفطرى، وبالعكس الإقرار التخييرى للحكم الشرعى من توحيد الألوهية المبنى على توحيد الربوبية المتمثل فى الإعتقاد بوجوب إفراد الله تعالى بالحكم الشرعى، وهو الحلقة الوسطى الرابطة بينهما.

وفى الآية السادسة[1] إثبات لخاصية من خصائص الربوبية لله عز وجل التى لا يشاركه فيها غيره تصحيحا لمعتقد المشركين الفاسد والكافرين والملاحدة وهى الملك، لأن من يصنع شيئا ويخلقه ويبدعه، فإنه قادر على إفنائه وإعدامه كما قدر على إيجاده، ومن ثم يكون هو المالك له وحده.

ويضرب الله عز وجل للناس فى الآية الثامنة[2] مثلا ليقرب لهم معنى لا نهائية ولا محدودية كلماته تعالى، وكلماته عز وجل هى أوامره الكونية التى يتم بها خلق كل مخلوق واحداث كل حدث فى الكون، وذلك بقصور شجر الأرض، إذا صارت أقلاما وبحار الأرض، إذا صارت مدادا، عن حصر كلمات الله عز وجل وكتابتها، وهى دليل على طلاقة العلم الالهى.

ثم تعرض الآية التاسعة[3] لعظمة القدرة الآلهية إذ تقرر حقيقة أن خلق كل البشر وبعثهم هين عليه سبحانه لأنه كخلق وبعث نفس واحدة.

ثم يقرر الله عز وجل فى الآية العاشرة أنه هو وحده الذى يحدث الليل والنهار وليس ذلك من فعل الشمس ولا القمر لانهما مسخران بأمره يجريان لأجل مسمى

---

(١) الآية السادسة هى قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، قل الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾. [٢٥-لقمان].

(٢) الآية الثامنة هى قوله تعالى: ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ووالبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾ [٢٧-لقمان].

(٣) الآية التاسعة قوله عز وجل: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، إن لله سميع بصير﴾ [٢٨- لقمان].

وهو وقت قيام الساعة التى أجلها الله تعالى ليختبر الناس ولينظر ماذا يعملون[1].

وتقدم لنا الآية الحادية عشرة والأخيرة[2] من السياق تقريراً لنتيجة هذه الحقائق السابقة كلها وهى أن الله هو الحق ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ وأن كل ما جعلوه له من شركاء فى ربوبيته بنسبة خاصية التدبير إلى بعضهم وجعلهم شفعاء عنده من غير إذنه أو - وهذا هو الأخطر والأهم فى حياة البشر - بأخذ منهج حياتهم أى الحكم الشرعى من غيره ومن ثم أتخذوا معه أربابا يشرعون لهم فعبدوهم من دونه، كل هؤلاء سواء الشفعاء أم الأرباب المشرعون هم جميعا عبيد لله تعالى لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعًا ولا حياة ولا نشورا ولا رزقا ولا تدبيرا ولا حكما ولا شفاعة وليس من حق واحد منهم أن يكون له فى حياة الناس حكما شرعيا ولا تنظيما يخالف حكم الله تعالى **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات الأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾**[3]..

فبنى إفراد الله تعالى بالرزق على إفراده بالخلق، أى بنى مالا يقرون به على ما يقرون به بإعتبار أنه لازم عقلى ضرورى له.

وقال تعالى أيضًا: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره؟ أو أرادنى الله برحمة هل هن ممسكات رحمته؟! قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون﴾**[4].

---

(١) الآية العاشرة قوله عز وجل ﴿ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾ [٢٩-لقمان].

(٢) وهى قوله تعالى: "﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾ [٣٠-لقمان].

(٣) ٦١/ العنكبوت.

(٤) ٣٨/ الزمر.

فنفى أن يكون فى الكون شفعاء من دون الله تعالى يملكون تغيير إرادة المولى جل وعلا بناء على إقرارهم بخلق الله تعالى للسموات والأرض وكل شىء.

فمادام الخلق له وحده والأمر والتدبير له وحده والرزق منه وحده، فليس لأحد من دونه شفاعة، وليس لأحد من دونه حكم كونى، لكنهم يقرون بالمقدمات ويرفضون النتائج وتثبت آية الزمر إقرار المشركين بأن الله تعالى هو وحده الخالق للسموات والأرض بالرغم من أنهم ينسبون النفع والضر لغير الله تعالى ويتخذونهم أربابا من دونه عز وجل إذ يجعلونهم شفعاء وخلفاء فينسبون لهم إحدى خصائص الربوبية بالباطل.

وتتضمن الآية أمرًا من الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ أن يسألهم[1] فى إعتقادهم فيمن يكون له الأمر الكونى النافذ:

آالله عز وجل أم هذه الآلهة؟

وهل تستطيع هذه الآلهة المزعومة الباطلة أن تغير مشيئته تعالى من النفع إلى الضر أو العكس؟

ورغم أنهم لا يمكنهم الإجابة إلا بالنفى، إلا أنهم يتخذونهم شفعاء من دون الله تعالى، إعتقادا منهم بالباطل أنهم يقربوهم إلى الله زلفى، وهذا يتضمن إقرارهم بأن الخلق والأمر والملك لله تعالى وحده إلا أنهم يشركونهم معه فى التدبير، وهذا هو جوهر عقيدة الشفاعة. اذا الشافع يملك التأثير على ارادة المُشَفَّع.

وهذا يعنى أن المشركين يجعلون الشفعاء خلفاء وشركاء لله تعالى فى الحكم الكونى.

وهم فى هذه العقيدة الباطلة متخبطون لأنهم ينسبون لله شريكا ينفون عنه الملك ويجعلونه مملوكا لله تعالى كما كانوا يقولون فى الحج: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك).

لذلك أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يقول: ﴿**قل حسبى الله عليه يتوكل**

---

(١) السؤال يتمثل فى قوله تعالى﴿قل اقرايتم ماتدعون من دون الله. . . . . . إلى آخره﴾.

المتوكلون﴾ إذ لا وكيل للمؤمن الموحد إلا الله تعالى بعكس المشركين الذين يتخذون الشفعاء وكلاء من دون الله عز وجل.

فالآيات السابقة جميعا تهدف إلى إثبات جميع خصائص الربوبية لله ،وحده ونفيها عمن وعما سواه، حتى يقر بها المشركون له عز وجل معه في الحكم الكوني الأمر الذى ينبني عليه إفراده عز وجل بالحكم الشرعي ولا شك أن من أهم خصائص الربوبية خاصة الحكم الشرعي وإذ يستلزم - بمقتضى إفراد الله بالربوبية: وجوب الإعتقاد بإفراد الله تعالى بالحاكمية والتشريع، كما يستوجب توحيد الألوهية طاعة الله تعالى فيما شرع وأمر وعبادته كما يحب.

لذلك نجد أن ذكر إقرار المشركين بخلق الله تعالى لكل شيء يأتي في أكثر الأحيان في القرآن الكريم - إن لم يكن فيها جميعًا - في معرض الرد على المشركين وتسفيه عقولهم وأحلامهم، وكشف تناقض تفكيرهم، وتهافت معتقداتهم، إذ يرفضون قبول ما أنزل الله تعالى من الهدى والكتاب والشرع المحكم أى الحكم الشرعي بالرغم من إقرارهم بأن لله تعالى وحده الخلق والأمر والملك. الأمر الذى يُحتّم إفراده عز وجل بالحكم الكوني، وإفراده وحده بالتالي بالحكم الشرعي.

من ذلك قوله تعالى: **﴿حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين؟! وكم أرسلنا من نبى فى الأولين وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزءون، فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين. ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾**[1].

بعد أن ورد فى هذا السياق الكلام عن القرآن الكريم والنبوة كمصدرين للهدى الرباني والتشريع الحق المحكم والذى هو مرفوض من المشركين، ويعرضون عنه - إذ هو أمر الله الشرعي التخييري الذى يستطيعون قبوله أو رفضه- بعد أن ورد هذا بالسياق ، ذكر الله جل وعلا إقرارهم بأنه هو وحده خالق السموات والأرض، وأنه هو العزيز العليم لأن من يخلق هذا الكون الفسيح العجيب المعجز لابد أن يكون عزيزاً عليما.

---

(١) ١:٩/ الزخرف.

ومن ثم يستلزم منهم هذا الاقرار رفض قبول أى تشريع أو حكم من غير العزيز العليم ومع ذلك فالعجب كل العجب فى أن يعرضوا عن حكمه الشرعى وأمره التكليفى وهديه المنزل من عنده سبحانه وتعالى بالرغم من إقرارهم بتفرده عز وجل بخاصية الربوبية الأولى وهى الخالقية، فى حين أن الاقرار بالخالقية لله وحده يستتبع الإقرار بالحاكمية له وحده كذلك ورفض الإقرار بالحاكمية لله تعالى شرك ربوبية لا يغنى عنه الاقرار لله تعالى بالخالقية والأمر والملك.

ومن ثم أُتبعَ هذا سبحانه بقوله: ﴿**الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون، والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تُخرَجون، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون**﴾(١).

فهذا كله من تدبير الله تعالى الكونى لأرزاق العباد، لأستمرار حياتهم، وهو من الأمر الكونى الذى ينفرد الله تعالى به دون شريك، كما ينفرد بالخلق، مما يستلزم إفراده عز وجل بالحكم الشرعي.

ولكنهم أشركوا معه غيره فى التدبير بإتخاذ شفعاء من دونه وأشركوا معه غيره فى الحكم الشرعى بإتخاذ من يشرع لهم ويحرم لهم ويحل لهم من دونه، وهذا من شرك الربوبية لأن هذا فساد فى إعتقادهم الفطرى فى الرب جل وعلا، إنبنى عليه وترتب عليه شركهم فى الألوهية، لأنهم إتخذوا أرباب من دون الله جل وعلا هم المشرعون لهم وذلك لأن العقيدة الصحيحة فى الله عز وجل رباً واحداً لكل شيء لا تنفصم عن الإعتقاد بأنه هو الاله الواحد لا شريك له فى ربوبيته ولا فى ألوهيته لأن العبد إذا أفرد الله تعالى بالربوبية المطلقة فى الكون أى لكل شيء سواه، فإنه بالضرورة لا يطيع إلا إياه، ولا يعبد غيره ولا يقبل من غيره أمراً ولا تشريعًا ولا تنظيمًا ولا منهجا لحياته غير منهج خالقه عز وجل، ومن ثم يكون قد أفرد الله تعالى بالألوهية بناء على إعتقاده بأنه متفرد فى الكون بالربوبية.

أما من جعل مع الله تعالى أربابا من دونه فإنه بالضرورة عابد لهم ومتخذهم آلهة له من دون الله تعالي، والاعتقاد فى غير الله تعالى بالربوبية أكثر ما يكون

---

(١) ١٠ : ١٢ / الزخرف .

فى خاصية التشريع، وبالمثل من كان عابداً مع الله إلها آخر فإنه يكون قد إعتقد أن لهذا الإله الآخر خاصية أو أكثر من خصائص الربوبية وأجلى هذه الخصائص وأكثر ما تكون هى خاصية التشريع والأمر التنظيمى للحياة.

من أجل ذلك وبناء على ما تقدم نجد أنواع الشرك ودرجاته مرتبطة ومتدرجة بحسب نسبة خصائص الربوبية الرئيسية إلى غير الله عز وجل، فمن ينسب خاصية منها لغير الله تعالى فهو مشرك، ولعله فى أقل درجة من درجات الشرك الأكبر - وإن كان الشرك كله ملة واحدة ومصير المشركين جميعا فى الآخرة واحد، وهو الخلود فى النار، وإن إختلفوا فى درجات العذاب - إلا أن الذين يتخذون شفعاء لله تعالى ويعبدونهم ليقربونهم إلى الله تعالى زُلفى إنما يكون إعتقادا منهم أن فيهم خاصية من خصائص الربوبية تجعل لهم تأثيراً فى الأمر الالهى الكوني.

وهؤلاء أقل كفراً من الذين ينسبون لله تعالى شركاء فى الفعل الكونى بالإضافة إلى الشفاعة لأنهم ينسبون لغير الله تعالى خاصيتين من خصائص الربوبية.

وكذا من نسب لغير الله تعالى ثلاث من خصائص الربوبية كالأمر والفعل والملك مثلا، فهؤلاء أوغل فى الكفر والشرك.

ولعل أكثر أنواع العقائد الباطلة إيغالا فى الكفر والشرك والإلحاد هو هذا النوع الذى تفسد فيه عقيدة أصحابه فى الصلة بين الله عز وجل وبين خلقه، هذه الصلة التى تضبطها وتحددها - فى عقيدة التوحيد الخالص - آيات الاستواء السبع السابق ذكرها والتى علمنا منها وجوب إثبات علو الله عز وجل بذاته على جميع خلقه من إثبات إستوائه على عرشه وذلك لثبوت علو عرشه على السماوات والأرض وكل الخلق أجمعين.

وهذا ينفى بالقطع حلول الله تعالى فى شيء أو أحد من خلقه، كما ينفى عنه عز وجل إتحاده بشيء من مخلوقاته، كما ينفى عنه كذلك أن يكون هو - سبحانه وتعالى - والكون المخلوق شيئا واحداً فيما يعرف بوحدة الوجود.

أى أن إثبات الاستواء، كفعل من أفعال ذاته سبحانه وتعالي، يبطل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، ويجعل هذه العقائد باطلة والحادية وينزه الله سبحانه وتعالى عن هذه الأباطيل الثلاثة.

فأصحاب الحلول ينسبون بمقتضى عقيدتهم الباطلة الضالة بعض خصائص

الربوبية أو جلّها إلى بعض خلقه فيجعلونهم شركاء معه فى الملك والأمر والتدبير وأصحاب وحدة الوجود يـجعلون الرب هو الخلق والخلق هـو الرب، فيكون كل شيء فى الـكون ربا ومربـوبا، ويوزعون خـصائص الربـوبية علـى الكائنـات فى العالم، فيرتدون وثـنيين يتخذون بعض الكائنات أربابـا من دون الله رب العالمين، ومن ثم يعبدونها.

بل إن منطق هذه العقيدة ولوازمها الفكرية تنتهى إلى تقديس كل موجود وعبادة كل كائن، والتـفريق بين الموجودات من حيث كـونها آلهة معبودة بـناء على درجة حلول أو إتحاد الإله فيه أو تجليه فيه أو تمثله به.

ولذلك يمكـننا القول بأن أسـوأ العقائد كفرا وشـركا ووثنية وإلحادًا هـى عقيدة وحدة الوجود، إذ هي العقيدة الوحيدة التى ينـسب فيها أصحابها جميع خصائص الربوبية بما فيها الخلق والملك والأمر لـغير الله تعالي، أى للسماوات والأرض وما فيهما.

ومع ذلك ولأن الـفطرة الإنسانـية لا تستطيـع إلا أن تقر بكائـن أول سابق أو موجود أزلى أبدى يكون أكـمل الكائنات وأكثرها تنزها عن الـنقص والعيب، فإن أصحاب عقـائد وحدة الوجود - بالرغم مـن قولهم بوجود واحد هو الـعالم وهو الاله فى نفـس الوقت-، يعودون فيـثبتون تميزاً لمـوجود أول وكائن أزلى يعـطونه أسمًا خاصا وأوصافا خاصة يتميز بها عن سائر الموجودات وعن الكون، ويجعلونه متخـللاً فى الكون كلـه، فيسمونه أحـيانا الحق كما هـو عند إبن عربي، وأحـيانا المطلق كما هو عـند هيجل، وأحيانا المادة عند كارل ماركـس وأحيانا اللوجوس أو العقل الكلى كما هو عند الرواقية وهكذا وهذا تخبط وتناقض .

وأصحاب هذه الـعقيدة كمن يـنكرون الربوبية مـطلقًا أو يرفضـون الأقرار بإله للكون بالرغم من تصريحهم بغير ذلك. وهذا دليل على أن كفر الملاحدة بالألوهية - بمعنى رفض الإقرار بموجود يسـتحق العبادة والتقديس يسبقه معتـقد قلبى عندهم بكفرهـم بالربوبية ورفض الإقرار بـرب واحد يعزون إليه إيجاد كـل شيء ومن ثم تكون خصائص الـربوبية عدا الإيجاد أو الخلق أو الصنـع أو التطوير أو الإحداث موزعة على جميع الكائنات. فيكون إثبات خاصية الايجاد والخلق للموجود الأول عندهم ثابتة له بينما سائر الخصائص موزعة على كائنات أخري.

وبهذا ننتهى إلى أنه لا توحيد ألوهية إلا بتوحيد الربوبية، كما أنه لا يوجد فى واقع الحال البشرى أو الإنسانى إنفصام بين التوحيدين. فمن أشرك مع الله تعالى إلها آخر وعبد غيره لابد أن يكون قد إعتقد فى هذا الغير بعض خصائص الربوبية.

وقد سبق عرض فساد عقيدة إبن عربى صاحب وحدة الوجود فى الخلافة نتيجة فساد عقيدته فى الربوبية كنموذج واضح لارتباط مفهوم الخلافة بالعقيدة سواء فى حالة التوحيد أم فى حالة الشرك.

كذلك أصحاب الحلول كالنصارى الذين قالوا بحلول الإله فى المسيح كذبا على الله وزورا هم أيضًا جعلوا المسيح ربا من دون الله تعالي، أى خليفة لله فى الأمر الكونى وهذا شرك ربوبية صريح قال تعالي: **﴿إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح إبن مريم﴾**[1] فإتخاذهم المسيح ربا كان نتيجة إعتقادهم بحلول الإله فيه حسب مذاهب مختلفة فى الحلول ومن ثم وصفوا المسيح ببعض خصائص الربوبية وجعلوه ربا من دون الله تعالى إذ وصفوه بالأزلية وهو مخلوق. ومن ثم عبدوه واتخذوه إلها مع الله.

أما الأحبار والرهبان فقد أتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بإعطائهم حق التشريع الذى هو لله وحده كخاصية رئيسية من خصائص الربوبية، ومن ثم جعلوهم خلفاء لله فى خاصية من خصائص الربوبية، وهذا ما ادعته الكنيسة من تفويض الله تعالى لها بالحكم فى أتباعها كما يشاء رجالها وهذا ما فسر به رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة. فيما أخرجه الترمذى بسنده عن عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه قال(أتيتُ النبىﷺ، وفى عنقى صليب من ذهب فقال: ياعدى اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ فى سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من ذون الله قال أما أنهم لم يكونوا يعيدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه)[2] فقوله(إنهم لم يكونوا يعيدونهم) أى لم يتوجهوا اليهم بالسجود والركوع، ومن ثم فسر الله تعالى فقبول التشريع من المخلوق عبادة له، لان التشريع من خصائص الربوبية ومن أطاع شرعا لغير الله تعالى معتقدا بوجوب طاعته واتخذ ربا من دون الله تعالى.

---

(١) ٣١/التوبة (٢) جامع الترمذى/ك التفسير باب ومن سورة التوبة.

الفصل الرابع عشر

الخلافة والذات الإنسانية
أو
الخلافة والجانب الانسانى
من التـوحيـد الاسـلامى

٥١ ـ الخلافة مكون رئيسى فى الذات الانسانية

٥٢ ـ الخلافة والفطرة

٥٣ ـ الخلافة وتقلُّب الذات الانسانية

٥٤ ـ الخلافة والابتلاء

٥٥ ـ جدلـيـة الخـلافـة الابـتـلائـيـة بـيـن الـقـدر الالـهـى والفاعلية الانسانية



٥١ ـ الخلافة مكون جوهرى فى الذات الانسانية:

لقد ورد لفظ خليفة فى قوله تعالى (انى جاعلٍ فى الأرض خليفة) بدلا من إسم آدم وعوضا عن لفظ الانسان أو لفظ بشر، إذ اتفق المفسرون على أن آدم عليه السلام ليس مقصوداً أو مشاراً إليه فى الآية لشخصه فقط، إنما هو مقصود لصفته كممثل للانسانية جمعاء، بالاضافة إلى كونه مقصودا لشخصه أيضا.

ومن ثم يبرز إلى الذهن هذا السؤال الهام: ماهى الصلة أو العلاقة بين حقيقة الاستخلاف وحقيقة الإنسانية؟

للإجابة على هذا السؤال نقرر بادىء ذى بدء أن معرفة حقائق الأشياء أمر بعيد المنال عن مكنة البشر واستطاعتهم، فلا يمكن أن يدرك الإنسان حقيقة شىء من الأشياء ولا حتى ذاته هو، لكنه يستطيع أن يعرف خصائص الانسانية وخصائص المخلوقات من حوله.

وربما ساعد على التقريب لحقيقة الإنسانية معرفة الاستخلاف كأهم خاصية يتميز بها الانسان عن سائر المخلوقات. ثم معرفة العلاقة بين الذات الإنسانية وبين الخلافة وتأثير هذه العلاقة فى الوجود الانسانى والحياة البشرية بكل أبعادها وفى علاقة الانسان بغيره من المخلوقات.

فالخلافة إذن مكون جوهرى فى الذات البشرية وخاصية ذاتية فيها، وتلك نتيجة مؤكدة وصحيحة لذكر الله عز وجل الانسان باسم الخليفة عند إعلام الملائكة عن مشيئته سبحانه بخلقه.

وهذه النتيجة الصحيحة تستتبع نتائج أخرى تنبنى عليها وهى:

أولا: أن هذه الميزة احدى خصائص المخلوق الجديد الجوهرية بل هى من أهم خصائصه الفاصلة بينه وبين كل المخلوقات فى الأرض وفى السماء. وذلك لأن المخلوق لايسمى غالبا إلا بصفة أو ميِّزة جوهرية فيه لايشاركه فيها غيره. فالخلافة مانعة من دخول غير بنى آدم فى تعريف الآدمية، كما أن الإنسانية أو الآدمية أو البشرية مانعة لدخول غير الآدميين أيضا فى تعريف الخلافة أو الخلفاء.

ثانيا: وتبعا لهذا فإن الخلافة تخص الإنسان كنوع ولا تخص بعض أفراده دون البعض لأن خاصة النوع من الأمور الكلية أو بتعبير المناطقة من الكليات الخمس اللازمة للتعريف الجامع المانع.

فهى جامعة لكل أفراد النوع، مؤمنهم وكافرهم، أولهم وآخرهم، العظماء من الناس وغيرهم على حد سواء. كما يشترك جميع أفراد النوع فى اسم واحد: الانسان والبشر والناس وبنو آدم، وكذا الانس.

ثالثا: ليست الخلافة مجرد مميز للنوع الانسانى كمخلوق عن غيره من المخلوقات فقط، لأن كل مخلوق له خاصيته التى تميزه، فالخلافة - كحقيقة انسانية - لاتميز الانسان فقط، وإنما ترفعه فوق كل درجات المخلوقات الأخرى، اذ أن لها شأن وجودى هام وخطير.

فالاستخلاف درجة وجودية عالية بين المخلوقات ومرتبة كونية ينفرد بها الانسان فلا يشاركه فيها غيره، اذ هى مكانة لاتنبغى إلا لمخلوق واحد أو نوع واحد من الخلق إصطفاه الله تعالى مالك الملك وخالق كل شىء لهذه الدرجة العالية بين المخلوقات فأصبحت جزءا من كينونته الانسانية ومكونا رئيسيا فى بشريته فأصبح مفارقا فى المكانة والمرتبة والدرجة لكل المخلوقات، ومرتفعا عليها.

فما أصبح آدم به خليفة صار به إنسانا وما صار به إنسانا أصبح به خليفة. وقد ثبت هذا كله من عدة حقائق إتفق عليها جمهور المفسرين: منها أن الله تعالى تولى بنفسه إعلام الملائكة بجعل خليفة فى الأرض، ومنها استشراف الملائكة للخلافة وتطلعهم لها، ومنها تعليم آدم الأسماء ثم إسجاد الملائكة لآدم ثم إباء ابليس وحقده على آدم وحسده لاصطفاء الله تعالى إياه للخلافة وتصريح إبليس بأن حقده وحسده كان بسبب تكريم الله تعالى لآدم وذريته.

رابعا: وبناء على كل ماتقدم تكون الخلافة حقيقة كونية إنسانية شاملة للوجود الإنسانى كله من بدئه إلى نهايته فى الحياة الدنيا ثم بعد ذلك يكون لها أثرها الخالد الدائم بأمر الله عز وجل فى الآخرة.

فالإستخلاف - كحقيقة هامة فى الوجود الإنسانى- يتعدى أثره مرحلة الحياة الدنيا الى الآخرة، ومن ثم نقول إنها حقيقة كونية انسانية وجودية وليست حقيقة بشرية دنيوية فقط.

خامسا: وباعتبار أن الخلافة جزء رئيسى فى الكينونة البشرية والانسانية فإن هذا الاعتبار يستتبع آثارا لها على النفس الانسانية كأصل أصيل لنوازع هذه النفس وتطلعاتها وطموحاتها وآفاق ومجالات تأثيرها فى غيرها وتأثرها بغيرها من المخلوفات.

بيد أنه من المعلوم أن حقيقة الاستخلاف ليست هى العنصر النفسى الوحيد فى تكوين الذات الإنسانية، اذ هناك عناصر أخرى مثل الفطرة والابتلاء والأرادة وغيرها وكلها حقائق وجودية إنسانية بشرية تمتزج وتتفاعل لتتشكل بها حياة الانسان على الأرض، تأثيرا وتأثرا، ويترتب عليها بعد ذلك مصيره بعد الموت وحياته الأبدية.

ومن ثم يكون من الخطأ المنهجى والموضوعى أيضا محاولة معرفة الخلافة بعيدا عن هذه المكونات الممتزجة فى الذات الانسانية والمتفاعلة فيها والمشاركة فى كينونتها: الثابت فيها والمتغير أو المتحول على حد سواء.

ويلزم - لكى نعَرف احدى هذه المكونات - أن نعرف علاقتها بالمكونات الأخرى فى أطار النفس الإنسانية الحية المتغيرة أى نعرف هذه المكونات فى حالة تفاعلاتها بعضها مع بعض، وفى حالة تفاعل الذات الإنسابنية ككل مع غيرها من الكائنات الأخرى، ومن ثم سنحاول معرفة العلاقة بين الخلافة وبين العناصر الأخرى المذكورة آنفا.

٥٢ - الخلافة والفطرة:

فطر الله تعالى الانسان على معرفته خالقا لا ند له ولا كفؤ له. قال تعالى

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾[1].

وقال تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم؟ قالوا بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟!﴾[2]

وقال تعالى ﴿يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماءاً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾[3]

وقال تعالى مخبراً عن رد الرسل على من أظهروا وأعلنوا الشك فى الله عز وجل وما أنزله على رسله ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب﴾.

قالت رسلهم: أفى الله شك؟! فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين][4]

فلم يكن من الرسل فى ردهم على قولهم المصرح بالشك فى الله عز وجل الا أن قالوا (أفى الله شك فاطر السماوات والأرض) مثبتين الفطرة الإنسانية التى تمنع أن يصل الإنسان فى كفره إلى التيقن من إنكار وجود الله تعالى أو التيقن من وجود شركاء له أو أنداد وذلك بسبب الفطرة الموحدة التى خلقهم الله عليها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه

---

(١) الروم/ ٣٠ (٢) الأعراف/ ١٧٢

(٣) البقرة/ ٢١ ـ ٢٢ (٤) إبراهيم/ ٩ ـ ١٠

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء؟)[1]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى ﴿إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين واجتالتهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا﴾[2]

والفطرة لغة: الابتداء والاختراع، وفطر الله الخلق أى بدأهم وخلقهم.

ومعنى الفطرة فى الآية الكريمة مافطر الله عليه الخلق من المعرفة به وفى الحديث هى مايخلق الله تعالى عليه المولود فى بطن أمه[3].

وبمقتضى الفطرة يكون العلم بخالق الأرض والسماء والانسان علما ضروريا يضطر إليه كل إنسان وهذا معنى قوله تعالى فى آية البقرة ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ وذلك فى ندائه للناس كلهم.

وهذا مايدل عليه الحديث القدسى أيضا إذ أثبت فيه الرب جلا وعلا أنه يخلق الناس جميعا حنفاء غير مشركين، ثم تحولهم الشياطين من التوحيد إلى الشرك، والآباء الذين يحولون أبناءهم من التوحيد الفطرى الى اليهودية والنصرانية والمجوسية هم من هؤلاء الشياطين أو هم من جنود شياطين الجن والانس وأدواتهم علموا ذلك أم لم يعلموا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى [مما ينبغى أن يعلم أنه إذا قيل أنه ولد على الفطرة أو على الإسلام أو على هذه الملة أو خلقه حنيفًا فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده فإن الله تعالى سبحانه يقول ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا﴾[4] ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين

(١) رواه البخارى فى صحيحه من حديث ابى هريرة رضى الله عنه باب/ ما قيل فى أولاد المشركين/ فتح البارى للعسقلانى جـ ٣/ صـ ٢٤٥

(٢) رواه مسلم فى صحيحه / كتاب الجنة وصفه نعيمها/ حديث ٢٨٦٥

(٣) ابن منظور / لسان العرب.

(٤) النحل/ ٧٨

الإسلام لقربه ومحبته. فنفس الفطرة تستلزم الاقرار بخالقه ومحبته واخلاص الدين له][(1)]

وقال القرطبى [معنى الفطرة: الإسلام قاله أبو هريرة وأبو شهاب وغيرهما قالوا وهو المعروف عند أهل السلف وعامتهم من أهل التأويل محتجين بالآية والحديث وكذلك إحتجوا بحديث خمس من الفطرة فيكون معنى الحديث أن الطفل خلق سليماً مِنَ الكفرعلى الميثاق الذى أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه][(2)] وهذا يقتضى معنى قوله عز وجل ﴿**وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم**﴾ الآية.

قال القرطبى رحمه الله تعالى أيضا فى قوله تعالى ﴿**فطرة الله التى فطر الناس عليها**﴾ قال [الإسلام قد خلقهم الله من آدم جميعا يقرون بذلك وقرأ (واذا أخذ ربك من بنى آدم..)]

ومن ثم إختلف العلماء حول تفسير الفطرة الى قولين: الاسلام والاستعداد النفسى لقبول الحق وموافقته أو العلم الضرورى الاضطرارى بالخالق جلا وعلا واحدا لاند له.

ولست أرى بين القولين تناقضا أو تعارضا مانعا للتوفيق بينهما فليست الفطرة هى الاسلام بمعنى الدين المنزل من السماء بكل تفصيلاته عقيدة وشريعة، وإنما قال أصحاب هذا الرأى هذا القول بمعنى عقيدة التوحيد الإسلامية الحنيفية فى مجملها وليس فى تفاصيلها، كما أن قولهم الاسلام لايتضمن كل تعليمات الشريعة الاسلامية وانما بمعنى أن بعض تعليماتها الخلقية والسلوكية يمكن أن يدركها أصحاب الفطر السوية ويتخذونها منهجا وسلوكا كما أنهم لايجدون فى أنفسهم حرجا من تعاليم الاسلام الخلقية والاقتصادية والسياسية إذا عرضت عليهم بل

---

(1) ابن القيم / شفاء العليل/ صـ ٢٨٩.

(2) القرطبى/ الجامع لأحكام القرآن/ صـ ١٤/ صـ٢٤ دار احياء التراث العربى.

يلتزمون بها ويسلمون بأنـها حق وخير، وليس معنى قولهـم الفطرة هى الاسلام، أن الانسان سوىّ الفطرة يمكنه أن يعرف تفـاصيل الشريعة والعبادة بدون معلم أو رسول.

ومهما يـكن من أمر معنى الـفطرة فإن الذى يهمـنا هو أن الفطرة وهى طـبيعة الانسان عند ابتداء خلقـه كافية وحدها لكى تدله على التوحيد بـدلالة مجملة غير مفصلة، أى ليست كدلالة الوحى المفصلة الكاملة.

وقول اللـه عز وجل ﴿لاتبديل لخلق الله﴾ أى أن هذه الطـبيعة الموحـدة التى يخلق الله عز وجل الـناس عليها تتبدل ولا تتغير لدى الأبناء عـند ولادتهم نتيجة لكفـر الآباء، أى أنها لاتتـغير بالوراثـة ولا تأثير لـكفر الآباء والأجداد عـلى هذه الفطرة عند ولادة الأبناء، منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة.

فلا يستثنى من هذه السنة الالهية فى خلق الناس، أحد فيولدون جميعا حنفاء.

وليس معنى هذا اثبات الـناس على فطرهم التى يخلقهم الله تـعالى عليها، بل إن الحديث النبوى الشريف يثبت تبدل الفـطرة وتغيرها وتحولها عند بعض الناس، كذلك يثبت الحديث الـقدسى هذا التغير الذى يصيب الناس فى عقـيدتهم الفطرية أثناء حياتـهم الابتلائية وهذا واضح وصريـح فى قوله تعالى فى الحـديث القدسى (. . . فاجتالتهم الشياطين) وفى قول رسوله صلى الله عليه وسلم (فأبواه يهودانه أو ينـصرانه أو يمـجسانـه) أى هما اللـذان دعواه الى الـيهوديـة أو النصرانـية أو المجوسية فاستجاب لهما وتحول عن الحنيفية التى خلقه الله تعالى عليها إلى الشرك الذى كانا علـيه، يوضح هذا أيضا ويؤكـده قول الرسول صلى الله عـليه وسلم (كمثل البهـيمة تنتج البهيمة هل تـرى فيها جدعاء) أى أن البهائم تولـد سليمة من الجدع ولكن صاحبها بعـد ذلك يجدعها، كذلك يولد العبد مؤمنا عـلى الحنيفية ثم هو يتحول عنها ـ اذا تحول ـ باختياره مستجيبا لدعوة والديه وقومه.

وهذا هو الذى نود تأكيده ونعنى به وحدة الطـبيعة أو الجِبلّة البشرية الأولى فى بدء الخـلق وهى الفـطرة ثم تحـول بعض النـاس عنها مـن التوحـيد الفطـرى إلى الشرك.

ومن ثم تكون النفس الانسانية قابلة للتَّغَيُّر والتحول، والفطرة التى يخلق الله تعالى الناس عليها ليست ثابتة دائمة فى نفوسهم بالضرورة بل يتحول عنها كثير من الناس وهم الكافرون والمشركون ويثبت المؤمنون عليها حتى الموت.

والنتيجة التى يمكن أن نصل إليها من الكلام عن الفطرة أنها عنصر أصيل فى الكينونة البشرية وذلك بمقتضى الاشهاد الذى غرس الله تعالى به فى النفس الانسانية معرفته والايمان به عز وجل خالقا لاند له ومن ثم يكون الانسان بمقتضى خلقته وقبل فساد الفطرة فى أحسن تقويم، فإذا اجتالته الشياطين وفسدت فطرته وتحول إلى الكفر والشرك فانه يكون قد إرتد إلى أسفل سافلين قال تعالى ﴿**لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون**﴾(١)

ومعنى هذا أن ثمة تغييرا يحدث فى الذات الإنسانية بالشرك وبالكفر بل وبالمعاصى، إذ لايصبح الانسان بعد هذا كله أو بعضه فى الحالة القلبية والايمانية التى خلقه الله تعالى عليها، حتى يمكن أن يصل التغيير فى الذات الانسانية إلى أن تصبح كالأنعام أو أضل فترتد إذ ذاك من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين؟؛.

وهذا معناه أن الكفر يقضى على انسانية الانسان فى ذاته، كما أن تحول الكافرين والمشركين عن فطرتهم المؤمنة بالله تعالى، إنما هو تحول عن الكينونة الانسانية إلى كينونة مخالفة، وهذا يستتبع بالضرورة تحولهم عن الخلافة لله عز وجل الى الخلافة لغيره. ومن ثم يظهر لنا جليا الارتباط الوثيق بين الفطرة والخلافة.

كما تظهر لنا العلاقة بينهما أكثر ارتباطا بجلاء من خلال الربط بين التقويم الأحسن والخلافة أيضا، اذ الخلافة درجة وجودية اصطفى الله تعالى الانسان لها

---

١) التين ٤ ـ ٦

ومن ثم خلق الله الانسان فى أحسن تقويم وخصه به وحده أيضا، كما خصه بالخلافة وحده أيضاً.

ولاشك أن وصف تقويم الانسان بصيغة أفضل تفضيل (أحسن) تُفيد أنه أفضل من غيره من المخلوقات تقويما، وهذا مرتبط بالتكريم الذى كرم الله تعالى به الانسان، قال تعالى:

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[1]

وقال تعالى حاكيا مقالة إبليس **﴿قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلا﴾**[2]

وكل هذا متضمن فى كلمة خليفة ومفهوم من حقيقة الاستخلاف، اذ ترتب على سماع الملائكة نبأ استخلاف الانسان تطلعهم للخلافة كما ذكرنا بالاضافة الى سجودهم وحقد ابليس وحسده.

ومن ثم فأحسن تقويم الذى خلق الله عليه الانسان يتضمن الخلافة لله تعالى والفطرة معا، أو بتعبير آخرهما من أهم الدعائم التى يقوم بها أحسن تقويم ويرتكز عليها.

فالتقويم الأحسن الذى خص الله تعالى به الانسان هو نتيجة إمتزاج عناصر متعددة فى الذات الانسانية أهمها الخلافة والفطرة والارادة المختارة.

فاذا حَرَّفَ الانسان فطرته باختياره ارتد من أحسن تقويم الذى هو الخلافة لله تعالى الى أسفل سافلين، أى مضيعا لإنسانيته فلا يصبح بعد ذلك خليفة لله عز وجل، وإنما يصير خليفة لغيره.

فالعلاقة بين الخلافة لله تعالى وبين الفطرة علاقة وثيقة، اذ يظل الآدمى خليفة

---

١) الاسراء/ ٧٠ ٢) الاسراء/ ٦٢

لله تعالى، وفى أحسن تقويم، محافظاً على إنسانيته مادام محافظا على فطرته الموحدة.

فإذا ما تحول عن فطرته وغير دين الله تعالى فى قلبه، فإنه يتحول فى نفس اللحظة من كونه خليفة لله عز وجل ليصبح خليفة لغيره، لأن هذا التحول فى ذاته يضيع انسانيته، ويرتد آنئذ من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، لأن الخلافة لله تعالى التى هى أعلى درجة وجودية بين المخلوقات فى الأرض هى أحسن تقويم فإذا ماجعل الإنسان نفسه خليفة لغيره تعالى بالكفر والشرك، فانه لن يكون أمامه الا السقوط فى أسفل سافلين. ولاشك ان الفصل بين الخلافة والفطرة هو أحد الأسباب الرئيسية المحدثة للبس فى فهم الخلافة الذى أدى بالبعض الى انكار القول بخلافة الله تعالى فى الأرض.

ويكمن هذا اللبس فى النظر إلى الخلافة كحقيقة إنسانية ثابتة دائمة فى الذات البشرية غير قابلة للتغيير بينما هى ليست كذلك. اذ بإعتبار كونها حقيقة انسانية نفسية ومرتبطة بالفطرة ومتفاعلة معها فلابد أن تكون متغيرة وقابلة للتبديل.

٥٣ ـ الخلافة وتقلب الذات الإنسانية:

فالذات الإنسانية ليست حقيقة ثابتة جامدة ساكنة لأنها ذات متحركة نابضة متغيرة، ومن ثم فأية محاولة لتفسير النفس الانسانية أو أية حقيقة من حقائقها أو مكون من مكوناتها، باعتبارها حالة جامدة ساكنة هى محاولة محكوم عليها بالفشل إبتداء.

كذلك أدى تفسير الخلافة باعتبار أنها أمر جامد ثابت ساكن دائم فى حياة الانسان إلى الإختلاف والتعارض.

فقال البعض هو خليفة لله تعالى بمقتضى الجعل الالهى الذى يفيد الحتم والجبر. وهذا من قوله تعالى فى الآية (إنى جاعل. . . .)

فاعتبروا كل إنسان خليفة لله تعالى مهما اختلفت أحواله. سواء من كان مؤمنا

على فطرته أم من صار كافراً ومشركا ومحرفا ومفسدا لفطرته. وسواء من ظل فى "أحسن تقويم، كما خلقه الله تعالى أم من تسفل أسفل سافلين.

كذلك أخطأ الذين رفضوا تفسير الخلافة بالنيابة لله تعالى، لأنهم نظروا الى الحال الذى يئول اليه أكثر الناس فى الأرض، اذ يغلب على الإنسانية الكفر والشرك والطغيان وارتدادهم أسفل سافلين. فهؤلاء استبعدوا أن يكون الانسان خليفة لله عز وجل. اذ كيف يكون خليفة لله من يحكم بغير ما أنزل؟ ومن هو عدو له؟ ومن ثم فسروا الخلافة بتعاقب الأجيال، وهو أمر يتصف به الجن والحيوان بل والنبات أيضا.

وخطأ الرأى الأخير كخطأ الرأى الأول، بل هو أكثر خطأ لأنه يفقد الانسان أهم مايتميز به عن الأحياء المشاهدة فى الأرض وعن الجن والملائكة.

والحقيقة أن الانسان خليفة لله تعالى بمقتضى الفطرة والجبلة والخلقة الأولى التى خلقه الله عليها ابتداء، ثم هو يُبتلى فيصير حسب إختياره: إما خليفة لله تعالى وإما خليفة لغيره أى للطاغوت.

فالخلافة الأولى خلافة فطرية والخلافة الثانية خلافة ابتلائية، ولما كان الاختلاف نتيجة حتمية للابتلاء والاختيار والأعمال الارادية، فانه يلزم عن هذا أن تكون الخلافة الابتلائية مختلفة أيضا الى خلافتين: خلافة لله عز وجل لمن ظلوا فى أحسن تقويم، وحافظوا على فطرتهم الموحدة، وخلافه للطاغوت لمن أشركوا وكفروا وعبدوا غيره سبحانه وتعالى.

وقول القائل ان الانسان خليفة لله تعالى فى الأرض قول صحيح بمعنى الخلافة الفطرية، والقول بأن الكافر ليس خليفة لله تعالى فى الأرض قول صحيح أيضا بمقتضى الخلافة الابتلائية، لكن الكافر هو أيضا خليفة بمقتضى الجعل الالهى الذى يفيد الجبر والحتم، لكنه ليس خليفة لله تعالى بل هو خليفة للذى صرف له طاعته وعبوديته من دون الله عز وجل.

كما أن الله عز وجل خلق عباده كلهم حنفاء وقد يدخل فى هذا الجن أيضا، كما أن الملائكة أيضاً كذلك، إلا أن الفطرة التى هى مكون فى الذات الانسانية غير

الفطرة التى هى مكون فى الذات الجنية أو الذات الملائكية، رغم أن مدلول الفطرة واحد عند جميع أنواع الخلق.

وهذا التغاير بسبب تفاعل الخلافة فى الذات الانسانية مع الفطرة، وحيث أن الخلافة تخص الانسان وحده، فانه لابد أن تكون الفطرة الانسانية مغايرة عن فطرة الجن.

فالفطرة الانسانية فطرة خليفية كما أن الخلافة التى يكون عليها الانسان عند مولده هى خلافة فطرية كذلك.

وهكذا نجد انه كنتيجة حتمية لابتلاء الله عز وجل الناس بالخلافة، أو نتيجة حتمية أيضا لاستخلاف الله عز وجل الناس لابتلائهم فيما وبما جعلهم خلفاء عليه، فإن الاختلاف[1] أمر حتمى فى حياة البشر إذ يختلف الخلفاء الى فريقين:

خلفاء الرحمن جل وعلا.

وخلفاء الشيطان.

هذا الاختلاف إلى فريقين مصاحب لتقلب الذات الانسانية من الخلافة الفطرية (أحسن تقويم) إلى خلافة الشيطان (أسفل سافلين) أو الى الاستمرار على الايمان وخلافة الرحمن أى الاستمرار فى أحسن تقويم فى مقابل التحول إلى الكفر وخلافة الشيطان فالعلاقة بين الخلافة وبين تقلب الذات الإنسانية علاقة وثيقة كعلاقة السبب بالنتيجة والعلة بالمعلول.

٥٤ ـ إبتلاء الانسان بالخلافة، أو إستخلافه تحقيقا للابتلاء

الابتلاء حقيقة كونية وواقع إنسانى إذ هو الحكمة الالهية التى شاء الله تعالى أن يخلق السماوات والأرض والجن والانس من أجل تحقيقها.

ان الله عز وجل فعَّال لما يريد ولا يسؤل سبحانه عما يفعل ولا يحدث أى شىء فى الكون إلا بمشيئته، بيد أنه عز وجل حكيم، ومن ثم فلا يخلق خلقا، ولا يحدث حدثا، ولا يجرى تغييرا الا لحكمة يشاؤها، ونفى الحكمة عن الفاعلية الالهية قد يؤدى إلى نسبة العبث واللهو واللعب الى الله عز وجل وعلا عن ذلك

---

(١) هود/٧

علوا كبيرا، لأن هذه الصفات كلها منافية للحكمة التى وصف الله نفسه بها وسمى نفسه تعالى باسم الحكيم المشتق منها.

فما هى الحكمة الإلهية العليا من خلق السماوات والأرض والانسان؟!

الحكمة الالهية من الخلق هى الابتلاء. قال تعالى ﴿وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾(١)

وقال تعالى ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور)(١)

وقال تعالى ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا)(٢)

وقال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)(٣)

فالحياة الدنيا دار لإبتلاء الانسان، والآخرة دار الجزاء على عمله الذى هو نتيجة للإبتلاء.

ومن ثم فقد خلق الله تعالى الانسان بكينونة بشرية مهيأة وصالحة للابتلاء وكذلك جعل الأرض وما فيها والسنن التى عليها الحياة والأحياء وغير الأحياء بكيفيات تؤدى الى الابتلاء وتعمل على تحققه فى حياة البشر*.

نذكر من ذلك على سبيل المثال وكدليل على التوافق بين طبيعة الانسان المهيأة للابتلاء وطبيعة ما على الأرض قوله تعالى ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾(٤)وقوله تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا)(٥)

---

(١) الملك/ ١ـ ٢ (٢) الانسان/ ١ ـ ٢

(٣) الأنبياء/ ٣٥ (٤) آل عمران / ١٤

(٥) الكهف/ ٧

(*) عرضتُ هذا بشيء من التفصيل فى كتابى القضاء والقدر فى الاسلام جـ ١ الطبعة الثانية المكتب الاسلامى ببروت، ودار الدعوة بالاسكندرية، ودار الاعتصام بالقاهرة ط٣.

ومن ثم نعلم أن الله عز وجل خلق الانسان لابتلائه في الأرض وفي نفس الوقت جعله خليفة فيها. فما العلاقة إذن بين الابتلاء والاستخلاف؟!

علمنا مما سبق أن الابتلاء فعل الله عز وجل في الوجود البشرى الأرضى، فهو واقع بقدر الله تعالى ومشيئته، رضى الانسان بذلك أم أبى، ومصير الانسان في الآخرة مترتب على مواقفه وأفعاله وسلوكه الاختيارى حيال مايقع عليه جبرا من ابتلاءات.

أى أن الابتلاء كحقيقة واقعة في حياة الانسان بقدر الله تعالى يتضمن جانبين الأول: جبرى حتمى ليس للانسان حياله دفعا.

والثانى: إختيارى واقع بإرادة الانسان الحرة المختارة وعليه يكون الحساب والجزاء ومن ثم يمتد أثر الابتلاء في الوجود الانسانى إلى الآخرة، وإن كان الابتلاء قاصرا على الحياة الدنيا فقط.

كذلك الاستخلاف هو فعل الله عز وجل في الوجود الإنسانى وهو من ثم أمر جبرى حتمى واقع بمشيئة الله تعالى بمقتضى الخلقة والجبلة وميدانه الأصيل والأول أيضا هو الحياة الدنيا وأرضها. بيد أن له أثره الممتد أيضا إلى الأبد كالابتلاء، أى للاستخلاف تأثيره الممتد من أرض الحياة الدنيا إلى أرض الجنة. ومن ثم فهو يتضمن جانبا جبريا في حياة الانسان وجانبا إختياريا كذلك.

الجانب الجبرى يتمثل في جعل الله تعالى الإنسان خليفة أما الجانب الاختيارى فيتمثل في حرية الإنسان وإختياره مَنْ يكون خليفة له، فالانسان مجبر على أن يعيش خليفةً، لكنه مخير في إختيار من يعبده ومن ثم من يكون خليفة له، فإما أن يجعل نفسه خليفة لله عز وجل كما خلقه الله تعالى في أحسن تقويم، وإما انه يجعل خلافته باختياره لغير الله تعالى أى للطاغوت فيصير إلى أسفل سافلين، وهذا هو معنى الإبتلاء وجوهره وحقيقته المجملة.

فالتماثل بين الابتلاء والخلافة كامن في عدة أمور، ان كليهما واقع في أرض الحياة الدنيا ويمتد أثره إلى أرض الآخرة. ولكل منهما جانبه الجبرى وجانبه الإختيارى علاوة على أنهما مكونان جوهريان من مكونات الذات الانسانية.

فما هى الحلقة التى تربط بين الابتلاء وبين الخلافة فى الذات الانسانية؟!

إن من لوازم تحقيق الابتلاء ومن لوازم صحته فى الوجود البشرى أن يكون الإنسان ذا إرادة حرة مختارة كأهم ركيزة من ركائز الحرية الانسانية والاختيار الصحيح.

ومن لوازم الاختيار الصحيح أن يكون أمام الإرادة الانسانية عند اختيارها فعلين متناقضين يختار بينهما، أو يختار بين الفعل والترك، وأن يكون فى مكنة الإنسان واستطاعته إختيار أحدهما بنفس الدرجة التى يستطيع بها اختيار الآخر.

ثم يلزم أن يكون مجموع الأفعال طريقا واحدا ومنهجا واحدا يسلكه الفرد، ومجموع نقائض هذه الأفعال طريقا آخر واحداً ومنهجا واحدا للحياة مناقضا للأول، فمجموع أفعال الطاعات بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع يشكل نجد الخير ومنهج الايمان، ويتأسس على التوحيد ومجموع أفعال المعاصى بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع يشكل نجد الخير ومنهج الكفر ويتأسس على الشرك بالله تعالى وعبادة الطاغوت.

وغاية النجد الأول تحقيق الخلافة لله تعالى فى الأرض. وغاية النجد الثانى تحقيق الخلافة لغير الله تعالى فى الأرض أى للطاغوت.

والارادة الانسانية عامل الفصل الحاسم الذى يحدد سلوك الفرد أو المجتمع لأحد النجدين، فإما أن يظل الانسان باختياره الحر فى أحسن تقويم خليفة لله تعالى، واما أن يرتد أسفل سافلين خليفة لغيره.

ان شرط تحقيق النيابة لله تعالى أن يكون النائب مطيعا له اى عبدا له فيعيش بمنهجه وينصر دينه ويجاهد من أجل إعلاء كلمته عندئذ يستحق الإنسان اذا سلك هذا النهج، أن يكون خليفة لله عز وجل بفوزه فى الخلافة الإبتلائية أو الإبتلاء بالخلافة.

أما من يفعل غير ذلك ويسلك النهج المخالف، فانه يكون قد خسر فى الابتلاء، أى أصبح خليفة للطاغوت وضيع نفسه ودمر انسانيته بارتداده أسفل سافلين.

فالخلافة بهذا المعنى هى الغاية القصوى التى ينتهى اليها النَّجْدان: نجد الخير ونجد الشر.

فالأول ينتهى بالانسان الى تحقيق الخلافة لله تعالى فى الأرض فيستحق بذلك وراثة أرض الخلود.

والثانى ينتهى به الى تحقيق خلافته للطاغوت فيحق عليه عذاب النار.

إن الله تعالى يبتلى الانسان لينظر كيف يعمل؟ كما أنه عز وجل يستخلفه لينظر كيف يعمل، ولمن يصرف خلافته؟ وهذا يثبت بوضوح أن الخلافة إبتلائية، وأن الخلافة هى الحقيقة الجامعة لكل أنواع الفتن والابتلاءات على الأرض.

قال تعالى: **﴿قال موسى لقومه إستعينوا بالله وإصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون﴾**[١]

أى أنه عز وجل بعد أن استخلف فرعون وابتلاه بالقوة والملك والسلطان فظلم شعبه وبنى اسرائيل وغيرهم وعلا فى الأرض وجعل نفسه خليفة للشيطان فإن موسى عليه السلام يخبر قومه أنهم إذا استعانوا بالله وصبروا فإن من سنته تعالى فى التاريخ البشرى وفى الصراع بين أهل الحق من المستضعفين وبين أهل الباطل من المتجبرين أن يهلك هؤلاء الذين كفروا وظلموا وطغوا فى الأرض وصاروا خلفاء للطاغوت ويستخلف من بعدهم هؤلاء المستضعفين المتمسكين بالحق لكى يبتليهم بالاستخلاف كما ابتلى الذين من قبلهم به فينظر كيف يعملون؟! وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى [إن الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء][٢]

فالإستخلاف هو الحقيقة الجامعة لكل أنواع وأشكال الفتن والابتلاءات فى الأرض.

---

(١) الأعراف/ ١٢٨ ـ ١٢٩

(٢) رواه الترمذى كتاب الفتن/ باب ٢٦، وجاء فى مسند الامام أحمد جـ ٣ صـ ١٩ من حديث طويل.

والحلقة الرابطة بينهما هى الارادة الانسانية المختارة التى تعتبر المصدر الأصيل والوحيد لبقاء الانسان فى أحسن تقويم خليفة لله عز وجل أو لتحوله الى خلافة الطاغوت وتسفله أسفل سافلين؟

ولئن كنا قد وضحنا روابط الاستخلاف بالابتلاء عن طريق التحليل لعناصر كل منهما وبيان العناصر المشتركة بينهما، فإن قول الله عز وجل **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾**[1] يتضمن التقرير الواضح المباشر للعلاقة بين الاستخلاف والابتلاء كحقيقتين بشريتين تؤلفان واقعا إنسانيا واحداً، ومن ثم يؤدى الفصل بينهما إلى اللبس فى فهم الخلافة، اذ يقول القائل إذا فسرنا قوله تعالى **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾** أى خليفة الله تعالى، فإن هذا يعنى أن الكفرة وعبدة الطاغوت يكونوا بمقتضى هذا التفسير خلفاء الله تعالى وهذا خطأ، ومن ثم يجب أن يتحول عن هذا المعنى إلى معنى آخر وهو خلافة آدم للجن أو الملائكة أو خلافة ذريته بعضهم بعضا. وكل هذا اللبس نتيجة لاغفال حقيقة الابتلاء وحقيقة الفطرة وعلاقة كل منهما بالخلافة.

إن شأن الخلافة فى علاقتها بكل من الابتلاء والارادة المختارة هو شأن الفطرة.

فلو نظرنا للفطرة منفصلة عن حقيقة الابتلاء وعن أثر الاختيار البشرى على الذات الانسانية لأدى هذا الى تعارض آية الفطرة مع الواقع البشرى وذلك لأن الآية تثبت ان الله تعالى يخلق الناس جميعا فى كل مكان وزمان موحدين حنفاء، فإذا نظرنا إلى الواقع البشرى فى أى زمان وأى مكان لوجدنا أكثر الناس مشركين ومختلفين عن الحنيفية فهل معني هذا تعارض ماجاء فى القرآن الكريم مع واقع النفس البشرية؟

حاشا لله عز وجل وحاشا لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ان الفطرة هى الطبيعة الانسانية فى أول خلق الانسان وفى مرحلة الطفولة التى تسبق التكليف، والتغيير يأتى بعد ذلك كما نص عليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) الأنعام / ١٦٥

وكذلك الحال بالنسبة للخلافة، إذ يولد الطفل خليفة بمعنى يختلف عن الخلافة الابتلائية التكليفية، فالخلافة فى مرحلة الطفولة خلافة فطرية ليست خلافة لله عز وجل، وليست خلافة لغيره، أى أن الطفل يحمل فى ذاته مقومات الخلافة كامنة لكنها ليست خلافة موجهة إلى مخلوف أو مُستخلَف معلوم، لأن هذا لايتم الا باكتمال شروط التكليف والابتلاء عند الانسان، فإذا مابلغ عمر التكليف وإختار الانسان دينه ومنهج حياته وصار من حزب الرحمن، فإنه يصبح خليفة لله تعالى واذا ماصار بإختياره من حزب الشيطان صار خليفة للشيطان.

وهذا لازم من حتمية الاختلاف بين البشر، هذا الاختلاف القائم على حقيقة الابتلاء قال تعالى **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾**[1] فكما أن الله تعالى يخلق الناس جميعا على دين واحد هو الحنيفية ثم يختلفوا إلى أديان شتى كذلك نقول أنه عز وجل يخلقهم جميعا خلفاء فى أحسن تقويم أى على الخلافة الفطرية، فإذا بهم بعد الابتلاء ـ يصيروا فريقين: خلفاء له تعالى وخلفاء لغيره قال تعالى **﴿هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾**[2]. أى هو الذى خلق الناس على الخلافة الفطرية فى أحسن تقويم، ثم ابتلاهم فصار منهم المؤمنين خلفاء الله عز وجل والكافرون خلفاء الطاغوت.

٥٥ ـ جدلية الخلافة الابتلائية بين القدر الالهى والفاعلية الانسانية:

العلاقة بين الانسان وبين قدر الله عز وجل علاقة حوار وجدل وتفاعل، فهى علاقة حية نابضة متحركة متفاعلة، وليست علاقة ثابتة جامدة، على عكس علاقة الكائنات الأخرى التى لم يخلقها الله تعالى للإبتلاء، فالأرض أو الشمس أو القمر أو أى جرم آخر من أجرام السماء كائنات بأمر الله تعالى الكونى الذى به تهتدى هذه الأجرام فى حركتها وبمقتضاه تكون وتسبح وتجرى لمستقر لها وتنتهى وتفنى بمقتضى هذا الأمر أيضا، أى أن حركتها وسكونها وبدءها وانتهاءها بمقتضى الأمر الالهى الكونى الذى من خلاله تتجدد علاقتها بخالقها عز وجل. لذلك **(قالتا أتينا طائعين....)**[3] أى السماء والأرض، فالطاعة التامة المطلقة كموقف واحد ثابت

---

(١) هود/ ١١٩ (٢) التغابن/ ٢ (٣) فصلت/ ١١

دائم، وكتوجه وحيد مستمر من هذه الكائنات لربها عز وجل هى التعبير عن الصلة والعلاقة بين هذه الكائنات وبين الله جل جلاله، ومن الواضح أن هذه العلاقة قاصرة على العبودية له وحده سبحانه وتعالى، وهى عبودية تتصف بالتمام وبالثبات والديمومة ولذلك كانت العلاقة بين هذه الكائنات وبين الله تعالى تتصف أيضا بالثبات وعدم التقلب والتغير.

أما بالنسبة للانسان فالأمر يختلف تماما إذا أن الحكمة القصوى التى من أجلها خلقه الله تعالى وخلق له مافى الأرض جميعا وسخر الشمس والقمر والليل والنهار وسائر السنن والأشياء له هى الابتلاء ومن ثم فقد خلق الله تعالى الانسان مختارا وزوده بالارادة الحرة وبالعلم وبالاستطاعة وبسائر مقومات الفاعلية التى يتمكن الانسان بها أن يفعل مايريده وما يختاره.

وعلى هذا فالإنسان لايعيش بمقتضى الأمر الإلهى الكونى وحده، لأنه لو كان كذلك لكان شأنه شأن الكائنات الأخرى التى لم يخلقها الله تعالى للابتلاء، ان لله عز وجل مشيئة وارادة كونية فى أن يكون الانسان مختارا فبينما جعل الله تعالى الكائنات الأخرى كائنة وقائمة ومسيرة بأمره تعالى الكونى القهرى الذى لايقاوم فقال للسماء والأرض (**إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين**)[1] قال للناس مخبرا (**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليؤمن**)[2]وقال لهم سبحانه وتعالى أيضا بأمر كونى أخبرهم به فى كتابه الكريم ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون. فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون.**

ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت أن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير.

إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة إعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير﴾[3]

---

(١) فصلت ١١.   (٢) الكهف/ ٢٩.   (٣) فصلت/ ٣٧ ـ ٤٠.

فذكر سبحانه الليل والنهار والشمس والقمر وكلها مسخرات بأمره تعالى للانسان أى لحياته، ثم ذكر سبحانه الملائكة الذين يعبدونه تعالى الليل والنهار بلا كلل ولا ملل.

ثم ذكر بعض سننه تعالى فى الأرض وفى الأحياء التى عليها وكل هذا واقع بأمره الكونى عز وجل. فالاجرام السماوية وكذلك الملائكة ثم الأرض وما عليها عدا الثقلان اللذان خلقهما الله تعالى للابتلاء، كلها كائنات يقوم وجودها وتأثيرها وفعلها بالمشيئة الالهية الكونية.

ثم كلمنا الله تعالى بعد هذا كله عن الانسان وبيَّن أن الذين يلحدون فى آياته عز وجل هم تحت الهيمنة الالهية ولا يخفى فعلهم ولا قولهم على الله عز وجل وإنما هو الذى أمدَّهم بالفاعلية المختارة التي يتمكنون بها من الكفر والمعصية، وهذه الفاعلية المختارة التى أمدهم الله تعالى بها، إنما أمرهم بها ابتلاء لهم، أى أن تميزهم بهذه الفاعلية المختارة هو بمشيئة الله تعالى الكونية وبأمره الكونى الذى يتم به كل شىء فى الوجود المخلوق ولا يتم أى شىء إلا به، وهذا الأمر الكونى الذى صار الانسان به ذا فاعلية مختارة يتمثل فى قوله سبحانه وتعالى ﴿إعملوا ماشئتم إنى بما تعملون بصير﴾(1)..

فمن هنا كانت العلاقة بين الانسان وبين الله عز وجل مختلفة تماما عن علاقة المخلوقات الأخرى به سبحانه وتعالى، وإن كان الجميع بلا إستثناء من خلقه، وهم عبيده، وخاضعون له عز وجل.

وذلك لأن الإنسان الذى يتميز بفاعلية حرة مختارة يجد أمامه طريقين: إما الطاعة لله عز وجل، واما المعصية والكفر والاعراض عنه قال تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ (2) وقال تعالى ﴿إنا هديناه السبيل: إما شاكرا وإما كفورا﴾(3)

وهذا هو الذى يجعل الصلة بين الانسان وبين الله عز وجل مختلفة، إذ الانسان ككائن مبتلى، يمكنه أن يعمل مايشاء وما يريد: ان طاعة وإن معصية، وهو فى سلوكه أحد النجدين، يندرج فى طريق الايمان أو الكفر، وأعمال

---

(1) فصلت/ ٤٠. (2) البلد/ ١٠. (3) الانسان/ ٣.

الطاعات أو المعاصى سلوكا نحو أحسن تقويم فى درجات الإيمان ومراتب التصديق، أو ارتدادا أسفل سافلين فى مهاوى الرذيلة والمعاصى، وليس نتيجة لفعل واحد دائم ثابت فى الاتجاه أو مستمر فى الصعود نحو أحسن تقويم أو فى الهبوط إلى أسفل سافلين، ولا يكون هذا بفعل الانسان فقط، بل من خلال جدلية استدراجية له من الله عز وجل، أى جدلية بين قدر الله تعالى وفعل العبد، إذ تتمثل هذه الجدلية التّصاعدية - بالنسبة للمؤمن المطيع، أو الانحدارية بالنسبة للعاصى والكافر ـ تتمثل فى التجارب الابتلائية التى هى فعل الله عز وجل وقدره على العبد المبتلى، كما تتمثل هذه الجدلية أيضا فى موقف الانسان الحر الذى يتم بفاعليتة المختارة والذى هو فعله المنسوب اليه كرد وإستجابة، سواء بطاعة أو بمعصية، على قدر الله تعالى المنزل عليه للابتلاء.

هذه الجدلية أو هذا الحوار العملى بين القدر الالهى والفعل الانسانى الحر يتم خلال تجارب ابتلائية متتالية، تبدأ بعمر العبد التكليفى وتنتهى بموته، ومن خلالها يسجل على العبد مؤشرات الصعود نحو أحسن تقويم، أو الارتداد والهبوط نحو أسفل سافلين، وأحسن تقويم هو درجة الخلافة لله عز وجل وأسفل سافلين هو الدرك الهابط الذى يكون الانسان فيه خليفة للشيطان لعَنَهُ الله تعالى.

فإذا أردنا أن نعبر عن الجدل الابتلائى ـ الذى من خلاله وبه تتوجه أعمال الانسان وأفعاله، وتتحدد علاقته بالله عز وجل وقدره من جهة، وبالمخلوقات الأخرى من جهة ثانية - بكلمة واحدة، فلن نجد سوى كلمة الخلافة، لأن حقيقة الاستخلاف هى الحقيقة الجامعة لكل هذه المعانى، والمتضمنة لكل هذه العلاقات والأعمال الانسانية، علاوة على أنها التحديد الدقيق للذات الانسانية فى حركتها وتفاعلها وجدليتها، سواء فى تفاعلها مع القدر الالهى، أم فى التفاعل الانسانى الأرضى، ثم انها بعد ذلك كله الحقيقة المتضمنة لنتائج حركة الحياة الانسانية الذاتية صعودا نحو خلافة الله تعالى فى الأرض، أو هبوطا وتسفلا نحو خلافة الطاغوت. وقد تبين لنا هذا كله فى الحديث عن العلاقة بين حقيقة الاستخلاف وحقيقة الابتلاء والربط بينهما فى الموضوع السابق بفضل الله تعالى وتوفيقه.

ونكتفى هنا بتوضيح جدلية الذات الانسانية من خلال منظور الاستخلاف أو بمعنى آخر دور الخلافة فى حركة و«دينامية» الذات الانسانـية المتفاعلة المترددة بين خلافة اللـه تعالى وخـلافة الشيـطان. لبيـان دور حقيـقة الاستخـلاف فى حركة الحـياة الانسانيـة سواء الجانب الفردى مـنها أم الاجتماعـى وكذلك الحضارى والتـاريخى وهى الحركة التى يتـحدد من خلالها مصير الانسان فردا ومجتـمعا وجيلا وأمة فى الدنيا والآخرة. لذلك كان أنسب مانطلقـه من تفاعل الذات الانسانية مع قدر الله تعالى وأمـره الكونى من جهة، ومع كـل مافى الأرض من أحياء وأشيـاء من جهة أخرى، وأدق مانعبر به عن هذه الجدلية هو تعبير الخلافة الإبتلائية.

ومعنى أن الخلافة إبتلائية أى أن الله تعالى جعل الإنسان خليفة ليبتليه، أو أنه عز وجل جعله فى الأرض خليفة للابتلاء. فهى خلافة امتحانية أو خلافة فتنة.

وكلا الحـقيقـتين: الاسـتخلاف والابتـلاء، أرادهما الـله تعـالى فى الـوجود الانسانى بإرادة كـونية، فهما من قدر الله تـعالى للانسانية. فالخـلافة فى الوجود الإنسانى قائـمة بالجعل الالهى القهـرى، والابتلاء فعل الله عز وجـل الحتمى فى الوجود البـشرى. لكن حتميـة الاستخلاف وجبريـة مقدمات[1] الإبتلاء يتـضمنان بالضرورة فـى الوجود البشرى أو الكيـنونة الانسانية جـانبا اختياريا حرا قـائما فى حياة النـاس وطبيعتهم بـأمر الله تعالى الـكونى أيضا. أى ان الانسان فـى حركته وفعله ومواقفه من القدر الحتمى حر مخـتار، وهو مجبر على ممارسة هذا الاختيار ومزاولة هذه الحريـة، اذ لايمكنه بمقتضى أمـر الله الكونى الذى صار بـه خليفة، ويبـتلى بالاسـتخلاف، إلا أن يـستجيـب استجابـة حرة مخـتارة حيال هـذا الأمر الابتلائى الكونى، ففى المواقف القدرية الحتمية يجد نفسه أمام نجدين لايمكنه ولا يملـك إلا أن يسلك أحدهـما، لكنـه حر تماما ومخـتار إختيارا صـحيحا فـى ايثار أحدهما وترك الآخر.

وعلى هذا إنفرد الانسان عن سائر الكائنات الأخـرى التى لم يخلقها الله تعالى

(١) لأن مقدمات التجربة الابتلائية قدرية جبرية ونهايتها اختيار راجع الجزء الأول من القضاء والقدر للمؤلف تحت عنوان التجربة الابتلائية الطبعه الأولى دار الدعوة / بالإسكندرية، أو الطبعه الثانيةالمكتب الاسلامى / بيروت أو الطبعة الثالثة دار الاعتصام القاهرة.

للابتلاءً فـى أنه حين يعمل وحيـن يستجيب للقـدر الإلهى يختار بإرادته ويـتفاعل بفاعليته الحرة من خلال جدلية الخلافة الابتلائية أى أن الانسان ينفرد بأنه يستجيب لأمر الله الكونى المتـمثل فى القدر الحتمى من خلال أمره تعالى الـتشريعى الدينى التخييرى المتمـثل فى التكليف، إذ يكون الإنسان حيال هـذا الأمر حرا مختارا فى أن يطيع الله أو يعـصيه، وهذا الاختيار الذى هو واقع بفاعلـية الانسان الحرة يتم بأمره تـعالى الكونى الـذى سبق أن ذكرناه، فإن كـان فعل الانسان موافـقا لأمره تعالى التشريعى كان طاعة ويكون بذلك موافقا لأمره الكونى أيضا، لأن الله تعالى هو الذى أراد بارادة كونية أن يكون الانسان حرا مختارا يفعل الطاعة إذا أراد.

أما إذا وقع إختـيار الإنسان وفعله مـخالفا لأمره تعـالى التشريعى، فـإنه يكون معصية، ولكنـه يكون فى نفس الوقت موافقا لأمره الكـونى، لأن الله تعالى أراد بإرادة كـونية أن يكـون الانسان حرا مـختارا يـفعل المعـصية إذا أرادها وكـل هذا متضمن فى قوله تعالى ﴿**إعملوا ماشئتم إنى بما تعملون بصير**﴾[1] ومن ثم لايكون الأمر الالهى تشريعيا تخييريا الا بالنسبة للكائن المبتلى.

ولذلك جـاء أمر الله تعالـى التشريعى الـتخييرى بعـد أمره الكونى بإسـتخلاف الإنسان. فقد قـال الله تعالى للملائـكة مخبرا إياهم بأمره الـكونى فى ذلك ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾[2]. ثم قال لآدم تنصيبا له خلـيفة فى الجنة وبأمر الهى كونى أيـضا ﴿**وقلـنا يـا آدم أسكـن أنت وزوجـك الجنة، فـكلا مـنهـا رغدا حـيث شئتما**﴾[3] ثم اتبع سبحانه هذا الأمر الكونى الذى هـو تطبيق وتنفيذ للأمر الكونى الأول بجعل الانسان خـليفة، اتبعه بأمر تشـريعى تخييرى إبتلائى بـأن يبتعدا عن شجرة بعينها ولا يأكلا منها. ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتـكونا من الظالمين**﴾[4] ومن ثم أصبح آدم وزوجه حيال هذا الأمر التشريعى حرين مختارين بين أن يبتعدا عن الشجرة ولا يـقربا منها وبـين أن يأكلا منهـا. وهذا هو الجانب الأول من جـدلية الخلافة الابتلائية بالنسبة للفعل الانـسانى الأول فى تاريخ الانسانية، وهو يتمثل فى الأمر الالهى بإسكان الإنسان الجنة وتمتعه بـكل مافيها كما يشاء، وهو أمر كونى،

---

(١) فصلت/ ٤٠.
(٢) البقرة/ ٣٠.
(٣) البقرة/ ٣٥.
(٤) البقرة/ ٣٥.

ومن ثم تتمثل فيه حتمية القدر الالهى الذى قدره الله عز وجل تحقيقا للتجربة الابتلائية الأولى بالنسبة لآدم الفرد والنوع أى بالنسبة للإنسانية كنوع ويبدو جانب الابتلاء كأظهر مايكون فى تحريم شجرة بعينها على آدم وزوجه ثم تمكين ابليس بعد ذلك بأمره تعالى الكونى أيضا من الوسوسة لآدم وزوجه تحقيقا لهذه التجربة.

ثم يأتى الجانب الثانى من جدلية الخلافة الابتلائية فى هذه التجربة الابتلائية الأولى متمثلا فى تفاعل آدم وإستجابته للأمر الكونى تفاعلا حرا وباستجابة مختارة وذلك، حين أكل هو وزوجه من الشجرة.

وهذا الجانبُ الاختيارى إن كان يمثل نهاية التجربة الابتلائية الأولى بالنسبة لآدم الفرد والنوع ، إلا أن جدلية الخلافة الابتلائية لم تنته ولم تتوقف لحظة واحدة منذ ارتكاب الانسان معصيته الأولى، بل ولن تتوقف إلا بقيام الساعة وانتهاء أجل البشرية، ذلك أن هذا الفعل الاختيارى من آدم وزوجه قد استتبع فعلا جبريا، أى ترتب عليه قدر الهى حتمى آخرَ كمقدمة لتجربة ابتلائية جديدة لآدم وزوجه وجدا نفسيهما حيالها ملزمين باختيار جديد يترتب عليه قدر حتمى جديد ينبنى على هذا الاختيار، أى على نوع الفعل الذى فعله آدم وزوجه: إن طاعة وإن معصية أما القدر الالهى الحتمى الذى أنزله الله تعالى على آدم بناء على معصيته الأولى فهو إخراجه من الجنة أرض الخلافة الاولى - التى لايكون فيها مزاولة المعاصى - إلى أرض الحياة الدنيا التى هى أرض الخلافة الابتلائية المسموح فيها بارتكاب المعاصى والافساد وسفك الدماء. ومن ثم تتنزل الأقدار على بنى آدم حتمية من السماء بأمر الله تعالى الكونى، كما ينزل الأمر الالهى التشريعى من السماء على الأنبياء والرسل هديا لمن يريد أن يطيع الله تعالى ويفوز فى الابتلاء.

لذلك ورد أمره تعالى الكونى لآدم وللبشرية بقوله تعالى ﴿**قلنا إهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ [(١)]

أى أن الأمر الالهى الكونى بإستخلاف آدم فى الجنة اقترن به أو الحق به الأمر

---

(١) البقرة/ ٣٨ - ٣٩.

الإلهـى التـشريعـى بتحـريم الـشجرة، كـذلك الأمـر الالهى الـكونى بـالهـبوط والاستخـلاف فى أرض الإفساد وسـفك الدماء لحق بـه الإخبار عن نـزول الهدى الالهى الذى هو أمره التشريـعى وذلك بقوله تعالى ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعا**﴾[1] وهذا هو الأمر الكونى ثم قوله تعالى ﴿**فإما يأتينكم منى هدى**﴾[2] وهذا إخبار منه تعالى عن سنته عز وجل فى إرسال الرسل وإنزال الكتب بالأمر التشريعى.

ومعنى هذا أن معصـية آدم الأولى التى هى فعل إختيارى له ولـزوجه استتبعت حسب مشـيئة الله تعالـى وسنته فى الإبتـلاء بالسراء وبالضراء أن يـتحول آدم من النعمة العظمى التى استخلفه الله تعالـى فيها فى الجنة الى نعمة أقل إستخلفه الله تعالى فيها فى أرض الحياة الدنيا الإبتلائية.

وتتوالى الإبتلاءات من خلال هذه الجدلية أو التفاعلية بين القدر الإلهى الحتمي والفاعلـية الانسانية المختـارة، إذ تتنزل الأقدار بالخيـر وبالسراء ابتلاءا بعـد اختيار الطاعة، وتتنزل الأقدار بالشر وبالضراء ابتلاءا أيضا بعد اختيار المعصية. هكذا منذ تجربة الإنسـانية الأولى فى الخلافـة الابتلائية إلى قـيام الساعة، واذ تصـبح أفعال بعض البشر الإختيارية أقداراً حتمية يبتلى بها الله عز وجل آخرين.

وتصبـح اختيارات وأفعـال حرة لجيل أقداراً قـدرها الله تـعالى لجيل بـعدهم، وأفعال أمة ابتلاء لأمة أخرى، وهكذا... وكل هذا يـتم بقدر الله تعالى، بل هو من قدره عز وجل. سواء كان الابتلاء بالسراء أم بالضراء وبالخير أم بالشر.

لذا لايمـكن الفصل بيـن حقيقتى الاسـتخلاف والابتلاء، وحيـث أن الابتلاء حقيقة إنسانية تعم كل البشر، فإن الخلافة ـ كما ثبت لنا من قبل ـ هى أيضا حقيقة إنسانية تعم كل البشر كذلك من هذا الوجه أيضا.

فكل إنسان خليفة، كما أن كل انسان مبتلى، لكن جدلية الاستخلاف الابتلائى تبدو لـنا واضحة جـلية أكثر مـن خلال الابتلاء بالحـكم، لأنه اذا كان كـل إنسان مستخلف عـلى ماتحت يده من مال أو زرع أو قوة أو صحة أو أى أمـانة استرعاه اللـه تعالى عـليهـا. فإن الإمام أو الحـاكم أكثر الـناس فى مـجتمـعه تحملا لـهذه

(١، ٢) البقرة / ٣٨.

الامانات،اذ هو مستخلف على الرعية من الناس وعلى الحيوان والنبات وكل مافى الأرض التى تحت سلطانه، لذلك تتبدى لنا جدلية الخلافة واضحة جليلة فى أفعال الحكام، ومن ثم نجد فى القرآن الكريم الأمر الإلهى الكونى بجعل الإنسان خليفة فى الأرض بالنسبة لآدم، بنفس الصيغة تقريبا، موجها من الله عز وجل لداود عليه السلام قال تعالى **﴿يا داود إن جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾**[1]

ونجد هنا أيضا أمر الله تعالى الكونى وقدره بالنسبة لداود أن يكون خليفة فى الأرض يتبعه الأمر التشريعى أن يحكم بين الناس بالحق، الأول يتمثل فى قوله تعالى **﴿إنا جعلناك خليفة فى الأرض﴾**[2] والثانى يتمثل فى قوله تعالى **﴿فأحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾**[3] والجدلية الابتلائية الإستخلافية بالنسبة لاستخلاف داود موجودة بنفس المعطيات التى وجدناها فى آيات إستخلاف آدم أو الانسان.

فالأمر الإلهى الكونى أو القدر الالهى باستخلاف داود ليس فيه إختيار بل هو قدر حتمى لكنه استتبع واستلزم من داود عليه السلام فعلا اختياريا، فإما أن يحكم بين الناس بالحق، وإما أن يتبع الهوى، وهذا الفعل الاختيارى أو بتعبير أدق الأفعال الاختيارية التى سيسلكها الحاكم أو الخليفة الذى يستخلفه الله تعالى يستتبع ويستلزم حسب سنة الله تعالى فى معاملة الناس حسب إختيارهم نزول اقدار إلهية حتمية بأمر الله الكونى. وهذا واضح من قوله تعالى **﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾**[4] أى أنه اذا لم يحكم بالحق وحكم بالهوى، وهذا يكون باختياره وفاعليته، فإن الله عز وجل حسب سنته وبناء على هذا الاختيار، يتركه لهواه الذى يُضله عن سبيل الله والإضلال من الله كما أن الهدى من الله عز وجل، وهما من الأمور الكونية الحتمية فى حياة الانسان، لكن الله عز وجل يضل من يُضل من الناس بناء على اختيارات سابقة لهم، كما يهدى من

(١، ٢، ٣) ص/ ٢٦

(٤) ص / ٢٦

يهدى بناء على أفعال إختيارية سابقة لهم أيضا. وهكذا دواليك: أى أن الفعل الاختيارى يستتبع بمشيئة الله وحسب سنته فى معاملة العباد أقدارا حتمية، وهذه الأقدار الحتمية تستلزم بالضروة من العبد اختياراً تلجؤه الأقدار الإلهية اليه، وهذا الأخير إن كان طاعة يستتبع قدرا بالسراء وإن كان معصية يستتبع قدرا من النوع الآخر، أى بالضراء، وهكذا دواليك وتلك هى الجدلية الابتلائية الاستخلافية التى تتمثل فيها العلاقة الحية النابضة بين الفاعلية الإنسانية الحرة والقدر الالهى الحتمى، ونتيجة لتفاعلهما تتحقق خلافة الانسان فى الأرض، سواء كانت خلافة الله عز وجل أم خلافة الطاغوت.

وتظهر لنا جدلية الخلافة المتحققة بالتفاعل المشترك بين القدر الإلهى الحتمى والفاعلية الانسانية المختارة فى مواضع أخرى من القرآن الكريم كثيرة وبخاصة تلك التى تتحدث عن إستخلاف الانسان فى الأرض، منها قوله تعالى **﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا﴾**[1].

فبالقدر الحتمى والمشيئة الالهية الكونية النافذة صار الناس خلائف فى الأرض، وبإختيارهم وأفعالهم صاروا فريقين: مؤمنين وكافرين، المؤمنون خلفاء الرحمن فى الأرض، والكافرون خلفاء وأولياء الشيطان فى الأرض.

ويترتب على إختيار الفريق الثانى للكفر ولخلافة الشيطان أن يزيدهم هذا عند ربهم مقتا ويزيدهم هذا خسارة على خسارتهم.

كذلك يأتى قدر الله تعالى بانهاء استخلاف أمة من الأمم باستئصالها من الأرض أو بحرمانها من السيادة والعلو فيها، بناء على أفعالهم الاختيارية اذا كفروا وعصوا وفسقوا ولم يقيموا شرعه ولم يستجيبوا لرسله، قال تعالى: **﴿وربك الغنى ذو الرحمة ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾**[2]

---

(١) فاطر/ ٣٩.

(٢) الأنعام / ١٣٣.

وقال تعالى مخبراً عن مقالة هود لقومه ﴿ **فإن تَولَّوا فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربى على كل شيء حفيظ**﴾[1] فانصرافهم عن دعوة رسولهم هود عمل إختيارى منهم يستتبع قدرا حتميا بعزلهم عن الخلافة والسيادة فى الأرض وإستخلاف غيرهم من الناس لرسالته عز وجل.

ومثلها قول موسى عليه السلام لقومه ﴿**قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون**﴾[2]

فإهلاك الله عز وجل للفراعنة وعزلهم عن الخلافة والعلو فى الأرض يأتى قدرًا حتميًا من الله عز وجل بناء على تجبرهم وكفرهم وظلمهم، وإستخلاف بنى اسرائيل يأتى بناء على توحيدهم له عز وجل وطاعتهم لرسولهم موسى عليه السلام، وبنفس القدر الذى استجابوا به وبنفس السرعة فاستخلاف بنى اسرائيل هو من قدر الله تعالى الكونى الحتمى الذى رتبه الله تعالى بناء على أفعالهم الاختيارية المتمثلة فى توحيدهم وإستجابتهم لنبيهم موسى.

ثم إن استخلافهم بعد الفراعنة استتبع منهم أفعالا اختيارية: فإما ان يصيروا خلفاء الله تعالى، واما أن يصيروا خلفاء الطاغوت. لذلك قال لهم موسى (ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون؟!)[3] أى العمل الاختيارى الذى يكون إما طاعة وإيمانا واستجابة لشرع الله وكل ذلك يجعلهم خلفاء الله تعالى فى الأرض وإما يكون كفرا ومعصيةً وإعراضا فيصيروا خلفاء الشيطان، وعلى كل حال من الأحوال يترتب قدر جديد، فالجدلية الاستخلافية تدور فى اطار حقيقة الابتلاء، إذ يعزل الله الأمة القوية المستخلفة بناء على ظلمها وكفرها وتكبرها فى الأرض، ويستخلف الأمة المستضعفة المؤمنة لكى يبتليها بالخلافة كما إبتلى الذين من قبلهم بها، وهكذا دواليك إلى يوم القيامة.

---

(١) هود / ٥٧.

(٢) الأعراف / ١٢٩

(٣) الأعراف / ١٢٩.

الفصل الخامس عشر

حقيقة الخلافة

٥٦ . خلافة الإنسان فى الأرض تعنى ربوبيته عليها .

٥٧ . الخلافة عبودية لله وربوبية على مافى الأرض من أشياء وأحياء من غير الإنسان

٥٨ . الشرع يجيز نسبة الربوبية للانسان على الأشياء المملوكة له ويحرم نسبة الربوبية للانسان على أخيه الانسان

٥٩ . الخلافة عبودية وسيادة

٦٠ . الأدلة الشرعية على صحة نسبة السيادة للانسان .

٦١ . شرح ابن تيمية لحديث «السلطان ظل الله فى الأرض» ونقاط الاتفاق والاختلاف بين تعريفنا للخلافة وبين فهم ابن تيمية لهذا الحديث .

٦٢ . الدين والعلم مقوما الخلافة



٥٦ ـ خلافة الإنسان فى الأرض تعنى ربوبيته عليها :

أ ـ الحاكمية هى المعنى البارز فى حقيقة الخلافة

علمنا أن التوكيل والتوريث والتولية والحكم والنصرة والهدى تدخل جميعا عناصر رئيسية فى معنى الاستخلاف.

كما علمنا أن معنى الإنابة قاسم مشترك فى هذه العناصر جميعا، ومن ثم فهو يدخل فى معنى الخلافة أيضا.

فإذا طبقنا معانى هذه العناصر على حقيقة الاستخلاف تبين لنا بوضوح أن الله عز وجل استخلف الانسان فى الأرض بمعنى وَرَّثَهُ إياها وملكها له.

ويدخل معنى النيابة فى معنى التوريث والتمليك من حيث أن الله تعالى هو المالك الحق للأرض ولكل شىء لايشاركه فى ملكه غيره ولا حتى خليفته، ومن ثم يكون الانسان نائبا لله عز وجل فى التصرف فى كل مافى الأرض، وليس مالكا حقيقيا لها من قبيل ملكوت الله عز وجل لكل شىء.

كذلك نقول: ان الله تعالى استخلف الإنسان فى الأرض بمعنى جعله وكيلا عليها، بشروط خاصة للوكالة، وتكليف محدد حيال تصرفه كوكيل فيما وُكِّل عليه.

وبهذا المعنى نقول أيضا: إن الاستخلاف يعنى أن الله تعالى ولَّى الانسان على هذه الأرض أى على مافيها من مخلوقات فصار واليا على ماسواه من المخلوقات الأرضية مدبرا لها متصرفا فيها قائما عليها راعيا لشئونها وهذا كله يؤدى فى النهاية الى صحة القول بأن الله تعالى جعل الانسان حاكما عليها ومسخرا لها، فالخليفة منظم ومدبر وراع لشئون الخلائق الأرضية جميعا.

وهذا الحكم يفيد أحقية الانسان ـ بمقتضى حقيقة الاستخلاف ـ فى تسخير كل مافى الأرض لنفسه، كما يفيد قابلية هذه الأشياء لهذا التسخير بمقتضى جبلتها

وطبيعتها الفطرية، اذ خلقها الله عز وجل: إما مسخرة بقدرته سبحانه وحده بدون أن يكون للانسان دور فى هذا التسخير، كتسخير الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم، وإما قابلة للتسخير بقدرته عز وجل ثم بفاعلية الانسان، ومن ثم يتطلب هذا من الانسان إستخدام علم الأسماء لمعرفة خصائص الشىء المراد تسخيره وإستخدامه، كتسخير المعادن و الغازات والسوائل والنبات والحيوان لحياة الانسان.

ومن ثم فالحكم هو المعنى البارز فى حقيقة الاستخلاف، لأنه على قمة عناصر الخلافة جميعا من ناحية، كما انها جميعا تشمله من ناحية ثانية وما نعنيه بالحكم هنا هو حكم الانسان للأشياء والأحياء الأرضية.

ولذلك أطلق علي الحاكم الذى يتولى شئون الناس التنظيمية والتشريعية خليفة، كما أطلق عليه خليفة فى الأرض باعتبار أن حكمه للناس يستتبع ويستلزم حكمه لسائر الخلائق الأخرى التى تحت أيدى الناس.

ب- ربوبية الانسان للأرض نيابية وليست أصيلة .

العلاقة بين الانسان النوع وبين غيره من الكائنات علاقة خاصة لايمكن تحديدها الا فى اطار مشروعية التسخير والاستخدام والاستغلال والتعبيد ابتداء من الأنعام التى خلقها المولى عز وجل للانسان، وانتهاء بالأحجار مرورا بالنبات والمعادن والبحار والأنهار والفضاء... الخ.

ان حقيقة التسخير هذه التى أخبرنا الله تعالى بها فى القرآن الكريم صراحة وفى أكثر من موضع، هى شطر حقيقة الخلافة.

وهى العامل الرئيسى والوحيد الذى تقوم عليه علاقة الانسان الخليفة بكل ما استخلفه الله تعالى عليه فى الأرض، فلا شىء فى الأرض يمكن أن ينتفع به الانسان فى حياته، الا ويمكنه عن طريق التقدم فى العلم والمعرفة والصناعة ان يسخره لنفسه فخلافة الانسان فى الأرض تعنى حاكميته لكل مافيها.

لكن، هل هذه الحاكمية البشرية للأشياء الأرضية حقيقية؟

إذا قلنا أنها حقيقية فان هذا يسلتزم أن يكون ملك الانسان للأرض ملكا حقيقيا، وأن يكون تسخيره لكل ما فيها تسخيرا ذاتيا بقدرة ذاتية مستقلة أو فاعلية خاصة يستطيع الانسان أن يخلق بها، فيكون هو خالق أفعاله وخالق تأثيره وكل مامن شأنه أن يسخر به الأشياء والأحياء. فيكون التسخير من خلقه هو وليس من خلق الله عز وجل؟

إن من أهم مبادىء التوحيد الاسلامى وأولها: هو إفراد الله تعالى بالخالقية، فهو عز وجل خالق كل شىء حتى أفعال العباد. ومن ثم لايجوز القول بأن تسخير الانسان للأشياء والأحياء الأرضية من خلقه هو، بل هو من خلق الله تعالى، وبالتالى لايكون هذا التسخير حقيقيا حين ننسبه للانسان، كما ثبت لنا من قبل ان ملكية الأرض إذا نسبناها للانسان ليست ملكية حقيقية .

إن الملك والتسخير من المقومات الرئيسية للربوبية ووصف الانسان بهما، كمالك ووارث للأرض ومسخر لما فيها يفيد أنه رب عليها؟

وهذا صحيح، بيد أن الربوبية المنسوبة للانسان على ما فى الأرض بمقتضى تملكه وتسخيره لما فيها، ليست ربوبية حقيقية، مادامت ملكية الانسان وتسخيره غير حقيقيين، كما أسلفنا، ومن ثم تكون ربوبية الانسان لما فى الأرض بمعنى خاص، أو بتعبير آخر ليست من جنس ربوبية الخالق عز وجل. وينفى بذلك أن يكون الانسان شريكا لله عز وجل فى ربوبيتة للأرض.

فالتوحيد الاسلامى هو اثبات الربوبية لله وحده، ونفيها عمن سواه، فلا رب فى السماوات ولا فى الأرض الا هو سبحانه وتعالى.

ومن أهم خصائص الربوبية: الملك والملكوت والهيمنة والسلطة، وما يتبع هذه الخصائص من تفرد المولى جلا وعلا بالتصرف والتدبير بمشيئته المطلقة.

كما تشمل الربوبية أيضا خاصية الحاكمية المطلقة للكون بأسره بعامة وحاكمية الله تعالى أيضا للانسان بخاصة، وقيوميته على كل شىء فى كل آن.

فإذا قلنا أن الـله تعالى قد استخـلف الانسان فى الأرض، بمعنى أنـه تعالى قد ورَّثَهُ ملكها وجـعله واليا عليها ووكيلا عـليها وحاكما فيها أو لمافـيها، فإن الانسان يكون بمقتضى مفهـوم الاستخلاف والعناصر الداخلة فى معناه، وبمقـتضى التحليل السابق لمـفهوم الإستخلاف ومـفهوم الربوبيـة يكون ربا على مـافى الأرض، ليس أصالة بل بالنيابة والوكالة لله تعالى وذلـك لأنَّ التملك والحاكمية عنصران رئيسيان فى الربوبية كما أنهما عنصران رئيسيان أيضا من عناصر الخلافة.

فهل يجوز الـقول ـ بناء على هذا ـ أن الله تـعالى قد جعل الانسان خـليفة فى الأرض بمعنى أنه قد جعل له نوعا من الربوبية على مافى الأرض من مخلوقات؟! أفلا يكون هذا القول شركا صريحا بالله عز وجل؟! وأليس هذا ما رفضناه صراحة عندما قلنا إن القول بإن الانسان خليفة لله تعالى يجب أن يقتصر على تنفيذ الأمور التشريعية دون الأمور الكونية؟!

نعم، لقد ثبت أن توصلنا بوضـوح وجلاء الى أن إثبات إستخلاف الإنسان لله تعالى فى الأرض بمعنى الوكالة والولاية والـوراثة والنصرة والحاكمية صحيح، ولا يخالف التوحيد، بـشرط أن ينحصر هذا كله فى مجال تنفيذ الأمـور التشريعية من حياة الانسان، وليس فى الأمور الكونية الـتى تخص الله تعالى وحده، بل تخص ربوبيته سبحانه التى لايشاركه فيها غيره.

فكيف نقول بعـد هذا ان للانسان ربوبية على مافى الأرض بما مـيزه الله تعالى على غيره من المخلوقات الأرضية بالتملك والهيمنة والتسخير؟!

إن هذه المسألة هى أعمق مافى قضية الخلافة وأكثرها إشكالا وغموضا!

لاشك أن إفراد الله تعالى بالربوبية هو أول وأهم مبادىء التوحيد الاسلامى.

لكن مع هذا لاينكـر أحد أن ثمَّ نوعا من الربوبية فى الأرض منحـها الله تعالى للانسان حين استخلفه؟

فمن حيث أنها ممنوحة للإنسان من الله تعالى فهى ليست من هذا الوجه ربوبية حقيقية، بل هى ربوبية ممنوحة بقدر لحكمة؟ فهى ربوبية نيابية.

ذلك أن الله تعالى خلق الانسان ليبتليه ويختبره ويمتحنه ليميز سبحانه الطيبين من الخبيثين.

والطيب هو الذى يحقق عبوديته لله تعالى فيطيعه فيما ولاه عليه واستخلفه فيه وجعله مهيمنا وربا عليه. فلا يتحول من كونه ربا على الأشياء الأرضية على سبيل الابتلاء إلى رب حقيقى حسب مايتوهم ويزعم المتكبرون فى الأرض. بل إن هذه الربوبية التى هى ابتلائية يحولها أهل الاستعلاء فى نفوسهم من ربوبية نيابية على الأشياء والأحياء الى ربوبية على إخوانهم من البشر أى المستضعفين منهم. كما أنهم يستكبرون فى أنفسهم اذ يتوهمون أنهم أرباب حقيقيون وليسوا خلفاء.

فَثَمَّ فرق بين ربوبية الله تعالى المطلقة وبين هذه الربوبية المحدودة الجزئية المشروطة التى نالها الانسان من رب العالمين لحكمة شاءها سبحانه وتعالى، وهى ابتلاؤه بها.

فلا أحد ينكر أن الله تعالى مالك كل شيء ولكن أخبرنا الله تعالى انه ورَّث الانسان ملك الأرض لفترة الحياة الدنيا ليبتليه بهذا الملك ويختبره فيما استخلفه فيه.

قال تعالى ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض ليبلوكم فيما آتاكم﴾[1]

كذلك نقول أن الحكم الكونى لله تعالى وحده، ومع هذا فإن أحداً لاينكر أن الله تعالى سمح للانسان بنوع من الحاكمية على الأشياء فى الأرض هى حاكمية تسخيرية اختيارية ابتلائية ينفذها الانسان بفاعليته. وان كان مايتم بهذه الفاعلية هو من خلق الله تعالى.

ومن ثم نقول: ان ملكية الانسان للأرض ليست ملكية حقيقية كتملك الله عز وجل لها سبحانه وتعالى عن أن يشاركه غيره فى ملكه.

---

(١) الأنعام/ ١٦٥

وإنما هى ملكية نيابية استخلافية على سبيل الوكالة، فهو ليس مالكا حقيقيا للأشياء والأحياء الأرضية وإن توهم ذلك. لذلك قال تعالى ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾[1] أى أن مايظن الانسان انه مالك له هو مستخلف فيه، أى يملكه ملكية استخلاقية نيابية عن المالك الحق سبحانه.

كذلك الأمر بالنسبة لقولنا إن للانسان على الأحياء والأشياء الأرضية حكما، فإنه ليس حكما حقيقيا، بمعنى الحكم المنسوب لله عز وجل إذ لا يتم خلق فى الأرض ولا حكم الا حكم الله تعالى وخلقه ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[2]

وقد رأينا أن القرآن الكريم ينسب للانسان تنفيذ الحكم الشرعى ويفرد الله تعالى بالحكم، ولكن حكم الانسان على الأشياء والأحياء الأرضية وتصرفه فيها هو واقع بمشيئته سبحانه الكونية وحكمه الكونى سواء أكان هذا الحكم مواقفا لأمر الله التشريعى التكليفى أم كان مخالفا له.

فعند ماعذب آل فرعون بنى اسرائيل كان هذا الفعل من آل فرعون فعلا وحكما اختياريا ابتلائيا مخالفا لأمر الله تعالى التشريعى لكنه فى نفس الوقت كان تنفيذا وامضاءا لحكم الله الكونى فى بنى إسرائيل بابتلائهم بالضراء.

ومن ثم تكون فاعلية الانسان سواء كانت موافقة لحكم الله تعالى الشرعى أم مخالفة له، مخلوقة غير خالقه وما يتم بها يكون موافقا لحكم الله تعالى الكونى وواقع بقدره.

جـ- ربوبية الانسان للأرض ابتلائية نيابية استخلافية على كل شيء وحى سوى الانسان؟:

وعلى هذا ففعالية الانسان وربوبيته هذه على الأشياء والاحياء ليست ربوبية أصيلة ذاتية، بل هى نيابية وكالية استخلافية. وذلك لأن الانسان فى جميع

---

(١) الحديد / ٧.

(٢) الاعراف / ٥٤.

الحالات ليس حاكما حقيقيا أصيلا، بل هو خليفة ونائب ووكيل للحاكم الحق سبحانه، أى حاكما بالوكالة، والنيابة، اذ يكون وهو يحكم مختارا بارادته منفذا لحكم الله تعالى الكونى كأداة لقدرة المولى عز وجل. هذا الحكم الالهى الكونى الذى لابد أن يتم كما أراده الله عز وجل.

فليس الانسان مالك على الحقيقة، بل هو مالك بالنيابة ملكية ابتلائية استخلاقية.

ولا هو حاكم على الحقيقة، بل حاكم بالنيابة حكما إبتلائيا استخلافيا، وكل مايتم منه من أفعال واقع بحكم الله الكونى سواء وافق أمر الله التشريعى ام خالفه.

وهذا هو معنى خلافة الانسان الله تعالى فى الأرض، أى نائبا ووكيلا عنه سبحانه فيما استخلفه فيه ووكله عليه، لتنفيذ أمره الشرعى، ومن ثم اذا نسبنا للانسان نوعا من الربوبية فى الأرض، فهى ربوبية على مادونه من الكائنات الأرضية، وليست ربوبية لبعض أفراد الانسان على الآخرين، كذلك هى ربوبية نيابية او استخلافية وليست أصيلة فى الذات الانسانية.

وعلى هذا لايكون الانسان بهذه الربوبية الاستخلافية شريكا لله عز وجل فى ربوبيته، مادام قد التزم شروط الخلافة وتكليفها ولم تتعدً الحدود التى رسمها الله تعالى له بشرعه، ولم يتجاوز مجال هذه الربوبية المحدد وهو ممارستها على الأشياء والأحياء الأرضية من غير بنى البشر. فإذا تجاوز هذا المجال متجاوزٌ وحاول بسط ربوبيته على بنى البشر الذين ولاه الله تعالى عليهم، فإنه يكون قد جعل نفسه ربا من دون الله تعالى ونازعه فى ربوبية وألوهيته، كما حدث من فرعون والنمروذ وغيرهما من طغاة البشر والمستكبرين فى الأرض، ولكنهم بتجاوزهم هذا لم يخرجوا عن أمر الله الكونى. ولم يُصبحوا لله تعالى شركاءاً حقيقيين فى الربوبيه، وأنما هو توهموا ذلك وزعموه لانفسهم بالباطل، لأنه ليس لله عزوجل شريك.

لكن إذا التزم الانسان، حاكما كان أم محكوما، طاعة الله تعالى فى مزاولة ربوبيته على الأشياء والأحياء فى الأرض، ثم هو لم يتجاوز مجال هذه الربوبية الى عالم البشر، فانه يكون بهذه الربوبية عبدا لله عز وجل، خاضعا لمشيئته تعالى فى فعله، ومنفذا بفاعليته البشرية المحدودة مالا يخرج أيضا عن قدر الله الكونى ومشيئته الكونية سبحانه وتعالى، ففى الحالين الانسان عبد خاضع للأمر الالهى الكونى .

بل ان الانسان حين يمارس فاعليته الاستخلافية الاختيارية فى غيره من الكائنات الأرضية فانه ينفذ قدر الله تعالى وقضاءه فى هذه الكائنات.

٥٧ ـ الخلافة عبودية لله عزوجل وربوبية لكل مافى الأرض:

أ ـ لفاعلية الانسان وحاكمتيه فى الأرض، أى «ربوبيته» جانبان:

الأول: يخص صلتها بالفاعلية الالهية والقدر الالهى الكونى. وهو خاضع فى هذا الجانب خضوعا محضا لله عز وجل.

فالعلاقة فى هذا الجانب تتمثل فى العبودية الجبرية او العبودية المحضة، فلا يخرج الانسان عنها ولا يستطيع، سواء كان فى حال طاعة الله تعالى ام كان فى حال المعصية، لان الطاعة والمعصية هما بإزاء الامر الشرعى أما الإمر بالنسبة للإمر الكونى القدرى، فالانسان خاضع بازائة خضوعا جبريًا محضا.

الثاني: ويخص فاعلية الانسان وحاكميته للأشياء والأحياء الأرضية، ويختلف هذا الجانب عن الأول تماما، اذ هو على عكس علاقة الخضوع والعبودية المحضة، حيث نجد للانسان فى الأشياء والأحياء الأرضية علما وحكما وفعلا وتأثيرا نافذا باختياره وفاعليته مسخرا إياها لنفسه ولحياته، وكل ذلك باذن اللـه تعالى وبأمره الكونى.

وهذا هو الجانب الثانى من جوانب الخلافة، وهذا هو مانعنيه بالربوبية

الاستخلافية للانسان على الأشياء والأحياء الأرضية، وهذه الربوبية البشرية مخلوقة لله تعالى ككل شيء فى الكون.

وهى أحد وجهين لحقيقة واحدة، هى الخلافة، هذان الوجهان هما:

الوجه الأول: هو العبودية لله عز وجل

الوجه الثاني: هو الربوبية على الأشياء والأحياء الأرضية.

ومما يمنع أن تصير هذه الربوبية شركا لله عز وجل - فى حالة استخدامها فى طاعته سبحانه وحسب شرعه وحدوده، هو كونها ربوبية تسخير وإستغلال بأمر الله عز وجل، اذ هو الذى سخر الأشياء والأحياء الأرضية للانسان تحقيقا للخلافة، وهذا جانب جوهرى منها.

ويمنع ان تكون هذه الربوبية شركا كذلك كونها وجهاً من وجهين لحقيقة واحدة لايمكن أن ينفصلا، أحدهما وأولهما هو عبودية الانسان لله عز وجل، والثانى هو ربوبية الانسان على الأشياء والأحياء الأرضية، فإذا حافظ الانسان على الوجه الأول من الخلافة، إمتنع أن يكون الوجه الثانى شركا.

والشرط الثالث الذى يمنع ان تكون الربوبية المضافة للانسان شركا بالله عز وجل هو اقتصار تعامل فاعلية هذه الربوبية البشرية على الأمر الالهى التشريعى لله وحده، وإنما يؤثر الانسان بمقتضى السنن الالهية الكونية وفى حدودها ويتحدد أو ينحصر مجال اختياره وتأثير فاعليته المختارة على تنفيذ أمر الله الشرعى المنزل على رسله، فإما أن يطيع الله عز وجل وينفذ أمره الشرعى فيما كلفه به وولاه عليه، وإما أن يعصيه، وفى الحالين هو خاضع لأمر الله تعالى الكونى وحكمه القدرى.

وهكذا لايكون ثمَّ خروج على مبادىء التوحيد الاسلامى التى تقرر تفرد الله تعالى بالأمر الكونى خلقا وتدبيرا وقضاءاً حيث تقتصر مزاولة الانسان لخلافته (عبودية وربوبية) على الأمر الالهى التشريعى.

وذلك لأن فاعلية الانسان التي يتحدد بحدودها وطاقاتها مجال ربوبيته فى الأرض، لا عمل لها ولا تأثير، الا فى مجال تنفيذ الأمور التشريعية التخييرية سواء كان هذا مما يخص التملك أم كان يخص الحاكمية.

فكل مايتملكه الانسان وكل ماله فيه حكم وسيطرة وتسخير فإن لله تعالى فيه حكما شرعيا يخير الانسان فيه بين أن يطيع الله تعالى فيه، فيكون نائبا وخليفة لله عز وجل فى هدا الأمر وبين أن يعصيه فيكون نائبا وخليفة لغيره أى الطاغوت وعلى هذا فممارسة الانسان ربوبيته على الأشياء والأحياء بما فى ذلك الانسان ليس فى مجال الأمر الالهى الكونى، حيث يقتصر على تنفيذ الأمر الالهى التشريعى الابتلائى المنزل على رسله صلى الله عليهم جميعا.

ب ـ الخلافة حقيقية (انسانية- إلهية) و(انسانية ـ أرضية):

بناء على ماسبق نقول: ان الخلافة حقيقة (انسانية - إلهية)، لأنها تتضمن تعيين العلاقة بين الانسان وربه الذى استخلفه وملّكه وكرّمه بها على غيره من خلقه بالعبودية لله وحده، ذلك أن العبودية هى الطاعة، وأن معنى النيابة والوكالة فى الاستخلاف يقتضى ويستلزم طاعة الوكيل لمن وكله والنائب لمن جعله نائبا له، ومن ثم يستلزم معنى الخلافة طاعة الانسان (الخليفة) لله عز وجل الذى استخلفه.

فالاستخلاف يتضمن عبودية الانسان لله عز وجل، فالخلافة اذن من هذا الوجه عبودية؟ لكن هل يمكن قصر معنى الخلافة على العبودية؟ لا، لأن كل الكائنات عابدة لله تعالى ومسبحة وساجدة له سبحانه وعلى رأس هذه الكائنات الملائكة ومع هذا لم تنل الملائكة ولا غيرهم من المخلوقات درجة الخلافة بالرغم من تطلع الملائكة الى هذه الدرجة الوجودية العالية.

ومن ثم، فالخلافة ليست عبودية فقط، بل لابد أن تكون عبودية وأمرا آخر زائدا على العبودية وبيان ذلك أن:

حقيقة الخلافة، كما انها حقيقة (انسانيــة - الهية)، فانها أيضا حقيقة (انسانية ـ كونية)، وبتــعبير أكثر دقة نقــول: انها حقيقة انســانية ـ أرضية بخاصة، وانـسانية كونية بعامة.

فكما تعيَّنت علاقة الانسان بربه من خلال حقيقة الاستخلاف بالعبودية، كذلك تتعين علاقة الانسان بالكون بعامة، والمخلوقات الأرضية بخاصة من خلالها أيضا، أى من خلال حـقيقة الاسـتخلاف وبتـعبير آخـر نقول: ان حقــيقة الاسـتخلاف تتضمن بيان مركز الانسان الوجودى بين المخلوقات بعامة، وكذلك تتضمن علاقته بالمخلوقات الأرضية بخاصة وتعينها بالربوبية.

لقد ســخر الله تعالــى الشمس والقمــر والليل والنهــار للانسان وجعل الـنجوم مسخرات بأمره عز وجل لـيهتدى بها الانسان فى ظلمات البر والبـحر وجعلها زينة وجمالا يستمتع به الانسان، هذا بالنسبة لـعلاقة الانسان بالكائنات السماوية وجعل اللــه تعالــى الملائكــة أولياء لـلانسان فى الحـياة الدنـيا والآخرة بمـقتضـى حقيـقة الاستخلاف، ويتم هذا برضاهم طاعة لله عز وجل بدليل سجودهم لآدم، وكذلك سخر الله له مــافى الأرض من بحار وأنهار وأنعام ونبـات قال تعالى **﴿أَلَمْ تَرَوْا أن الله سخَّر لـكم مافى السماوات ومافى الأرض وأسـبغ عليكم نعمه ظـاهرة وباطنة ومن الناس من يجـادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كـتاب منير﴾**[1] وقال تعالى **﴿الله الذى سخر لكم البـحر لتجرى الفلك فيه بأمره، ولتبتغـوا من فضله ولعلكم تشـكرون وسخر لـكم مافى الـسماوات ومـافى الأرض جميـعا منه، ان فـى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**[2]

وقال عز وجل**﴿الله الـذى رفع السماوات بـغير عمد تـرونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجـرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾**[3]

---

(١) لقمان/ ٢٠.　　(٢) الجاثية/ ١٢، ١٣.　　(٣) الرعد/ ٢.

وقال سبحانه وتعالى ﴿الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾(1).

وقال تعالى ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرةً إن الله لطيف خبير، له مافى السماوات ومافى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد، ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه ـ إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾(2).

ويثبت القرآن الكريم أن خلق السماوات والأرض وأن تسخير الشمس والقمر من المسائل الفطرية التى يقر بها كل الناس قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾(3).

وقال تعالى ﴿وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه لايملكون من قطمير﴾(4).

وقال تعالى ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾(5).

---

(1) ابراهيم/ ٣٢ ـ ٣٤. (2) الحج/ ٦٣ ـ ٦٥.

(3) العنكبوت / ٦١ .

(4) فاطر/ ١٢، ١٣. (5) الحج/ ٣٧.

وقال تعالى ﴿والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾(١).

تتضمن الآيات الكريمات المذكورات آنفا نوعين من التسخير.

الأول: تسخير الله عز وجل بعض المخلوقات للانسان تسخيرا مطلقا غير متوقف على دور للفاعلية البشرية فى التسخير. مثل تسخير الشمس والقمر والليل والنهار والنجوم ومثل تكليف الله تعالى للملائكة بأمور يتمونها فى الوجود الانسانى تخص حياة البشر وموتهم وبعثهم وما الى ذلك.

الثاني: تسخير الله عزَّ وجل للأشياء والأحياء الأرضية وهو تسخير مشروط باستخدام الانسان فاعليته اذ لها دور فيه، هذه الفاعلية التى تتنامى فى قضية التسخير بعلم الأسماء وذلك عن طريق معرفة خصائص الأشياء والأحياء المراد تسخيرها فيما يُعرف الآن بالتقديم الصناعى والتِّقَنِي.

ومن ثم يمكن القول بهذا الخصوص ان للانسان على الأشياء الأرضية ثلاثة أنواع من الحكم:

١ـ حكم عقلى معرفى علمى

٢ـ حكم ارادى طلبى

٣ ـ حكم ضبطى تسخيرى

هذه الحاكمية هى معنى الربوبية التى وهبها الله تعالى الانسان على أشياء وأحياء الأرض بالتسخير المنوط بفاعليته. وهذا يُبيِّن لنا بوضوح لماذا لم تتأهل الملائكة للخلافة فى الأرض كالانسان بالرغم من تحقق جانب العبودية عندهم أكمل وأتم من تحققه فى الوجود البشرى؟!.

---

(١) الزخرف / ١٢ ـ ٤-١٤.

ذلك أن الخلافة عبودية وربوبية وليست عبودية فقط.

وظهر لنا بوضوح ثبوت عجزهم عن الخلافة بثبوت عدم معرفتهم للأسماء بينما ثبت أحقية آدم أو الانسانية بالخلافة واستطاعتهم اقامتها في الأرض بمعرفة آدم للأسماء.

فالصلة بين علم الأسماء وبين تسخير الأشياء الأرضية للانسان صلة وثيقة، وكذا فان الصلة بين علم الأسماء وربوبية الانسان على أشياء الأرض وأحيائها صلة وثيقة بالتالى.

ومن ثم يكون قد ثبت لنا بوضوح أن حقيقة الخلافة: حقيقة: الهية ـ انسانية، إنسانية ـ كونية.

ونظرا لأن حقيقة الخلافة حقيقة واحدة لاتتجزأ ولا تنفصم اذ هى جانب رئيسى وذاتى وهام فى الكينونة البشرية، فانه لا يجوز أن ننظر الى جانبيها باعتبارهما منفصلين فى واقع الحياة الانسانية بل هما حقيقة إنسانية وكونية واحدة، فهى اذن حقيقة: الهية ـ انسانية ـ كونية.

وذلك لأن جانب ربوبية الانسان للأشياء وللأحياء الأرضية ليست ربوبية حقيقية ذاتية أصيلة، لأنها ممزوجة بالعبودية أو بتعبير أدق نقول ان الذات الانسانية تجمع فى جوهرها العبودية والربوبية معا كحقيقة واحدة هى حقيقة الخلافة.

٥٨ ـ الشرع يجيز نسبة الربوبية للانسان على الأشياء المملوكة له ويحرم نسبة الربوبية للانسان على أخيه الانسان.

ولعل سائلاً يسأل:

هل يجوز لغة وشرعا أن ننسب للانسان ربوبية على المخلوقات الأرضية بحيث نقول إن الانسان رب لها؟

وهل يجوز أيضا لغة وشرعا أن ننسب للانسان أو لبعض البشر ربوبية على البعض الآخر؟ وللاجابة على هذين السؤالين نقول:

ان من معانى الرب فى اللغة المالك والمتصرف وهذا يجيز لغة القول لمالك الغنم والابل رب الغنم والابل.

قال إبن فارس فى معجم مقاييس اللغة أن الأصل الثالث لكلمه رب: الراء والباء [ضم الشيء للشيء..][(١)]

ومنه صار رب الشيء مالك الشيء.

أما الأصل الأول للكلمة فهو [اصلاح الشيء والقيام عليه] ومنه اشتق معنى العناية بالشيء والقيام على تربيته واصلاح حاله.

والذى يهمنا هنا أن الانسان يملك مافى الأرض ثم هو يرعاه ويقوم عليه ويربى الأحياء من أشياء الأرض. ومن ثم فاطلاق اسم رب على الإنسان جائز لغة بل هو صحيح إذا كانت الربوبية المنسوبة للانسان منصبة على مايملكه من الأشياء والأحياء دون الانسان.

كما أنه جائز شرعا مادام محصورا فى هذا الاطار ولا يتعداه الى مجال ربوبية البشر للبشر. فمما ورد عن رسول الله ﷺ ماجاء فى مسند الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، حدثنا عبدالله حدثنى أبى ثنا سفيان بن عيينة مرتين قال ثنا أبو الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبى الأحوص عن أبيه قال أتيت النبى ﷺ فصعَّد فِىَّ النظر وصوب وقال «أرب ابل أنت أو رب غنم؟»

قال: من كل قد أتانى الله فأكثر وأطيب قال: «فتنتجها أعينها وآذانها فتجدع هذه فتقول صرماء».

---

(١) ابن فارس / معجم مقاييس اللغة جـ صـ ٣٨١

ثم تكلم سفيان بكلمة لم أفهمها، «وتقول بحيرة الله، فساعد الله أشد وموساه أحد، ولو شاء أن يأتيك بها صرماء أتاك»[1]

والشاهد من هذا الحديث الشريف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمالك الابل والغنم [. . أرب ابل انت أو رب غنم؟] وهذا يجيز اطلاق لفظ الرب بدلا من لفظ المالك شرعا كما قد ثبت أنه صحيح لغةً.

ولكن ثمة حديثا شريفا يفيد تحريم نسبة الربوبية للانسان بجانب هذا الحديث الذى يفيد صحة ذلك شرعا بالنسبة للابل والغنم.

فقد ورد فى مسند الامام أحمد رحمه الله تعالى مانصه [حدثنا عبدالله حدثنى أبى ثنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لايقل أحدكم لعبده: عبدى، ولكن ليقل فتاى، ولا يقل العبد لسيده: ربى، ولكن ليقل سيدى]»[2] ومن ثم لايجوز بمقتضى هذا الأمر الصريح من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نسبة الربوبية للانسان، فهل ثمة تعارض بين الحديثين الشريفين؟

إن قليلا من إمعان النظر فى الحديثين الشريفين يتبين لنا التوافق التام بينهما، اذ يبيح الحديث الأول وصف الانسان بالربوبية بالنسبة للأنعام ولغيرها من الأحياء والأشياء المملوكة والمسخرة للانسان فى الأرض، بينما يحرم الحديث الثانى اعتبار البشر أربابا بعضهم لبعض من دون الله عز وجل حتى بالنسبة للأرقاء والعبيد والمملوكين.

فلا تعارض البتة بين الحديثين الشريفين، بل ان هذين الحديثين يفسران لنا مجتمعين الجانب «الإنسانى ـ الأرضى» من حقيقة الاستخلاف، ويمكن أن نقسم

(١) مسند الامام أحمد جـ ٤ صـ ١٣٧ نشر المكتب الاسلامى.

(٢) نفس المصدر جـ ٢ صـ ٤٤٤.

هذا الجانب ـ كما سبق أن وضحنا من قبل ـ مسترشدين بهذين الحديثين إلى علاقتين:

الأولى: علاقة الانسان بالأشياء والأحياء الأرضية.

الثانية: علاقة الانسان بأخيه الانسان.

وفى الأولى يجوز أن نقول بأن الانسان رب على مافى الأرض أما العلاقة الثانية فيحرم على أى من البشر أن يجعل من نفسه ربا على غيره من البشر، كما يحرم على أى من الناس أن يتخذ أحداً من الناس ربا له من دون الله عز وجل، وتعليل هذا بالتالى:

(١) إن هذه الربوبية للانسان كنوع وليست لبعض الناس دون البعض الآخر فهى ربوبية لبنى آدم، لأن الخلافة هى للانسان كنوع وجاءت فى آية البقرة بالاشارة لآدم كممثل لنوعه وذريته فكل فرد من أفراد الانسانية مستحق لاسم الخليفة ولوصف الاستخلاف بمقتضى كينونته الآدمية بما فى ذلك العبيد والاماء.

فالارقاء فى الاسلام خلفاء لله تعالى فى الأرض كغيرهم من البشر سواء بسواء، وفى ذاتهم البشرية جانب الربوبية على أشياء وأحياء الأرض كجانب العبودية سواء بسواء كغيرهم من الناس، يؤكد هذا ويوضحه قول الرسول صلى الله عليه وسلم [. . . والعبد فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته].

ومن ثم جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم [. . . ولا يقل العبد لسيده ربى ولكن ليقل سيدى] بينما أجاز أن يكون الرجل رب غنمه وإبله.

(٢) ان هذه الربوبية للانسان هى على مادونه من المخلوقات الأرضية التى أخبرنا الله تعالى أنه عز وجل سخرها لنا.

وتتمثل هذه الربوبية فى شعور انسانى لدى الفرد بالرغبة فى التسلط على هذه المخلوقات وتسخيرها واخضاعها وتعبيدها لنفسه، فهى طبيعة ذاتية إيجابية فى النفس الانسانية، ينفرد بها الانسان بمقتضى الاستخلاف عن غيره من الكائنات،

ويتميز بها عليهم، وتمنحه الإحساس بعلوه على كل مخلوقات الأرض، وتميزه عليها، وتدفعه شعوريا وسلوكيا إلى إحكام سيطرته عليها وتسخيرها واستغلالها.

وعلى الجانب الآخر يقابل هذه الطبيعة التسلطية فى الذات الانسانية، أى طبيعة الخليفة، يقابلها طبيعة أو طبائع خاضعة ومستكينة وجبلات سلبية ومستسلمة وقابلة للاستغلال والتسخير وراضية به ومساعدة على حدوثه تلك الطبائع جعلها الله تعالى بمقتضى تسخيرها للخليفة فى ذوات هذه الكائنات الأرضية، الأحياء منها وغير الأحياء.

(٣) ومن ثم فليس من الجائز أن تكون هذه الربوبية للانسان التى جعلها الله تعالى فى الذات الآدمية ـ بمقتضى الاستخلاف ـ موجهة للانسان نفسه، فهذا لايصح ولا يجوز شرعا - وان كان هذا حادثا فى واقع الحياة ـ حيث يجعل بعض الناس من أنفسهم أربابا على بعض، وهذا إنحراف فى الذات الانسانية عن فطرتها الاستخلافية السوية التى تكون الربوبية والرغبة التعبيدية للغير موجهة الى المخلوقات الأرضية من غير البشر، والتى تجعل من النفس السوية التى على فطرتها الاستخلافية نفسا أبية على الذل رافضة للعبودية لغير الله عز وجل. كما أنها تأبى الاستكبار والاستعلاء على الناس فلا يصح ولا يجوز ان يجعل بعض الناس من أنفسهم عبيداً أو أذلاء ومسخرين لغيرهم من البشر، لأنهم عندما يقبلون على أنفسهم هذا، فانهم ينحدرون من التوحيد الى الشرك، أى من أحسن تقويم الى مستوى الأحياء والأشياء فى الأرض فيصيروا كالأنعام المذللة للانسان بل قد يصيروا أضل سبيلا لأن ربوبية الانسان الاستخلافية هى على مادون البشر فى الأرض من مخلوقات وليست على الآدميين.

فالخلافة أصل اعتقادى من أصول المساواة بين الناس فى الاسلام. ومن يتنازل عن خلافته، فانه يصير عبدا لغيره من الناس، إذ يتخذ هؤلاء الغير أربابا من دون الله، وقد يعبدهم ويتخذهم آلهة من دونه عز وجل.

لذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمد فى الحديث السابق الى

تفريغ الـرق من كل معانى عبوديـة الرقيق لغير الـله تعالى، اذ نهى علـيه الصلاة والسلام الـعبد عن مناداة سـيده «بربى» كما نـهى السيد عـن مناداة فتاه بقـوله له «ياعبدى» وهذا مـعناه أنه لايجوز شرعا أن يـقول العبد لسيده «ربـى» كما لايجوز شرعا ان يقول السيد لفتاه أو لما ملكت يمينه ياعبدى أو «يا أمتى».

لأن السيد والـعبد أو الأمة جميـعا عبيد لله تـعالى بمقتضـى الجانب الأول من حقيقـة الاستخلاف، وكلاهمـا على مادون البشـر من مخلوقات الأرض بمـقتضى الثانى منها.

ولا يقل الفتى فى سيادته على أشياء وأحـياء الأرض عن سيده بمقتضى الطبيعة الاستخلافية شيئـا، بل ربما زاد عليه فى هذا الجانب اذا كانت حصيـلته من العلم الذى يمكنه من السيادة على الأشياء والأحياء أكثر من حصيلة سيده.

كما أنه قد يزيد الفتـى على سيده أيضا فى العبودية لله تعالـى بمقدار مايحصله من علـوم الكتاب الـكريم والسـنة وبمقدار طـاعته للـه تعالى وزيـادة ايمانه بـهذه الطاعات.

فحقيـقة الاستخلاف أصل اعـتقادى من أصول الإخاء فـى الاسلام، فالإسلام يدعو الى التآخى بيـن المؤمنين باعتبارهم جميعا خـلفاء الله عز وجل فى الأرض، ولا تفريق ولا تمييز فى معنى الإخاء بين الأرقاء وغير الأرقاء.

قال تعالى ﴿**واعبدوا اللـه ولا تشركوا به شيئا وبـالوالدين احسانا وبـذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم**﴾(١)

فانظر كيف أمر الله تعالى المسلميـن بالاحسان إلى ماملكت أيمانهم سواء بسواء كالأمر بالاحسان للـوالدين وجميع من يتعامل معهم المـسلم من الأقارب والجيران والأصحاب!، وهذا يجعـلهم ـ أى الأرقاء ـ فى مرتبة الاخوة الايمـانية الواحدة ـ

---

(١) النساء/ ٣٦.

وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم باخوة الأرقاء لأسيادهم بقوله عليه الصلاة والسلم [اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم مايغلبهم، فان كلفتموهم فأعينوهم عليه](١)

فإذا كانت الأخوة والمساواة واجبة شرعا بين الأسياد والأرقاء، فهى أكثر وجوبا بين كل المسلمين.

وحقيقة الاستخلاف أصل اعتقادى لهذا كله فى الاسلام من حيث ان كل بنى آدم بلا استثناء عبيد لله عز وجل وذوو ربوبية على الأشياء والأحياء الأرضية أى خلفاء لله تعالى فى الأرض أو خلفاء فى الأرض لغير الله عز وجل اذا كانوا كافرين.

(٤) ليس ثمة تعارض بين الحديثين الشريفين السابق ذكرهما، لأن الأول يثبت ربوبية للانسان على الابل والغنم ومن ثم على كل مايملكه الانسان وكل ماسخره الله تعالى له وفى الثانى نهى من الرسول صلى الله عليه وسلم عن نسبة الربوبية للانسان على أخيه الانسان حتى بالنسبة لما ملكت الايمان من الاماء والأرقاء كما نهى عن تسميتهم عبيدا اذا كانت نسبة العبودية لغير الله عز وجل.

ومن ثم لايجوز اطلاقا، بل يحرم ـ حسب حقيقة الاستخلاف ـ نسبة الربوبية لأحد أو لأسرة أو لجماعة أو لفئة من الناس على الناس، فليس للناس ربا الا الله عز وجل، كما لايجوز لشعب أو لفئة مستضعفة ان يتخذوا ربا أو أربابا من دون الله تعالى.

وهذا بخلاف نسبة الربوبية للانسان على الأشياء والأحياء الأرضية.

---

(٢) صحيح البخارى/ كتاب الايمان/ باب المعاصى من أمر الجاهلية وصحيح مسلم/ كتاب الايمان/ باب صحبة المماليك ١١/ ١٣٤.

٥٩ ـ الخلافة عبودية وسيادة.

فالاستخلاف: عبودية وربوبية، لكن نظرا الى أن كلمة ربوبية عندما تنسب للانسان أو لغير الله تعالى، تثير فى النفوس السوية والفطر السليمة ظلالا قاتمة حول مفهوم التوحيد، وحيث لايدرك كثير من المسلمين التفرقة فى استعمالها منسوبة للانسان، بين كونها جائزة لغة وشرعا، اذا قصد بها ربوبيته على الأشياء والأحياء الأرضية، وكونها محرمة لغة وشرعا، اذا قصد بها ربوبية بعض الناس على اخوانهم من بنى البشر.

لذا فالأفضل والأسلم العدول عن هذا التعريف السابق للخلافة الى تعريفها بأنها عبودية لله عز وجل وسيادة فى الأرض.

وذلك لأن معانى الربوبية وخصائصها لدى الانسان من ملك وحاكمية وسيطرة وتسلط كلها متضمنة فى معنى لفظ «السيادة».

كما أن علاقة الدولة بالشعب أو الحاكم بالمحكوم أو السلطان بالناس أو الخليفة بالمؤمنين متضمنة فى معنى السيادة، اذ يكون للدولة أو للحكام او للسلطان أو للخليفة السيادة على الطرف الثانى فى النظام السياسى، أيًّا كان شكله ونوعه، ونعنى بالطرف الثانى: الشعب أو الناس أو المحكومين أو الرعية أو المؤمنين فى المجتمع الاسلامى.

٦٠ ـ للسلطان المسلم على رعيته سيادة وللدول الكافرة على شعوبها ربوبية:

فالأمر يختلف حسب اختلاف عقيدة كل أمة وحسب نظامها الاجتماعى والسياسى المنبثقين من هذه العقيدة.

فالعقائد الجاهلية والشركية والمادية تسود فيها أنظمة اجتماعية طبقية تتحكم فيها طبقة أو أكثر فى بقية طبقات المجتمع، أو أنظمة ديمقراطية تزعم أن الحكم فيها لأغلبية الشعب.

وفى جميع هذه المجتمعات الكافرة تكون الحاكمية فيها لغير الله عز جل، حيث نجد الحكم التشريعي والتنفيذى والقضائى فيها لفئة من الناس. فلا يكون الانسان خليفة لله تعالى فى مثل هذه المجتمعات، مادام قد أعطى لفئة منها أو لفرد أو للأغلبية حق التشريع والهدى وتحديد المباح والحرام والحلال ووضع الأنظمة التى تحيا بها الناس استقلالا عن الهدى الالهى، واستغناء عن التشريع الربانى، وحيث أن الهدى والتشريع والتنظيم من خصائص الربوبية الرئيسية، فان هؤلاء الذين يقبلون تشريعات غيرهم من الناس: أحياء كانوا أم كهاناً أم حكاما مستبدين أم مجالس نيابية، مفضلين أنظمتهم وتشريعاتهم على هدى الله تعالى المنزل على رسوله فى كتابه الأخير للبشرية، يكونوا قد اتخذوا هؤلاء أربابا من دون الله تعالى.

قال تعالى **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألاَّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوْا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾**(١)

وقال تعالى أيضا **﴿وقالت اليهودعزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنَّى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله الا هو سبحانه عما يشركون. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة فبشرهم بعذاب أليم﴾**(٢).

ففى الآية الأولى ورقمها الرابعة والستون من آل عمران أمرٌ من الله تعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوا أهل الكتاب الى كلمة سواء بين المسلمين

---

(١) آل عمران/ ٦٤.
(٢) التوبة/ من ٣٠ ـ ٣٤.

وبينهم وهى عبادة الله وحده وألا نشرك به شيئا مما يتخذونهم أربابا من الافلاك أو الأنهار أو الملائكة أو الأنبياء فكلمة شيئا تشمل كل ما اشرك الانسان مع الله فى ربوبيته، ولكن أخطر الأرباب المزعومة هؤلاء الأرباب الأحياء من ذوى القوة والبأس وأعنى بهم رجال الدين الباطل والحكام وذوى الجاه والسلطان ومن ثم قال تعالى بعد ذلك **﴿ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله...﴾**

لأننا لو تأملنا فى العقائد الشركية التى تثبت مع الله تعالى أربابا من دونه غير أرضية أو من غير البشر كالكواكب والنجوم والشمس والقمر والملائكة وصالحى البشر الذين خلوْا من الأرض لوجدنا أن سدنة هذه العبادات هم المعبودون على الحقيقة أى من واقع الأمر وهم المستفيدون لدنياهم على الحقيقة اى يُعبِّدون الناس لأنفسهم فى الحقيقة، وذلك عن طريق إعطاء أنفسهم حق التشريع، ويتخذون الأرباب من الأشياء خداعا للناس. وسترا لربوبيتهم هم لهم.

لذلك قال تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بعد ذلك (فإن تولْوا. . .) لأن هذا هو المتوقع غالبا ممن جعلوا أنفسهم أربابا على الناس، حيث لايتخلون عن ربوبيتهم حرصا على دنياهم ونعيمهم ومتاعهم (فقولوا بأنا مسلمون) أى اعلنوا لهم بأنكم نبيا وأتباعا وحكاما ومحكومين قد أسلمنا وجوهنا وإرادتنا لله عز وجل فلا نتخذ لنا ربا من دونه ولا نأخذ هديا وشرعا من سواه فالأرباب المزعومة من نوع الأشياء والكائنات والاجرام غير الأرضية أو الأشياء غير الحية فى الأرض وكذلك الأموات من صالحى البشر والأنبياء، هؤلاء جميعا لايملكون ولا يستطيعون تلبية دعاء المشركين كما لايملكون ولا يستطيعون أن يهدوا البشر أو يشرعوا لهم أو ينظموا لهم حياتهم لأنهم جميعا بلا فاعلية.

ومن ثم يلجأ الطواغيت من الحكام ومعهم سدنة هذه العبادات والعقائد الشركية الى التستر خلف هذه الأرباب المزعومة من غير الأحياء خداعا للناس زاعمين أنهم، اى الأرباب غير الحيه، وسطاء وشفعاء الى الله عز وجل وشركاء معه فى تدبير الكون فيتمكنوا من أن يشرعوا هم، أى الأرباب الحيه، وينظموا

لهم حياتهم بقوانين تحقق علوهم فى الأرض، واستعبادهم لشعوبهم المشركين الذين يؤمنون بهؤلاء الأرباب والآلهة المزعومة من السدنة ورجال الدين والحكام لأن لهم فاعلية. لذلك نجد فى آيتى سورة التوبة السابق ذكرهما خبرا عن شرك اليهود وكفرهم بقولهم عزيز ابن الله، وعن شرك النصارى وكفرهم بقولهم المسيح ابن الله. **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾**.

وحيث أن عزير والمسيح عليهما السلام بشرين لايملكان بعد خلوّهما من الأرض أيَّة فاعلية فى حياة الانسان، فان جعلهما أربابا مجرد كذب وافتراء وتحريف من أحبار اليهود ورهبان النصارى لكى يعطوا لأنفسهم حق التشريع وتحريف شرع الله تعالى بما يحقق ألوهيتهم على أتباعهم بعد أن أعطوا لأنفسهم وجوب طاعة أتباعهم، لهم من دون الله تعالى وفى معصيته. لذلك قال تعالى بعد ذلك مباشرة **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم...﴾**.

كما أنه نَبَّه سبحانه بعد ذلك الى أن كثيرا من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل وفى هذا بيان الى أن جعلهم أنفسهم أربابا من دون الله هو لتحقيق هذه الأهداف المادية الدنيوية.

والخلاصة أن كل الأرباب الباطلة من غير الأحياء ليس لهم فاعلية إطلاقا، وانما الفاعلية لسدنة هذه الأرباب ورجال الدين والحكام الذين يروجون لعبادتها ويدافعون عنها بين الناس وهؤلاء هم الأرباب المطاعون فى الواقع، حيث أن طاعة الناس وعبادتهم وما يقدمونه من نذور وقرابين هى لهؤلاء الأرباب الأحياء وحدهم، مع زعمهم انها للأرباب من غير الأحياء، وقد بيَّن الله تعالى لليهود والنصارى أن أنبياءه ورسله عليهم السلام لم يأمروهم باتخاذهم أربابا من دون الله، حيث قد حدث هذا التحريف من الأحبار والرهبان بعد موت أنبيائهم ورسلهم وذلك فى قوله عز وجل **﴿ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم**

والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾[1]

فالأحبار والرهبان ورجال الدين وسدنة العقائد الوثنية لايمكنهم الزعم بأنهم قادرون على الأمور الكونية التى تخص الله تعالى وحده، ومن ثم ينسبون لهذه الأرباب الباطلة من الأشياء كالكواكب والنجوم والشمس والقمر ومن الملائكة ومن الأنبياء الذين ماتوا أو خلوا من الأرض وكذلك من صالحى الموتى، نقول: ينسبون لهم فاعلية كونية من نفع وخير ورزق واحياء وإماتة، أى ينسبون لهم الربوبية، زاعمين فى نفس الوقت انهم شفعاء ووسطاء الى الله تعالى ، وأنهم، أى هؤلاء الأحبار والرهبان، واسطة أخرى بين الأتباع وبين هؤلاء الأرباب غير الأحياء. ومن ثم يضمنون طاعتهم لهم أى عبادتهم لهم. فالمعبود على الحقيقة وفى واقع الأمر هم الأرباب الأحياء هؤلاء، لأن الأرباب من غير الأحياء ليس لهم فاعلية وليس لهم أمر ولا نهى وإنما الأمر والنهى لهؤلاء الأحياء من الرّهبان والحكام فالطاعة لهؤلاء من دون الله تعالى والعبادة هى الطاعة، فالعبادة لهم ولذلك يعتبر الحكام المستبدون أربابا مادامت شعوبهم تطيعهم وحدهم من دون الله تعالى، فطاعتهم عبادة لهم من دون الله عز وجل. وكانت كلمة «رب» تعنى حاكما عند قدماء المصريين لأن الحاكم له ربوبية على شعبه بمعنى أن له سيادة، ولا يصلح الحكم، ولا يتم النظام فى أى مجتمع الا بهذه السيادة، أى بطاعة أولى الأمر، لكن عندما تكون هذه الطاعة فى حدود شرع الله عز وجل وفى غير معصيته حيث يكون الحاكم والمحكوم خاضعين لشرع الله وحكمه، ومن ثم تكون ربوبية الدولة مجرد سيادة توجب طاعة المحكومين أو المؤمنين لأولى الأمر التى تصبح فى الحقيقة طاعة لله وحده وعبادة له مادام أولو الأمر يحكمون بشرع الله عز وجل وحده.

---

(١) آل عمران / ٧٩، ٨٠.

أما بالنسبة لنظام الحكم الفرعونى حيث لم يكن حكم الله تعالى قائما، ولم يكن شرعه مطاعاً عندهم فقد كانت ربوبية الدولة أو فرعون أو الملك على الناس ربوبية شرك، حيث لم يكن الحاكم فى أكثر الأحيان الا ربا للناس من دون الله تعالى.

قال تعالى حاكيا لنا مقالة يوسف عليه السلام لصاحبى السجن ﴿**ياصاحبى السجن: أما أحدكما فيسقى ربه خمرا**﴾[1] وقال لهما أيضا يدعوهم الى ترك هذه الأرباب المتعددة وعبادة الله وحده ﴿**ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار**﴾[2] هؤلاء الأرباب المتفرقون هم من نوع الأشياء والأموات الذين ليس لهم فاعلية، ومن ثم فهم ليسوا إلا أوهاما وأسماءاً بلا مسميات ومن ثم قال تعالى بعد ذلك ذاكراً لنا بقية قول يوسف عليه السلام لصاحبى السجن ﴿**ما تعبدون من دونه الا أسماءاً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألاَّ تعبدوا إلا إياه ذلك الذين القيم، ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾[3] بينما الأرباب من الحكام والكهنة والمشرعين ليسوا أسماءاً بلا مسميات، بل هم أرباب ذوو فاعلية وتتمثل ربوبيتهم فى فرض الطاعة على الناس لهم من دون الله تعالى وفى معصية شرعه.

لذلك عزى الكافرون فى النار ضلالهم وسوء مصيرهم وسبب شركهم وحقيقة كفرهم الى طاعتهم لحكامهم وكبرائهم وسادتهم من رجال الدين والسدنة وطغاة الحكم من ملوك ورؤساء ﴿**وقالوا ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا**﴾[4] وذلك بطاعتهم فى معصية الله وباتخاذهم أربابا من دون الله تعالى اذ عاشوا بما رسموه لهم من مناهج شركية وجاهلية.

هذا كله يثبت ربوبية للدولة على الشعب حين يكون الحكم جاهليا بغير ما أنزل الله تعالى، وفى المقابل يُثبت سيادة للسلطان على المؤمنين أو الرعية فى ظل

---

(١) يوسف/ ٤١.

(٢) يوسف/ ٣٩.

(٣) يوسف/ ٤٠.

(٤) الأحزاب/ ٦٧.

الحكم الاسلامى أيضا، بيد أن ربوبية الدولة الجـاهلية على شعبها ربوبية من دون الله فهى ربوبية شركية، أما سيادة الدولة الاسلامية على المؤمنين فهى سيادة نيابية أو خلافية لله تعالى، لأن الحاكم أو السلطان أو الخليفة فى الاسلام خاضع لحكم الله تعالى هو والمحـكومين سواء بسواء وهو مجرد نائب عن الله فى تـنفيذ حكمه تعالى.

ولكن يبقى له أى لولى الأمر أى للخليفة حق السيادة وليس الربوبية ، وتتمثل هذه السيادة فى ايجاب شرع الله الطاعة له عـلى الرعية فى غير معصيه الله وهذا هو معنى السيادة النيابية، أو الحكومة الاستخلافية، حيث يكون الخليفة فى الحكم الاسلامى خلـيفة عن الله تعالـى فى تنفيذ الحكـم الشرعى المنزل من عنـده تعالى علـى رسلـه أى ان النيـابة محـصورة فـى «السلـطة الـتنفـيذية» دون «الـسلـطة التشريعية». وبذلك تـكون سيادة السلطان وحاكميته مجرد ظل لـربوبية الله تعالى رب العالمين وليست حـاكمية على الأصالة، فكون الخليفة أو السلـطان خليفة الله فى الأرض فى التنفيذ دون التشريع يعنى أنه ظل الله تعالى فى الأرض الذى يأوى اليه المظلوم والملـهوف ومن ثم نقول: ان الربوبية لله تعالـى وحده، وللحكام من البشر المسلمين سيادة على المحكومين هى ظل لربوبية الله عز وجل.

وهذا مـعنـى الخلافـة فى جانـب علاقـة الانسـان بالانسـان فى نـظام الحـكم الاسلامى.

٦١ ـ الأدلة الشرعية على صحة نسبة السيادة للانسان:

فنسبة سيادة بعض الناس على البعـض الآخر جائز لغة وشرعا حسب ما مر بنا من أدلة.

ومن ثـم فلفظ «الـسيادة» هو الـتعبيـر الصحـيح والدقيـق عن علاقة الأنـسان «السلطان» بـالإنسان «الشعب» فى نظـام الخلافة الاسلامى. فكل استـخدام للفظ الرب منسوبا للحاكم فى القرآن الكريم أو مـنسوبا للأحبار والرهبان والمشرعين إنما ورد تعبيرا عـن الانحراف عن الصراط المستقـيم وطغيان هذه الفئات وفـسقهم عن

أمر ربهم وادعائهم الربوبية على أتباعهم وشعوبهم وعلى المستضعفين فى الأرض، فقد وردت فى أقوال نبى الله يوسف عليه السلام تعبيرا عن واقع جاهلى فى علاقة المحكوم بالحاكم والحاكم بالمحكوم، وهذا يفيد تحريم نسبة الربوبية للانسان على أخيه الانسان.

فى حين أن التعبير الصحيح عن علاقة السلطان بالرعية فى الاسلام هو لفظ السيادة بدليل قول أهل النار. **﴿وقالوا ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾**(١)

فهم يخاطبون ربهم الواحد الأحد الحق بعد أن انكشف عنهم الغطاء وعرفوا خطأهم وشركهم فقالوا عن أربابهم الأحياء فى الدنيا الذين عبدوهم من دون الله «سادتنا وكبراءنا». كذلك وصف الله تعالى يحيى بن زكريا عليهما السلام بالسيادة فى قوله تعالى **﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين﴾**(٢)

ولاشك أن المقصود من قوله تعالى سيداً، أى «سيدا» فى ذاته لسيطرته على نفسه وهواه، «وسيدًا» على قومه ومعاصريه. وكذلك ماجاء فى الحديث السابق [ولايقل العبد لسيده ربى ولكن ليقل سيدى..) فليس فى وصف الانسان بالسيادة على الانسان أو غير الانسان أى تعارض مع مبادىء التوحيد.

وكذلك ورد قول أمير المؤمنين سيدنا عمربن الخطاب رضى الله عنه(أبوبكر سيدنا أعتق بلالا سيدنا) ومن ثم فلفظ السيادة يشمل علاقة الانسان بالأشياء، وبالأحياء الأرضية التى هو رب عليها بالنيابة، كما يشمل أيضا علاقة الانسان بالانسان، تلك العلاقة التى تخلو من الربوبية مما يجعل هذا اللفظ «السيادة» من حيث المفهوم والما صدق - حسب لغة المناطقة - أكثر انطباقا وأدق تعبيرا عن هذا الجانب الثانى من جوانب الخلافة من حيث كونها «انسانية - أرضية» و«انسانية - انسانية» بالاضافة الى الجانب الأول الذى يعبر عن كونها «انسانية - إلهية» والذى أطلقنا عليه العبودية.

---

(١) الأحزاب/ ٦٧.

(٢) آل عمران/ ٣٩.

لكل ذلك ننتهى مطمئنين الى تـعريف خلافة الانسان فى الأرض بأنها: عبودية وسيادة.

٦٢ ـ شرح ابـن تيـمية لحـديث «السـلطـان ظل اللـه فى الأرض» ونـقاط الاتفاق والاختلاف بـين تعريفنا للخـلافة وبين فهمه رحمـه الله لهذا الحديث:

قال شيخ الاسـلام ابن تيمية رحمـه الله تعالى مجيـبا سائله عن معـنى حديث «السلطان ظل الله فى الأرض وهل هو صحيح أم لا؟ ما نصه:

[وأما الحديث «السلـطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه كل ضـعيف وملهوف» وهذا صحيح، فإن الظل مفتقر إلى آو، وهو رفيق له مطابق له نوعا من المطابقة، والآوىّ الى الظل المـكتنف بالمظـل صاحب الظل، فالسـلطان عبداللـه، مخلوق، مفتقر اليه، لا يستغنى عنه طرفة عين، وفيه من القدرة والسلطان والحفظ والنصرة وغير ذلك من معانى السؤدد والصمدية الـتى بها قوام الخلق مايشبه ان يكون ظل الله فى الأرض، وهـو أقوى الأسباب التى يصـلح بها أمور خلقـه وعباده، فإذا صلح ذو السـلطان، صلحت أمور الـناس، وإذا فسد فسدت بحـسب فساده، ولا تفسد من كل وجه، بل لابد من مصالـح، اذ هو ظل الله، لكن الظل تارة يكون كاملا مانعـا من جميع الأذى، وتارة لايمنع الا بعـض الأذى، وأما اذا عدم الظل فسد الأمر، كعدم سر الربوبية التى بها قيام الأمة الانسانية والله تعالى أعلم](١)

قال ابن تيمـية عن الحديث [وهذا صحيح]، ثـم فسره بقوله (فان الظـل مفتقر الى آو) وهذا معـنى غريب اذ أن المتبادر الـى الذهن أن الآو هو الذى يفـتقر الى الظل ليـأوى اليه إتقاء لحرارة الـشمس وليس الظـل هو الذى يفتقـر الى أو، بل الظـل يفتـقر الى المـظل صاحـب الظل، يفـتقر الـيه فى وجـوده وفى استـمرار وجوده، فـالسلطـان اذن مفتـقر الى اللـه عز وجل كغـيره، كذلـك فان الضعـيف والملهوف والمظلـوم يفتقرون الى السلطان العادل لـينصفهم ويحفظ عليـهم حياتهم وأعراضهم وأموالهم بمنع الاعتداء والظلم عنـهم، وبهذا المعنى يكون السلطان ظل الله تعالى فى الأرض لان كل هذا مما أمر الله سبحانه وتعالى به.

---

(١) الفتاوى / المجلد ٣٥ صـ ٤٥، ٤٦.

يؤكد هذا المعنى قول شيخ الاسلام بعد ذلك (والآوى الى الظل المكتنف بالمظل صاحب الظل، فالسلطان عبدالله مخلوق مفتقر اليه لايستغنى عنه طرفة عين)

أى ان السلطان ـ كعبد مخلوق ـ لا حول له ولا قوة ذاتية له شأنه شأن الظل الذى ليس له وجود مستقل عن صاحبه.

ومن ثم لايكون الآوى الى الظل المكتنف به فى كنف أو حمى الظل، الذى هو السلطان، وإنما هو فى الحقيقة فى كنف وحمى الله عز وجل لانه هو المظل.

فالاحتماء واللجوء ليسا الى السلطان على الحقيقة الذى هو ظل الله، وانما هو الى الله عز وجل الذى هو «المظل صاحب الظل».

وبالرغم من إثبات فقر السلطان إلى الله عز وجل، كفقر الظل الى المظل، فإن ابن تيمية يعود فيثبت للسلطان من أسماء الصفات والخصائص ماهو ثابت لله عز وجل. قال ابن تيمية (وفيه من القدرة والسلطان والحفظ والنصرة وغير ذلك من معانى السؤدد والصمدية التى بها قوام الخلق، وما يشبه أن يكون ظل الله فى الأرض، وهو أقوى الأسباب التى يصلح بها أمور خلقه وعباده).

وهكذا قرر ابن تيمية رحمه الله أن السلطان يتصف بهذه الصفات، بمعنى أن الله عز وجل خصه من القدرة والسلطان والحفظ والنصرة مايجعله صالحا لأن يحقق الله به خير العباد ومصالحهم.

ثم أردف ابن تيمية قائلا(وغير ذلك من معانى السؤدد والصمدية) وهذا التعبير يفيد وجود خصائص أخرى من هذا القبيل حتى الصمدية.

وليس هذا مخالفا لعقيدة التوحيد كما قد يتوهم البعض، لأن مذهب أهل السنة والجماعة الذى وضحه شيخ الاسلام، فى أكثر من موضع فى كتبه، لايمنع أن يوصف العباد بألفاظ وصف الله تعالى بها نفسه، مع الاعتقاد بأن الشركة قائمة فى إسم الصفة ولفظها، دون حقيقتها وجنسها وكيفها.

وبناء على هذا وصف ابن تيمية رحمه الله تعالى السلطان بهذه الصفات التى

صار بها السلطان ظلا لله تعالى فى الأرض، مع كونه عبدا مخلوقا فقيرا لله عز وجل . وهذا هو تفسيره لمعنى ظل الله تعالى فى الأرض.

ولعل هذا أيضا هو معنى قوله عن العلاقة بين الله عز وجل الذى هو «المظل صاحب الظل» حسب تعبيره، والسلطان الذى هو الظل (وهو رفيق له مطابق له نوعا من المطابقة) أى أن فى الظل صفات وخصائص هى فى المظل، وهى التى جعلت بينهما نوعا من المطابقة، ولكن بلا مماثلة. فهى مطابقة فى المعنى فقط.

لذلك قرر ابن تيمية أن السلطان هو من أقوى الأسباب التى يصلح بها الله تعالى أمور خلقه.

وهنا يبرز أمام الذهن سؤال هام هو: هل هذا الوصف للسلطان بعامة بصرف النظر عن دينه، أو هو خاص بالسلطان المؤمن الذى يحكم بما أنزل الله تعالى؟

يتبادر للذهن من النظرة الأولى اطلاق حديث السلطان بدون تقييد أو تخصيص، وابن تيمية ممن يلتزمون بمنطوق النص دون تزيد فيه أو تعطيل بالتأويل، ومن ثم يرى ابن تيمية أن الحديث يتناول كل سلطان حتى غير المؤمنين من الحكومات والملوك مع اختلاف أنظمتهم فى الحكم قال: **(فإذا صلح ذو السلطان صلحت أمور الناس، واذا فسد فسدت أمورهم بحسب فساده، ولا تفسد من كل وجه، بل لابد من مصالح إذ هو ظل الله)**.

إذاً فما الفرق بين أن يكون السلطان حاكما بما أنزل الله تعالى، وأن يكون حاكما بهواه وقوانينه الوضعية؟!

يقول ابن تيمية مستدركا بما يفيدنا بالاجابة على هذا السؤال **(لكن الظل تارة يكون كاملا مانعا من جميع الأذى، وتارة لايمنع الا بعض الأذى)** وحيث أن الحكومات الكافرة تمنع بعض الأذى عن شعوبها وتحقق بعض المصالح المتمثلة فى حفظ الأمن، على الأقل، فإن فى قول ابن تيمية آنف الذكر، دلالة واضحة على أنه لايمنع وصف هذه الحكومات بأنها ظل الله فى الأرض، وان كان يقرر: أنها

ظل غير مطابق تماما، أو هو بعض الظـل، لأنه لايمنع منعا كاملا كل الأذى، كما هو حال السلـطان المؤمن الذى يحكم بمـا أنزل الله تعالى فيـمنع كل الأذى، وكل الظلـم عن العباد ويـحقق أكثـر مصالحهم، وهـذا هو الفرق عنـده بين السـلطان الاسلامى والسلطان الجاهلى، حسب هذا النص والله تعالى أعلم.

ثم يـذكر شيخ الاسـلام بعد ذلك الحـالة الثالـثة التـى يمكن أن تـكون عليـها المجتمعـات، ولو كفرض عقلـى، وهى حالة انعدام الـسلطان فى المجتـمع، وهى حالة مـعروفة فى الـواقع البشرى ومـن أحداث التاريـخ، إذ أن سقوط السـلطان وهدم الـنظام فى مـجتمـع ما،وعدم قيـام سلطـان بديل قـادر على ضبـط الأمن والمحافظـة على وحدة المجتـمع وكيانه، مـعناه الحرب الأهـلية والفوضـى وهتك الأعراض ونهب الأموال وإزهـاق الأنفس واراقة الدماء. وهذا هو الـذى عبر عنه ابن تيمية رحمه الله تعالى بقوله (وأما اذا عدم الظل فسد الأمر).

ثم قال مشبها هذه الحالة التى يكون الناس عليها فى مجتمع ما بلا سلطان قائم فيهـم، حتى ولو كـان ظالما جائرا كـافرا (كعدم سـر الربوبية الـتى بها قـيام الأمة الانسانية، والله تعالى أعلم) ولا أدرى على وجه الدقة والتحديد ماذا يقصد شيخ الاسلام بقوله (سر الربوبية) إذ لم أعثر فيمـا قرأت له على هذا التعبير فى مواضع أخرى من كتبه حـتى يمكن فهمه من السـياق، ولكن مايمكن أن نفهـمه من قوله عن سر الربوبـية (التى بها قيام الأمة الانسـانية) وبخاصة بعد كلامه عـن السلطان الذى اذا انعـدم فسد الأمر، أنـه ربما يقصد مـن قوله (سر الـربوبية) أمـرا يخص الإنسان كنوع مـن الخلق، اذ وصف الربوبية هـنا بأنها سر (قوام الأمة الانـسانية) وقوام الوجود الانسانى فى الأرض، يختـلف اذاً ـ حسب قوله هذا ـ عن سر قوام الوجود الحيوانـى مثلا، مما يجعل مفهوم الـربوبية هنا قاصرا علـى الإنسان ، فلو كان يقصد بـالربوبية ربوبية اللـه عز وجل، ماقال ذلك لأن ربوبيـة الله عز وجل عامة للعالمين وليست خاصة بالانسـان وحده، كما أن ربوبية الله عز وجل لاينعدم سرها، ولا تنعدم فى حياة البشر، أو فى الوجود المخلوق كله.

ومن ثم فليس ثمة معنى لقوله (كعدم سر الربوبية التى بها قوام الانسانية) إلا أن تكون هذه الربوبية خاصة بالأمة الانسانية، ويكون استخدامه لهذه الكلمة كمشتق من مشتقات كلمة رب بمعناها اللغوى، الذى منه قول يوسف عليه السلام لصاحِبَىْ السجن (إذكرنى عند ربك) فكأنه يقصد بالربوبية هنا السلطان أو خاصية فى السلطان، اذ يكون معنى سرها هو الخصائص والصفات التى أعطاها الله عز وجل للسلطان ـ ليس باعتباره فردًا ـ بل باعتباره دولة وهيئة ونظام تنصلح به حياة الناس وتستمر ، ولو لم تخل حياتهم من بعض الظلم والأذى والجور والعدوان، حتى ولو كان هذا الظلم من السلطان نفسه على الناس.

وكأن كلمة رب فى اللغة هى الكلمة التى يمكن ان تجمع كل الصفات التى وصف بها ابن تيمية السلطان أو الدولة وهى (السلطان، والقدرة، والحفظ، والنصرة، والسؤدد، والصمدية) وهذا كله مما يتمثل فى الحكومة، سواء أكانت ملكا أم حزبا أم برلمانا أم جيشا أم قبيلة، أم غير ذلك من أنظمة وأشكال الحكم. مما يطلق عليه بالمصطلح السياسى الحديث: الدولة والمصطلح السياسى القديم فى الفقه السياسى الاسلامى: السلطان.

وليس المقصود من وصف السلطان بالربوبية، ما يقصده ابن عربى من جعل العارف خالقا محدثا حافظا بالمعنى الكونى، بل يفهم من مقصد ابن تيمية أن الحاكم رب بإعتباره منظما مقسما راعيا قائما على مصالح العباد، ودفع الأذى عنهم، فتكون الربوبية محصورة فى تنفيذ الأمر الشرعى، وفى مجال الأمور الاختيارية التكليفية، وليست فى مجال الأمور الالهية الكونية التى تخصه وحده عز وجل، ولم يكل للانسان منها شيء، ولا لأى شيء من خلقه.

وهذا هو ـ على الأرجح ـ الذى يقصده ابن تيمية من عبارة «سر الربوبية» التى بها قيام الأمة الانسانية، اذ بدونها يكون الناس كالحيوانات والوحوش فى الغابات فلا تستمر انسانيتهم، ولا تستمر خلافتهم فى الأرض، لا كخلافة لله عز وجل ولا كخلافه لغيره.

مما سبق تبين لنا بوضوح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصف السلطان بأنه ظل الله تعالى فى الأرض، وفسر ابن تيمية رحمه الله تعالى هذا الوصف النبوى للسلطان، بأنه نوع ما من أنواع الربوبية أعطاها الله عز وجل للسلطان، لكى تقوم حياة الناس فى المجتمع. وتستمر إنسانيتهم وبشريتهم وخلافتهم فى الأرض ومعناها محصور فى التنفيذ لامر الله دون التشريع الذى هو لله تعالى وحده.

وهذا المعنى هو الذى أثبته الطبرى رحمه الله تعالى ومن تبعه من المفسرين معبرين عنه بخلافة الانسان لله تعالى فى الأرض، والذى رفضه ابن تيمية كتفسير لآية الاستخلاف.

ان معنى النيابة لله تعالى فى الأرض فى مجال إقامة الدين والعدل بين الناس، متضمن فى وصف السلطان بأنه ظل الله تعالى فى الأرض.

وقد ذكر هذا المعنى ابن تيمية رحمه الله تعالى وأقره، إذ أثبت نوعا من المطابقة بين الظل وصاحب الظل، ونسب للدولة سر الربوبية. ولنا أن نتساءل* : أليس هذا هو معنى النيابة عن الله عز وجل فى إقامة العدل ومنع الظلم والعدوان فى الأرض؟! ولا يكون هذا إلا بنصرة دينه واقامة شرعة وتنفيذ أمره .

يؤكد هذا أن ماقصد إليه ابن تيمية من عبارة «سر الربوبية»، إنما هو أمر يخص الانسان وحده عند ابن تيمية، وحيث أن الخلافة خاصية للانسان لايشاركه فيها غيره من الكائنات، بل هى سر تفضيل الله عز وجل الإنسان على غيره من المخلوقات، بما فيهم الملائكة والجن، لذا يمكننا أن نقرر باطمئنان أن ابن تيمية أثبت للإنسان خلافته لله تعالى فى الأرض، وأجاز القول به وصرح به كمعنى، فى حين أصر على رفضه كلفظ، مدفوعاً فى ذلك بمقاومة مذهب ابن عربى والاتحادية فى الخلافة، خوفا من وقوع المسلمين فيه. ولكن لنا ملاحظات على شرح شيخ الاسلام وفهمه للحديث الشريف هى:

(١) كاد ابن تيمية أن يصل الى إثبات الربوبية والعبودية للانسان الحاكم أى السلطان وذلك بقوله عن السلطان (فالسلطان عبد الله مخلوق مفتقر اليه لايستغنى عنه طرفة عين] وهذا ماقرره ابن تيمية عن عبودية السلطان.

أما ماذكره فى تقرير ربوبية السلطان فجاء فى قوله رحمه الله (وفيه من القدرة والسلطان والحفظ والنصرة، وغير ذلك من معانى السؤدد والصمدية التى بها قوام الخلق مايشبه أن يكون ظل الله فى الأرض) وقال أيضا عن انعدام السلطان فى المجتمع (واما اذا عدم الظل فسد الأمر كعدم سر الربوبية التى بها قوام الأمة الانسانية والله تعالى أعلم).

وفى هذا النص إثبات صريح وواضح للربوبية عند السلطان. بعد اثبات العبودية له.

ومن ثم يكون تفسير ابن تيمية لعبارة «السلطان ظل الله فى الأرض» ان السلطان فى الأرض هو: عبودية وربوبية.

وانه بمقتضى الربوبية التى وهبها الله تعالى للانسان بعامة والسلطان بخاصة صار ظلاً لله تعالى فى الأرض.

وهذا ماقررناه بالنسبة لمعنى خلافة الانسان عن الله تعالى فى الأرض بقولنا انها عبودية وسيادة:

ومن ثم نقول: ان ابن تيمية كان يفهم هذا المعنى ويقره ولم يجد فيه شبهه من شرك، بيد أنه لم يتوصل اليه صراحة لرفضه فكرة خلافة الانسان لله فى الأرض بتأثير ابن عربى عليه فى هذه المسألة تأثيرا سلبيا.

كما أنه من الواضح أنه قد فات شيخ الاسلام رحمه الله تعالى أن يربط ربطا فكريا وذهنيا بين قوله تعالى ﴿**انى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ وبين قول رسوله صلى الله عليه وسلم (السلطان ظل الله تعالى فى الأرض) مع أنه من الجلى أن الحديث الشريف يفسر الآية الكريمة علاوة على عدم اطلاعه على أحاديث خلافة الله فى الأرض الصحيحة التى سبق ذكرها[١].

---

(١) راجع الفصل الخاص بالخلافة فى السنة النبوية الشريفة.

(٢) أقر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بأن الله عز وجل قد وهب الانسان بعامة والسلطان بخاصة من الصفات ماتجعله أهلا لأن يكون ظله فى الأرض، وحيث أنه ورد من أحاديث الرسول الصحيحة مايفيد تسمية السلطان بلفظ خليفة، فإن هذا يكون وصفا صريحا للخليفة الذى هو السلطان بصفات وهبها الله للانسان بعامة والخليفة بخاصة حددها شيخ الاسلام (بالقدرة والسلطان والحفظ والنصرة وغير ذلك من معانى السؤدد والصمدية.) وهى صفات لله عز وجل تخص ربوبيته المطلقة للكون والمخلوقات جميعا. وهو مايجعل الانسان بهذه الصفات خليفة الله تعالى فى الأرض. كما اعتبر ابن تيمية هذه الصفات سر الربوبية عند الانسان التى بها صار ظلا لله تعالى فى الأرض. وهو لايكون ظلاً له سبحانه الا اذا نفذ شرعه وأقام حكمه بين الناس.

(٣) لانوافق شيخ الاسلام على اعتبار لفظ السلطان فى الحديث مطلقا يعم السلطان المسلم والسلطان الكافر فى المجتمع الجاهلى غير المسلم. اذ ورد فى الحديث الشريف مايقيِّد لفظ السلطان فيجعله خاصا بالسلطان المسلم فقط.

وهذا التقييد فى قوله صلى الله عليه وسلم [يأوى إليه كل ضعيف وملهوف] فلا يأوى كل ضعيف وملهوف الى السلطان الجاهلى، اذ لايكون هذا الا للسلطان المسلم. أما السلطان الجاهلى فبالضرورة هو ظالم وجائر على أهل الحق والايمان والداعين الى الله تعالى وإلى الخير، ويعترف ابن تيمية أن السلطان الجاهلى لايحقق كل العدل وكل الخير بل بعضه [١] وذلك فى قوله رحمه الله تعالى.

---

(١) هذا واضح بالنظر الى قرارات المجتمعات الديمقراطية التى ندعى إقامة العدل فى شعوبها اذ يكون الظلم منها للمسلمين بداخلها وللمسلمين فى بلادهم كما حدث من أمريكا واوربا فى مجلس الأمن بالنسبة لشعب البوسنة والهرسك حيث تركوا الصرب يأخذون أرضهم ويذبحونهم بينما فعلوا الافاعيل وجيشوا الجيوش ضد العراق زاعمين أنه لحماية الكويت، وحركوا الجيوش لعزل الحاكم العسكرى فى هاييتى ولم يفعلوا شيئا بالنسبة للعسكريين من مغتصبى السلطة الشرعية من جبهة الانقاذ فى الجزائر، وهكذا...
كما أنهم يمنعون الحجاب فى فرنسا لكن دعوة الشيطان بعرى المرأة هى مباحة ومصونة باسم الحرية، فالسلطان الكافر ليس ظلا لله فى الأرض وانما هو ظل للطاغوت.

(لكن الظل تارة يكون كاملا مانعا من جميع الأذى وتارة لايمنع الا بعض الأذى).

فالسلطان الاسلامى الذى هو خلافة عن الله تعالى فى الأرض مانع من كل الأذى محقق لكل العدل والخير للمؤمنين وغير المؤمنين والسلطان الجاهلى يمنع بعض الأذى عن غير المسلمين فقط وحيث قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يأوى اليه كل ضعيف وملهوف) وليس بعض الضُّعَفاءُ والملهوفين، فإن معنى كلمة السلطان فى الحديث تكون مقيدة بالاسلام أى السلطان المسلم ويخرج منها السلطان الجاهلى.

فالأمر بالنسبة للسلطان هو نفس الأمر بالنسبة للخليفة يوليه الله تعالى ويبتليه، فان حكم بما أنزل الله تعالى صار خليفة الله عز وجل فيمن وفيما ولاه الله تعالى عليه، وان حكم بهواه أى بأى حكم آخر صار خليفة للطاغوت.

كذلك السلطان اذا كان مسلما منفذاً لشرع الله عز وجل ناصرا لدينه صار ظلا لله عز وجل فى الأرض. واذا حكم بأحكام الطاغوت وأقام أنظمته الوضعية الجاهلية صار ظلا للطاغوت فى الأرض.

ولا شك فى أنه من الخطأ الجلى وصف فرعون وهامان والنمروذ وغيرهم بأنهم كانوا ظلالا لله فى الأرض، لأنهم منعوا بعض الأذى عن شعوبهم، فى حين نجد أن شرح ابن تيمية للحديث الذى سبق ذكره يتضمن هذا المعنى. أى وصف الطواغيت بأن كلا منهم كان ظلاً لله تعالى فى الأرض، وهذا مالا أوافق عليه شيخ الاسلام رحمه الله تعالى.

(٤) وأخيرا لا أوافق بن تيمية رحمه الله تعالى فى وصف السلطان بالربوبية اذ قال ان فيه «سر الربوبية» اذ أن هذا حرام بما أوردناه من أدلة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الشريفة.

وبنفس الأدلة ثبت لنا جواز وصف الانسان بالسيادة على أخيه الانسان كما هو

الحال بالنسبة للسلطان أو الخليفة، هذا وان كنا نستشعر من اسلوب شيخ الاسلام بهذا الصدد أنه لم يقصد بما نسبه من ربوبية للسلطان نسبة فاعلية له مستقلة خالقة فى مجال الأمور الكونية بل أثبت أول ما أثبت للسلطان فقره وعبوديته لله عز وجل مما ينفى أن يكون معنى الربوبية التى نسبها للسلطان شيئا زائدا عن كونها السيادة يؤكد هذا قوله (وغير ذلك من معانى السؤدد).

ولكن يبقى أن نذكر أنه لايجوز شرعا نسبة الربوبية للانسان لفظا ومعنى حسب الأدلة التى مرت بنا، ومن ثم لا نوافقه على وصف السلطان بالربوبية ونسبتها إليه لا باللفظ ولا بالمعنى.

٦٣ ـ الدين والعلم مقوما الخلافة:

توصلنا الى أن الخلافة عبودية وسيادة فالخليفة عبد وسيد فى آن واحد، عبدٌ لمن استخلفه وسيد على من هو مستخلف عليه. هذا هو الانسان ومن ثم يجب أن ننبه الى أن العبودية والسيادة وجهان لحقيقة واحدة هى الخلافة، وهما قائمان كشىء واحد أو طبيعة واحدة فى الذات الانسانية، بل هما مكوّن جوهرى وأصيل فى الذات الانسانية لاينفكان عنها ولن تنفك عنهما، ولا يمكن الفصل بينهما أى بين العبودية والسيادة من جهة، وبين الخلافة (العبودية والسيادة) وبين الذات الانسانية من جهة أخرى.

فالفصل بين العبودية والسيادة لايتم الا فى الذهن فقط للدراسة والتوضيح. أما فى عالم الواقع فإن الانسان لايمكنه ان يقيم عبوديته لله تعالى منفصلة عن إقامة سيادته فى الأرض، ولا تتم هذه الأخيرة أيضا الا بتحقيق العبودية، فإذا لم يحقق الانسان عبوديته لله تعالى، فإنه يضيع سيادته فى الأرض، لأنه إذا لم يحقق عبوديته لله وحده، فانه يسقط بالضرورة فى عبوديته لغير الله عز وجل، ومن ثم يفقد سيادته على هذا الغير.

وإذا لم يحقق الانسان سيادته على كل شىء فى الأرض، فإنه بالتالى لايكون عبدا لله تعالى وحده، اذ يكون عبدا لهذه الأشياء التى لم يحقق سيادته عليها.

والمثل الواضح على هذا هو الوثنى الذى يتوسل الى الله تعالى بأشياء أو أحياء، حيث نجد أن هذا التوسل بها الى الله هو المانع الأول والحقيقى لسيادة الانسان عليها، مادام يعتقد انها أفضل منه وأقرب منه الى الله عز وجل، مما يمنعه أن يسخرها لنفسه، ويحقق سيادته عليها بل جعل نفسه عبدا لها من دون الله تعالى.

فهذا التوسل شرك بالله عز وجل، ومن ثم فالشرك بالله تعالى فَقْدٌ وتضييعٌ للسيادة فى نفس الوقت الذى هو فيه فقد للعبودية.

ويعتبر التوحيد تحقيقا للسيادة التى هى فى نفس الوقت إفراد لله عز وجل بالعبودية، لأن معنى إفراد الله تعالى بالعبادة، هو استعلاء الموحد عى كل ماسوى الانسان فى الأرض، وهذا هو معنى السيادة على الأشياء فى الأرض.

فالخلافة إفراد الله تعالى بالعبادة من وجه، والسيادة على مافى الأرض من أشياء من وجه آخر.

لكن هذا التمييز بينهما - وإن كان ذهنيا فقط للدراسة - إلا أنه هام إذ يختلف منهج تحقيق العبودية لله وحده عن منهج تحقيق السيادة فى الأرض.

الأول هو الدين، أو العلوم الدينية

والثانى هو علم الأسماء أو العلوم التجريبية.

ذلك أننا إذا تساءلنا: كيف يحقق الانسان الخلافة؟

فإننا بحسب ماذكرناه سابقا من أن الجعل يفيد الجبر، وقد جعل الله تعالى الانسان خليفة، فهو خليفة بمقتضى الخلقة والجبلة، لايملك أن يكون غير ذلك لقوله تعالى ﴿واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة﴾. والجعل يفيد الجبر.

ومن ثم يصبح هذا السؤال لا محل له ولا لزوم له؟

وذلك لأن مجرد الخلافة ليست تكليفا كلَّف الله تعالى به الانسان*، إذ أنه - بمقتضى الجعل الإلهى - خليفة، شاء ذلك أم أبى، ولكن بالرغم من لفظ «جاعل» الذى يفيد الجبر فى الآية، فان فى حقيقة الاستخلاف جانبا إختياريا تكليفيا إبتلائيا حيث ترتبط حقائق: الابتلاء والتكليف والاختيار والجزاء بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، فلا توجد احداها الا مستلزمة بقية الحقائق.

وقد ثبت لنا أن الخلافة حقيقة إبتلائية اذ جعل الله تعالى الانسان خليفة فى الأرض أى سيداً على مافيها للابتلاء ﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتاكم﴾[1] أى فيما جعل لكم السيادة عليه وفيما سخره لكم ومن ثم فلابد أن يكون الانسان مخيراً فيما يبتلى فيه، والله عز وجل يبتليه بالخلافة أو هو سبحانه استخلفه ليبتليه، فكيف، وقد جعله خليفة جبرا لا اختيارا؟

ان الاجابة على هذا السؤال تكمن فى لفظ «خليفة» اذ جعله الله تعالى مطلقا ولم يقيده بمستخلَف (بفتح اللام)

فلو قال الله سبحانه «خليفة» لى لكانت الخلافة كلها جبرا، ولما صحت أن تكون موضوعا للابتلاء، ولما صار فيها أى مجال للاختيار.

ولو قال الله تعالى «خليفة لغيرى أو للطاغوت» لكانت الخلافة جبرا ولما صحت أن تكون موضوعا للابتلاء، ولما صار فيها مجال للاختيار. ولكن الله تعالى قال ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ دون تحديد من الذى سيكون الانسان خليفة له. وهذا هو الجانب الاختيارى التكليفى الذى يحاسب عليه الانسان فى حقيقة الإستخلاف الذى هو حقيقة الوجود الانسانى قاطبة.

فالجعل الذى يفيد الجبر والتَّصْيِير فى آية الخلافة منصب على كون الانسان

---

(١) الأنعام/ ١٦٥.

* اما الذى كلفه به الله عز وجل فهو أمره أن يكون خليفة لله تعالى ونهيه عن أن يكون خليفة للشيطان.

خليفة فقط، أما لمن سيكون الانسان خليفة؟ لله عز وجل أو للطاغوت؟، فهذا موكول لفاعلية الانسان المختارة ويتم بعد ابتلائه: فإن إختار الحياة وفق شرع الله تعالى ومنهجه، فيكون خليفة لله عز وجل.، وإن اختار الحياة وفق هواه ووفق الشرائع الوضعية فيكون خليفة للطاغوت.

وهذا معناه أن الانسان خليفة جبرا، وأما لمن سيكون الانسان خليفة؟ فهذا موكول لارادة الانسان الحرة ومتروك لاختياره ومرهون بالمنهج الذى يحيا به.

فقد خلق الله عز وجل الانسان مختارا ومستطيعا ان يجعل خلافته لله تعالى، أو يجعلها لغيره سبحانه أى للطاغوت، ومن ثم كانت الخلافة فى الدنيا إبتلائية وفى الآخرة جزائية.

وبناء على ماتقدم يجب علينا أن نعدّل السؤال المطروح آنفا ليكون كيف يحقق الانسان خلافته لله عز وجل فى الأرض؟

وكيف ينحدر فيصبح خليفة لغيره سبحانه؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول:

اذا كانت الخلافة عبودية وسيادة، فان هذا السؤال يصبح عندنا سؤالين، الأول هو : كيف يحقق الانسان عبوديته لله تعالى؟! وكيف يحققها لغير الله؟، والثانى هو: كيف يحقق الانسان سيادته فى الأرض.

أما بالنسبة للعبودية، فان الله عز وجل قد خلق الانسان عبدا، فهو لايمكن إلاّ أن يكون عبدا، فكونه عبدا أمر جبرى جبلى لايستطيع تغييره، بيد أن الله عز وجل جعل عبودية الانسان محل ابتلاء له أو هى أساس ابتلائه فى هذه الحياة الدنيا، فترك له حريه اختيار المعبود، فيستطيع الانسان أن يصرف عبوديته لله وحده فيصبح عبدًا لله، ويستطيع أن يجعل عبوديته لله ولغيره فيصبح مشركا، ويستطيع ان يجعلها باختياره عبدًا لغير الله تعالى فيكون كافرا، فاما أن يكون - نتيجة لممارسة هذا الاختيار - عبدًا الله وحده أو عبدا لسواه.

ومعنى هذا أنه ان لم يجعل الانسان عبـوديته لله وحده ويقصر العبادة على الله عز وجل ويفرده بها سقط بالضرورة فى عبـوديته لغير الله، فليس معنى أن يرفض الانسان عبـادة الله انه يتحرر من العـبودية مطلقـا، هذا مستحيل، لأنـه مخلوق، وكل المخوقين بمـقتضى الخلقة عبـيد الله، وينفرد عنهم الانـسان بأن الله عز وجل جعل عبوديته محـل إبتلاء، فلم يخلقه عبداً لَهُ وانما خلقه عـبداً مخيراً بين صرف عبوديته لله تعالـى او صرفها لغيره، فاذا لم يجعلها الانـسان لله وقع بالضرورة فى عبوديـته لغيره، سواء عـبد الهوى أو الشـيطان أو الحاكم أو المال أو الـوثن أو أية حالة يكون عليها الطاغوت.

ومن ثم فلا سبيل أمام الانسان لتحريـر ذاته من كل هذه المعبودات والطواغيت والأوثان المادية سوى تعبيدها لله وحده.

أما كيفية تحقيق العبودية لله وحده، فانه بكلمة واحدة: بالدين أى بالإسلام.

فالتكليف الالهى للانسان هو المنهج القويم الصحيح الوحيد لتحقيق العبودية لله عز وجل، وعندما نقول الدين فاننا نعنى به الاسلام قال تعالى **﴿ان الدين عند الله الاسلام ١٩-آل عمران﴾**.

وحيث أن الانـسان لايعيـش ذاتا منفـردة فقط بل هـو يعيش مـجتمعـا أيضا، ولاغنى لحالة عن الأخرى فان العبودية التى خلق عليها الانسان عبوديتان :

الأولى: هى العبودية الفردية.

والثانية: هى العبودية الاجـتماعية، ومن ثم يتعين علـى الانسان أن يعبد الله فردًا وأن يعبده مجتمعاً.

وحيث أن الحـياة الاجتمـاعية تتمـثل فى نسـيج العلاقات الـقائمة بـين الأفراد والجماعـات مضافا الـيها المعـاملات والأنظمة الـقائمة عـلى هذه العـلاقات، فان العبوديـة الاجتماعية تكـمن فى تطبيق شرع الـله عزوجل فى مجال هـذه الأنظمة والمعاملات.

فاذا أراد مجتمع ما تحقيق عبوديته لله، فيجب على الأفراد أن يحققوا عبوديتهم

الفردية لله أولا، ثم عليهم أن يخضعوا فى علاقـاتهم ومعاملاتهم وأنظمة ومناهج حياتهم العامة لارادة الله التشريعية.

أما اذا توجه النـاس فى مجتمع ما بعبـوديتهم الفردية لغيـر الله، وخضعوا فى معاملاتهم وعلاقاتهم وأنظمتهم الاجتماعية لشرائع وضعية ومناهج بشرية: برلمانية أو اشتراكـية، أو ماركسـية أو غيرهـا، فانهم بذلـك يكونوا عـابدين لغـير الله عز وجل، لأنهم يخضعون بهذه المناهج الوضعية لواضعيها ومن ثم يصبح الانسان فى مثل هذا المجتمع خليفة لغير الله حيث الأساس فى الخلافة هو العبودية .

ومنهج تحقيق العبودية الفردية فى الاسلام هو الشعائر التعبدية.

ومنهج تحقيق العبـودية الاجتماعية هو الشريعة الاسلامية التـى تقوم بها النظم الاجتـماعـية الاسلامـية : نـظام الحكـم والنـظام الأسـرى والتربـوى والخلـقى والاقتصادى وغير ذلك.

أما تحقيق السيادة فـيقوم على ركيزتين: الأولى وهبها الله تعـالى للانسان فهى ركيزة ذاتية وتتمثل فى الـفاعلية الانسانية، التى تعمل بترشيد مـن العلوم التجريبية التى تمكن الانســان من توسيع دائرة عمله وتأكـيد وترسيخ وتقوية فاعلـيته، فعلم الأسماء يدخـل مقوما أساسيـا فى هذه الركيزة، لأن العـلم التجريبـى ليس سوى معرفة خصائص الأشياء والقوانين التى تحكم العلاقات والتأثيرات بينها، فاذا عرف الانسان طبـيعة الشئ أو الحى وخصـائصه وتأثيره وتأثره بـغيره استطاع تسـخيره له والانتفاع به وتحقيق سيادته عليه. فالعلم التجريبى هو المؤهل الذاتى المحقق لسيادة الإنسان فى الأرض.

أما الركيزة الثانيـة للسيادة فهى كامنة فى طبيعـة الأشياء والأحياء الأرضية وهى تتمثل فى تسخير الله عز وجل لها، قال تعالى ﴿ ولقد مَكَّنَّاكم فى الأرض وجعلنا لكم فيما معايش قليلا ما تشكرون - ١٠ الأعراف﴾.

وقال تعالى ﴿ ولقد كـرمنا بنِى آدم وحملناهـم فى البر والـبحر ورزقنـاهم من الطيبات وفضلناهم على كثير مِمن خلقنا تفضيلاً - ٧٠ الاسراء﴾.

وتعدد آيات سورة النحل النعم الالهية عـلى الانسان من تسخير الأنعام والجمال

والخيل والبغال والحمير والمطر والنبات والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحار يأكل من أحيائها لحما طريا ويستخرج منها الحلى ويركب فوقها الفلك، وغير ذلك مما تتمثل فيه حقيقة تسخير الأشياء والأحياء للانسان بمشيئة الله تعالى حسب ما سبق تقريره آنفا.

٦٤- الخلافة هى الغاية المطلقة والأبدية للوجود الانسانى فى الاسلام.

لاتنفصل الحياة الدنيا فى الاسلام عن الآخرة، بل يربط بينهما ـ حسب عقيدة الاسلام ـ رباط وثيق.

ففى الاسلام، لا ينتفى فقط التعارض أو التنازع ـ الذى حدث فى النصرانية ـ بين أمور الدنيا وأمور الآخرة ، بل ترتبط كل منهما بالأخرى بتوازن وإحكام.

لقد اختل التوازن فى اليهودية بين أمور الدنيا وأمور الآخرة وحدث ـ من ثم ـ بينهما إنفصام مما أدى الى طغيان أمور الدنيا على أمور الآخرة وحيازتها بالفساد فى الأرض مضحين بالآخرة.

ولقد اختل التوازن ايضا بين أمور الدنيا وأمور الآخرة وحدث نفس الانفصام فى الديانة المسيحية فى العصور الوسطى الأولى لها، ولكن بطغيان أمور الآخرة على أمور الدنيا وكانت الرهبنة والأديرة مظهرا واضحا لهذا الطغيان، وكانت عصور التخلف والجمود الحضارى فى أوروبا نتيجة لهذا الاختلال، أو بتعبير أدق كان هذا الخلل أحد العوامل الرئيسية لهذا الرقاد الحضارى الأوروبى المسيحى الذى دام قرونا طويلة. ثم لما تخلص الأوروبيون من سلطان الكنيسة كان مما ثاروا عليه هذا الانفصام الباطل بين أمور الدنيا وأمور الآخرة. ولكنهم لم يعالجوا هذا الانحراف الا بانحراف آخر، حيث ظل الاختلال وعدم التوازن موجودا الا انهم فى العصر الحديث أهملوا أمور الأخرة تماما، أو كادوا. فأصبحوا كاليهود فى هذه الناحية. ولم يصبح فى أنظمتهم وعقائدهم لأمور الآخرة نصيب يذكر وبذلك تهوّد النصارى فى منهج حياتهم، وإن ظل كثير منهم متوهمين أنهم محتفظون بنصرانيتهم.

أما فى الاسلام[1]، فالأمر ـ كما سبق القول ـ مختلف تماما. فبينما كان الأوروبى ينطلق فى سلوكه من فكرة خاطئة، جاءت نتيجة مباشرة لتحريف التوراة والانجيل، مؤداها أنه يصعب ـ ان لم يكن من المستحيل ـ الجمع بين الدنيا والآخرة، نجد عقيدة الاسلام قد نصت على أن الذى يضيع دنياه ويفسدها، وكذلك الذى يحيا بلا هدف لائق به كانسان، أو الذى يوجه فاعليته الى أهداف حيوانية فقط، كل هؤلاء خاسرون لدنياهم وآخرتهم معا. قال الله عز وجل عن الكافرين ﴿**أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ـ ٢٢ آل عمران**﴾ وحبوط العمل هو قصوره عن تحقيق الغاية التى عمل من أجلها، ومن ثم فهؤلاء الكافرون تركوا العمل للآخرة، وعملوا للدنيا فقط فخسروا الاثنين معا، وذلك لأنهم وجهوا فاعليتهم نحو أهداف حيوانية ظنا منهم أنها سبيل السعادة فى الدنيا، فلم يسعدوا، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وخسروا الاثنين جميعا.

فلابد اذن لمن يريد الفوز بالآخرة، أن يحيا لغاية انسانية لائقة به كإنسان، ومن ثم يجب عليه أن يصلح دنياه ويوجه فاعليته وأعماله كلها لتحقيق هذه الغاية. مثل الحياة الدنيا والآخرة كالحرث والزرع، اذا أصلح الانسان أرضه واعتنى بزرعه، صلح المحصول. واذا أهمل وترك الفساد يدب فيه لم يخرج له الا نكدا.

فالدنيا اذن وسيلة للآخرة ولا انفصال بين الوسيلة والغاية. قال الله عز وجل ﴿**للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ـ ٣٠ النحل**﴾ وقال سبحانه وتعالى أيضا ﴿**فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ـ ١٤٨ آل عمران**﴾.

---

(١) نقصد بالاسلام هنا عقيدته القرآنية الخالصة، وليس أهله أو تاريخه أو فكر المسلمين، وذلك حيث حدث نفس هذا الانحراف العقيدى الذى وقعت فيه المسيحية فى القرون الأولى ولكن عند فئات من المسلمين منهم متأخرو الصوفية. وكان سبب شيوع الفكر الصوفى بما فيه من انحرافات وعلى رأسها انحراف الفصل بين أمور الدنيا وبين أمور الآخرة من الأسباب التاريخية لتوقف المد الحضارى الاسلامى، ومازال هذا المفهوم المنحرف فى كثير من بلدان العالم الاسلامى حتى اليوم عند كثير من فئات الشعوب الاسلامية.

وأوثق ما يربط بين الدنيا والآخرة فى عقيدة الاسلام ـ علاوة على ما سبق ـ هو وحدة الغاية للوجود الانسانى فى الحياة الدنيا والآخرة معا.

فاذا كنا قد علمنا أن الخلافة لله هى غاية الانسان فى الدنيا، فما هى غاية الانسان فى الآخرة؟ ان غاية الانسان فى الآخرة هى خلافة الله وولايته أيضا فى الأرض. فالخلافة لله غاية الوجود الانسانى كله.

بيد أن خلافة الانسان فى أرض الحياه الدنيا ابتلائية، ومن ثم فهى خلافة مؤقتة ولم يحدد الله بها من سيكون الانسان خليفة له، لأن هذا متروك لاختيار الانسان وعمله. ويتحدد فى نهاية ابتلائه، بينما خلافة الانسان لله فى أرض الخلود الجنة خلافة أو ولاية جزائية. فهى نتيجة الخلافة الأولى، ومن ثم فهى دائمة، ولا يكون الانسان فيها الا خليفة لله وليا له فى ملك أبدى دائم خالد.

أى أنه اذا فاز الانسان فى الابتلاء الجارى عليه فى الدنيا، وحقق خلافته لله فى الأرض، فانه بذلك يكون أهلا وجديرا بعطاء الله وفضله ومَنَّه بأن يكون خليفة لله وليا له فى الجنة. والجنة هى الأرض الابدية.

فالخلافة اذن هى الغاية القصوى والأبدية للوجود الانسانى. أو هكذا يجب أن تكون حسب عقيدة الاسلام.

وما تكليف الله عز وجل لنا بأن نكون خلفاء له سبحانه فى الدنيا، الا ابتلاءاً واختبارا للناس حتى يميز الله بهذا الابتلاء ـ وهو أعلم بهم ـ من هو مُستحقٌ للخلافة الأبدية ممن لايستحقها.

وهذا المفهوم نتيجة لازمة ومباشرة لقول الله عز وجل **﴿انى جاعل فى الأرض خليفة﴾** وهذا بمقتضى التنزيل وليس بمقتضى التأويل، وان كان يبدو غريبا على الذهن لأول وهلة، حيث يتبادر الى الذهن: ان الأرض هى أرض الحياة الدنيا فقط، وهذا ليس بصحيح حيث الأرض فى الآية الكريمة تتعدى أرض الحياة الدنيا الى الأرض بالمفهوم الكلى العام.

فالأرض هى كل مايُقِلُّ المخلوق سواء فى الدنيا أو الآخرة. والانسان ـ بهذا المفهوم الدقيق والواسع للأرض ـ يكون فى الجنة خليفة ووليا لله فى أرضه، لكنها أرض أبدية بخلاف أرض الحياة الدنيا المؤقتة.

ومن ثم يمكن فهم قوله تعالى **﴿واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة﴾** أى فى أرض الحياة الدنيا وأرض الجنة أيضا.

يدل على صحة هذا المفهوم ويؤكده دليلان:

الأول: هو أن الله عز وجل بعد أن أخبر الملائكة بأنه سيجعل فى الأرض خليفة لم ينزل هذا الخليفة الى أرض الحياة الدنيا، وانما أسكنه الجنة **﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ـ ٣٥ البقرة﴾**.

فاسكان الله لآدم وزوجه الجنة هو جعله خليفة له فى أرضه، ولكن الخلافة هنا ليست جزائية، ومن ثم فهى ليست دائمة خالدة، بل هى ابتلائية ولذلك كانت مؤقتة فهو اسكان مشروط والشرط هو (ولا تقربا هذه الشجرة) وتحريم هذه الشجرة على آدم وزوجه هى رمز للابتلاء. ولذلك قال الله تعالى لآدم «اسكن» أنت وزوجك ولم يقل: «أدخل» أنت وزوجك الجنة خالدين فيها أبدا كما سيقال للمؤمنين يوم الحساب، ومغزى الاسكان هنا هو انه سلب للملكية الحقيقية وهذا هو حال الانسان فى أرض الحياة الدنيا ساكنا وليس مالكا، وذلك بمقتضى الأجل المحدود.

الدليل الثانى: هو أن الجنة التى أسكنها الله آدم أرض، والجنة التى سيخلد فيها آدم وبنوه الفائزون فى الابتلاء فى الآخرة أرض أيضا. قال الله عز وجل يخبرنا بمقالة أهل الجنة بعد دخولها **﴿وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء / ٧٤ الزمر﴾** وفى هذا بيان بانتهاء حالهم الوجودى الى خلافتهم لله فى الأرض وإعطاء الله لهم الأرض توريثا أى تمليكا

فهم فيها خلفاء وأولياء لله عز وجل، وليست هذه أرض الحياة الدنيا بل هى أرض الآخرة التى ملكها لهم الله يتبوأون من الجنة حيث يشاءون.

وهكذا ترتبط الدنيا والآخرة بهدف واحد أبدى وغاية واحدة مطلقة وليس أوثق من ارتباط الغايات وبخاصة اذا كانت الغاية جامعة والرابطة مطلقة ونهائية وأبدية ونعنى بها الخلافة لله عز وجل..

والفرد المسلم مكلف بالوصول الى كماله الذاتى المتمثل فى الخلافة فى حياته الدنيا، وليس أمامه من فرصة أخرى لتحقيق هذا الكمال وللوصول الى هذا الهدف، فلا رجوع مرة أخرى الى هذه الحياة الدنيا ولا تناسخ ولا فرصة لاعادة الامتحان. وكذلك لا ذوبان ولا فناء للفرد في الطبيعة أو الكون، بل يظل الوجود الانسانى الى الأبد متمثلا أول مايتمثل فى الأفراد أو النفوس الفردية كما بدأ الله خلق الانسان فردا. ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ـ ٩٥ مريم﴾.

فالزمان يسير فى خط مستقيم نحو هدف محدد هو الوصول بالفائزين فى الابتلاء من الناس الى مقاعد خلافتهم وملكهم فى الجنة قال تعالى ﴿يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه ـ ٦ الانشقاق﴾ وقال تعالى موضحا المراحل الوجودية التي يعبرها الانسان خلال الزمان ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ـ ٢٨ البقرة﴾ ونتيجة الرجوع هو وصول الفائزين الى الغاية التى آمنوا بها وجعلوها هدفهم المطلق فى الدنيا والآخرة وعملوا على تحقيقها وهى خلافة الله فى الأرض.

فمن أدرك هذا الهدف فى دنياه وحققه أدركه فى الآخرة ومن أخطأه أو خسره أو ضل عنه فى دنياه أخطأه وخسره وضل عنه فى الآخرة. ومن ثم زحزح عنه ـ أى عن الجنة ـ الى النار.

ومن ثم فالنمو الذاتى الروحى عمل فردى فى الأصل. أو بعبارة أخرى نقول: ان ارتقاء المسلم واقترابه من كماله الذاتى المتمثل فى تحقيق عبوديته لله وسيادته

فى الأرض، يقوم أساسا على الجهد والعمل الفردى وان كان للنواحى الاجتماعية آثار وتأثير فى ذلك.

ولأن الخلافة عبودية لله وسيادة فى الأرض ولأنهما ـ كما سبق القول ـ وجهان لحقيقة واحدة لاينفصلان فى واقع الحياة ولا يتحقق أحدهما الا بالآخر ويؤدى ضياع أحدهما الى ضياع الآخر بالضرورة. كلف الله عز وجل الفرد بالعمل فى مجال تحقيق السيادة لكسب عيشه وإدراك رزقه ورفع مستوى حياته المادى بنفس القوة التى كلفه بها فى مجال الشعائر التعبدية وغيرها من تكاليف الدين المحققة للعبودية.

بل ان العمل فى مجال السيادة أو فيما يسميه البعض بالأمور الدنيوية[1]، هو عبادة فى الاسلام، وانما التفريق بين العبودية والسيادة هو للتوضيح فقط. ولوجود تمايز بينهما من حيث نوع التعامل فى كل منهما ومن حيث الطرف الآخر فى التعامل.

ومن ثم ليس بينهما تمايز أو اختلاف فى الهدف أو تعارض فى الوسائل.

أما تعامل الانسان فى مجال العبودية فهو تعامله مع ربه ومع الناس. وهو تعامل يكون فيه الانسان خاضعا لله ذليلا ومتساويا مع الناس أما التعامل الخاص بالسيادة فهو تعامل الانسان مع الأشياء والأحياء فى الأرض من غير الانسان وطبيعته السيطرة والهيمنة والسيادة.

فأعمال السيادة هى جهد الانسان وسعيه لتأكيد خلافته وترسيخ سيادته على الأرض، وأعمال العبودية هى توجيه هذه الخلافة لكى يكون الانسان فيها عبدا لله وحده بصرف هذه العبودية عمن سواه.

وكما أن الخلافة لله هى مستوى الكمال المقدر المستطاع للذات الانسانيه

---

(١) وهو تقسيم غير اسلامى لأن الاسلام لايفرق بين أعمال دنيوية وأعمال أخروية حيث كل أعمال الانسان فى الاسلام هى للاثنين معا فهى وان كانت موجهة للدنيا أو للآخرة الا انها لتحقيق الخلافة فى الاثنين معا.

الفردية، حيث يستطيع الانسان أن يبلغه فى حياته الفردية ويقترب منه كل فرد بقدر عبادته لله وسعيه فى الدنيا، فان الخلافة أيضا هى مستوى الكمال المقدر والمستطاع للمجتمع الانسانى الذى عليه أن يسعى للوصول اليه فى عمر الجيل الواحد الى تحقيقه.

وكما لا تتم عبودية الانسان الاجتماعية لله عز وجل الا بعد تحقيق العبوديات الفردية، وكذلك لايمكن اقامة خلافة الله فى الأرض على المستوى الاجتماعى الا بعد وجود الأفراد الذين يؤمنون بالله واليوم الأخر، ويعمل كل منهم لكى يكون خليفة لله عز وجل فى نفسه، فنتيجة هذا كله أنه لايقوم مجتمع الخلافة لله تعالى الا بالافراد المؤمنين.

وعندما يتكون على الأرض مجتمع من خلفاء الله عز وجل فان كلا منهم سيكون بالنسبة لهذا المجتمع أكثر من مجرد لبنة تقوم فى البناء، لأن التفاعل القائم بين هؤلاء الأفراد سينتج حضارة انسانية حقة كاملة، فكلهم يرتبطون بهدف واحد وكلهم يعملون لهذا الهدف، ولكن من منطلقاتهم الفردية المختلفة ووسائلهم المختلفة وسبلهم المختلفة كذلك.

ان الفوارق الفردية هنا بين الأفراد تزيد من خصوبة الحياة الانسانية وانتاجها فمواهب الناس وقدراتهم وميولهم واستطاعاتهم متفاوتة ومتمايزة ومختلفة ومن الممكن أن تذهب سدى وتضيع هباء لولا أن الجميع يقصدون وجهة واحدة ويعملون لهدف واحد، فهم وان كانوا يسلكون بفاعليتهم سبلا كثيرة الا انها فى النهاية - بسبب وحدة الهدف بينهم - تصب فى ميدان واحد يجمعهم فى النهاية.

لقد شاء الله عز وجل أن تكون الحياة الانسانية متنوعة النشاطات متعددة المطالب، ومن ثم جعل الله عز وجل الناس مختلفى المشارب والميول والملكات والقدرات ومن ثم يستطيع كل مسلم فى المجتمع الاسلامى ان يعمل فى المجال الذى يميل اليه: زراعيا كان أم صناعيا أم تجاريا، أو فى أى مهنة أخرى من المهن ولكن هذه النشاطات جميعا لاتضيع سدى، لا فى خلال المجتمع الواحد ولا فى

خلال المجتمعات المتعددة، ولا فى خلال الجيل الواحد ولا فى خلال الأجيال المتتالية، ومن ثم تتراكم فى النهاية فاعليات الأفراد والأجيال والمجتمعات وينمو رصيد الانسانية حضاريا ويرقى بذلك الانسان رويدا رويدا فى ميدان السيادة فى الأرض.

وبهذا يظهر لنا أثر التوحيد الاسلامى فى نشأة الحضارة ونموها ورقيها وأهم من ذلك كله المحافظة عليها باعتبارها تراكمات، جيلا بعد جيل، وحمايتها من الضياع والتلف والانهيار والفناء. فبالتوحيد الاسلامى تتوجه فاعليات الأفراد والمجتمعات والأجيال فى حياة الأمة الاسلامية نحو بؤرة واحدة فتزهو الحياة وتزدهر وتنير، كل هذا بسبب وحدة الهدف الذى يعمل له الجميع وهو الخلافة.

ولا يتم ذلك الا لأمة التوحيد التى غاية أبنائها خلال الزمان والمكان فى ظل التوحيد الاسلامى واحدة.

ولا شك أن ابتعاد فئات من المسلمين عن عقيدة التوحيد الخالص، خلال تاريخ الاسلام، كان له أثره السىء فى صرف هذه الفئات عن الخلافة باعتبارها الغاية، الوحيدة للأمة مما كان له أثره فى تشتيت الجهود وبعثرتها ومن ثم فى اضعاف واخماد جذوة الحضارة الاسلامية.

كما أن غياب الخلافة لله تعالى عن وعىَ عناصر الصحوة الاسلامية المعاصرة باعتبارها الغاية القصوى للإنسان حسب عقيدة التوحيد الخالص هو أهم أسباب وعوامل تفرق هذه العناصر الى جماعات يصارع بعضها بعضا، وعبثا كانت نتيجة محاولات المخلصين فى كل جماعة لتوحيدهم، ذلك لانهم لن يتوحدوا الاَّ إذا إتفقوا اولا على الغاية الاستراتيجية العليا للعمل الاسلامى، ومن ثم لايضر الدعوة بعد ذلك اختلافهم على الوسائل والأساليب.

وهذا الاتفاق على اقامة خلافة الله تعالى فى الأرض باعتباره الغاية الإنسانية العليا يقتضى اولا معرفة حقيقة الإستخلاف باعتبارها حقيقة رئيسية وهامة من حقائق التوحيد الاسلامى مادامت هى الغاية العليا والمطلقة والابدية للانسان.



الفصل السادس عشر

الإنسان بين خلافة الرحمن وخلافة الشيطان

٦٥- سقوط الخلافة الاسلامية وعلو خلفاء الشيطان فى هذا العصر .

٦٦- الأمة تعيش فى العصر الراهن الفتنة الرابعة وهى آثمة حتى تقيم الخلافة وتستعيد وحدتها



٦٥- سقوط الخلافة الاسلامية وعلو خلفاء الشيطان فى الأرض فى هذا العصر.

علمنا من الفصل قبل السابق ان النتيجة الحتمية لابتلاء الناس هى الاختلاف والتحزُّب إلى حزبين : حزب الله تعالى وحزب الشيطان، كما علمنا أن الناس جميعا يولدون مسلمين بمتقضى الفطرة، ومن ثم فهم يولدون خلفاء بالخلافة الفطرية اللامتعينة أو اللامتوجِّهة، ثم بعد الابتلاء، والتحزب يظل المؤمنون فى أحسن تقويم، هذا الذى خلقهم الله تعالى فيه، ومن ثم يصبحوا خلفاء الله تعالى فى الأرض، بينما من يختار الشرك وينحرف عن فطرته الموحدة يتحول من الخلافة الفطرية إلى خلافة لغير الله تعالى .

وحيث أنه ماعبد الإنسان فى الحقيقة من دون الله تعالى إلاَّ الشيطان بدليل قوله تعالى قاصاً علينا ما سيقوله سبحانه لأهل جهنم **﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون، ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً، أفلم تكونوا تعقلون، هذه جهنم التى كنتم توعدون، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾**[1]. فكأن المشركون من بنى آدم لم يعبدوا من دون الله تعالى لا شمساً ولا قمراً ولاشجراً ولاحجرًا ولا عجلاً ولانهراً وإنماعبدوا من دونه الشيطان فقط، مع أن تاريخ البشر وأحوالهم الحضارية تفصح عن معبودات من دون الله عز وجل ابتداء من الأجرام السماوية حتى الأشياء والأحياء الأرضية، ولكن ما عبده بنو آدم من دون الله تعالى من أشياء وأحياء السماء والأرض إنما هو فى ظاهر الحال، أما فى واقع الحال ،وحقيقة الأمر فلم يعبدوا سوى الشيطان، والشيطان هنا إسم جنس يندرج تحته كل من إمتاز وعلا وتكبر فى الأرض من الإنس والجن ومن ثم قال تعالى لهم (وامتازوا اليوم أيها المجرمون. .) أى كما إستكبرتم فى الأرض وتميزتم عن عباد الله تعالى وتألَّهتم، إمتازوا اليوم بالعذاب الشديد.

---

(١) يس/ ٥٩-٦٤.

وهؤلاء الذين أشركوا بالله من الشعوب لم يعبدوا فى الحقيقة إلا الشيطان لأنهم لم يطيعوا إلا الشيطان، وحيث أن شياطين الإنس والجن هم جنود لإبليس لعنة الله تعالى عليهم جميعاً، فإن المشرك يكون فى الحقيقة عابداً لإبليس فى حقيقة الأمر، لأنه مصدر دعوى عبادة غير الله تعالى فى الأرض، وهو الآمر الأول بها من ناحية أنَّ المشركين عابدون له بطاعتهم له وإنابتهم إليه من ناحية أخرى، ومن ثم فالمشركون والكفار هم خلفاء الشيطان بارتدادهم أسفل سافلين فى مقابل خلفاء الرحمن فى أحسن تقويم.

ويستتبع هذا الخلاف والتحزب حتمية عداء الفريقين وبالتالى صراع الحزبين. هذا العداء وذاك الصراع اللذان بدآ منذ أن أهبط الله تعالى آدم وزوجه إلى الأرض.

واحتدم الصراع بعد أن اتخذ إبليس جندياً له من ولد آدم هو قابيل الذى قتل أخاه هابيل ثم إستدرج أبناء أدم وذريتهم من بعد حتى عبدوا الأصنام وداً وسواع ويغوث ويعوقَ ونسراً فى أيام سيدنا نوح، ولم يستجيبوا لنوح وعصوه طاعة للشيطان، فكان الطوفان الذى أهلك المشركين ونجى الله تعالى المؤمنين مع نوح، ثم كثرت البشرية من بعد نوح عليه السلام وأهلك الله تعالى أقواماً بعد نوح عليه السلام أيضاً، لأنهم أشركوا بالله وعبدوا غيره طاعة للشيطان قال تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فَدَمَّرنَاها تدميراً، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾[1].

فبين سبحانه وتعالى فى الآية الأولى أن الممتازين أو المترفين وهم الحكام وأصحاب الأموال المكدسة المجموعة بالأساليب المحرَّمة كالاستغلال والإحتكار والربا والإتجار فى كل ما هو ضار وفاسد هم جميعاً الذين يفسدون فى الأرض ويروجون لخلافة غير الله تعالى إبقاء على إمتيازاتهم معصية لله تعالى وطاعة للشيطان، الذين صاروا وظلوا يصارعون عبر التاريخ البشرى خلفاء الرحمن، وقد

---

(١) الاسراء/ ١٦-١٧.

أهلك الله تعالى منهم أقواماً بعد أقوام قال تعالى ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود، وعاد وفرعون وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة وقوم تبع، كل كذب الرسل فحق وعيد﴾[1]. كل هؤلاء كذبوا الرسل خلفاء الرحمن فى الأرض فحق عليهم وعيد الله تعالى بالإستئصال والدمار فى الدنيا ثم الخلود فى عذاب النار فى الآخرة.

فتاريخ البشر سلسلة متتابعة من الإبتلاءات والفتن، يحاول فيها إبليس وذريته وجنوده إجلاء الناس وتنحيتهم عن أحسن تقويم، أى زحزحتهم عن خلافة الله تعالى فى الأرض إلى خلافة الطاغوت، ويعتبر جهاد الرسول الخاتم ﷺ وصحابته رضى الله عنهم أنصع صفحات التاريخ البشرى وأكثرها وأعمها إشراقاً ونوراً بإنتصار حزب الله خلفاء الرحمن على حزب الشيطان خلفاء الطاغوت، وذلك فى أكثر بقاع الأرض بعد أن فتح الله تعالى الأرض شرقاًو غرباً وشمالاً وجنوباً أمام مجاهدى الصحابة والتابعين وتابعى التابعين،حتى خضع المشركون من الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً لحكم الله تعالى، إذ كان المشركون فى الصين وأوربا الصليبية يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون لخليفة الله تعالى الأموى ثم العباسى.

وظلت الخلافة الإسلامية الأخيرة أى العثمانية قائمة رغم تكاثر عوامل الضعف عليها حتى سقطت خلال الربع الأول من القرن العشرين الميلادى، فكان سقوطها إعلانًا بغلبة الشر فى الأرض وقيام خلافة الشيطان مكانها، ومن ثم بدأت دعوات الطاغوت فى الظهور، وبدأ دعاة الضلالة يخرجون من جحورهم معلنين عن أنفسهم بعد أن صارت الراية المرفوعة هى راية العلمانية.

لقد أصبحت الأمة الإسلامية بعد سقوط الخلافة العثمانية مزقا تتازعها أنياب الكافرين ومخالبهم من النصارى واليهود والبوذيين والهندوس والوثنيين أيضاً عبدة الطواطم ولم تسلم لحوم المسلمين من الشيوعيين الذين يزعمون التقدمية ولا من الأوربيين العلمانيين دعاة الحريه والإخاء والمساواة والديمقراطية.

---

(١) ق/ ١٢-١٤.

لقد إستمر النكال بتكالب هؤلاء الأكلة على القصعة خلاس سنوات ضعف الخلافة العثمانية وإشتد النكال والنهش والتمزيق بعد سقوطها.

وإنه ليزداد شراسة وعنفاً يوما بعد يوم لا فرق فى هذا بين ما يقع على المسلمين من مذابح وحشية فى أفريقيا المتخلّفة أو فى آسيا النامية أو فى أوروبا المتحضرة، لأن الكفر كله ملة واحدة ولأن معبودهم في الحقيقة هو الشيطان، وإن تَعَدَّدَت عقائدهم وتباينت أديانهم واختلفت آلهتهم المعلنة وتمايزت معبوداتهم الظاهرة. فهم يختلفون فى كل شئ بسبب تكالبهم على المصالح الدنيوية لكنهم يتفقون فى أمرٍ واحدٍ هو العداء للمسلمين ووقوفهم صفاً واحداً فى الصراع ضد خلفاء الرحمن.

هذه الأحداث القاسية المعاصرة التى تعيشها شعوب الأمة الإسلامية بلا إستثناء قد حذرنا الله تعالى فى كتابه الكريم من حدوثها إجمالاً، ونبأنا رسوله المصطفى الخاتم ﷺ من أنبائها تفصيلاً فى السنة الشريفة.

ومعنى هذا أن الأمة الإسلامية منذ سقوط الخلافة وهى فى فتنة شديدة والمسلمون يُفتنون بأشد أنواع الفتن.

وذلك أن من أبرز معانى الفتنة هو أنها الحالة التى يكون المسلم فيها غير قادر على عبادة الله وحده بسلام وبدون أذى، فإذا أراد أن يهاجر إلى أرض لا يشرك فيها مع الله أحداً من الطواغيت الأحياء أو من الرموز الوثنية، فإنه لا يجد هذه الأرض على سعتها ورحابتها. ودليل هذا المعنى للفتنة ما جاء فى كنز العمال عن طارق بن شهاب قال ﴿جَلَدَ خالد بن الوليد رجلاً حداًّ، فلما كان من الغد جلد رجلاً آخر حداًّ، فقال رجل: هذه والله الفتنة، جُلِدَ أمس رجلاً فى حد، وجُلِدَ اليوم رجلاً فى حد، فقال خالد: ليست هذه بفتنة، إنما الَفتنة أن تكون فى أرض يُعمَل فيها بالمعاصى، فتريد أن تخرج منها إلى أرض لا يُعمل فيها بالمعاصى فلا تجدها﴾[1].

---

(١) كنز العمال حديث دقم ٣/٣٥٨ جـ١١ ص٢٣٥ وعزاه لمسند الشافعى.

ولقد أتى على الأمة الزمان الذى فر فيه رجال بدينهم من بلد الإسلام إلى بلاد الشرك التى تعلن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وذلك بعد أن تحولت ولايات الخلافة الإسلامية السابقة إلى دويلات ودول تحكمها الماسونية اليهودية والمخابرات البريطانية والفرنسية ثم الأمريكية والروسية ثم الأمريكية والموساد الإسرائيلى، فكان هؤلاء المهاجرون يعيشون فى هذه البلاد آمنين على أرواحهم وأموالهم فى بلد المشركين، وهو الأمن الذى افتقده إخوانهم المتمسكين بأحكام دينهم فى بلادهم التى لم يهاجروا منها، قد حدث ذلك إبتداء من منتصف القرن العشرين، فى ظل حكومات ما بعد الإستقلال من الإستعمار الإنجليزى والفرنسى والإيطالى، هذه الحكومات التى ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أنها إستعمار خفى مقنع بحكام من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألستنا، لكن قلوبهم قلوب الأعداء وقلوب الذئاب،ومن ثم كانوا ولا زالوا أقسى على المسلمين المتلزمين من أسلافهم المستعمرين، لكن عهداً جديداً بدأ فى العالم كله إسمه النظام العالمى الجديد، وهو قديم فى كل شىء إلا فى تعميم مخططات الإستئصال ونشر الفتنة ليس فى بلاد العالم الإسلامى فقط، وإنما فى أوروبا وآسيا وأمريكا على مستوى الشعوب (البوسنة والهرسك وكشمير والهند وأفغانستان والجزائر والصومال والشيشان ومن قبل ذلك ومن بعد فلسطين). وعلى مستوى الأفراد فى كل بلاد العالم الإسلامى بلا إستثناء اللهم إلا من عدد قليل من الدول وضعوها على قائمة الإرهاب لأن حكومات هذه الدول لا تذبح المسلمين الملتزمين ولا تنكل بهم مثل سائر الحكومات العميلة.

إن المسلمين يُحرقون الآن فى ألمانيا وتمنع فرنسا صاحبة دعوى الحرية والإخاء والمساواة المحجبات من الدراسة وتأوى بريطانيا من تطاولوا على الذات الإلهية وسبوا الأنبياء جميعاً باسم حرية العقيدة، وتحمى أوروبا وأمريكا الزناة وأصحاب الشذوذ الجنسى الذين ينشرون وباء الإيدز فى حين تضيق الخناق وتحكم القبضة الحديدية هى وسائر حكومات أوربا وأمريكا على الدعاة إلى الخير والحق والهدى بدعوى أنهم دعاة تطرف وإرهاب.

ففى الـوقت الذى يقـع فيه الإرهاب والقـتل والتشـريد على شـعوب الإسلام وأفراده ولا يُتهم من يفعل ذلك بأى تهمة، يُتَّهم فيه المسلمون بأنهم إرهابيون، مع أنهم لم يرتكبوا مذبحة جماعية واحدة، ولم يحدث من الدعاة منهم أو العلماء أى حادثة قـتل واحدة، وما يـحدث من جرائـم إنما هو من فـعل الموساد والمخـابرات الأمريكية والحكومات العميلة.

إن الشـر قد إستفـحل وأعلـن عن نفســه مع بدايـة العقـد الأخير من الـقرن العشرين، متمثلاً فـى مخططات عالمية لإستئصال المسلمين وبمـخططات عالمية أيضاً لتكريم وإعلاء ونشر كل ما هو مدمر للذات الإنسانية وينأى بها عن الخير والفضيلة والسلام.

فالـشر يزداد كل يـوم فى الأرض، وتنـتشر عبـادة الطاغـوت ، وتعلو خـلافة الشيطان، وتـكسب كل يوم أرضاً جديدة مـن تحت أقدام المسلمين، حـتى ضاقت عليهم الأرض بما رحـبت. وتلك هى الفتنة العـظمى التى لم تر البشريـة نظيرًا لها من قبل، فالعلو فى الأرض اليوم لخلفاء الشيطان، وهو علو كبير.

لقد كانـت البشرية فى شر محـض قبل الإسلام، ثم صارت بالإسـلام فى خير عظيم فى بلاد المسلـمين، وفى خير مكافىء أو متضائل أمام الـشر، وغير قامع له فى بلاد المشركيـن، ثم تحولت البشرية إلى الشر الآن، وهـذا ما ترددت أنباؤه فى أحاديث رسول الله ﷺ معلنة أن من سنن الله تعـالى فى أحداث التاريخ أن يَعْقُب النبوة خلافة علـى منهاجها، ثم ملك ورحمة، ثم تنـحدر أحوال الأمة الإسلامية سياسياً وخلقياً خلال مراحل متدرجة نحو الشر حتى يعم.

جاء فى كنـز العمال ما أخرجـه إبن مَنْده رحمه الله عـن عبدالرحمن بـن سهل قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ما كانت نبوه قط إلا تبعتها خلافة، ولا كانت خلافة قط إلا تبعها ملك، ولاكانت صدقة قط، إلا كانت مكساً﴾[1].

---

(١) كنز العمال حديث رقم ٣١٤٤٧/ جـ١١ ص ٢٥٩.

كما جاء فيه أيضاً فى نفس المعنى ﴿عن عمر قال: أن الله بدأ هذا الأمر حين بدأ نبوة ورحمة، ثم يعود إلى خلافة ورحمة، ثم يعود إلى سلطان ورحمة، ثم يعود ملكاً ورحمة، ثم يعود جبرية يكادمون تكادم الحمير، أيها الناس عليكم بالغزو والجهاد ما كان حلواً خضراً، قبل أن يكون مراً عسيراً، ويكون تماماً قبل أن يكون حطاماً، فإذا إنتاطت المغازى وأُكلت الغنائم، وإستحل الحرام، فعليكم بالرباط فإنه خير جهادكم)[١].

ومن ثم يكون غلبة الشر بعد غلبة الخير قد حدثت متدرجة خلال تاريخ الإسلام حتى هذا العصر.

يؤكد هذه النتيجة ما رواه العسكرى فى الأمثال عن زيد بن سلام عن حذيفة (قال: قلت يا رسول الله هل بعد هذا الخير من شر؟ قال: شر وفتنة، قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير، قال: هدنة على دخن وجماعة على أقذاء فيها دعاة إلى النار، يا حذيفة: لأن تموت وأنت عاض على جذلٍ خير لك من أن تستجيب لأحد منهم)[٢].

كذلك ورد عن حذيفة رضى الله عنه قوله ﴿**كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت: يا رسول الله، إنا كنا أهل جاهلية وشر، فقد جاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم قال فقلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلتُ: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتى ويهتدون بغير هَدْيِى، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم: دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قال قلت: صفهم لى يا رسول الله. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**﴾[٣].

---

(١) عن نعيم بن حماد فى الفتن والحاكم.

(٢) كنز العمال رقم ٣٠٥/٣ جـ ٢٢٣ ص١١.

(٣) كنز العمال حديث رقم ٣١٢٩٢ جـ١١ ص ٢١٨ وعزاه للعسكرى فى الأمثال.

ولا شك أن حذيفة رضى الله عنه. يستحق بهذه الأسئلة أن يكون رائداً من رواد ما يسمونه فى هذا العصر فلسفة التاريخ أو من مؤسسى علم المستقبل، لأن أسئلته لرسول الله ﷺ كانت إستشرافاً للمستقبل من خلال التغيرات الرئيسية لأحوال البشر ولنتائج الصراع التاريخى بين حزب الله تعالى وحزب الشيطان أهل الشر، لأن ظهور الخير لا يكون إلا بغلبة أهل الإيمان، وظهور الشر لايكون إلا بغلبة أهل الباطل أى حزب الشيطان.

إن الأحاديث الشريفة التى مرَّت تثبت تدرج الأمة من بعد النبوة إلى خلافة نبوة، ثم سلطان ثم ملك، ثم الخير مع الدخن، ثم الشر المحض الذى يظهر دعاة الضلالة.

ومن ثم فمرحلة دعاة الضلالة هى مرحلة الجبرية أو الشر الغالب الذى يأتى بعد الملك العضوض، فالملك العضوض إذن هو مرحلة الضعف السابقة على سقوط الخلافة العثمانية، إذ كانت الأمة الإسلامية دولاً يحكمها ملوك على غير شريعة الله عز وجل، هذه المرحلة لم تلبث أن حلت محلها مرحلة الجبرية وهى مرحلة الأنظمة العميلة للماسونية والصليبية ، تلك التى قامت بالإنقلابات العسكرية بأساليب ومؤامرات سرية ليس للشعوب الإسلامية فيها أدنى إختيار أو إرادة أو بيعة حقيقية.

ولا زالت شعوب الأمة الإسلامية ترزح تحت نير هذه الاستبدادية المستترة خلف أقنعة كاذبة مضللة زائفة تسمى الديمقراطية والاشتراكية والتقدمية والعلمانية. وفى هذه المرحلة وفى ظل هذه الشعارات الزائفة أصاب الشعوب الإسلامية الشر العظيم الذى لم يحدث لها فى تاريخها كله من قبل.

وقد ضلَّل دعاة الضلالة الشعوب الإسلامية وهيأوها للإنخداع بحكم الجبابرة، هؤلاء الدعاة الذين يعرفون الآن بدعاة التغريب والتنوير والتقدم، سواء منهم الذين يصفونهم بأهل اليسار الشيوعى، أم الذين يقولون عنهم يمنيين، وهم جميعاً من بنى جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا .

ولو أردنا تفصيل حديث حذيفة رضى الله عنه الأخير لوجدنا تطابقاً تاماً بينه وبين الواقع التاريخى بمراحله المختلفة سياسياً وخلقياً، إذ كانت الأمة فى العهد النبوى فى الخير التام، لكمال الدين ولتمام النعمة، ثم إزدادت الأمة إتساعاً وعزة ومنعة ونصراً فى عهد الخلافة الراشدة وهو العهد الذى يقابل فى الأحاديث خلافة النبوة والرحمة.

ثم جاء عهد السلطان مع الرحمة أو الملك مع الرحمة فى الخلافة الأموية والعباسية حيث إزدادت الفتوحات الإسلامية، وتوسعت رقعه الخلافة الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى.

وبعد القرن الثالث زادت البدع وانتشرت بين الناس، وظهرت الإنحرافات العقدية والتجاوزات السياسية والمخالفات الإقتصادية وكثرت المعاصى والشرور. وهذا كله هو الدخن الذى جاء ذكره فى الحديث وقد تمثل فى ظهور الفرق المخالفة للسنة والناشرة للبدعة مثل الخوارج والشيعة والقدرية والجهمية والمعتزلة وغيرهم وأكثر هؤلاء حافظ على أصول العقيدة الإسلامية، ولكهنم خالفوا الجماعة ، ومن ثم قال عنهم رسول الله ﷺ فى الحديث (تعرف منهم وتنكر) أى تعرف منهم الحق الذى وافقوا الجماعة فيه وتنكر الباطل الذى ابتدعوه وخالفوا فيه الأمة، فكانوا على حق يشوبه باطل، وعلى خير يعكر صفاءه شر.

لكن مع هذا ظلت شعوب الأمة محكومة بشريعة الله عزو وجل، وإن إكْتَنَفَ التطبيق الكثير من التقصير والمخالفات، إلا أن الشرعية كانت للحكم بما أنزل الله عز وجل حكاماً وولاة وقضاة، هذه الشرعية المعلنة لحكم الكتاب والسنة هى الخير الذى صار فيه دخن، وهذا الإصرار من الأمة على أن تكون فى ظل خليفة واحد هى الجماعة وإن كانت على «أقذاء»، والدخن هو البدع والضلالات التى أحدثتها الفرق فى الدين والأقذاء على الجماعة هى نعرات العنصرية الجاهلية بين الشعوب الإسلامية ودعوات القومية والوطنية والتمايز بينها .

ومع كل هذا فقد ظلت راية الخلافة الإسلامية مرفوعة أكثر من إثنى عشر قرناً من الزمان حتى سقوط الخليفة العثمانى السلطان عبدالحميد رحمه الله تعالى.

وقد سبق وصاحب أحداث سقوط الخلافة دعوات الكفر والتغريب والعلمانية والقومية فى مقابل دعوة الإيمان ووحدة الأمة الإسلامية، ثم الوطنية فى مقابل الوحدة العربية، وهدماً لدعوى القومية، لقد أعلنوا دعوى القومية حتى يتقبل المسلمون سقوط الخلافة وحتى لا يحاولوا إقامتها مرة ثانية بعد سقوطها.

وأعلنوا العلمانية فى مقابل عقيدة التوحيد الإسلامية القائمة على الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، والعلمانية تجيز للفرد أن يؤمن بالله تعالى، ولكنها تمنعه من الإيمان بالآخرة، وترفض أن ينظم حياته على أساس الإيمان بالآخرة.

وأعلنوا الديمقراطية فى مقابل حكم الله عز وجل وتطبيق شرعه.

ودعوا إلى خروج المرأة من بيتها سافرة لتعمل فى كل الميادين بجانب الرجل مهملة أولادها مُدمرة لحيائها ودينها بإختلاطها السافر بالرجال بحجة مشاركتها فى تنمية المجتمع ولمضاعفة السواعد العاملة.

وعلى رأس هؤلاء الدعاة جميعاً ظهر دعاة التغريب للأخذ بإفرازات الحضارة الغربية النجسة فكراً وثقافة وأدباً وفناً وسلوكاً.

فظهر لكل مذهب من مذاهب الغرب المادى الملحد دعاة:

فمن داعى إلى الوجودية، وآخر إلى الماركسية وثالث إلى الوضعية، ورابع إلى البراجماتية. وكذلك ظهر دعاة للفرويدية الإباحية والليبرالية الأمريكية كل هؤلاء الذين ينطبق عليهم إسم دعاة الضلالة، قد لَبَّسوا على شعوب الأمة الإسلامية، وخدعوهم بالتقدم العلمى والصناعى فى الحضارة الغربية فأوهموا المسلمين أن التقدم فى هذين المجالين هما نتيجة لعلمانية الغرب وديمقراطيته وإباحيته وتبرج نسائه وخروجهن للعمل بجوار الرجل، وما زالت هذه الدعوات المضللة قائمة حتى الآن، ولها دعاتها من شياطين الإنس.

أليس هؤلاء هم دعاة الضلالة الواقفون علـى أبواب جهنم يقذفون فيها كل من إستجاب لهـم.؟؛

إنهم من بنى جلدتنا ويتكلمون بألـسنتنا وصدق رسول الله ﷺ فيما أنبأنا وأخبر من أنباء الغيب.

إن هذا العصر الذى يسمـونه العصر الحديث ويسمونه عصر التـنوير إمعاناً فى التضليل هو عصر غلبة الشر وظهوره.؟؛

أليس هـذا هو عصر علو خـلفاء الشيطـان؟ خلفاء الشـيطان هم بنو إسـرائيل الذين هم أشـد الناس عداوة للذين آمنـوا وقادة حزب الشيطان فى الـصراع الدائر ضد خلفاء الرحمن سبحانه وتعالى، وهذا هو علوهم الكبير أنبأنا الله تعالى به فى سورة الإسراء ﴿**وقضينـا إلى بنى إسرائيل فى الـكتاب لتفسدن فـى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً**﴾[1].

فما الذى سيحدث بعد هذا الذى نحن فيه إذن؟

يجيب حذيـفة رحمة الله عليه ورضى اللـه عنه وأرضاه مما تلقاه عـن المصطفى الخاتم صلى الله تـعالى عليه وعـلى آله وسلم (تكـون هدنة على دخن، قـيل يا رسول الله : ما هـدنة على دخن؟ قـال: قلوب لا تعود إلـى ما كانت علـيه، ثم تكون دعـاة الضلالة، فإن رأيت يـومئذ خليـفة الله تعالى فى الأرض فـألزمه وإن نهك جسمك وأخذ مالك، وإن لم تره، فاضرب فى الأرض، ولو أن تموت وأنت عاض بجذل شجرة)[2].

إن عصر دعـاة الضلالة هو أشـد العهود ظلاماً وهـو عهدا الملك الـعضوض والجبابرة، سيـكون فيه خليفة للـه تعالى فى أرضه، لأن خليفـة الله تعالى إما أن يكون إمـام دعوة، وإما أن يكون إمام دولـة، إذ أول مهام خليفـة الله سواء أكان

(١) ٤/الإسراء.

(٢) كنز العمال رقم ٣٨٦٨١ ص ٢٦٨ وعزاه إلى مسند أحمد عن حذيفة وأبو داود.

رسولاً أم نبياً أم عالماً هو تبليغ كلمة الله تعالى ودعوة الناس إلى دينه، فإذا انتصرت الدعوة وقامت الدولة صار خليفة الله تعالى إمام حكم ودولة.

والأمة الإسلامية لا تعدم فى تاريخها كله فئة متمسكة بالحق والإسلام يكون لها إمام أو أمير أو مرشد عام يكون هو خليفة الله تعالى، ومن ثم يجب الإنضواء تحت لوائه وطاعته، حتى لو حدثت منه بعض المظالم أو الأخطاء، أما من كانت أرضه خالية من إمام دعوة أو من خليفة حاكم، فعليه أن يتمسك بالإسلام، وليهاجر إذا وجد فى بقائه فى موطنه فتنة تخرجه عن الملة.

وفى إجابة أخرى من حذيفة بحديث مرفوع عنه وعن معاذ بن جبل رضى الله عنهما قال **﴿إن الله تعالى بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة وكائناً، وخلافة ورحمة وكائناً، وملكاً عضوضاً وكائناً، وعتواً وجبرية وفساداً فى الأمة، يستحلون الفروج والخمور والحرير وينصرون ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل﴾** وهذا معناه أن مرحلة الجبرية لها أجلها عند الله تعالى، وأن هؤلاء الحكام الجبابرة العتاة رغم ظلمهم وفسادهم ينصرهم الله عز وجل، ويرزقهم طيلة هذه الأجل، ولا يصاب الواحد منهم فى حياته بأذى أو بمرض أو بهزيمة، لأن الله عز وجل قد غضب عليهم غضباً شديداً فهو يرزقهم وينصرهم إملاء لهم فى الدنيا، حتى يحق عليهم العذاب الأبدى الشديد فى الآخرة.

إن هذا يعنى أن الشر والظلم والفساد سيأخذ مداه ومنتهاه وأجله الذى قدره الله تعالى، حتى إذا قرب هذا الأجل، بدأ الخير فى الظهور رويداً رويداً، وكلما ظهر منه نبته إختفى من الشر والجور مثلها، فإذا إنتهى أجل عهد الجبابرة قامت الخلافة الراشدة، يدل على هذا ما أخرجه أحمد فى مسنده عن معقل بن يسار قال (لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شئ، ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتى الله بالعدل، فكلما

جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره)[١].

إن أغلب أبناء الأمة الإسلامية ولدوا، ولا زالوا يولدون فى الجور، حتى إن كثيراً منهم لا يعرف أن هذا الجور جوراً، بل يظن أن الدنيا هكذا، ولا تكون إلا هكذا وقد أتى الله تعالى بالعدل المتمثل فى الصحوة الإسلامية وكلما نمت الصحوة إنقشع من الظلام بمقدار نموها وهو تأويل قوله عليه الصلاة والسلام ﴿**فكلماً جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله**﴾ ومن ثم سيأتى اليوم الذى سيعم فيه العدل حتى يولد فيه من لا يعرف غيره.

إن هذا الحديث الشريف يتحدث عن ظهور الجور رويداً رويداً أو إختفاء العدل رويداً رويداً حتى يعم الجور ثم يبدأ العدل فى الظهور ليختفى الجور فى مقابله رويداً رويداً، وهذا الظهور والإختفاء المتبادل بين الجور والعدل يستغرق أو هو قد إستغرق بالفعل أكثر من إثنى عشر قرناً من الزمان.

ولا شك أن المسلمين يعيشون الآن عصر عودة العدل رويداً رويداً متمثلاً فيما يعرف بالصحوة الإسلامية، ومن ثم يكون العالم الإسلامى فى إنتظار إكتمال العدل وقيام الخلافة الراشدة مرة أخرى كما توافرت بذلك النصوص.

وخلاصة ما يمكن إستنباطه من الأحاديث السالفة أن الأمة تمر بثلاث مراحل هى:

الأولى: مرحلة الخلافة: خير غالب وشر مقموع مذعور مجحور لا يستطيع حتى أن يطل برأسه من جحره.

الثانية: هدنة على دخن: خير ظاهر مسيطر مع مزاحمة ومصارعة من الشر فى صورة نفاق لا يستطيع أن يفصح عن نفسه ويعلن كفره، فهى مزاحمة النفاق وليس الكفر وذلك هو الدخن.

---

(١) مسند الامام أحمد عن معقل ابن يسار.

الثالثة: إختفاء الخير وظهور الشر وغلبه أهله وظهور دعاة الضلالة، وهذا يعنى إنعكاس الحال حتى أصبح المؤمنون فى بلادهم هم الذين يخفون أنفسهم خوفاً من البطش والتنكيل وتبجح النفاق وأعلن عن نفسه وأصبحت الشرعية فى مجتمعات الأمة الإسلامية لحكم الجاهلية. وأصبح الجبابرة يخفون جبروتهم مدعين الديمقراطية، نفاقاً لكهنة الحضارة الغربية مع إعلانهم العداء السافر للإسلام إرضاء لهم.

وتلك أهم سمات أيامنا المعاصرة، وهى تنبئ بقرب عودة الخلافة الراشدة بدليل حديث الطبرانى عن حامل الصدقى عن حذيفة رفعه (**سيكون بعدى خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك ومن بعد الملوك جبابرة، ثم يخرج رجل من أهل بيتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ثم يؤمر بعده القحطانى، فالذى بعثنى بالحق ما هو بدونه**)[1].

وهذه الرواية لا تخالف الروايات السابقة بل فيها تفصيل لما هو مجمل فى غيرها، وقد فصلت نظام الحكم فى الأمة بدءاً من الخلافة الراشدة وإنتهاءاً بحكم الجبابرة من بعد الملوك. وبعدهم يخرج المهدى ليعيد الخلافة الراشدة.

٦٦ - الأمة تعيش فى العصر الراهن الفتنة الرابعه وهى آثمة حتى تقيم الخلافة وتستعير وحدتها.

ومن معانى الفتنة ومما يصدق عليها ما يعرف الآن بسقوط الدول، وإنهيار الأنظمة الحاكمة خاصة إذا كان نظام الحكم إسلاميا شرعياً لا يجوز الخروج عليه وهدمه، وقد حدث هذا فى التاريخ الإسلامى عدة مرات، وهى فتنة لما يصاحبها من إراقة الدماء ولأنها تعرض مستقبل الأمة للخطر.

الأولى: منذ مقتل عثمان وما تلى مقتله من خلافات بين الصحابة رضى الله عنهم وإنقسام استمر سنين عديدة حتى بايع الحسن بن على رضى الله عنهما

---

(١) كنز العمال رقم ٣٨٦٦٧ ص ١١ عن الطبرانى.

معاوية ابن أبـى سفيان وسمى المسلـمون هذا العام بعام الجمـاعة. ومعنى هذا أن الأمة كانت آثمة حتـى عادت إليها وحدتها واجتمعت عـلى خليفة واحد.

الثانية: تمثلت فى مجئ الرايات السود من خراسات لإسقاط الدولة الأموية، ولكن ما لـبثت الأمـة أن عادت إلى وحـدتها بعـد أن أُعلِنـت الدولة الـعباسـية واجتمعتْ الأمة على الخليفة العباسى الأول.

الثالثة: هى سقوط العباسية وقيام العثمانية.

الرابعة: سقوط العثمانية.

وحيـث لم تقم بـعدها خلافـة فى الأمة وصارت الأمـة دولاً ودويلات مفتـتة وممزقة، فـإن هذه الحالة الـتى بدأت بسقـوط الخليفـة العثمانـى الأخير السـلطان عبدالحميـد هى أعظم وأطول فتنة مرت بالأمـة الإسلامية منذ العهد الـنبوى حتى الآن، وحيـث أن وحدة الأمـة فريضـة عليـها فـإن الأمة آثمـة حتى تـقيـم هذه الفريضـة، يتَحمل هذا الإثـم الحكام، ثم العلـماء وسائر أفراد الأمة كـل بحسب علمه وفهمه وإمكاناته.

ولقد فـصل هذه الفتن الحديـثُ الذى أخرجه نعـيم عن حذيفة رضـى الله عنه فقال (**تكون فتنـة ثم تكون بعدها جماعة وتـوبة ثم جماعة وتوبة، ثم جـماعة وتوبة حتى ذكـر الرابعة ثـم لا تكون بعـدها توبة ولا جـماعة**)[1]. فهى أربع فتن عـظيمة يعقب كل منها جماعة وتوبة ما عدا الرابعة إذ لا تكون بعدها لا جماعة ولا توبة، وهذا مـعنـاه أن البـناء الذى أسـسه رسـول الله ﷺ وإستكـمل اعـداده الخلـفاء الراشدون رضى الله عنهم ثم خلفاء الدولة الأموية والعباسية الموصوفون بالرحمة، هذا البناء وإن ظل قروناً من الزمان، إلا أنه فى النهاية ينهدم وبالتالى لا تكون بعد هذا فرصة لإصلاحه وترميمه، فلا تكـون جماعة بعده ولا توبة، وإنما تحتاج الأمة إلى تأسيس خلافة جديدة، وهذا هو ما سيقوم به المهدى بإذن الله تعالى.

(١) كنز العمال حديث رقم ٣١٢٨٢ جـ١١ ص٢١٦ وعزاه إلى نعيم فى الفتن.

قوله (ثم تكـون بعدها جماعة وتوبة) بـعد كل فتنة، دليل علـى أن الأمة كلها بعامة آثمة إن لم تقم الخلافة وتجتمع على خليفة أو سلطان واحد.

وعلى هذا فالأمة -بلا جدال- آثمة الآن حتى تقيـم خلافتها وتستعيد وحدتها، ولن يتم ذلك كما نبأنا رسول الله ﷺ فى كثير من الأحاديث الصحيحة إلا بالمهدى الذى يأتى من ذريته.

أما قوله فى الرابـعة (ثم لا تكون بعدها توبة ولا جماعـة) فإن هذا لا يتعارض مع إعادة الخلافة الراشـدة على يد المهدى عليه السلام، لأن الخلافـة لن تعاد على يد نفس الجيل الذى سقـطت فى زمنه بل ستكون على يد جيل يـأتى بعده -يعلم الله تعالـى- زمنه. أما عام الجمـاعة الذى بايع فيـه الحسن رضى الله عنه مـعاوية رضى الله عنه فقدكان فى عمر نفـس الجيل الذى حدث فى أيامه النزاع والخلاف. كذلك الحال بالنسبـة لسقوط الأموية وقيام العباسية حيث كـان السقوط والقيام فى أيام أو فى أسابيع ولم تعش الأمة سنين بلا خلافة أو سلطان مسلم يقيم شرع الله عز وجل، وكذلك بالنسبة لحلول الخلافة العثمانية محل العباسية.

أما بالنسبة لسقوط العثمانيـة، فقد مضى على هذا الحدث عشرات السنين، ولا يعلم إلا الله تعالى متى تعود الخلافة على يد المهدى.

فالفتنة الـرابعة مستمرة حيث لا زالت الأمة تـعيش أيامها منذ سقوط الـعثمانية حتى الآن.

وهذه الرابعة لا تتميز عن سوابقها بطول أمدها فقط، بل بشدتها أيضاً، فعن أبى هريـرة رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ (لا يـنجو مـن شرها إلا من دعـا دعاء الغرق وأسعـد الناس فيها كـل تقى خفى إذا ظهر لـم يعرف وإذا جلس لم يـفتقد، وأشقى الناس كل خطيب مصقع أو راكب موضع)[1].

هذه الرابـعة تذهب عن الأمـة بالخلافة المهـدوية، فهى تنـقشع بجهـاد المهدى ورجاله، ثم فى عهد المهدى تقوم فتنة أخـرى هى أشد فتنة تأتى على بنى آدم منذ

(١) كنز العمال رقم ٣١٣٨٩ جـ١١ ص٢٤٤ عن نعيم فى الفتن.

آدم إلى يوم القيامة وهى فتنة المسيح الدجال الذى يخرج فى آخر عهد الخلافة المهدوية.

فعن حذيفة قال: **(تكون فتنة فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون أخرى فيقوم لها رجال فيضربون خيشومها حتى تذهب، ثم تكون الخامسة دهماء مُجَلِّله تنبثق فى الأرض كما ينبثق الماء)**[1].

فإذا كان الرجال الذين يقومون للرابعة فيضربون خيشومها هم جنود الرحمن بقيادة المهدى، **فما هى الفتنة الخامسة التى تخرج بعد ذلك دهماء مجللة تنبثق فى الأرض كلها كما ينبثق ماء الطوفان فى كل مكان؟**

إنها بلا شك فتنة الدجال حيث تواترت أخبار السنة بخروج الدجال فى آخر عهد المهدى بعد أن يفتح الله تعالى على المجاهدين بقيادته أوربا وروما ويدخلون كنيسة روما (الفاتيكان) فيخرج الدجال فى غضبة.

يدل على هذا الحديث الذى رواه أبو داود عن سبيع بن خالد وفيه (.... فقال حذيفة: **إن الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر فأحدقه القوم بأبصارهم فقال: إنى قد أرى الذى تذكرون، إنى قلت: يا رسول الله: أرأيت هذا الخير الذى أعطانا الله، أيكون بعده شر، كما كان قبله.**

قال: نعم.

قلت: فما العصمة من ذلك؟.

قال: السيف.

قلت: يا رسول الله ثم ماذا يكون؟

(١) كنز العمال رقم ٣١٣١٣ جـ١١ ص٢٢٤.

قال: إن كان لله خليفة فى الأرض فضرب ظهرك وأخذ مالك فأطعه وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة.

قلت: ثم ماذا؟

قال: ثم يخرج الدجال معه نهر ونار فمن وقع فى ناره وجب أجره، وحط وزره ومن وقع فى نهره، وجب وزره وحط أجره.

قال: قلت: ثم ماذا؟

قال: ثم هى قيام الساعة)[1].

فبعد المهدى عليه السلام خروج الدجال لعنه الله وبعد إنسياحه فى الأرض كلها عداَ مكة والمدينة ينزل مسيج الهدى عيسى بن مريم عليهما السلام فيقتله، ثم يأجوج ومأجوج، ثم طلوع الشمس من مغربها والدابة والدخان ثم النار التى تخرج من قعر عدن ثم تقوم بعدها الساعة.

أى بعد المهدى الدجال، ثم بقية آيات الساعة التى تسبق قيامها مباشرة.

لقد عاش الإنسان من لدن آدم ونوح حتى أيامنا حزبين متصارعين حزب الرحمن عز وجل، وحزب الشيطان وفيما بقى له من أجل الدنيا، سيحتدم الصراع كما لم يحتدم من قبل بين هذين الحزبين.

فستقوم خلافة الله تعالى بقيادة المهدى لحزب الله عز وجل، وستعلو كلمة الحق فى أكثر أرجاء الأرض حتى أوروبا التى سيدخلها المسلمون بقيادة المهدى بعد الملحمة العظمى.

ثم سيغضب إبليس وحزبه بقيادة نائبه المسيح الدجال الأعور فينزل الله تعالى مسيح الهدى عليه السلام فيقتله، ثم تصير الأرض كلها بعد هلاك يأجوج ومأجوج، لحزب الله تعالى وتحت حكم مسيح الهدى عليه السلام.

لكنها لا تلبث بعده أن تعود لحزب الكفر مرة أخرى لتقوم الساعة على شرار الخلق.

---

(١) سنن أبى داود مراجعه وضبط محى الدين عبدالحميد نشر دار الفكر جـ٤ ص٩٥.

وهكذا يعيش الإنسان نتيجة لابتلائه بين خلافة الرحمن سبحانه وتعالى وخلافة الشيطان لعنه الله عز وجل صراعا مستمراً دائما.

ولئن علا بنو إسرائيل أو خلفاء الشيطان فى الأرض بالإفساد وصارت لهم دولة فى فلسطين حول القدس نتيجة لعلوهم، وسيطرتهم على أمريكا وروسيا وأوربا وعلى كثير من أرجاء الأرض بالإفساد وبأساليب الشيطان، فإن مجيئهم من بلاد الشتات لفيفاً دليل على قرب تحقق وعد الاخرة فيهم بأن يدخل عليهم أولوا البأس الشديد المسجد كما دخلوه أول مرة ويتبروا ما علوه تبيراً، وبعدها بزمن يسير تعود الخلافة الراشدة قريباً بإذن الله تعالى وتقوم خلافة الله تعالى فى الأرض بقيادة المهدى كما وعدنا رسول الله ﷺ، فيملأ الأرض عدلاً ونوراً بعد أن امتلأت اليوم ظلماً وجوراً.

أرجو أن يكون هذا الكتاب بياناً وبلاغاً لكل مسلم بوجوب إقامة الخلافة تحت سلطان أو خليفة واحد.

وَلْيَتَذَكَّر من قرأه وفهم ما فيه أن الناس كانوا منذ آدم ولا زالوا وسيظلون إلى قيام الساعة: إما خلفاء الرحمن سبحانه. وإما خلفاء الشيطان لعنه الله عز وجل.

فلينظر كل عاقل أريب فى منهاج حياته، وفى نجده الذى يسير فيه، ليعلم إلى أى خلافة ينتمى، ومَعَ أى فريق يسلك:

أإلى خلافة الرحمن سبحانه يسعى؟!

أم إلى خلافة الشيطان ينتمى.؟!

ومع فريق الجنة يجاهد،،

أم مع فريق السعير يسلك؟!

وصلي اللهم علي عبدك ونبيك وخاتم رسلك محمد وعلي آله وأصحابه وعلي من ابتعهم باحسان الي يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

صفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى

صفحة

صفحة

الفصل الرابع

الفصل الخامس

صفحة

صفحة

الفصل الثامن

صفحة

الفصل التاسع

الفصل العاشر

صفحة

صفحة

الفصل الثالث عشر

الخلافة والتوحيد

أو

صفحة

الفصل الرابع عشر

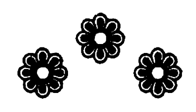
الخلافة والذات الإنسانية

أو

الفصل الخامس عشر

صفحة

الفصل السادس عشر



كتب للمؤلف

١ـ القضاء والقدر فى الإسلام الجزء الأول: فى الكتاب والسنة	ثلاث طبعات
٢ـ القضاء والقدر فى الإسلام الجزء الثاني: عند السلف والمتكلمين	ثلاث طبعات
٣ـ القضاء والقدر فى الإسلام الجزء الثالث: عند الفلاسفة	ثلاث طبعات
٤ـ القضاء والقدر فى الإسلام الجزء الرابع	تحت الطبع
٥ـ الأصول الاعتقادية للمعرفة	طبعة واحد
٦ـ الإسلام والعلم التجريبي	طبعة واحدة
٧ـ استخلاف الإنسان فى الأرض	ثلاث طبعات
٨ـ قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة فى القرآن والسنة	طبعتان
٩ـ الإنسان والشيطان	ثلاث طبعات
١٠ـ مفاهيم قرآنية حول حقيقة الإنسان	ثلاث طبعات
١١ـ محاضرات فى العقيدة الإسلامية	ثلاث طبعات
١٢ـ توفيق الحكيم إلى من استمع وإلى من تحدث	طبعة واحدة
١٣ـ مقومات المجتمع المسلم	ثلاث طبعات
١٤ـ زلزال الأرض العظيم	طبعة واحدة
١٥ـ البيان النبوى	طبعة واحدة
١٦ـ علم التوحيد	تحت الطبع
١٧ـ المدخل إلى العقيدة الإسلامية	تحت الطبع
١٨ـ القيامة على الأبواب	تحت الطبع